



رواية

ادوار الخراط

الزمن الآخر

الزمن الآخر

الزمن الآخر

رواية

ادوار الخراط

لوحة الغلاف : الفنان الكبير أحمد مرسى

١٩٨٥

حقوق النشر للطبعة الأولى محفوظة
لدار شهدي للطبع والنشر

١٦ شارع إسماعيل محمد — الزمالك ت : ٤٠٢٨٣٦

الباب الأول

دم العشق مباح

كانت رامة تقف بالباب ، في الدفء المُخامر ، ندية ، نضرة ، ثقيلةً بجناحين كبيرين مطويين إلى جانبيها . تنظر إليه بابتسامة خفيضة من العتاب والمودة ، والضوء من خلف وجهها يجعل وجنتيها تسطعان بوهج ناعم .

وفاجأه شعرها القصير ، أجمّة حوشية لاترويض لها .

كانت ثابتة ، في جلالية سابعة ، واسعة الاكمام ، تسقط بطياتها على الجسم الراسخ ، وقد بسطت ذراعها قليلا ، لاتترف ، في إيماءة ترحيب تدهور لها قلبه .

وهو يصعد اليها ببطء ، في ثقةٍ مَنْ يعرف أن اليأس مضروب ، وأن هذا اللقاء ، كغيره من لقاءات الصدفة عبر سنين طويلة ، سينتهي على أية حال ، إلى أن يكون شيئا عرضيا عابرا .

يا بجعتي السوداء ، ياوردني السيرة .

كان المؤتمر في يومه الأخير ، وكانت لجنة هندسة الترميم ، بفروعها المختلفة ، قد فرغت من عملها ، وانتهى ميخائيل من صياغة مشروع تقريرها ، وذهب في آخر الصباح يستمع إلى بحث في البيالوجي ، من أستاذ فرنسي وجهه شعبي ، ولحيته مخروطة ، غائر العينين تحت حاجبين كثيفين ، اتجه إلى الاعضاء القلائل الذين هبطت بهم المقاعد الوثيرة ، في الضوء الهادئ تسكبه مصابيح الفلورسنت الممتدة بمكر فوق السقف الزجاجي المضلع ، وأزيز التكييف السخن يدعو إلى الانزلاق في النوم وهو يتحدث عن أدوات كشف طبقات السر العريقة في صلب المادة الأثرية ، وعن طرائق قياس أغوار الزمن الكامنة في الحجر والخشب والبرونز والفضة .

كان ميخائيل يفكر ، بسداجةٍ شيئا ما ، وحبوط ، أن القياس التاريخي الكرونولوجي ، ممكن ، ولكن كيف يمكن سبر الزمن حقا ؟ عندما أحس بمن يضع يده على كتفه برفق ، وخيل إليه أنه يعود فجأة من تهويم سينةٍ من نعاس اختطفته ، كما يحدث دائما في مناخ المؤتمرات الراضح بثقل رقيق . وعندما التفت رأى الفونس ينحني عليه ، بوجهه الناحل العميق الاخاديد ، وظهره المقوس قليلا البارزة عظامه تحت جاكته قديمة فضفاضة ، ويهمس بصوته المتردد المضروب :

— رامة تريدك .

— طيب .. حاضر .. أكلمها بعد الظهر .

الدوامة القديمة المعتادة في نفسه ، واليأس القديم منها ، ومن نفسه .

كان يعرف ، من الأول ، أنها هنا ، وكان ينفي هذه المعرفة عن نفسه ، بإصرارٍ غير معترف به .

— لا ، هي هنا الآن ، على الباب تنتظرك .

لم يشعر أنه وقف ، ولم يحس العيون المستطلعة التي التفتت إلى هذا الاقتحام الصغير ، كما يحدث دائما في لجان المؤتمرات ، وهو يصعد ثقيل الخطو ، على الممر المكسور بسجاد كثيف يغوص تحت قدميه ، لا يريد أن يفلته .

كانت ابتسامتها له صافية ، مشعةً بحنوٍ مرت عليه سنوات . وفوجيء ، مرة أخرى ، في يده ، بهذه اليد الرخصة المكتنزة الأصابع التي يعرفها — هو — معرفة خاصة حميمة . اليدان لاشأن لهما بمر السنين .

كأنهما لم ينفصلا قط ، كأن سنوات من الفرقة لم تأت ولم تمض ، وهما يخرجان بحرص ، من باب اللجنة إلى ممر رخامي الأرضية ، ساطع النور ، فيه نسمة هواء رحية ، صحراوية ، والفونس قد سلّم ، ومضى بسرعة ، بخطواته الزاحفة قليلا ، وهي تقول له بصوتها الذي يغوص الى داخله :

— أنت هنا من أربعة أيام ولا تسأل عني ؟ طيب سلّم يا أخي .

قال بصوتٍ يعرف أنه يُكذب نفسه ، من غير محاولة للاستخفاء :

— أبدا ، وأنا أقدر ؟ أنا دائما أسأل .

— سألت عليك العافية يامبخائيل .. طيب تعال .. تعال نشرب قهوة في الكافتيريا .

ووجد أنه يستطيع احتمال عينيها .

الشرفة العريضة تطل ، من نافذة شاسعة وعالية ، على حديقة رملية الأرض . والصابر الضخم قائم ، بغضارته الثرة ، كأنه منحوت ، وسط حطام لآين من العتر البلدي ، والعواسج الملتبسة ، والأزهار المتضجرة والقائمة والخشنة الحريفة تضوء كلها ، من وراء الزجاج ، ناصعة .

وهما يجلسان ، المقاعد مريحة ومحايدة من البلاستيك البني اللامع ، والمائدة مدورة على قوائم معدنية مقلوبة بإتقان تحت القرص الزجاجي الواسع ، حافته معتمة قليلا .

خطر له أن الفونس قال له : « رامة تريدك » ، ولم يقل ، مثلا ، « رامة تريد أن تراك » وكانت ابتسامته الداخلية لنفسه ملتوية وخالية من المعنى ، كان قد عقد عزمه ، أثناء الخطوات القلائل معها ، أن يكون واقعا ، وأن التعلل بالأوهام القديمة قد فات أوانه ، فلا يترك ثغرة تفتح أمام هذا السيل المعتم الملتطم المحبوس . قال لنفسه : فليظل كل شيء ، كما ظل منذ سنوات ، على شكل الودّ والصحبه ، لا ، بل أكثر ، على التحايا التي تمضي كأنما لا صلة له بها . وهمس به شيء ما ، من غير صوت : لا تخط إلى حافة السقوط الفاعرة أبدا ، تحت قدميك . مظلمة .

كانت صفحة الهرم الكبير ماثلة من النافذة العريضة ، تصعد بجرمها المكين ، مُهدرة ، وأبدية .

والقهوة الفرنسية المترفقة في فنجانها الأبيض الواسع الواطئ الحواف حادة ولاذعة في قفمه . بينما هي تصب اللبن من العلية الورقية الصغيرة المترجرجة .

قالت ، كأنما يتحدّ خلفي :

— هذا إفطاري وغدائي معا .

عينها تتكشفان ، وترتدان عنه ، فيما يحبس ، إلى عالم آخر لا يعرفه . أما هو ، من وراء تحصيناته التي يلوذ بها كأنما طلبا للبقاء حيا ، فقط ، فكأنما يقول لنفسه ، دون أن يقوله تماما ، إنه يتزود من هاتين العينين بزاد لعله أخير . ويقول إن زاده منهما غضّ مع ذلك ، متجدد دائما .

يندلع في جسمه فجأة هذا الألم القابض الذي ينشعب تحت الضلوع تماما ، ويدور بسرعة لحاطفة ، حلقة مشتعلة ضيقة تتحلل لها أوصاله ، وتنهمر ، وتسقط ، ثم ينجاب الألم ويرتفع فجأة كأنه لم يكن هناك قط ، وهما يتبادلان السؤال عن الأحوال ، ولماذا لم تشتركي في المؤتمر ؟ لأنها عادت منذ أيام فقط من بعثة تفتيش أخرى في الواحات ، وعندها لجنة في الوزارة ، وما أخبار المتحف في الاسكندرية ، والترميمات الجديدة للحائط الشرقي ؟ ، وإدماج عناصر الأعمدة التي اكتشفت في ماريوبوليس ، هل نجح ؟ وأخبار قراءاتها الأخيرة للبرديات اليونانية ؟ ويضحكان من أخبار الزملاء والرؤساء والأولاد الجدد في المصلحة ، وينسلان ريشهم قليلا ، باستمتاع .

عندما التقيا صدفة ، في محطة مصر ، أمام شباك تذاكر الدرجة الأولى ، اكتشف أنهما يأخذان قطار الصعيد نفسه . قال لها إنه ذاهب إلى أحميم ، في مهمة يومية ليكتب تقريراً عن ترميم جدران المعبد الذي اكتشفته بعثة جامعة مينيسوتا ، أما هي فستنزل في المنيا . وسوف يرى ، فيما بعد ، ابنة الملك ، مُغنية الآله آتوم ، صانعة صديرية حتحور ، نائمة وجهها إلى الأرض تحت النخلات الأربعة ، ومازال على شفيتها آثار الأجر القديم ، وسوف يفكر أنه لم ير شفيتها ، هي ، بالأحرى قط ، وسوف تشتعل الرغبة وتنطفئ ، ولا تنقضي أبدا .

تراجعت أعمدة المحطة وجدرانها ، كأن المحطة كلها خاوية ، لم يبق فيها أحد ، خفت لغط الناس وطين القطارات الواقفة وصفيرها المفاجيء ، وهبت حوله أنفاس العراء والوحشة وهي تقول له بجمرة هادئة ، بلوم لا تعترف به ، إنها قد ضجرت من هذا السفر المستمر ، وهذا العمل لا يصلح لي ، ولا أحبه ، ولعله قد يسعده أن يعرف أنها بسبيل ما كان يريد لها دائما ، أن تكمل العمل في الدكتوراه وتُدرس في الجامعة ، وجاء دورها أمام شباك التذاكر ومضت إلى القطار وحدها تحمل حقيبتها الصغيرة ، في خطوات مصممة ، وعندما وصل إلى داخل القطار ، كانت قد اتخذت بالفعل مقعدها في مقدمة العربة ، ولم تنتظره . ولماذا كان ينبغي أن تنتظر ؟ في المحطة كان قد عصف به سراب خاطف أنهما سيجدان أحدهما الآخر مرة أخرى ، وسيعرف كما عرف مرة ومرة وبلا نهاية ، معنى القرب منها في القطار الضارب في ليل الصعيد ، وذراعها حوله في نصف النوم ونصف التيقظ . جلس في مقعده ورائها بعده صفوف ولم تستدر بالنظر إليه مرة واحدة . وظل ساهراً وكان شعرها طويلاً وغنيا يراه على مسند المقعد الجلدي ، ونامت طول الليل

بجانب الغرباء ، وفي الفجر رأها تعود من خيمّام العربة وقد غسلت وجهها ، عيناها مفتحتان قليلا من النوم بدورانهما الحمى الثقيل ، كما كان يراها في أول الزمان ، عندما كان يفوق من غيبة النوم القصيرة الى جانبها ، وهي تفتح عينيها ببطء وصمت ، دون تعرّف ، كأنه إما مسلّم به وضروري وقائم أبدا ، وإما لا وجود له وغائب تماما ولم يكن قط ، على السواء ، فيهبط بشفتيه على الجفنين المطبقين بكل الرفق والحنو الذي يعرفه ، ويحس مرة أخرى رعشتهما الخفيفة تحت فمه . ونزلت في المنيا ، بإيماءة خفيفة من الرأس على سبيل التحية ، هذا كل شيء . كانت العربة نهائية . سوف يقول لها مرة بعد مرة ، بالتياع : لا تعامليني أبدا كأنني غريب . وسوف لا تجيب عليه أبدا .

قالت له : كنت قد ألفتك .

وكانت رقيقة ، وقرأت له هيرودوليفية الالقاء .

ومازال يرفض كل قراءاتها .

قال لها : ألا تسمعي أناديك ؟ ألم تسمعي ؟

قالت ، قاطعة : لا . لم أسمع .

لم يقل : فقط لكي أسمع — أنا — وقعه ، هذا النداء ، والحنو في جرسه ، في تحدر نعمته ، ونأتمته الناعمة في هدأة الليل . فقط ، لأنني أفتقد أن أناديك ، وأنت على مسمع ، فتردى ، أو تصعدي إلي . كأن الحرس الذي يطبق على رقعة القلب قد ثقلت وطأته .

قالت : لا . لم أسمع .

في ردها لوم ، ورفض للوم ، ونفى لعبث الرومانتيكية كله .

قال لنفسه : أعرف أن النداء ، في آخر الأمر ، لا وزن له . لاعمنى له . ليس من شأنه

على أي حال أن يُسمع . هو موجود لأنه لا يُسمع .

وقال : طبعاً ليس له قوة سحرية — أليس هذا ما أكنه ، رغماً عني — في عمق مخفي

مني ، أن له فعلاً ووصولا ؟ أنه رقية ؟

وقال : بل أنطق عن ذات اللجاجة التي نفي ، وبه أسمى جيشان حبة القلب التي تفور

وتفيض وتغلي . كأنني ، به ، أقول : « أنا » . به أكون . كأنني من غيره لست أنا .

أنادي من قاع بئر الوحدة السحيق .
وقال أيضا : أظن أنه لا يمكن ، على أى حال ، أن يكون ثم مُجيب . لا يمكن أن تكون
إجابة . ومهما جاءت الإجابات — وقد جاءت — فكأنها لم تحدث وبقي النداء . الإجابة
فقدان ، والنداء افتقاد دائم للإجابة . وهي هنا ، ملء يديه الخاويتين .

وسأل نفسه بوضوح : عندما أجدها أفقد نفسي ؟ وعندما أجد نفسي أفقدها ؟

وقال : الظنون ، على الحالين ، تبقى معلقه ، وفي الحالين قدرٌ من جُبن الراحة ، ودعة
الاستئامة ، أو — على الأقل — الخروج عن لا ونعم .

ويعود على نفسه : لماذا هذا العسف الثقيل ؟ جُبن الراحة ؟ مرة واحدة ياعم ؟ أهناك
حقا محل للجبين أو الشجاعة ، أيهما ، هنا ؟ ألا تنقبض عن جلدك ، أبداً ، أشواك أخلاقية
طفلية ما ؟ متى تصل للإيمان ؟

وهما يشربان القهوة الآن ، في نور الشمس الصحراوي ، حرارته من وراء الزجاج خداعة ،
ومياه القهوة السوداء صافية وقليلة وتترقرق في ملاسة الفنجان الأبيض العريض .

سوف يأخذ يدها هذه التي يراها هادئة الآن وصامتة ، وهو الذي يعرف مدى قدرتها
على التشكُّل والصَّوغ معا ، وسورة الحميا ودمائة الاستكانة معا ، ويضعها على صدره إذ يحس
فيه رفرة توقي عارم لا يعرف كيف ينطلق ويحلق ، مهما اتسعت له آفاق الزرقة ، بلا نهاية ،
ويقول ، أيضا ، كأن لن يتعلم أبدا : هل تسمعين ؟ وسوف يضطدم ، فجأة ، بالعينين
المحايدتين بخضرتيها الداكنة ، وحومان شبهة الابتسامة نفسها التي فيها أصداؤ نخرية خفيفة
جدا ، واستمتاع :

— قلبك يدق بانتظام وثبات .. كالساعة .. ستعيش مائة عام !

كانت صدمته الجافة لأنه ، أصلاً ، لم يخطر على باله أن يضع مثل هذا السؤال ، كأنما

كان مهموماً بسلامة عضلة قلبه ! سذاجته التقليدية أنه كان يريد أن يقول لها : أنظري ، كيف ينبض بجبك . فوجدتها ، كما عودته ، سيدة النزول من حائق الدراما إلى الأرض . ولاشك عنده الآن أنها كانت محقة . هذه إيماءات ميلودرامية ، أو لا بد أنها هكذا تبدو . فكيف يمكن أن تُصاغ دَفَقَاتُ الحب (الحب ؟ الحب ؟ ما الحب ؟) وارتعاشاته ، وغوامضه المطمورة ومغامرته الثاقبة ؟ أيمن أن تُقال — حتى — من غير ميلودراما ؟ أن تأخذ يدها ، بصمت ، وتضعها على صدرك ، أكان هذا صعب لاحتفال ؟ ألم يكن ممكناً أن يُطابق ؟ كان لا بد أن تنزل به من قمة الوجد المُحرقة . أهذه صياغتها — هي — للمستحيل ؟ أسياق المتبدل هو المُشيخ بوجوهنا أن يُصوِّحها اللظى المتقد ؟ أهذا هو ؟ أم مجرد اللامبالاة ، ومجرد الانقطاع ؟

قال لنفسه : الكفران بالنعمة محنة الجاحدين .

وقال : هو أيضا عطش الواردين ، وتكران الشاهدين . وهو ديدن الإيمان . هذا كله مما سوف يكون . هو الآن لا يعرفه .
أكنت لا أعرف حقاً ؟ أم أن معرفتي مغلقة الأوراق على كِنِّها ، تنفجر في المستقبل الصَّموت ، ولا أسمعها عندما تحدث ؟

قالت له : تتعشى الليلة عندي ، دعوت مجموعة من الأصدقاء ، بمناسبة المؤتمر ، احتفالاً بأثري الاسكندرية . ستأتي طبعا ؟ لا ، لا ، مجموعة صغيرة ، على الفرازة . سنية منصور طبعا ، وايفيت ، وسامية ، وزينب المصفوري .

قال : البنات فقط ؟ ما هذا يارامة ، غزو الحریم ؟

قالت : لا تكن مُضحكا . رجاهن أيضا ياسيدي ، دكتور فؤاد والأستاذ قدرى عبد الفتاح وطبعا مصطفى ضروري ، وأحمد أيضا ، من غير ترتيب .

قال لها : كنت قد كتبت لك رسالة ، وأنا في الاسكندرية . طويلة وصعبة وسخيفة ..

نظرت إليه بلوم : هاتما . أهى معك ؟

قال : لا

قالت : هاتما معك الليلة ، في الحفلة .

لم يعرف ... حتى — أنه كان يقول لها : أحبك في اليأس الكامل . هذا الشيء ، هذا الحلم ، جارح وناتىء الشظايا . كانت رسالتي هي محاولتي ، في اليأس ، أن أجيب على سؤالك الأول ، — هل تذكرين ؟ — « ماذا حدث لنا ؟ » عندما تماسكت يدينا ، لأول مرة ، في التاكسي المنطلق بك إلى حفلة أخرى قديمة منسية دعاك إليها ديبلوماسى سوداني ، في مدينتنا الأولى التي لم تحدث أبدا ، وهي قد حدثت . فلما أجبت أصبح اليأس تاماً ، ليس فيه ثلعة . الآن لم يعد لليأس حق في أن يصرخ . لأنه كامل .

العالم يحتشد بجسدك . وقد استبحر العالم ، واستباحني ، فماذا يبقى ؟

لم يقل لها أبدا : جكم الإدانة أنت الذي أصدرته . لأنك كنت ، أنت نعم .

إن لم يكن له فعل ، فهو ميت في ذاته ، قال الرسول الصخر المحترق العينين .

سوف تتناول يده ، مره أخرى ، وتضعها ببطء ورفق وتماس حميم على شفيتها ، والشفتان التاعمتان على بطن راحته ، مفتوحتان قليلا ، ولكن جافتان ، من غير ندى الشبق ، وهي تمسح باطن اليد المفتوحة على مهل ، بعرقان وغفران معا . ثم قبضت على يده ، بمسكة ليس فيها إلا زهد التقرير وشجاعة القبول ، ولكن عينيها كانتا تضحكان ، من غير غضب ولا عتاب ولا مرارة وهي تقول : حبك بالليل حلو ، يا حبيبي ، كالسمن .. ويسيح بالنهار .

شيلو أوزير المفقود قوامه من شمع الحلم الصلب الحار ، متدفقا بالمنى المهدور نعمتك يا إيزه الليلية واستعادة مجده وقومة تحديه بينهما المعركة قد نُحِتِم على خسرانها لأوزير كمال الفقدان وقد بُرت عنه حقيقته .

إليك تاريخ شهوتي المنتصب أعمدةً وصروحا المنتفض أبداً في رققة ماء النيل المحروم من
احمراره بالطمي القديم النابض أبداً برعشته يتقطر بدم ماله النضوب على الشفاف والبرديات لا
أريد أن أقرأها على مسامع الشمس ، وقد نالها العطب قليلاً بخراب الزمان .

ثم قالت له ، دون ابتسام ، ومازالت عيناها تضحكان :
— أنت أيضاً نصبح التنين في حياتي .

فلما أوشك أن يرتاع ، وأوشك ضحكها ، من ارتياعه ، أن يفيض ، سارعت تحكي له
قصة :

— تعرف ، في حياتي أشكال وأصناف من التنانين . أحلم أحياناً كأنني في سماء سيالة صافية ،
تلعب فيها معي تنانين صغيرة لامعة ، صدورها مدورة حلوة الملمس ، كأنها من الحزف الأزرق
المصقول ، أزرق فاتح ولكنه جدّي وغير خفيف ، أزرق لا يوصف من الفرح الذي فيه ، هذا
الفرح الرصين الممتلئ القلب . وكأنني رجعت طفلة ، ألعب لعب الأطفال الذي لا مثيل
لرصانته واستغراق نشوته . بعض اللحظات معك من هذه التنانين .

وانخفض صوتها الى شجن منضبط لا يكاد يرتعش :

— ولكن حياتي كلها هي اللعبة . وأنا لا ألعب ، خسارة ، لا أملك معك حق اللعب . الآن
على الأقل . هل كانت بيننا ، في الأول ، إمكانية هذه اللعبة ؟

ثم عادت تحكي وقد استعادت صوتها :

— هناك الأخرى ، التنانين المظلمة ذات الحراشيف الحادة السوداء ، جاثمة في الصمت والعتمة
المعمورة بأشياء كأنها حية ، أحسها شائهة الوجوه ، ممزقة الجسد .. بوررر .. يالطيف .. لا
تدعني أتكلم عنها ، أبداً من فضلك يامخائيل .. امتعني من الكلام عنها من فضلك ..
وإياك ، وإياك أن تكون منها .

• أخذها بين ذراعيه ، أحاط كتفها العاريتين المدورتين بذراعه ، لم ينحن عليها ، ولم
يقبلها . للحنان شبق حار موجع مكثف بذاته لا يريد فعلاً ولا شيئاً . لحظة مشوبة ، غير
خالصة ، تضربهما معا ، كموجة ، وتغمرهما معا . وأوت إليه ، وهو صامت ، بصمت . كأنها
لحظة لم تنقض ، واكتمالها نهائي .

أطلق كواخير ثلاث رصاصات على ابنة مليونير في مصر الجديدة ، في شقة مفروشة ، فقتلها في الحال ، وأطلق على نفسه رصاصة واحدة ، على رأسه ، ومات بجوارها ، بعد قصة حب استمرت بينهما خمس سنوات كاملة . كانت جثة الفتاة داخل غرفة النوم ، فوق السرير عارية ، والدماء متجمدة حولها ، وكان الشاب ملقى على ظهره أسفل السرير ، والمسدس بجواره ، وعشر رصاصات متناثرة ، وحبوب لمنع الحمل ، وقطعة من الحشيش ، وزجاجة ويسكي ملانة . وكان بجانبه - كالشهادة - عقد زواج عربي على ورق مطبوع لأحد المحامين .

فقال لها : ماذا قطع عليهما اللعبة ؟

وقال لنفسه : ليس هنا ، في هذه الحكاية ، وفي تلك ، اكتمال ولا نهاية .

وقال : الف وخمسمائة معتقل ، مرة واحدة ، أكثر حتى من اعتقالات عبد الناصر ليلة رأس السنة التي تعرفين . هذه المرة ، كلهم ، الوفدي والشيوعي ، هيكل وسراج الدين ، القسس وشيوخ الجوامع ، العيال والنساء والكهول ، الجدد والقدامى ، التكفير والهجرة ومقاتلي مارجرجس ، المقهورين والمشهورين . ماذا يحدث لنا ؟ ألم تكفه القدس ؟ وأصدقاءه الأعراء كارتر وهنري ، وبيجين . ماذا يريد أن يفعل بنا ؟ ولماذا يُراد بنا دائما ، ولا نكاد نريد ؟

قالت : والدماء التي راحت ، كأنها هدر .

ثم سألت بلهفة : هل تعرف أخباراً عن أحمد ؟ هل قبض عليه ؟ قال : أبدا ، تصوري . كان مع أهله على أول الشهر في الفلاحين ، ونفذ ، وراح الخميس والجمعة ، وعاد يوم السبت في أمان الله ، بعد أن عَدَّت الهوجة .

قالت : وعباس فؤاد أيضا نفذ . رأته مع زوجته ، في سيارته الفورد القديمة السوداء ، في ميدان التحرير ، أمس فقط . ولكن طارق ، أخ مصطفى ، كان قد قبض عليه من أسبوعين ، في الكرنك .

قال بلهفه : ومصطفى ؟

قالت : أبدا . جاء المصلحة ، « كل شيء تمام » .. ولكنه ظبعا غضبان وحزين .

وحكى لي ، على جنب ، أمه قالت له أنهم قبضوا على طارق ، وهو في عز النوم ، تقريبا .
أخذه بالبيجاما . كان يستعد لتقديم الشبكة يوم الخميس ، من حظه . ولم تكن القرارات قد
أعلنت ، يوم الخميس ، طبعاً . مصطفى تآر بأبيه ، لم يفعلها قط من قبل ، أنت تعرف
مصطفى . صرخ في وجهه : كيف تسمح لهم أن يأخذوه ؟ قال لي بمرارة : لو كنت هناك
يومها لخطفت البندقية القديمة من ركن القاعة وضربتهم . قال لي إن أمه ، الصعيدية التي لم تبتك
في حياتها ، كانت تنزوي عنهم ، وتشتج وحدها بالليل وهو يسمعها تنوح بصوت رفيع مكتوم :
ليلة عرسك يا ضنأى .. يخطفوك منى يا عريسى .. أحضرها معه بالقطار لتزور أخواته هنا في
العجوزة ، وتبقى معهم قليلاً .. قال يجب أن أنسىها قليلاً وأغير لها الجو الصعب في الصعيد .
ولكنها عندما وصلت عرفت أن عبد المنعم زوج بنتها ، قبض عليه أيضاً .

قال : كان شيطاً في « التجمع » ونقاياً .

قالت : طبعاً ، عبد المنعم دخل معي بورسعيد في ٥٦ .

حضرة عمنا المحترم الخواجه قلدس أدامه الله نشكركم لعواطفكم النبيلة وتشجيعكم الأبوي
سائلين الله أن يلهمكم الصبر والعزاء في فقيدنا الغالي وأن يدبر أموركم حسب مشيئته تعالى ويخلي
لكم ميخائيل ويحفظه . ولعله الآن أخذ الابتدائية . نرجو أن نخبرونا .
مرفق طيه إيصال رقم ٢٠ بمبلغ جنيه واحد قيمة المبلغ الذي تكرمتم بقبول التبرع به
وسداده لبناء الفسقية بأخميم في بحر شهر مايو والله يعوضكم ويجازيكم خيراً . المخلص عطا الله
مقار سوهاج في ٢٧ مايو ٩٣٧

كانت السنوات يحسها بين أصابعه ، رسالة هشة النسيج ، أصفرت أطرافها ، ونالها
عطبٌ هين جاف ، كأنه قد احترق قليلاً .

في هذه البرية الموحشة التي تهب فيها رياح البحر ، رمالها مبتلة قليلاً من ندى النجوم
المغلقة السوداء ، والأعشاب العنيدة الجلد ، كثيفة ملتفة على نفسها شوكة الأخضر الداكن في
داخل غمده ، تهدئها جسدٌ صامت . أحسها ، في نومه الكامل ، صرخته ، تجيء من بعيد
جداً ، من على حافة البحر الدفين . تبدأ صغيرة صغيرة ، ثم تقترب الصرخة من عمق الغور

المجوف تتردد أصداؤها بين صخور الغيران المظلمة . الصرخة تقترب وتنبسط لها أجنحة تصطفق وترفرف بالريش الأسود وهديه ثقيل . أقوى وأكبر ماصرخات في حياتي ، أعلى من كل جحافل الصرخات الليلية ، تجأر في قلب النوم . يدّ ضخمة ، هائلة ، كالمخالب تمتد إلى عنقي ، وتنقبض ، تُطبق . وأنتفضُ فإذا أنا جالس في سريري ، على جبیني عرق بارد يتفصد ، وكأن الرُخ قد خرج لتوه ، مشتعل العينين ، من وراء جدار غرفة نومي ، بخشونته التي رقق الزمن منها الآن . والليل ليس آمناً ولا مستريحاً . لحلمي بالنداء عيون خضر ضارية ، مفتوحة أبدا . لاغرض لها .

يُورخ تلك الليلة في ٢٤ يوليو ١٩٧٩ ، وهي ليلة كغيرها من الليالي . هل صرخة الاعتراف لها إرادتها الخاصة ؟ قبل أن أسقط ، أن أترك اسمها يتشكل ، يُقال ، يتحرر . صياغة محددة ، منطوقة ، قاطعة .

أن ينطلق الاسم ، فليس بينه وبين أن يوجد في الخارج ، في الصمت ، إلا أقل من خفقة . أن يعم . أن يُفعل . أن يحدث الكمال .

أن يحدث . أن ينقسم القيد بصوت سقوط السماء . طلقة الرعد الواحدة ، تنقسم بها نفسه ، وتفتت ، رماد الشهب . انفصام كل شيء . الانقطاع عن العقل ، انشقاق الزمن ، انفضاض القهر ، هشيم الواقع يتهاوى . الإنطلاق الاختراق إلى قلب الحقيقة تدميراً للحقيقة قصف ضربة الرعد غير المتكررة تتقوض لها كل الأركان الهشة التي كانت تلوح سامقة الأعمدة وطيدة الصخر . على الحافة المسننة لهوة الانفكاك الغائرة السديم ، تشدني غواية السقوط في إطلاق الاسم ، صرخته .

والنداء لا ينطلق .

قالت له : لم يكن هذا النداء لي .

وكانها قالت له : لم يكن هذا اسمي .

فقال لنفسه : ولكن أنا ، ليس عندي شك في أنني تعلمت الاسماء .

وقال : وهذه نازلة تحمل بالقلب ، كسائر الأحوال .

وبالطبع لم تكن سخريته من نفسه قليلة جدا . أما هي فكانت لا تحب كثيرا سخريته من نفسه . ولكن ماذا يفعل إذن عندما تقول له — أو لا تقول — إن هذا النداء لم يكن لها . مع أنه يعرف أن عندها حبا ، ما ، له .

قالت له : لن تعرف أبدا كم أحبك .. خسارة .

وقالت له : هل رأيتَ لهفتي على خطابات بنتي ؟ هل ترى كيف أنتظر ؟ كيف أفتح الباب مرة بعد مرة ، وأصيحخ السمع ، أتصور أنني أسمع « بوسطه » ؟ أتصور نبوية تصعد السلم ببطء تحمل إلى خطابا منها ؟ لهفتي إلى خطاباتك أكبر ، وأكثر ألف مرة .

ما نواة المرّ الصلد الصوان في وقدة لهفته ؟

رفع ساقها العَبْلَتَيْن ، وضعهما على ركبتيه ، ومر بيديه على عمودى الجسد المكين المطواع . يسقطان له ، استسلامهما هبة وعطية لا يمكن أن تُقَوِّم ، بأية قيمة . الوردة السوداء المُضْرَجَة يكتنفها الهدب الخملي الغامض قد تفتحت له أوراقها الفضة النابضة التامت عليه وتقطرت بنداها الكثيف القوام . وهو الآن ، ينحني فقط على أعواد اللوتس الخمسة المكتنزة الصغيرة ، مصفوفة ومُغْلَفَة بنعومة ، وتومض مسُّ شفتيه قد برىء من كل لوثات النشوة ، هو مجرد اعتراف .

فقالت له : يا حبيبي !

أما هو فقد استهزأ بما آل اليه مآله إذ أدجث عليه الأشجان وألوت به آمال مَوْرُودَة وتآلبت عليه آكام الآلام فأولها بأنه ينوء ببارث إثم مؤثّل الأواسى وأن أخذة الألق قد هرتت مهما ضاءت آلاء السماء وأولها بأنه إن يأخذ بالأزمة فهو أسير أصابعها الأسيلة ، أزيز الأجمة الأثيثة الجائحة بأجيج لا ينطفئ تتأرت بإراقة الجأش الخبيء في نوء خيطية ألفية لابرء منها الى أهد الآبدين ، أوار البورة قد أجن كماء آسن في حَمَاة سويدائه وهو ينوء تحت إصر الأسى يجار بلا مرفأ يثوب اليه من لأواء الأجزان والأوهام التي تبيض الى لأشياء ولا يُرقأ له أوام في مباءة الممالة . من يدراً عنى شواطئ الأرزاء المتلاثة بأحجار الألم ؟ أحجار الألم شوهاء . هذا أدركه الإدراك

كله فباي الآلاء تتألم ؟ أوجاعك لايعبأ بها أحد وليس لأحد أن يعبا . أليس لكل أعباؤه التي تضوء في شتاء دائم ؟ الشقاء الألف الشقاء الياء . أما أنت فلست إلا نتوءاً وأهواؤك ملجأ للجدأ الأكمالة لا أطاطيء أمامها رأسي أبدا . ومع ذلك فإن الأفلاك مازالت تئوج حوله في رواء يرأب أذى الأرض ويبريء اليأس الأجاج . اليأس غير برىء .

وحدث أيضا أن قالت له :

— أنت تعرف أن القرى الفيزيقية يجب أن تُبنى . كنا قريين من أجدنا الآخر .. جدأ .

استقبلته على موعد الثامنة مساء في بيت درب الشعموي الجمالية نفسه الذي كانت قد قالت له : بيتنا .

على الباب الخشبي القديم الثقيل مدّ إليها يده ، وأحس فيها بأقل رجفة ممكنة من الابتعاد ، لايمكن أن ترى العين هذه اللحظة الهاربة من الافتراق في قلب اللقاء ، ولكنها هناك ، كأنها لم تقع إلا لكي تمضي ، دون تتابع ، بل في الوقت نفسه ، دون انفصال . هي أقل من إيماء وأهون من نسمة ، لكنها كالجبل .

كان ثوبها كامل الإحاطة بها ، شتويا ، داكن الخضرة قليلا ، من الكستور البلدي ، بيتيا وواسعا . كانت مغلقة في داخله ومغلقة ، ومسدودة عليه . وهو يخطر ، كأنه غريب ، الى داخل البيت الذي عرفا فيه ، من زمان ، أمجاد الحب غير الموصوفة ، واختناقات العشق القابضة . البيت الذي كأنما هو مبنى ، وموجود بلا انقضاء ، في داخله . إيماء التغريب قد نذت عنها هفافة ورازحة الثقل معا ، في أول لحظة ، صحيح ، لكنه ، بخطئه النمطي ، وخيبته الثقيلة ، سلم أمامها ، أسقط في يده ، ولم يضرب الضربة العبرية . وأثناء الساعتين اللتين قضاهما على مقعد منخفض وضيق ، بعيدا عنها ، تحت شجرة الظل الداكنة التي امتدت لها الآن أفنان لم يعرفها ، وتنكره ، وتحت تمشيقات الخشب المخروط القديم ، قالت له عن آخر أخبارها ، وكيف أنها أصبحت الآن مديراً عاما في المصلحة ، وهي أيضا تُدرّس اليونانية القديمة في معهد الآثار ، وهنأته بأبحاثه الأخيرة وخصائص اسمنت الترميم الجديد الذي ابتكر تركيبته ، لم تأت بسيرة سقوط معبد الواحات عليه ، وكان يحس أنها تذكره ، ولا تريد أن تشير اليه . وحكمت

له عن إجارتها الأخيرة في إحدى جزر اليونان ، وخطر له أنه لم يذهب معها إلى جزيرتهما ، وحدهما ، أبداً ، ولن يذهبا ، أبداً ، وقالت له : لماذا لا تقوم فتصنع لنفسك قهوة جديدة ؟ هذا جزء من إعادة التعرف للبيت ؟ ولم يرد عليها ، كأنما يرفض ، منذ البداية ، أن يدخل حلبة صراع ضروري معها ، ودائماً يقول لنفسه إن نفي الصراع هو النفي بالاطلاق ، ويرفض صحة ذلك بكبرياء وتطلُّب قاس جدا ، ويزعم أن حبه لا يمكن أن يدخل معترك الصراع ، وأنه إما أن يكون قائماً وأولياً ومسلماً به دون شروط ، أو لا يكون . وهو يعرف أن ذلك بدوره غير صحيح وأن رفض الايمان هو قبوله وإقراة القلق . وقد ترددت في أن تفهمه ، وعلقت الحكم في نظرتها المستطلعة إليه ، الداعية للكلام ، والدخول . فلم يتكلم إلا ليحكى حكايات عمومية كأنه في ندوة عن فلسفة الآثار أو علم اجتماع الاثريين ، إن كان لمثل هذا الشيء وجود ، كأنه يكمل حديثاً آخر خيل إليه أنه دار منذ سنين ، على فنجانين من القهوة الفرنسية أيضاً ، في كافتيريا الفندق الصحراوي تحت الهرم ، قبل أن يغوص العالم في فلك مجد الحب الذي لا قاع له ، وشهوات الجسدين اللذنين لا فرقة بينهما ، أبداً ، ولا اندماج أبداً . كانت تعرف أن هناك ، تحت هذا الانسياب السهل من الثثرة ، تياراً يهضب ويدوم دون أن يبين ، كأنما تجيب على سؤال لم يعرف — هو — أن يسأله ، فقالت ، فجأة ، دون مقدمات :

— القربى الفيزيقية يجب أن تُبنى ، من جديد . ولا تأتي هكذا ، وحدها ، من تلقائها . كنا قرييين جدا . لكنك تدخل الآن على ، غريباً ، لا أكاد أعرفك . بل أنت الآن فعلاً ، تدخل من جديد . القربى الجسدية ليست شيئاً معطى ، مسلماً به . كأنما يجب أن أراك كل يوم من جديد ، أن اعتاد عليك .

قالت : أنا الآن أحس حرجاً !

لم ينهض من جلسته ، لم يمد إليها يده ، كأنه — وهو لا يُصدِّق — يخشى ، حتى الموت ، اختبار العربة ، وكأنه موصول ، يرى نفسه لا يملك من أمره شيئاً ، بل مضى يُقرر الوقائع والحقائق ، كأنه يصف آخر ، آخرين ، ويحكى عن حكاية النداء الذي لا يُفارق أن يناديه ، والحلم الذي يتردد عليه دون أن يطرق الباب ، كأنه أليف ، وهو ضاربي العينين ، والجزء الأقل من حطفة بينه وبين الترددي في هوة الانطلاق والعمر الذي لا عقل فيه ولا قانون .

قال لنفسه : ما أبعد هذا عما كنت تقولين ، أن القرني الجسدية شيء مُعطى ، وهي قائمة من اللحظة الأولى ، تتجاوز كل شيء .

وضعت ساقها تحتها ، بحركة مألوفة ، فوق حشية الصوف التي طالما عرفنا النعمة عليها ، وارتفعت الوسادة المغطاة بخيوط القصب الذهبي الباهت على الساتان الأخضر القديم ، كانت في عينيها نظرة فحص ، وعدم تصديق ، وشك فيما يقول ، كأنها لا تفهم ، وهو يقول ، بلهجة ترن في أذنه استاذية ، ولكنها متهدجة إن هذا غريب جدا ، صحيح ، لأنه ، هو ، يحس أنه لم يفترق عنها لحظة ، وأن يده التي قالت عنها إنها غريبة ، تحتفظ لها وحدها بذاكرة خاصة ، مستقلة تماما عن إرادته ، صنوته مازال محايدا وإن غضب قليلاً لارتعاش الوقعة الداخلية فيه ، ومازالت تنظر إليه نظرة أصبحت الآن محايدة ، ويسأل نفسه : كأنها لا تصدق ، أو كأنها لا تصل إلى قرار .

نهضت فجأة ، وقالت له : سأذهب لأنام . تعال قل لي : تصبحين على خير .

ومنذ هذه اللحظة سقطت قشرة العالم الصلبة ودخل يتحرك في وردة السماء المفتوحة بضوء كأن فيه نعومة الفجر وخدمة الظهر ولينُ الغسق الأخير معا ، لا يعرف كيف وضع خطوه الواثق إلى سرير فرحه الخاص ، وعندما نضت عنها ، بسرعة خاطفة ، ثوبها الشتوي ، أبرق في نفسه ما كان يعرفه ولا يعرفه ، طول الوقت ، أنها كانت عارية تماما ، له ، تحت ثوبها . وأشرق له جسدها الباذخ مرة واحدة وهي تدخل فورا تحت الغطاء الرقيق . ماذا فعل ؟ وهي ترقبه بنظرة عميقة وسرية قبل أن يجد نفسه معها وصدمة التقاء الجسدين ، ثم التطامهما ، هو القانون الأولى والنشوة المكتوبة على العمود القديم ؟ ماذا فعل ؟ حتى وجد وجهها الناعم المدور ، ساطعا بسمرته المتوهجة ، بين يديه ، وتحت شفثيه ، كأنه لم ينفصل عنه لحظة واحدة ، وكأنه جديد مفاجيء لم يعرف نضرتة أبدا من قبل ؟ رغبتني تنمو ، وحشية ، في لحظة واحدة ، وتنبثق لها أفنان وفيرة الفىء ، تفترش جيدها الذهبي الباهت اللمعان وتدور حول ثديها الكرويين الناعمى الخرط وترتفع لثنتف حول عنقها المبدول ، عساليح شهوتي حياث رقيقة الجسد تناسب متلوية حول جسدها وهي تشهق بنفث مطالبها الحارة. والوردة المكنونة الحفية تمتلىء شرايينها الدقيقة بدم الحنان والقرار والاجابة التي تنفي كل سؤال ، والأطراف الطرية والقوية تحتوي جوهر

العالم من جديد كنوز جسدها لا تُصدّق والفقدان لم يوجد قط ولن يوجد أبدا واللقيا مجدّ
مستديم فمي على النبتة النابضة الحوشية الوديعّة التي تستنيم مفتوحة العين في حَمَامَتِهَا الطرية
الحريفة سرّاً دفينا شوّكها الهشّ يخزّ وجهي والمُحْمَلُ الغنى الملمس الذي في عمق كأس الزهرة
المتفتح . جمعت يداى الرردة الحية الشائكة الهدب الحريرية اللحم ونهلتُ من النكتار العذب
الحار ، حُمياً الجوارح المتضامة المتقاطعة التي تغوص وتطفو وتكشف الأغوار القديمة كأنها لم
تعرفها قط ، وتعرف على صباحها الأول ، وتتقد ببؤرة شمس من داخلها تتدفق وتنشع وتتقد
لأنطاق في انطلاقات دائرية كأنها مدمرة لكل مافي الإيماءات من حرص حنون حتى تتفجر
يرق منشعب كإو وتسقط باندفاق قَطْر النعمة وريّه العميق وهو يرى في اللحظة الأخيرة وجهها
الصافي كأنه يتمزق مزقا ممزعة وعيناها مشدودتان مفتوحتان في جمال وحشى الثمل مكتوم
الصرخة .

قال لها : مهما حدث .. أُحِبُّنِي .

قالت بخفوت : أنا أحبك . سأظل دائما أحبك .

وكانت قبلته على شفيتها الهادئتين خاتما .

بعد دقائق كانت صاحبة ، وفيها قرار خاص . قالت له :

— عليك أن تقرر الآن ، فورا ، تبقى الليلة هنا على أن تخرج قبل الثامنة صباحا ، سوف تأتي
طالباتي مبكرات جدا ، أعطيهن يوم الجمعة درسا في اليونانية القديمة .. أو أن تخرج ، فورا .

قال لنفسه : الغريب أنني لم أجد في هذه الردة إلى الأرض شيئا غريبا . قبلته على الفور ،

دون مساءلة .

لم يردّ عليها بقراره في هذا الخيار المفروض ، كانت ملابسه مرمية مكومة على الأرض ، عند

قدم السرير ، كأيام زمان ، كأنه لم يرها ولم يعرف كيف جاءت هناك ، وكان يرتدي الجاكنه ،
ويتجه إلى الباب دون كلام .

نهضت فجأة ، واختطفت الشال الأسود المذهب الحواشي فرمته على كتفها العاريتين ،

ورأى ، فجأة ، مرة أخرى كأنها أولى ، كل بذخ جسدها العاري ، ونضارته ونعومة مهائته ،

تهتز عليه شرار شيب الشال اللينة الخيوط ، وأوشك أن يستسلم من جديد ، لكن حركة قدميه كان لها إملاؤها وحده . وكان آخر ما رآه منها ، من وراء الباب الخشبي الكبير الذي ترده بحرص ، رهبةً نهديها المليين ، وسرَّ العينين البدائيتين ، وحوشيتها الوثنية ، وربوتها النضرة ، عشتروت شعرها مضطرب ، وقد عريت وتخلصت من إلحاح التطلُّب ، تسبح ، سامقة وصامتة ، في جمالي الشهوة المتحققة ، تحت نور المسرحة المطرزة بكتابات كوفية ، مُعلقةً بخيطين مجدولين في الردهة الضيقة خلف الباب .

كان يهبط السلام الحجرية الضيقة ، بين حائطين ، في عتمة البيت المملوكي القديم ، وشجرة الجميز العتيقة المتلوية الأضلاع في شبق كثيف ، قد سحبت إلى داخلها كل النذر ، ونامت في الحوش العتيق فيه رائحة تراب خفيف تحت النجوم المقطوعة .

قال : كان اليأس بريئاً وشديد السداجة وبعيداً في الخلف ، وهي تلح في الدعوة لحفل العشاء في بيت الشيعري اليمانية الذي لم أكن أعرف أين هو ، ولا ماهو

وقال : كنت - ربما - أنتظر لقاء عابراً آخر من لقاءات المحطات والمفرقات وتقاطع المسارات الذهاب ، كل منها وحده ، إلى اتجاه ، ولم أكن أعرف أن الزمن الآخر كان هنا .

قالت : هل تذكر يوم أن سافرنا بالطريق الصحراوي ، للاسكندرية ؟ كان معنا ذلك الطالب الذي حكى لنا عن تل الزعتر ؟

— وأنزلناه في سيسيل ، يومها ، وذهبتا إلى زيزينيا ؟
— تصوّر ، جاء إلى أمس في المصلحة . بحث عني ووجد العنوان ، تخرج من كلية الهندسة بالاسكندرية . وذهب يعمل في الكويت . وكان يزور أهله هو أيضا في بيروت .. وحكى لي عن صابرا وشاتيلا . ألا تفرغ هذه الحكاية ، أبدا ، ياميخائيل ؟

— ما اسمه ؟

— محمد عمران . ماذا يهم اسمه ؟ لم يعد لهم اسماء . لم يكن لهم أبدا اسماء .

قالت : وحكى لي ..

— شريط الدم المتجمد الذي فيه رمل قليل ، صلب وخفيف ، وعليه ظروف الرصاص الفارغ ، صغيراً ولامعاً مازال وكامل الاستدارة ، كأنه جديد ، تحت حجر النافذة المكسور ، تحت الحائط المرسوم عليه بخط صبياني : ثورة حتى النصر ، السيقان والأيدي والرؤوس مكومة ، سوداء ، منتفخة ، في عناق جماعي صامت ، كأنه مستريح ، بين لفات نيلك صديء ، وجزء من أنبوبة فخار ضخمة الفوهة ، وخذاء جديد مازالت ساقه المبتورة معلقة به ، والنتن الأدمى الذي لا يطاق ، يفوح من الحيطان ، من ظلمة النافذة ، من خشب السرير المنتهك ، من الجلالية النسائية المنشورة على حبل الغسيل ، سوف تلبسها الجدة العجوز ، ولن تنضو عنها الرائحة أبداً ، بركة البنزين واللبن والدم ، على رمل الشارع الضيق وأحجاره ، تجف في الشمس .

قال : الذبيح متكرر ، مبتذل .

قال : ولا يُطاق . ورهبتة أولى ، في كل مرة ، بلا انتهاء .

قال : بينما العالم يعصف بنا ، بكل ضراوته ، لي ، وبك ، وبمحافل لا تتوقف من الجوعى ، والمضروبين ، والمُهانين ، والعرايا أمام قصف الحديد القاسي .

قال : والمطروحين في الوحشة ، وحدهم ، والمتشبهين ، بآخر أظافر الحياة ، بالأنقاض الحادة والشظايا .

قال : والشهداء بلا اسم ولا مجد ولا كتاب الساقطين بلا توقف تحت الأقدام والسنايك والجنائز وعظام المخالب المتفجرة بالديناميت .

وسأل : هل نحن نلوذ بأحدنا الآخر ، من رعبهم ، من رعبنا ؟ .

وأجاب على نفسه ، دون اقتناع : أو ليس السياق ملتبساً ، أو ، حتى ، لا معنى له ؟ أو ليس كلٌّ منهما حقاً قائماً برأسه ؟ والتداخل خفي وحميم ، ولكنهما لا ينقضان أحدهما الآخر ؟

وقال أيضا إن كل طريق مَخِيلَةٌ وِخْلَابَةٌ وإن تحت قدميه ، في كل طريق ، حَمَكٌ .

قال لها : من الأشياء التي لا أنساها أبدا ، هذه اللحظة قبيل سفري الى أسوان .

كان في طريقه الى المحطة ، وأوقف التاكسي على باب المصلحة ، وراء المتحف على جنب من ميدان التحرير . قال لها : كان ذلك ممكنا في الزمن الخالي عندما كانت التاكسيات حيوانات قابلة للترويض .

وعندما دخل إلى مكتبها ، دخل إلى لحظة نادرة من الهدوء الساجي ، مكينة ومركوزة ، وكان ثوبها أفريقيًا ولدن النسيج . وهي رشيقة ، تكاد تكون نحيلة ، وفي جسمها خفة ونغمة صاعدة يرفق في جو نقي كأنه متخلخل الهواء . وعلى عكس حوشيتها الجسدانية المصطخبة التي يعرفها ، كان في قوامها ، عندئذ ، رنة شجن خفيضة . وأعطته كتاب هيسه « رحلة الى الشرق » لكي يعرفه .

في غرفته بالكثراكت القديم ، والنيل غامض تحته ، في ليلة مقمرة كأنها بشارة ونذير ، كان وجع الشوق اليها يمتزج بوجع الضرس الحاد الجارح يُغذي أحدهما الآخر ، يضع قرص الاسبرين على الفجوة المنقورة في عظمه ، ويتعرف إلى نور صوفى مُمضٌ ومُضنٌ وساطعٌ معا ، وحيطان الغرفة المُصَفَّرَةُ الخشنة البلاط تقول له إن وحشة غرف الفنادق كلها متشابهة، وفراغ قلبه بالفقدان الذي لايعرف الخلاص منه . الألم المخدر الكامن يهدأ ويتيقظ ويطعن ويخبو ، وهو يتقلب في موجات البحث عن منارة ملتبسة الضوء ، فنزل إلى ردهة الفندق الخاوية الخافتة ، قبيل الفجر ، وكان موظفو الفندق قد تركوا أنفسهم لنعاس قلى ، ولكن المكتبة الصغيرة مفتوحة ، فاشترى بطاقة بريدية ملونة ، وكتب لها : أتذكرك ، وأفتقدك .

وفي تقلبه الطويل لسيرة حبه معها ، جاءت ، مرة ، حكاية الليلة التي كان القمر فيها قد شبع من فرائسه ، وكانت حُميا ملايين الحيوانات الصغيرة تنز من وراء الزجاج الخشن المحبب المُغْبِشُ النور ، وعندما أحسها تترقرق تحته بالتحقق والرضا ، ونامت ، لحظة بين ذراعيه ، وتيقظت يقظة كاملة وعيناها ساطعتان مُتطلبَتان ، وقالت له : تعودت أن أنام بين ذراعيك .

قال : هذه أيضا لا أنساها أبدا .

قالت : لماذا خرجت ، بعد ذلك ، بهذه السرعة ؟ كنت دائما أسأل نفسي . هل كنت تخشى الفضيحة يا حبيبي ؟ الفضيحة كانت قد تمت ، خلاص . !

كان الكتاركت ، ليلتها ، موحشا ومليثا بالخطر . خطر آخر ، غير مفهوم .

وكان يعرف أيضا - لأنها قالتها له - إنها تومىء إلى طقسه في صنع الحب إذ يستنفد كل شيء في اشتعال محرق وكامل ، مرة واحدة . لم ينتبه قط في سذاجة جنسية ما ، أنه لا يعرف روتين المواصلة ، والمقدرة على الراحة ، بعد لحظة الاستكمال ، في حضن الأرض التي شعفتها نار شهوته التامة ، ثم ابتعاث اندلاع الشوق الممتلىء بعد أن تنتفي لجاجته . لكنها ، طبعا ، كانت رقيقة جداً وحساسة جداً له ، ولم تومىء إلى ذلك كله إلا بعد أن علمته طقوس التعدد المتطاوّل الأنفاس . أما قوانين جسمه فلم تكن قد عرفت إصرار التلاحق .

قالت له : من الحب أيضا أن نعرف قوانيننا الداخلية ، ونقبلها . لكل منا ، ولنا ، كلينا ، معا .

ولم يقل لها : في كل قبول تنازل ، وتصالح ، ولا أقبله .
ولا قال : إن القوانين لا تطلب القبول . بل تقوم ، ثابتة ، لا تُعنى بأحد ، ولا بشيء .

لأنه كان يزعم لنفسه أنه لم يبارح قط أرض طفولته ، حتى في هذا الاكتهال المحترق .

وهو يقول لنفسه الآن : أليس في هذا العكوف عليها ، وعلى تلك اللحظات التي بادت كلها ، واندرج معها العمر ، ولا معنى لبقائها في هذا الولع والتدلي ، أليس في هذا كله طفولة الشيخوخة التي لا تُغتفر ؟

يدها في يده ، وجهها قريب إليه جدا ، هاديء الجمال وعلية ندى خفيف من جهد .

الحب المكتوم الصعب ، وهما وسط الناس ، الناس يعرفهم ، واضحين ، لكنه لا يتذكر مَنْ هم ، شأن تجسيم الحلم ، يحس في يده كتلة يدها الناعمة فيها ثقل هين ، تركتها له ، مَسُّها حقيقى مُلازمٌ لا يخففه توهُمٌ ، كأنه في خطفة برق بين يقظتين ، أو هو في يقظة خاطفة بين إغفائتين ، هى معه ، بين الناس ، وقد أخذ ضوء الحلم الصخوة يشتد ، يده ، يحسها ، مرة واحدة ، لاتتحرك ، نبض الدم توقف ولكنه هناك ، وصلابة يدها الثابتة دافئة وثقيلة ثقيلة . الآن ، اندمج حجر اليدين معا ، وأصبحا في حسه جرماً واحداً مُصنّماً مغلقاً على بعضه البعض ، وقد اختفى الناس كأن لم يوجدوا قط ، والوحشة واسعة قاسية ليس فيها نسمة ، ولا تتحرك حبات الرمل على الساحة الخاوية . وفي بصيرة كأنها ليست له ، يرى ، دون أن يعرف تماماً أنه هو الذي يرى ، قائمتين ، ثابتتين من الحجر ، ليست لهما معالم ، ولكنه يعرف أيضا أنهما — هما — باسميهما ، هناك ، في قاب الكتلة الواحدة المزدوجة ، واحدتين ومنشقتين معا ، رجلاً وامرأة ، فقط ، ولكنهما ليسا هُما ، بشكلٍ ما ، مهما كانا هُما ، هُما ، في ماضٍ لا يطاق يعرف ، في صميم أحشائهما معا يعرف ، أن الحياة لا غلاب لها ، هناك في داخل الحجر أنينٌ يسرى عبر صمت المادة العنيدة القوام ، والدم يرشح ببطء ينساب على البياض الداخلى المقفل يتشربه ويمتصه ويظل شاحبا غير مشوب ، الأنين الذي لا منفذ أبداً لتَحَثُّرِجه العميق ، والدم المهتد المسفوح غير المرئى ، كيف يمكن أن يصعد إلى جدار الحجر ؟ ، ولكنهما يظلان جامدتين ، بدائيتين ، مكشوفتين في العراء ، ودمهما المكنون مباح ، الجلد الحجري مُطَّيبٌ بالزيت ، الجسم الواحد المثنى مُعدُّ للذبيحة . وهو يَنْشَقُّ بخور القربان ، كأنه في كنيسة طفولته . ولكن الصرح الحجري يقوم خلفهما ، أسود هائلا ، ضاربا في ركن السماء المُحرقة ، حَجَرُهُ حشن الخواف ، به فجوات غائرة دقيقة يؤكدها نور الظهر المنصب بلا هوادهة ، وقد سقطت الريح . هل هما المقربُ إليهما ؟ أم هما القربان ؟ السؤال مضمّنٌ ومُلحٌ وقابض . وقد صمت العطر وانقطع البخور ، على أرض جفافٍ صحراويٍ لا رحمة فيه .

الباب الثاني

الحَوَمان حول الدائرة

خذ عندك يامسيدي هذه هي القاهرة الفاطمية .

قال له أحمد ، بصوت فيه قليل من السخرية وقليل من الحزن ، وفيه أيضا نخفة سكر طفيف من البيرة التي شربوها في الكوزموبوليتان ، منذ قليل ، ثم جاءوا مشياً من شارع قصر النيل ثم الأوبرا والعتبة والأزهر .

وكان شعره المشرح بعناية وأناقة قد شاب فجأة ، وهو مازال بعد في رجولته الفتية النحيلة ، من عذاب الاعتقال القديم ، وكانت فضة القمر الغنية جزءاً منه .

كانوا في الشارع القديم المزدحم تحت ظل المآذن الجسيمة التي يسقط القمر على جانبها المضلع المنقوش بموسيقى رصينة من الحجر .

قال ميخائيل لنفسه : هذه أيضا قاهرة فاطمة .. كيف آخذها ؟

روائح التوابل والتراب العتيق والبهارات والمجاري والنفح الحريف الجاف الذي لم يتوقف عبر الألف عام ، وما وراءها ، تملأ صدره بنشوة خاصة ، الشيخ والينسون والفلفل الأسود والكمون والعتر المحضف ومسحوق الريحان وعادم البنزين والجلد المدبوغ الطازج البشرة ونفث احتراق المصابيح الكهربائية القوية وعبق التبناك والمعسل وكركرة الجوزة المعمرة التي تدور بسرعة في القهوة الصغيرة المفتوحة ذات الأرض البلاط والكراسي القش ودكة خشبية قصيرة تحت النصبية ، وروح الخشب الذي لايتهي من البلى طوال القرون ، والطين الذي نشفته وعقدته بينها أحجار ألبنة ناعمة في تكسرها البطيء ، وبخار المكواة الأبيض ، لها نشيش ، على الجلابيب البلدي والبنطلونات الجينز في الضوء القليل ، ووقتار شواء الكباب والنكهة النظيفة الصاعدة من حساء الكوارع الذي يغلي في الحلة الهائلة في صدر المطعم الضيق فيه أربع موائد فقط مفروشة بمفارش بيضاء ثقيلة النسيج . داهمه فجأة صوتها النهائي ، قاسياً ، كأنه معاد ، سوف يجيبه من زمن
تالي :

— يا ميخائيل يا قلدس أنت تعرف ، لو كنت أستطيع لقتلت الرجل بيدي هذه ، دون لحظة تردد .

كانا قد فرغنا من العشاء ، لَحْمَة رأس وفتة ضاني بالخل والثوم في هذا المطعم نفسه .

وتذكر الجدال الطويل عن نظريات الإرهاب الفردي والجماعي والمجالدة الطويلة حول حركة الشعب وحركة الأفراد وقبوله العميق في أحشائه الغاضبة ، برغم كل اعتراضاته المثقفة العاقلة ، وقبولها أن يصنعا الحب ليلتها بجسد فيه بؤرة رفض عنيد .

قال مصطفى بضحكته الطلقة ذات العمق الأجدس الصادر من تحت ، وقد انحسر حزامه تحت قميصه المتهدل على بنطلون واسع غير مكوي :
— يا جماعة .. نحن هنا خلاص .. يالله نرجع ؟

كانوا يضربون في الغورية منذ زمن الآن ، تدور بهم الأزقة والشوارع الغاصة بالدكاكين الصغيرة والسيارات الزاحفة بين الحيطان والأبواب وعربات الكارو المنزوعة عن حميرها أو بغالها مركونة على جدران السيل المزركش بأحجاره المتساقطة الناعمة النقش خطوطه الأنيقة المشجرة ذهبها ناصل باهت كأنها حلوى قديمة نالها العطب ، تحت لافتات البوتيكات الحديثة بخطوطها الجريئة تشتعل في تلويحات النيون الملون بالأحمر اليناع والأصفر الفاقع .

قال أحمد ، بصوته الهادئ الخفيض : تتكلم في التليفون . نرجع لماذا ؟
كانا أمام ممر يُفضي إلى ظلمة مفتوحة تحت السماء ، يحسونها تغص بحياة الناس الذين يروحون ويمشيون بصمتٍ مهموم تحت الحيطان الهائلة الارتفاع ، وكان دكان الصائغ عليه لافتة قديمة منعمة تقول فلتس ساويريس ذهب وفضة ، حلقات أساور بانتايفات ، خواتم ساعات ، والدكان طويل وهادئ في ضوء ضعيف وواجهته الزجاجية المرتفعة محكمة الإغلاق على الحلقات الهلالية الضخمة الدوران والعقود المفروشة المَحْرُوزة بأحجار داكنة الحمرة والخواتم الكثيفة الغليظة والصواني الفضية لثقيلة ومفاتيح دقيقة وصلبان وخرائطيش هيروغليفية رقيقة وعلامات الزودياك : العذراء والحوت والثور والميزان والعقرب وفي الجانب الآخر ساعات السايكو ومنيرفا وسلاسلها وقطع من عملة فضية عليها طغراوات السلطان حسين والملك فاروق والسد العالي .

أحس ميخائيل أنه الآن قد عاد من حافة الغربية وأنه في أرضه القديمة ، رائحة التراب والبهارات والقدم ونفث الرطوبة التي تجف ، ثبرته من شبيهة ما .

كان التليفون على المنصة الخشبية العالية بجوار خزانة حديدية قديمة الطراز غليظة الباب فيها قبضة صفراء معقوفة شكلها وحده يوحي بصيرير له حشرة صدئة .

استأذن أحمد من عم فلتس الضيق العينين اللامع تجاعيد الوجه ، مازال يلبس الطربوش على جلباب بلدي حرير وبالطو من أيام العز الغابر ، وأدار الرقم ببطء ، وانخرط في حديث طويل مع الطرف الآخر لا يقول فيه إلا : نعم ؟ أين ؟ لأ .. آه .. وكان واضحاً أن الأمر مختلط عليه اختلاطاً لا فكاك منه ، وأن الغورية ، والبيرة ، وهموم خفية أخرى كلها قد أسكرته قليلاً ، وقال بعد فترة ، وهو يضحك ضحكة حادة : خذ .. تكلم أنت .

التقط ميخائيل السماعة ، وهو أيضاً خفيف القلب شيئاً ما ، وهتف :
— رامة .. !

جاءه الصوت البطن بالنعومه التي يعرفها وكأنه لم ينسها طول السنين :
— خدامتك رامة .. أنت أيضاً سكران يامبخائيل ؟
— إطلاقاً .. سعداء فقط لأننا قادمون إليك ..

— سيدي ياسيدي ..

— صحيح والله .. فقط أين بيتك ؟ دخنا السبع دوخات .

— بعد الشر عليك من الدوخة .. من أين تتكلم الآن ؟

— من عند صايغ طيب اسمه فلتس ساويريس .

— خلاص .. اسمع .. أنتم الآن تحت البيت تقريبا . وأنت تواجه الصائغ ، أول حارة على

اليمين ، وخطوتان ، ثم الفتحة على اليمين أيضاً ، قد لا تراها لأول وهلة لأنها داخلة تحت قبوة

قديمة ، ستجدها منورة بمصباح نيون لا يمكن أن تخطئه . اسمع .. فيه يباع ورد في أول القبوة على

طول . تدخل تحت القبوة ياسيدي ما الا انت ، فتجد البيت أمامك مباشرة . الباب الخشبي

عليه رقم ٢٢ ب . أمامه شجرة جميز ضخمة عجوز جدا وعفية جدا ، خبُط على الباب فقط

ونبوية ستفتح لكم . واضح ؟ مفهوم ؟ محدد بما فيه الكفاية ؟ أم تحتاج أيضاً إلى مزيد من

الشرح ، مستعدة والله أشرح أيضاً ، على أتم استعداد . فقط تأمر ..

فضحك . هذه رامة التي يعرفها ، من جديد . الخطوط الجليّة الساطعة والإشارات

الخفية المثقلة بالمعنى أيضا . وإن كان كل شيء بينهما ، حتى الآن ، مازال على أرض محايدة غير واضحة المعالم .

— لماذا تضحك ؟ شربتم كثيراً قبل أن تجيئوا ؟ والله ياسيدي ليس عندكم حق ، الخير عندي كثير والحمد لله .. تعالوا فقط ، بسرعة .

— سمعا وطاعة ياست الستات .

— العفو العفو ، مع السلامة .

طققة السماعه وهى توضع ، دقيقة وصارمة الترحيب .

تحت ضلع حائط ضخيم أسود الحجارة ، يقترحم نصف الشارع بأركانه المهذمة ، كانت القبوة تبدأ بالرائحة السكرية العطنة قليلاً تفوح تحت أنبوبة الفلورسنت البيضاء المائلة قليلاً فوق دكان بياع الورد ، وأرضه المبلطة ببلاط أسود مبلولة ، وعليها ورق شجر جاف مرشوش منتشر وفروع خضراء دقيقية متلوية ، وجرادل متجاورة بازغة بالورد البلدي والقرنفل وأغصان ذقن الباشا .

كانت السيارات تقف في الدرب الضيق نازلةً بمقدماتها من على الرصيف ، وكانت الشجرة العتيقة تنزل بغصونها الغليظة الأثيثة على الباب . وفتحت لهم نبوية ، سمراء جدا وجسيمة ولامعة العينين ، وملابسها سوداء ، ودخلوا الحوش الصغير ، وكان مقمراً ومكنون الهواء .

وكان السلم الحجري الضيق العالي الدرجات جافاً ومنعشاً ، بين حائطين مسدودين تماما أحجارهما كبيرة ومظلمة . وعندما وصلوا إلى الدور الأخير كانت قطعة السماء المنيرة المحبوسة ، فوقهم ، تشير إلى خلاص غير مفهوم وغير مطلوب .

انفتح الباب عن عالم مفاجيء ، بعد طرقة صغيرة عبروها تحت أنوارٍ مسرجة مملوكية الطراز تومض كتاباتها الكوفية المذهبة على زجاج ملون بالأزرق المصري العريق ، حول مصباح كهربى ملوّن وصغير .

كانت الغرفة الفسيحة القديمة البناء دافئة بخار الحديث والأكل والشرب، وتغوج بلغظ الناس والحركة ، وفي البيت رائحة بصل الكباب المشوي والطماطم المحموشة ، وأحس ميخائيل بالبساط الوثير تحت قدميه بألوانه الدافئة ، بُني محروق وأصفر كَمُونِي داكن ويقع عميقة السواد متناثرة ، وكان على يمين القاعة ، ومن أمام ، شجرتان من أشجار الظل ، ناضرتين وجديديتين تحت النور المرقش الذي يهتز من مصابيح عربية كالمشاكبي معلقة بسلاسل نحاسية جديدة مدلاة ، من عوارض خشبية داكنة اللون جدا ومشققة وعتيقة ، في سقف عالٍ بعيد الارتفاع . والحائط البحري كله مشرّبة قديمة ، تعاشيق الخشب فيها متشابكة ومكتنزة ودقيقة الدوران بإيقاع لا ينتهي تكراره ، مقفلة على ذاتها ومفتوحة بلا نهاية ، أما الحائط الشرقي فهو على حَجَرِه العاري القديم ، أبيض ، طاهرا ، صارمَ الجمال ، وفي وسط الحائط صورة زيتية لمولد شمعي كأنها من فن الاطفال ، تُحضرها برسيمي سائدة ، ويقع الحمرة القليلة فيها تُعمق زحمة المواكب والذاكرين الذين يذهبون إلى آخر الساحة منظورهم يذهب نحو الصِفر باطراد . المواكب تمضي إلى عالم آخر خارج اللوحة ولكنه مُتضمّن فيها . البهجة الطفلية في اللوحة ، على الحَجَرِ العاري ، كأنما تأتي من قَبْل الطفولة وقَبْل الميلاد ولا تعرف الموت ..

وعندما دخلوا الغرفة كادوا يصطدمون بسنية منصور التي كانت آتية من اليمين ، من المطبخ بلا شك ، ترفع بذراعها صينيةً عليها أطباق صغيرة عميقة من الصيني الأزرق الرقيق ، تترقق فيها ، بكثافة مُشبهة ، عجينة مرقّة كبابِ الحَلّة البنية تبرز من زبدها الداكن مزق اللحم المقطوعة بمكّر ، ومازال بخارها يتصاعد في لفات بيضاء متطايرة ، فهتفت بصوتها العالي الذي ترتعش حافته ، مع ذلك ، بنوع من التهدج المردود :

— أهلا أستاذ ميخائيل ، وصلت أخيرا ؟ وأومات برأسها الى مصطفى وأحمد ، وأكملت : إيه يامصطفى .. وَلَا تغرية بني هلال ! اتفضلوا يابھوات .. ! اتفضل أحمد بيه .. !

كأنها — كعادتها — بحضورها القوي المُتقّم ، وجسمها الذي تندلق طواياه الضخمة ، وانبعاثاته التي تكاد تكون سليطة ، وثيابها الغالية التي لا ذوق فيها — قد استولت على المشهد كله ، لحظة . وكان ترحيبها ، بالتيابة ، صادراً كالعادة عن قلب يريد أن يسترضى ، بسداجة ، مهما كانت النوايا ماكرة . قال ميخائيل لنفسه : هذه بنت البلد القاهرية الحقيقية

بين كل هؤلاء الناس ، في عصر السادات ، وشراة الانفتاح ، نهمة إلى كل شيء ، على استعدادٍ للبطش واللبكاء ، للنهب والتضحية ، على السواء .

وكان رامة ، لذلك ، قبلت أن تترك لها القيادة ، بتنازلٍ محسوبٍ وموقوتٍ ومحددٍ جدا ، فقط في وسط هذه الجماعة ، فقط الآن .

وذهبت سنية بصينية الأكل مباشرةً الى قدري عبد الفتاح ، وكيل الوزارة ، بوجهه الطفلي المتهدل الخدين ، وصلعته الزاحفة تحت شعره المصفوف الأسود ، ينهج قليلا من ضغط جسمه الضخم عليه ، وزحمة الويسكي والحديث ، والى جانبه وجدي المحمودي ضيفه من إدارة الآثار العراقية ، يجلسان ، تحت لوحة المولد ، على المصطبة العريضة الرابطة المفروشة بمرتبة منجدة مكسوة بالقصب الأخضر الداكن والذهبي الباهت .

والتقط ميخائيل ، جلسة ، ترامق المغازلة الخاطفة والهمس الذي كأنه بديء بين سنية وقدري ، لأنه كان ينتظرها ويعرف أنها لابد ستحدث ، وهو في طريقه الى مقعد تقدمه له رامة .

وفاجأته رامة ، دائما تفاجئه ، بهذا الغنى الذي يشع ، كأنما رغما عنها ، بأنوثة ممتلئة لاثقهر ، وهي ترتدي البنطلون المحبوك الذي يبدو وكأنه مصبوب عليها ، خاصة ، والبلوزة الداكنة بياقتها اللينة وفتحها المثثة غير العميقة تسدل سلسلتها الذهبية الرقيقة تحتها إلى موطن النهدين الثابتين بكبريائهما الخاصة ، وقال لنفسه إنه لا يريد أن ينظر اليها حقبا ، ولا يريد أن يتذكر .

وهي تقول له : يا أهلا يا أهلا .. نحن اليوم زارنا النبي . شرفتنا ونورتنا .. ما هذا المناء الذي نحن فيه ؟

بابتسامةٍ في دماغها وعذوبتها نفى لكل مافي الكلام من سخريه عالية ، بل كأن السخرية الحارة نفسها تغطيةً للسرور الحقيقي ، وإحلابةً عنه ، كأنها تخجل من فرحها بلقائه ، وتساير به .

قال لها : أحضرت لك الرسالة الطويلة التي كنت كتبها لك في اسكندرية .

فأخذتها منه بخفة ، دون أن يلحظ أحد ، ووضعتها في درج المكتب الصغير في ركن القاعة ، تحت العمود الواحد المستدير الذي يستند إليه السقوف .

وأمامه انحنت سنية منصور على قدري عبد الفتاح ، وهي تقدم له طبقه الساخن ، وارتفع كفلها الضخم فجأة تحت عيني ميخائيل ، وانكشفت مؤخرة وركبها المدملجين العارين تحت الجوب القصير ، وسمع قدري يهمس ، كأنه لا يتصور - أو لا يهمنه - أن يسمعه أحد ، بلهجة فيها كثافة المرقعة التي يتناورها ، نفسها ، وتسايلها : ما هذا ؟ شكله لذيذ جداً من يدك .. سأخذه طبعاً مادمت تأمرين .. لك كل ما تأمرين ياستى أنا .. ! أما صديقه العراقي فقد رفع طبقه بنفسه من الصينية ، بعناية وحرص ، هادئ ، الجمود ، هادئ ، الابتسامة ، كأنه يخلي نفسه من مسئولية أنه سمع - وشهد - حكاية المغازلة المخطوفة وسط الجميع . كانت سلوى قد اقتربت بطبقها من صدرها الوفير ، وهي تنظر إليهما بقصد ، ومكر . أما نورا فقد كانت ترمقهما بصراحة وابتسامة .

تحلّق مصطفى وأحمد ، في الطرف البعيد من القاعة ، حول الصّحارة القديمة المفروشة بملاءة من كتان بنّي فاتح جدا مطرز بنقوش نباتية نخيلة ومدورة بالبني الأكثر امتلاءً وأكثر لمعانا ، وراماة تقدم لهما ، في طبق كبير ، ما تلتقطه من أطباق الجبن الأبيض الطري ، وشرائح الجبن الرومي القديم المشروخة الجفاف بصفرتها الداكنة ، والجامبون في لفائف رقيقة ينضج بحمرة وبياض نظيف ، والزيتون بلحمه الطري الأسود المجمّد بغضارة غنية في زيت الصافي ، وقد رُصت ، إلى جنب ، الأشواك والملاعق والسكاكين الفضية الصغيرة القد ، الرشيقة التدويرات ، مصفوفة على الفوط الصغيرة من نفس نسيج وتطريز المفروش الكبير . قال ميخائيل : النظر إليها ، وحده ، مُتعة . لماذا ابتدأها ؟ وهو يدور بعينه على زجاجات الويسكي البلاك آند وايت ، والكونياك المارتل ، والمياه المعدنية بركة ، والشينزانو ، والفودكا الاستوليشنايا ، والأوزو اليوناني كلها على جانب ، والأكواب والكؤوس المضلّعة الطويلة والمسحوبة والمنفرطة الفوهات ، يتكسر النور عليها تحت الأحلام الخشبية للخراط القديم الذي صنع المشربية المملوكية .

وعندما أخذ ميخائيل طبقه من يديها ، وفي يده الأخرى كأسه ، كان قد بدأ الضغط

داخله يتحلل، وجسمه يتحرر ويخف، كأنه قرر، من وراء نفسه، أن ينسى، الآن، كل مفضل
الحب القديم المتروك في داخله، أو أن يحيطه ويدفعه بعيداً في مكان غير محسوب حسابه، أو أن
يُحيد تهديده.

ورأى سامية، تحت شجرة القشطة التي تومض بخضرتها الداكنة، تقترب بشديها
الصغيرين، وجسمها بنحوه الملفوف المخادع، يدها السمراء الطويلة الأصابع تحمل كأسها،
وتهمس في أذن أحمد، وينفجران بضحكة قصيرة متواطئة، ويستندان بحرص، على جانب
المشربية التي انحبس الليل الخارجي - بقطع محددة من الظلمة، عكس نور الغرفة - في تخاريم
تعاشيقها الأنيقة.

قال لنفسه: نحن الممتهين في عقر دارنا، المحبوسين عن أن نرفع - حتى - صوتنا،
المطرودين نبيع أنفسنا، بالرخص، وبكبرياء، في شوارع الصحراوات ومدنها المجلوبة القاسية،
في الميادين الخلفية والمطابخ الخلفية لعواصم العالم كله، بحثاً عن الترانزستور والفيديو والفول
اتوماتيك نستهلكها وتستهلكنا في الشقة الجديدة المستحيلة أو على شط الترفة التي ماتزال تعص
بالبلهارسيا، نحن الذين مازلنا نأكل المش بالدود وأعواد الجعضيض، بالرغيف الجاهز المدعوم،
في أوان بلاستيك جديدة ونعالج البلاجرا، مازلنا بقطعة لحم عزيزة نأخذها من الحكومة بالعظم
والشفت ونفك الخط بصعوبة ونطلب من الغرباء أن يملأوا لنا استمارات السفر في مطارات مالطة
وطرابلس وجدة وبغداد، نحن، نحن هنا أيضاً. لا يمكن إلا أن نكون هنا. نحن المضروبين، من
أنا بينهم؟ نحن الغارقين في القهر المتزئ بأطمار حلقة، نحن الذين - برغمنا أو طوعاً وقراراً منا
في دخيلتنا - نئنق دخان جبل القمامة المحترق المتصاعد من صناديق الشوارع وصناديق
التاريخ، يلوث بيوتنا وقلوبنا، نحن الذين يرقبونا ويسرقوننا ويكذبون علينا ويخوفوننا ويجعلون
نفوسنا وساحاتنا وحراراتنا قفراً وخراباً، نحن المحاصرين الصامتين الذي نجري ونقف في الزحمة
صفوفاً بذئمة وراء اللقمة واللحمة، نضرب بأيدينا المتقبضة في الظلام ثم نترك أيدينا تسقط،
نحن الذين تنفض فوق رؤوسنا الأنقاض وتحترق بنا القطارات وتنقص السيارات وتنقلب
المراكب في مياه النيل اللامبالي العميق.

سوف تقول له: البلد راحت تحت أقدام الكلاب.

وسوف يحس الغضب والإهانة ، له ، وعلى الأكثر لها ، هي ، ولن يعرف أبدا إن كان في الغضب شبه إنقاذ أو شبه يأس .

جاءت زينب العصفوري ، بخطورها المتقارب ، لوجهها جمال غائب مصقول جدا ومحسوب جدا ، ورشاققتها مدروسة ، ولكن عينيها الشريقتين الشبقتين تخونان كل الحسابات والدراسات وتنم عن عمق من الجسيمة والبراءة الفيزيقية غير مصقول ، وهي تحمل الكباب السخن على صينية فضة طويلة ، في أسياخه الرفيعة ، وأنصاف البصل المشوي مُحَمَّرَةٌ وفَوَّاحَةٌ بين مُكعَّبات اللحم الداكن وشقق الطماطم المحروقة والبيض السمى لقطع الدهن الطيعة البشرة .

وإنفتح الباب الخشبي الثقيل المنحوت عن ضيف الشرف ، عباس فؤاد وزير الثقافة الأسبق ، وزوجته . ونحطر لميخائيل أنه كان من نجوم المؤتمر ولكن الاهتمام الرسمي به كان في اتجاه التجاهل ، إن لم يكن المُعاداة الصراح .

وحدث الهرج ، والارتباك المعهود ، نهض الجميع للتسليم ، وجلبت وضع الكؤوس والاطباق على الموائد المنخفضة وعلى الرفوف الرخامية في الطاقة الطويلة المنقورة في الجدار ، وعلى الأرض أيضا بجوار الكراسي ، وبينها جميعا حركة الاقدام الحريصة بالرغم من السكر الخفيف ، وابتسامات السرور التي تحفزها أيضا خفة الشرب والرضى عن الأكل ودغدغة الحواس من لعبة الغزل والغزل المضاد ، بينما رامة تقوم بطقوس الترحيب الذكية المدربة الناعمة الخواف ، بكل ما في رصيد بنت عائلات العز العريق التي تربت في الساكويه كير وكلية فيكتوريا والمدارس السويسرية لصقل البنات ، من بساطة فيها القدر المضبوط تماما من الشغل والإحكام ، وألفة فيها القدر المضبوط تماما من الرعاية والاحترام . فقد كان عباس فؤاد من قادة إحدى التنظيمات الشيوعية التاريخية ، وإذا لم يكن ينتمي إلى التيار العريض للحركة ، فهو زميل أيضا ، وله تاريخه في المعتقلات والسجون أيام فاروق وعبد الناصر ، قبل الوزارة ، وله تاريخه الذي بدأ يشحب كثيرا ويتوتر كثيرا بعد الوزارة ، وبعد أحداث الحرب ، والمعاهدة ، والانفتاح .

جلس عباس فؤاد وزوجته جنبا إلى جنب ، في وسط المصطبة المنجدة تحت صورة المولد تماما ، أفسح له قدرتي عبد الفتاح ، وجلس الضيف الأثرى العراقي ، بكرم ، على مقعد واطىء إلى جانبه .

كان وجهه الكبير محتقنا ، قليلاً ، بأهميته ، يبقينه الغائر الذي أصبح لا واعياً أنه ، هو ، يعرف ويُنفذ حتمية التاريخ ، وقَدَّر الشعب ، والحقيقة النهائية . وعيناه الجاحظتان تملآن نظارةً سميكَةً جداً ، وبطنه البارز يستقر على ساقين قصيرتين مدموكتين ، وكان تَرَصُّهُ وحِسُّهُ الثقيلُ بوزنه التاريخي يجعل وجوده على النقيض من بهجة اللوحة التي فوق رأسه ، كأنه يقطعها ويردها إلى خَلْفِ بعيد ، وإن كانت لها نداءات أحسها ميخائيل غير خافتة .

وكانت زوجته صموتاً جداً ، رقيقة الجسم إلى حد الذبول والجفاف ، فستانها الباريسى الأصيل يبدو باهتاً لاطعم له ولا كَسْم ، كل ما فيها يوحي بقرار قديم تُكُون عبر السنين ، بالضمور ومحو الذات والاختفاء . زوحها استأثر من زمن طويل ، بالحيز المتاح لهما كليهما ، وأكثر .

عباس فؤاد ، على الفور ، وفي يده كأسه ، وأمامه طبق أعدته له سنّة منصور ، باحترام واضح وتملّقي يتخذ شكل رفع الكلفة ، ينزلق في حديث فرديّ طويل بصوت مرتفع رغماً عنه ، ومتسلط كأنه لا يحس به ، وكأنه يخطب وفي الوقت نفسه يشكو ، يحكي وقائع شبابه وكفاحه . كأنما كانت الكأس الواحدة التي شربها أكثر قليلاً مما يحتمل ، أو كأن في داخله همماً يريد أن يفيض ، فانتقل ميخائيل بكأسه إلى الساحة الجديدة . ونظر إلى رامة باسمها ، وهمّ بالجلوس على الأرض . فقالت رامة ، في تواطؤ قديم كان أوشك أن ينساه وهي تجلس معه ، على الأرض : نعم ، نعم ، البساط أحمدى . ليس هناك أحلى من قعدة الأرض . وجلس إلى جانبه على الفور من الناحية الأخرى مصطفى وأحمد وتحلقت البنات حولهم . وردّ مصطفى ، بحذر وتحويط على مشاعر الرجل ، فأثار حكاية قديمة عن صراعات التوحيد القديمة بين الفصائل والتنظيمات ، وتدخلت رامة على الفور ، بلباقة واضحة جداً ، وتكلمت عن الأدوار التاريخية والتوضيحات التي لا يمكن أن تُنسى ، وعن تطور العلاقات بين القوى الاجتماعية والطبقية وتطور الوعي بهذه العلاقات ، وانتقل عباس فؤاد على نحو فجائي إلى حد ما ، إلى أن المعاهدة الآن هي المحكّ ، وأنه لا معيار هناك الآن إلا معيار الموقف منها ، ولا ضرورة إلا مقاومتها وإحباطها ، وأن وحدة القوى الوطنية كلها ، على الأصعدة الداخلي والقومي والدولي معاً ، إنما تناط بهذا المعيار .

كانت إيفيت الآن قد أخذت دور سنية منصور ، بمنطقٍ عفويٍ يأتي ، هكذا ، في داخل تطور علاقات الحفلات ، وكانت هي التي تروح إلى المطبخ ، وتجيء ، تصعد الدرجة الواحدة العريضة التي تدور وسط الغرفة الواسعة وتهبط ، بحركة نشطة كأنها تسبح في الدفء والثثرة والسكر والأكل ، ولا تشارك في الحديث . عرف ميخائيل أنها كانت قادمة اليوم من الاسكندرية مباشرة ، حيث نزلت البحر في برد أبريل المنعش ، وفهم أنها كانت مع صديقها الذي لا يعرفه أحدٌ منهم ، وجاءت ومازالت ، على قدميها ، في الصندل المفتوح ، آثار رمال المعمورة . وكان شعرها القصير جداً قد جف وعليه خشونة ملح البحر المتبخّر ، وكان وجهها المخروطي محمراً صوّحته الشمس تتقد فيه عيناها الحالكتان ، وصدرها خفيف وواضح أنه متحرر من السوتيان تحت البلوزة الرقيقة النسيج المفتوحة على بنطلون ضيق مُحكم على استدارات الجسم النحيل الذي ما زالت فيه سخونة شمس الشاطئ .

وفي نوع من الاستهتار كأنه مواجهة — أو هرب — من مسئولية ما ، قال ميخائيل إن المؤتمر كان عظيماً ، وكل شيء ، وأن دراسة الآثار بلا شك جزء من نسيج الثقافة الحيّ — مهما كان ذلك يبدو هامشياً ، ولكنه يريد أن يعرف ، حقيقةً ، ودعنا من كل الدعاوي والكلمات الضخمة والرنانة ، بل حتى دعنا الآن من الأيديولوجيات — صحيح أن الأيديولوجية وراء كل شيء ، بمعنى ما ، أي نعم ، لكنني أتمنى ، ببساطة أن أذهب إلى أصولٍ عاريةٍ في الأشياء ، ولا تقل لي إن ذلك أيضاً أيديولوجية ، المهم أريد أن أعرف ، حقيقةً ، مادور المثقف المصري الآن ؟ ماصلة هذا المؤتمر أو أمثاله ، بالناس ؟ لا أريد أن أقول الشعب ، أو الطبقة العاملة — إلى آخره ، حتى لا أسقط في شرك الصيغ والقوالب ، أعني الناس ، الناس المتحددين ، المتعنين وليس الناس كمفهوم، وتجريد وقيمة جبرية في معادلةٍ نظرية ، الناس الآن ، هنا ، بكل اختلافاتهم وكل تشابهاتهم وكل اشتباكاتهم ، نحن كلنا ، هل لنا دور ، ياناس ؟

وأدرك ميخائيل ، فجأةً ، وهو في هامش نشوة الشرب والبُوح والتحدّي ، ما كان يعرفه طول الوقت : إنه لا يريد أن يترك لطغيان حضور رامة أن يكتسحه من على الأرس ، أن نفح أنوثتها ، وتألّق وجودها ، وبراعتها كمضيئة وامرأة وشخصٍ نادر ، واستشارها ، كأنما برغمها ، بالاهتمام والقبول والتسليم من الجميع ، ذلك كله يقتحم ويمتلك كل الآخرين ، ولا يريد أن يتركها

تحتويهم جميعاً ، وتشتمل عليهم جميعاً ، تحتضنهم ، على نحو ما ، بصدر رحيب وثير ، فإذا هم ينبثقون من بؤرة واحدة ، هي ، وينصبون الى بؤرة واحدة ، هي . هؤلاء ، كلهم ، وغيرهم ، ليسوا إلا شظايا صغيرة دقيقة متناثرة من الجرة العظيمة التي لا يفرغ منها العجين الخصب أبداً .

وفهم أنها أحست بذلك ، وأنها عندما جلست إلى جانبه على الأرض ، كانت تريد له أن يُنفذ إرادته .

وتذكر ميخائيل ، مرة واحدة ، أيام الجامعة في اسكندرية ، وكيف كان لاسم عباس فؤاد رنة ومهابة في حركة الطلبة اليساريين سنة ١٩٤٦ ، لم يكن قد رآه ، ولكنه كان يناوئه ، من بعيد ، الحجة بالحجة والتنظيم بالتنظيم ، وتذكر ليالي الاجتماعات في غرف الطلبة من باكوس الى المنشية الصغيرة ، الغرف التي ليس فيها إلا مرتبة على الأرض والكتب ومائدة للطبخ والمذاكرة معا ، وترتيب خروج المظاهرات ، وتنظيم الاضرابات ، وصوغ الاسانيد والشعارات . كان عندئذ يتخيل عباس فؤاد نحياً ، كله حيوية ، لامع العينين من الذكاء ، فهل كان يلبس النظارات السمكية في تلك الأيام ؟ وتخرج عباس فؤاد من كلية العلوم إلى بعثة في فرنسا ، في نفس السنة التي خرج فيها ميخائيل من كلية الهندسة إلى البطالة ثم إلى المعتقل ثم إلى الآثار ، وظل التوازي قائماً ، لم يلتقيا قط ولم تتقاطع الطرق بهما قط ، ذهب عباس فؤاد إلى الزعامة والوزارة ، وذهب ميخائيل إلى ترميم الآثار وإلى الشعر والفلسفة يُرمم بهما انكسارات عميقة لا يعرف بأمرها أحد قط .

وتكلم قديري عبد الفتاح ، من داخل ضخامة جسمه ، الكلام القديم ، تلك القوالب التي من فرط صحتها أصبحت لا تعني شيئاً ، عن أهميه دور المثقف المصري ، وكيف أنه أستاذ المنطقه كلها ومعلمها ومربيها وكيف أن تراثه هو الذي غذى كل المثقفين العرب ، في المرحلة الأولى لتكوّنهم على الأقل . وقال وجدي الحمودي ، باكتفاء بالذات مشير ، إنه على الرغم من أزمة مصر الآن ، ووقوفها على مفترق طرق حاسم بين القومية العربية والغزو الثقافي الأمريكي إلى آخره إلى آخره ، فإنه يُقدر دور مصر الذي لاغنى عنه ، وعنده ثقة بأنها سوف تجتاز هذه المحنة ، وردت عليه رامة ، بغيظ ، كأنما تستنكر منه نوعاً من التعالي العربي على مصر ، وإعطاءه نفسه حق الحكم عليها ، وتكلمت عن حركة التاريخ ، وعراقه الإسهام الجماهيري الصامت ،

وثقله على المدى الطويل ، وقال عباس فؤاد إن حركة الجماهير هي التي تحكم الموقف كله ، وإن القيم الانفتاحية الاستهلاكية بسبيلها أن تدمر ، إن لم تكن قد دمرت بالفعل ، الثقافة المصرية ، وإن المناط مرة أخرى هو الكفاح ضد المعاهدة ، ولكن الوزير الأسبق ، فجأة ، لم يعد مُهَمًّا ، وكأنه ليس هناك ، وكأنه قد لحق بشبح زوجته الصموت المسوخة الحضور . وأثار ميخائيل مرة أخرى حكاية تنوع الثقافات ، وتحديثها ، في داخل مفهوم عام مجرد عن الثقافة المصرية ، من ليبرالية علمانية وإطلاقية عقائدية ، بمختلف ألوان المروحة من يسار إلى يمين ، وبين شعبية تحتانية وفولكلورية تسير إلى الانقراض ، إلى ثقافة الاستهلاك التليفزيوني والإذاعي الكاسح ، وكلها تعمل داخل هذه الثقافة المصرية . وسأل عن دور الأزهر الآن ، ودور الكنيسة الأرثوذكسية ورهبانها الذين يدرسون الآن النصوص اليونانية والقبطية والألمانية بلغاتها الأصلية في أديرتهم ، وعن غياب الناس - جمهرة الناس - عن كل هذه المشاكل ، أو على الأقل عن الوعي بها بوضوح ، وانغماسهم فيها حتى العنق ، حتى الفم الختنق والعينين المفتوحتين . وكان ميخائيل متألقا ومتواضعا وجذابا وعنيفا وحادا ، واقتربت منه زامة في جلستها على الأرض ، بجانبه تحت العمود الرحامي باستدارته الحسية الناعمة الدوران ، وتواجه الغامض اليوناني الشكل الذهاب بعيدا يستند إليه السقف الخشبي المعتم ، وشربا نجبا صامتا ، غير معلن ، وعنيفا حارا . وقالت له كأنما على حدة : يعنى لم تعلق بكلمة واحدة على أننى قصرت شعري كالغلمان ؟ نظر إليها ، وأحس ، تحت يده ، بالحرشة اللينة القصيرة ، كانت ليده ذاكرة حية ، وقالت : مريح ، وعملي ، ويوفر كل عناء الغسيل والكوافير وشغل النسوان في شعرهن ، وكنت مطمئنة على كل حال ، أن أحدا لن يخطيء . قال : ولا أدنى إمكانية شك . فضحكت وقالت : هل لاحظت إيفيت ؟ حلقت رأسها تقريبا . وأصبحت فعلا غلامية . أنت تعرفها .. عندها هذا ممكن . وغيرها وغيرها ، وأوشك الآن أن أضع تيار مودة في الشعر .

عندئذ كان مصطفى قد تهدل قميصه أكثر على وسطه ، وانفك الزرار العلوى منه ، وهو يضحك ضحكته المكترشة الطيبة الوقع مع زينب التي تقضم قطعة متأخرة من الكباب بأطراف أسنانها ، بحركة رشيقة وشهوية في وقت معا وسنية منصور تقول لها ، وهي تضع ذراعها الكبيرة المنبعجة اللحم على الكتف الرقيقة : ياختى كُلي على راحتك والبساط أحمدى ، كأن بينهما نوعا من الفهم الجسدي الأثوي الخاص ، وكان أحمد ، بشعره الفضى وتهضم وجهه ، يدندن لسامية بصوت حنون وخفيض : الحلوة دي قامت تعجن في البدرية .. وانضم إليه مصطفى

بصوته الخشن : الصنایعیة المظالم .. والهـم دایر علینا ، ودخل میخائیل : اضربها صرمة تعیش مرتاح ، فانضمت سلوی أخیراً ، بنغمة شجیة مدرّبة ، صوتها فیه بحة مثیرة ، ودوران بطنها موج ومحبوك ، وسمرتها رائقة : وبرضه لسه غلابة مظالم ، وكانت نورا تحكي ، أخیرا ، حکایتها ، بقلیل من الفلفل ، تمیل علی وجدی المحمودی الذی انتقل إلی الجانب الآخر ، بقوامها الطویل المسحوب وشعرها الفاتح الخفیف الوزن ، یهتز حول وجهه فیه فك بارز قلیلا ، كأنها فرس ذكیة ذلقة اللسان .

بعد الغنوة بدأوا ینزلون ، قام میخائیل وقال لمصطفى ، همساً : لا تنزل من غیری ، لا تتركني هنا .

عندما نزل علی السلم الحجری كان یحس أنه تحذل نفسه ، وتحذلها ، كأن حیاته نفسها - أیا ما كانت حیاته - تتوقف علی فراره ، متدهور القلب ، من حضور غیر مفهوم أبداً ومحمّل بالثندر علی أی حال .

قال لنفسه : ما كان أغرب هذا الخطر الأول نحو ذلك الزمن .

وقال : عندما أتحدث عنها الآن ، تبدو الأمور قاطعة الضوء ، واضحة الأحجام والحدود . لیس فـی ذلك شئ من الحقیقة ، فـی مَجْرَى الأيام واللیالی المختلط الأمواج ، حیث لیس هناك إلا شیه ضوء ، وأجزاء مضطربة القوام ومقطوعة الشكل . الضوء لا یأتی إلا فـی الحلم .

كل حدیث عنك یجرحك ، وكل حکایة عنك ظالمة ومتجنیة ، وكل إشارة إلیك ، منی أو من غیری ، كم هی قاصرة وناقصة ومعطوبة ، لأن الحب الذی أعرفه - بك - هو كامل وصاف وبدائی وجوهري . الحب يُطوى ولا يُحكي . إن أبخ بالسر أبخ دمی . فكیف أنكلّف ، مع المقتول قديماً ، ستر الهوى ؟ ألیس الحب فضیحة قتل ؟ والكتان أقتل ؟ .

كانت قد قالت له ، فـیما بعد : أنت فضحتني یاحبیبي .

المياه النزرة تجري في قنواتها الصغيرة الشحيحة . أما البحر الذي يهضب فهو مدفوع في الغور السحيق ، عواصفه المُجلجلة وهديره الوحشيّ لأمرئى ولا مسموع . هذا البحر يحلم بك ، كما يحلم بصحراء وديعة وكامنة الشراسة ، لا شمس فيها ولا نهاية لأفقها . طيات بطنك كئيبان حلمي المهّدة الوهدات . تعصف بي ، وتتقلب ، الأيام والشهور والسنوات ، ولا شيء يتغير ، والحب مصون ، يزداد سطوعاً ، ويتقد بلا خفوت ولا انطفاء . أنت لاتسمعين خادمة هذه النار ، لا يصلك اضطرابٌ شعاليها المتطايرة اللاذعة الأسنان . صوتها ، بلا انقطاع ، تعزف به كلُّ الأوتار ويملاً على كل طريق . صوتها ، صوتك ، صوتي . كيف أنطق باسمك ؟ كيف يمكن أن أنطق باسمك ؟ بكل الأصوات ، من العواء الموحجوع في الأحشاء الحيوانية إلى الهمس الوثير ، من حشجة القلب المختنق إلى النجوى المتقطرة بدم شفاف ، من الصرخة التي تعض عليها إلى النداء يأسه الرقيق ، كل الأصوات ، كل الأصوات ، شوق معتم مكتوم مليء ، عقدة غليظة الحبل ، مزدحمة بنوع من الجمر المتلظى المظمور . أضمت على الجمر قبضتي بلا انفكاك وقبضتي عليه رماً أبيض كشف ساكن الطبقات .

كانت قد قالت له ، فيما بعد :

— كنت قد ألفتك . لأنه كان يجب أن أبقى على قيد الحياة .

يا حبيبي . أي فقدان ..! كيف كان ممكناً - وكيف يمكن الآن - أن أفقد هذه الياقوتة الغنية المعقدة الحنايا المُلتفة على نفسها بطوايا الاشتعال ، ثم أقدر أن أعيش ، ثم أقبل أن أعيش ؟

كانت قد جفت آبار الدموع . أو هكذا خيل إليه .

كانت قد قالت له ، فيما بعد :

— ياويلي وياسرادي ليلي لو كان حبيبي يحب الألم !

وكان قد قال : أمقت الألم . لكن الألم هو صيغة العالم .

كلمات ، كلمات ، كلمات ، ضاقت صدري واختنقت بالكلمات . أليس عندي غير الكلمات ؟ كما أمقت الألم أمقت الكلمات التي تحاول ، وكم هي عاجزة ، وعابثة حتى ، أن تقول الألم . أريد الصمت الحاسم الفعال . أريد السكوت الذي يصنع جسمي وجسمك ، وهو وحده الذي يصوغ ، ويحكم .

هأنا لا أجد بين يديّ إلا الكلمات ، قطعاً صغيرةً صدئةً من صفيح ، وحتى ليس فيها لمعان .

السكات ..

على أن كل شيء مازال هناك .

قال لها : كنت في إيفا-يفيتش ، وقد أصبح الآن شيئاً رثاً ومترباً ، أشرب كوب شاي عكبر وأقضم ساندويتش فول ، بالعافية ، أنتظر قيام الأوتوبيس الصحراوي للاسكندرية . انتظرت يومها خمس ساعات ، أغلق الطريق فجأة ولم يفتح إلا بالليل ، ولم يقل لنا أحد شيئاً . كنا ، فقط ، ننتظر . رأيت الأوتوبيس يضربه ، أمام القهوة ، ويرتفع عن الأرض قليلاً ، ثم يسقط ، خفيفاً وكأنما لا وزن له ، إلى اليمين ، كومة طرية بلا حركة في الجلابية البيضاء غير النظيفة . تجمعت حلقة صغيرة من الناس ، وتعطل المرور قليلاً ، ثم انحرف عن الحلقة واتخذ طريقاً ملتويًا قليلاً .. بطيئاً قليلاً ، ثم استقام وأسرع . حملوه إلى الرصيف وتقدم شاب إلى الرجل المرمي وصنع ملاءة يغطيه بها من ورق الجرائد التي أسرع الناس يقدمونها له ، يفرشها بعناية فوقه ، أطرافها يطير بها الهواء قليلاً ، فيضع عليها قطع حجر وطوب يلتمها له الناس . وانفكت الحلقة ، بقي الرجل المغطى بالجرائد وحده على الرصيف . كانت الساعة الخامسة إلا ربع . في الخامسة والنصف جاءت سيارة النجدة ، نزل منها ضابط صغير السن ، لم ينحن على الرجل ، أعطاه القهوجي بطاقة شخصية أثبت رقمها عنده وردها إليه ، وعاد إلى السيارة التي مضت . في السادسة إلا ربع جاءت سيارة الاسعاف ، وكان الرجل الذي نزل منها يمثل دور بانتوميم ، أخذ البطاقة ، نظر إليها ، ردها ، وعاد إلى السيارة التي مضت . أضيئت الأنوار ، الزحام والأصوات في الميدان لا شأن لها بالميت ، الناس والسيارات والترام تأتي وتمضي . في السابعة جاءت جماعة

صغيرة من النسوة لايسات السواد يصرخن ويلطمن ويشورن بالأذرع وبين أرجلهن أطفال تجري في الفساتين والجلاليب . كان صوتهم لايكاد يُسمع في ضجة الميدان ، توقف الناس لحظة يرقبوتهم ، ولم تبطىء السيارات ، وجلسن على الرصيف حوله ، الصرخات ترتفع وتخت ، واللطمات على الحدود تشتد وترتخي ، وفي التاسعة جاءت عربة بوليس سوداء مقفلة ، عالية ، مما يُستخدم لنقل المساجين ، ونزل منها عسكريان وحمّلا الرجل إلى أرض السيارة ، وتطايرت الجرائد على الرصيف .

قال لها : أربع ساعات وربع ، بالضبط ، حسبها ، بعد أن جاء الوحش إلى الميدان .
وذهب . هل ذهب الوحش حقا أم مازال هناك ؟

همست ، بغيظ : الوحش مازال في الشوارع طبعاً .

قال لها : أحكى لك هذه الحكاية لأنني بعدها بيوم واحد قبلت ، أخيراً ، دعوة سوزي الكاتب أن أذهب إليها ، في بيتها في بولكلي . أنت تعرفينه ؟

قالت ، بانتظار وترقب : طبعاً .

قال : كانت هذه المرة الأولى ، التي اتضح بعد ذلك أنها الأخيرة أيضاً .

قالت ، بنوع من التحدي ومُغالبة غيرة لا تريد أن تظهر : ولماذا الأخيرة يا حبيبي ؟
لماذا لم تأخذ راحتك ؟

قال : لا ، بجد ، كانت زيارة غريبة جداً ، وتاريخية !

قالت : عيني يا عيني ، وتاريخية أيضاً ؟

قال : نعم . صبرك علىّ أحكى لك ، شقّتها كما تعرفين في آخر دور في عمارة عالية

على البحر . نُهت قليلا ثم عرفت البيت . كان الجو في أواخر سبتمبر أكثر حرا من المعتاد ، والبحر رصاصياً في الغروب ، وهوأه مكتوم . وعندما دخلت أحسست بالشقة خالية وهادئة ، ولم أكن أعرف هل هي متزوجة أو مطلقة وهل لها أولاد ، ولم أسأل طبعاً . لاحظت على الفور أناقة الأنوار والبورتريهات الثلاثة التي رسمها لها حسين داود بأسلوبه المتميز حتى وإن لم أر التوقيع . كان في اللوحات حب ، مرسوم ، واضح ، وبألوانه الخضراء المتناسكة النسيج والرمادية المشهورة ، وكانت نياقها الرفيعتان جدا موضوعتين في نور شيقى داكن .

قالت : حسين داود نعم . قصة حب كامنة لا يعرفها الكثيرون .

قال : أما يوسف نوح فقد كان كعادته وغداً معها ، كما تذكّرني .. هل تذكّرني المؤتمر في أسوان ؟ صحيح ، كانت معك في غرفة واحدة في الكتاراكت القديم . قلت لي مرة إنك كنت تكشفين في حقيبة يدك قطعة من ملابسها الداخلية ، هكذا بدون مناسبة .. !

ضحكت ضحكتها الجافة ، كأنما بدون صوت وقالت : يا عيني عليها . كادت تموت . أنا قلت له بصراحة ووضوح إنه كان وغداً معها . مسحت به الأرض . أفهم أن يستلطفها مثلاً ، يخرج معها ، ينام معها حتى ، لأبس ، مفهوم ، مقبول . ولكن أن يعاملها هكذا ، ثاني يوم ، مباشرة ، يرفض أن يرد عليها بالتليفون صباح اليوم التالي بعد أن أخذ منها ما يريد ، وقال لها كل الكلام الحلو ؟ كاد يقتلها والله ، دون أي مبالاة .

قال : ممثلنا العظيم مشهور بالسفالة ، هل رأيتته أخيراً ؟ هل رأيت كيف تحول وجهه العريض المنحوت إلى شيء بشع من الشرّ والتمزق . موهبته كانت حوشية .

قالت : لم أعرفه جيداً . لم أحس أبدا نحوه باحترام .

قال : ماعلينا .. قدمت لي كأساً ، كانت قد أعدت الثلج والماء والويسكي والفسدق ، على صينية فضية عليها نقوش معابد وياجودات من الشرق الأقصى . كانت ترتدي .. دعيني أتذكر .. بلوزة حريرية خضراء يانعة منقطة بالأسود وصدرها البني الغامق مفتوح وحر ، وينطلقون ملتصق بنحول جسمها ينتهي بعد الركبتين بقليل ، بلون الفسدق الأخضر الفاتح جدا ، غريب جدا مع لون ساقيها المحروق السمرة ..

قالت : وفاكر أيضا كل هذه التفاصيل يا حبيبي ؟

قال : وحدثتني عن بريتون وأعطتني نسخة نادرة من الطبعة الأولى من « الحب الجنوني » وكانت تنحني عليّ ، بتدبير والله ، وهي تصب لي الويسكي وتمسك بيدي أيضا وأنا أشعل لها السيجارة ، وأخذت عيناها تغيما قليلا ، وأنت تعرفين حلاوة صوتها .. أقول لك الحق كنت متحيرا قليلا ، ولأأريد أن أقتنع بما أرى ..

قالت : أيوه يا سيدي ..

قال : لا .. المهم هو ما حدث بعد ذلك . النهاية كانت مفاجئة ومسرحية جدا .

قالت : نعم ، ماذا حدث ؟ قل لي على النهاية المفاجئة ، المسرحية جدا ..

قال : والله .. كانت الأمور تقترب من اللحظة الحرجة ، ولم أكن قد قررت شيئا ، أيا كان ، عندما دق جرس التليفون بالحاح . قامت وردت عليه . كان التليفون بجانب باب الشقة ، بعيدا عني . لم أسمع شيئا ، وعادت فصبت لي كأسا ولنفسها أيضا ، وكانت مضطربة قليلا ، وهي تتكلم بعذوية وإصرار عن أندريه بريتون وتريستان تزارا ، وبعد دقائق عاد التليفون يدق ، فهضت مسرعة ، وبدأت أقلق ، وسمعت صرخة مكتومة قصيرة منها ، وعندما عادت كان وجهها الأسمر الغامق كأنه زاد ضمورا ، وبرزت عظمة خدها ، وتحت سمرة شحوب واضح ، وشفثاها ترتعشان . وقفت ، وقالت لي إنها إذاعة الإسكندرية ، وكانت تكتب لهم برامج خاصة ، وقالت إن الإذاعة في القاهرة أوقفت برامجها منذ نصف ساعة ، واكتفت بإذاعة القرآن فقط ، وقالت إنهم تكلموا الآن وقالوا إنه الرئيس .

قلت ، غير مصدق ، وقد سرى في ساقى نوع من الحذر والخفة : من ؟ عبد الناصر ؟ ماله ؟ وصوتي سمعته مرتفعا ، كأنني أصرخ ، ولكنه خشن قليلا لا أعرفه .

كادت تجهش وهي تقول لي : نعم ، ميخائيل .. نعم .

ولم تستطع أن تقول الكلمة .

ووجدتها بين ذراعيّ ، كل جارحة فيها تنفض .

قلت مذهولاً ماأزال : غير ممكن .. لا أصدق .
قالت ووجهها على صدري ، بصوت مكتوم نعم .. نعم .

كنت أحس من وراء الجدران والشبابيك المغلقة نوعاً من الصمت ، في الخارج ، قد سقط على المدينة ، على البحر ، على كل شيء . ودارت في ذهني صور مضطربة ، ماذا سيحدث الآن ؟ هل يعود مجلس قيادة الثورة ؟ هل يخرج الضباط ؟ هل ينفجر الشارع ؟ وكأنني رأيت الدبابات تخرج إلى الشوارع ، مشرعة المدافع ، وكأنني أعرف أن حظر التجول سوف يُعلن بعد قليل ، أو كأنه قد أعلن بالفعل ، وتخلت المدينة إلا من العساكر ، وكأنني سمعت طلقات الرصاص تتردد أصداؤها في محطة الرمل ، ومحطة مصر ، وأسمعها وأنا في بيتنا القديم في راغب باشا من وراء النوافذ المغلقة .

قلت لها : سوزي .. أنا .. لازم ..

قاطعتني : نعم .. نعم ، إذهب الآن .

وكانت عيناها مبللتين وضارعتين ولامعتين ، بسوادهما الخارق ، وفيهما يأس طفولي ، رفعت إلي شفتيها ، بتوسل ، أحسست بجفاف عظام ظهرها تحت يدي ، كبتت صغيرة متحيرة ، وحتى لحظة الحنو هذه لم تبق معي ، جاءت ثم غابت تماماً ، الآن فقط أذكرها ، ولم أحس بقبلتها الغريبة . وعندما نزلتُ كانت الشوارع فعلاً مضمرة بصمت كامل ، والعربات القليلة ترق بسرعة وسكوت كأنها تريد أن تختفي . هكذا غرفت يموت عبد الناصر .

قالت رامة : هل احتاج الأمر أن يموت عبد الناصر يا حبيبي حتى تتخذ قراراً في مسألة سوزي الكاتب ؟

ثم قالت بسرعة : لا . لا تفضب يا حبيبي . أنا أعرفك . أنت بيوريتاني بالطبيعة

أمواج الليل ، في الخارج ، سكنت ، وحوشاً منفية على صخورها الرابضة .

قوارير الاحشاء المحنطة : المخ والقلب والمعى والكبد وسائر الأعضاء المُخَيِّبة المغمورة في القار والنظرون . والأفاريه الغربية ، في وَهْمِ تجاوزِ الموت ، وَهْمِ تجاوزِ الزمن . النادبات يشلشلن بالطرح السوداء ويستصرخن الميت الذي لم يبرد بعد ينادينه أن يجيب مازال التراب المخبث على شعرهن المرسل المفكوك خشناً وحبائهُ على الحدود التي تضرجت بالحمرة من اللطم والأصوات قد بحت من صرخ النداء واللوعة نصف مصنوعة نصف ساخنة .

وأدخُلُ في أدغال الاحلام الوحيَّة الوابلة بالعَدَق يُحوِّلُها الصباح إلى صحاري من القحط المُصَوِّح في حَبَّة قلبي .

صرخه بوق القيامة في كويٍ موحش نحاو ليس فيه أحد كأنما رمال الصحراوات الشاسعة لم تطأها قدم منذ البدء السحيق وحتى النهاية التي لن تأتي أبداً والأفق الفسيح المترامي إلى غير أفق يدوي بصرخة البوق ، ملائكة البوق لا يراهم أحد ، لأنه ليس هناك أحد ، ولا الملائكة .

أما هي فقد قالت له :

— قبل طلوع الجنازة صممتُ أن أذهب الى مجلس قيادة الثورة ، أودِّعه . نزلتُ في الفجر تقريبا ، وفي يدي منال . كانت صغيرة وكنا نكاد نجري في الشوارع التي ابتدأت تمتلئ بالناس كل الناس ولم تكن الشمس قد طلعت بعد . لم تكن هناك سيارات ولا أوتوبيسات ولا عربات نقل بل ناس ، ناس ، صامتين ، مفقودين . وحتى عندئذ ، قبل أول الصباح كانت صورته في كل مكان ، واللافتات المكتوبة بأي شكل وبأى خط ، بكلمات التوجُّع ، كتبوها وحدهم من غير تعليمات . وقبل كوبري الجلاء كان هناك كوردون عسكري ، بعرض الشارع . ولكني لم أتردد . واقتربت ، واستمررت في المشي ، أخطرت الكوردون . العساكر ، صبية صغار من الأمن المركزي ، بوجوه طفليَّة سوداء مغلقة يقولون : ممنوع ياستي . . . ممنوع .. إرجعي ياست ، وصفهم يضطرب قليلا ، ولم أكن أنوي الرجوع ، ومنال في يدي صامته ، متعلقة بي ، مُعلِّقة العينين بالعساكر ، فتقدَّم إلى ضابط شاب ، الكاب الأنيق على رأسه ، ومد ذراعه يعترضني قبل أن أنفذ من بين العساكر ، صرخت به : أريد أن أرى جمال عبد الناصر . قال : غير ممكن ياهايم . ممنوع . اتفضلي . قلت له وقد ارتفع صوتي ، وتهديج ، وكدت أفقده : بل ممكن . بل ضروري حتى . ضروري . ولن أرجع حتى أراه .. لست هايم أنا .. عبد الناصر أبطل حكاية

الهوانم .. وبنتي هذه سى بنت عبد الناصر . هو الذي رباها ، على حب البلد ، على حب العروبة ، وعلى الأجداد ، وحتى في الهزيمة هو أبوها ، وأخونا ، ومعلمنا كلنا . ويجب أن تراه منال ويجب أ - أراه أنا .

كنت تقريبا قد أصبحت هستيرية واكنى محتفظة بجأشئى . وأفحم الولد الضابط ، لم يعرف كيف يرد على . كان الكوبري خاليا تماما في آخر الفجر .

قال : وماذا حدث ؟

قالت : ذهبت . قال الضابط لعرض معه : « إذهب معهما » . ودخلت أنا ومنال ، بين الحرس . ورأيتُ النعش الملفوف بالعلم . لا أذكر كيف رجعت .

كانت عيناها جافتين . وكانت الدموع في عينيه .

تذكر كيف كانت الدموع تجيئه ، رغما عنه ، وتتوقف وتجيء ، وهو في اسكندريه يرى الجنازة في التلفزيون . كانت طائرات الهليكوبتر الثلاث ، صغيرة في السماء ، تحلق في شاشة التلفزيون ، إحداها تحمله . أيها ؟ كان قلبه ينقبض من الروع والجرح . والموكب الرسمي الغريب الذي بدأ مهيبا وبطيئا ، والوسادة الصغيرة التي عليها النياشين وعربة المدفع التي تحمل النعش . ثم الانهيار . والحرس العسكري يقاتلون بأجسادهم دون أن ينسحق الامبراطور النحيل القصير ، ويصنعون سدا مستميتا أمام الجماهير التي لم تعد تريد شيئا إلا نعش عبد الناصر . سقوط الرؤساء والزعماء والوزراء وملوك الأرض في الطوفان ، تدفق أمواج الناس دون حائل ، صرخة الفجيعة الواحدة المتعددة الطبقات الصاعدة إلى عنان السماء ، الناس بلا اسم بلا انفصال جحافل لاعداد لها متلاصقة تهدر في كتلة واحدة متحركة مع النعش الذي ضاع تماما وذاب في وسط الناس يغوص بينهم ثم يطفو ، والذين سقطوا من على أعمدة النور والشرفات ومن على تمثال رمسيس وتلقفتهم الأذرع والصدور في موجههم المنتظم ، ولكنهم حرسوه ، وحدهم ، حتى الجامع .

قال ، وصوته يرتعش رغما عنه : كانت مصر أيامها مجيدة .

ثم قال : مجيدة ، نعم ، أين هي الآن ؟

ثم قال : ولكنى لا أستطيع أن أنسى ، أيضا ، التعذيب ، تشبيح أجساد الرجال ، إقرار الخوف في قلوبهم حتى تفسد وتنتن ، الكلاب المدربة التي تمش سيقانهم وخصيهم ، الحرق بالكهرباء في أعضائهم ، وأعتاب السجائر المشتعلة المدفونة في بطونهم ، كيف يمكن أن تُنسى ؟ حطُّمُ الرؤوس بالعصى ، والجُلْدُ اليومي في الزنازين بالكراييج حتى لا يعود لها ألم ، تقريبا ، إذلال الرجال بأسماء النسوان ، ولذائد الأرهاب الشائهة . والمقامرة بالجيوش في حسابات عصابات التسلط ، وتمزيق أرض الوطن ..

قالت : ربما .. ربما .. ما أقل ثمنها من أجل ما حدث . من أجل اللقمة الطرية التي أكلها ابن الفلاح لأول مرة ، والكلمة التي تعلمها لأول مرة وكسرت شوكة الباشوات والانجليز والخواجات ، وتوحيد الآمال والرايات ، وإلهام الجوعى والمفهورين في العالم كله بحلم الحرية الساطع أنور والأمان من الجوع وذل البطالة ، والكرامة التي ملأت صدورنا ، ورفعت رؤوسنا ، وصعدت السد ، والحديد والصلب ، واخضرار الأرض ، وتطهير أرض الوطن ..

قال : ألم أقل لك مصر كانت مجيدة ؟ كم ثمن المجد قادم مقطوع من لحم المتهنين ولحم القتلى .

قالت : وبماذا نقابل القتل الآخر ، العدوان الآخر ، القهر الآخر ؟

قال : ليس هناك مفر . للأنبياء والثوريين والذين يريدون تغيير الانسان وتغيير العالم وجه الحنان القتلى .

ثم قال : فقط ، مَنْ هم الأنبياء ، ومن هم الأنبياء الكذبة ، من العادلون ومن القتل ؟ من يحمل وجه الحق ؟ وكيف نعرفه حقا ؟

قالت ، بصرامة : لانفر من الاختيار .

عندما كانا معا في مؤتمر آخر ، من زمان ، مرّت عليه في غرفته في الكتراكت القديم ،

وطلبت اليه أن يراجع معها ، بسرعة ، بضع نقاط في بحثها عن الپاليوجرافي ، وكانت تريد أن تتحقق نهائيا من كلمة أشكلت عليها قليلا في نقش عربي قديم وجد سنة ٢٣٠ للميلاد في وادي فران في سيناء ، وعلاقتها بالخط القبطي . كان صدرها يرتفع وينخفض في قلق الاستعداد لإلقاء البحث أمام جمهرة غريبة عليها من الباحثين ، وخيل إليه أنها في الواقع تبحث عنده عن رسالة تشد إليها هذا التوجس - غير المؤلف منها - وعن ثقة في مويج مضطرب ، وضع يده يضغط قليلا ، بحنو ، على صفحة وجنتها ، وأحسها باردة قليلا ، وعندما قال لها إن بحثها بقدر ما يرى رائع وممتع وأن لديه اليقين الكامل بأنها ستقول أشياء هامة وشائقة وتقولها جيدا ، وأنها كالعادة ستأسر الناس ، قالت له : الله يخليك يا حبيبي ، بغياب ، واتفقا على اللقاء في الكاتاركت الجديد بعد انقضاء الندوة العلمية ، في العاشر تماما . وعندما صعدت الى المنصة وكان شعرها طويلا عندئذ ، ومُلقي كله إلى جانب وجهها الصباح السمر ، وبدأت بصوت فيه ارتعاش أنثوي خفيف كأنه يلتمس المذرة سلفا ، ثم ثبت الصوت وركز وانطلق وقد فقد الحس بذاته في تناوله للموضوع المعقد الذي تبسطه بتمكن ومقدرة ، وإن لم يفقد المستمع ، لحظة واحدة ، حسه بأنثوية الصوت مع ذلك وامتلائه الموسيقي الوائق ، على الرغم من صعوبة الكلام ، بل بسبب هذه الصعوبة نفسها ، وعندما صعدت هبة التصفيق التلقائي والجار من مجموعة الأثرين الذين أصبحوا من ساعتها زملاء وأصدقاء، لعله كان ، في جلسته في الصف الأول ، الوحيد الذي لاحظ حركة يسيرة من قدميها ، من وراء القائم الخشبي الضيق الذي يحمل الميكروفون والمصباح الصغير وكوب الماء ، والقريب من مدخل المنصة الجانبي ، والوحيد الذي عرف أنها خلعت حذاءها الشيك الناعم الجلد ، من وراء خشب القائم ، وأنها ألقت البحث الجاد الممتع وهي حافية القدمين على بساط المنصة الكثيف الوبر ، وأنها بعد موجة التصفيق سقط الورق منها ، وكان يعرف أنها أسقطته عمدا ، فانحنى تجمعه بسرعة وأدخلت قدميها في الحذاء ، وخرجت ، خطوتين إلى جنب ، فكانت وراء الستار الجانبي للمنصة ، ولاحظ أن محمود ينهض من مقعده وراه ، ويتجه إلى الباب الجانبي للقاعة ، وبعد قليل أيضا خرج عبد الجليل ، بينما استمرت الأبحاث تُلقى من بعيد ، والمناقشات تصعد وتهبط ، وهو غائب ، مثبت بمقعده بلا حراك ، متحجر من الداخل والخارج معا ، حتى التاسعة والنصف .

وبالطبع لم تأت في الميعاد ، للكاتاركت الجديد ، وكانت الدقائق تمر عليه بأقدام ثقيلة . يخرج الى الردهة المنيرة المزدهمة ثم يعود للكافيتريا بسرعة ويطلب قهوة ، ثم كونيكا ، ثم كأساً

آخر ، وذهنه قد اشتعل بحيرة مرتطمة ، وتمر نصف ساعة ، ثم لا نهاية من الوقت حتى تمر ساعة ، فيتخيل أن الميعاد كان في الساعة الحادية عشرة وأنه أخطأ ، وتبدأ دورة جديدة وقوية من الانتظار والقلق والعذاب الممّض ، كأنما لم تكن قد دارت دورتها الكاملة بالفعل ، وبايقاع أثقل وأفدح ، حتى منتصف الليل ، ويعطى نفسه خمس دقائق أخرى ، ثم دقيقتين ، ثم لا يحتمل ، كأنما كان قد احتمل ، لكنه يَفْصَم ، يَكْسِر الدورة فجأة ، من غير سبب ، فهل كان ثمة سبب للدورة كلها ، أصلاً ؟ ويعود إلى غرفته ، الليل حوله سجن مطبق ، وهو لا يعرف إن كان قد أكل شيئاً ولا يعرف إن كان قد ترك بابه مفتوحاً ولا يعرف كيف سقط في نومه ولكنه يتيقظ فجأة نصف يقظة في غرفة الفندق التي يجدها مُضاءً بنورٍ خشنٍ ومنسى ، وفي جوفه ألمٌ كإبرٍ ممزق ولكنه بشكيل ما لا يحسه كأنما الألم يخرج من شخص غريب عنه ، ورعدة حُمتي لا علاقة له بها تنفضه ، ويرى نفسه ، كأنما من مكان آخر ، خطواته تجري به حافياً إلى الحمام الضيق المظلم ، وهو يقىء العالم كله من داخل أحشائه ، يرفض السماء والأرض ويقذفها كلها إلى خارجه ، عضوباً ، جسدياً ، في صراخ القىء المتشنج المتتابع ، لا يملك من أمره شيئاً ، ويحس على وجهه خيوط الماء المالح القديم تنهمر عنه بلا إرادة ، لا يعرف ماهي .

وعندما يجد نفسه على السرير ، بملابسه ومن غير حذاء ولا جورب ، من غير غطاء ، يسمع دقائق سريعة على الباب ، ويجد حوله عبد العزيز وإيفيت وسامية منحنيين عليه بوجوه فيها اهتمام وقلق وكل المودة والرعاية ، ويحس نفسه تهتز وتجيئ لحركة الزمالة المفاجئة ، وهم يسألون ماذا حدث ؟ ماله ؟ إيفيت بالروب دى شامبر تقول بصوتها الصغير الساذج : آتيك بقرص ؟ وكيف أنت الآن ؟ وتضع يدها الجافة النحيلة على جبهته ، وسامية تلف الغطاء حوله ، وهو يتسم بشجاعةٍ وإنهاكٍ كاملٍ ويقول بصوت فرجىءٍ بخفوته وبُحْتَه : أبداً تعبت قليلاً . كل شيء الآن تمام . لا ، لا أنا أحسن .. ويسأل الساعة كم ؟ ويقول عبد العزيز إنها الثالثة صباحاً وإنهم استيقظوا على صوته ، وأنه كان صوتاً فيه صراخ وتشنجٍ فظيعٍ ، فجاءوا إليه جرياً على غير اتفاق ، كلاً من غرفته ، وقلبه يجيش مره أخرى ، وعبد العزيز يطلب الشاي الدافئ من الكافيتريا بالتليفون ، وتخرج إيفيت لتأتي بقرص السبازمولين ، وعادت ومعها رامة ، بقميص النوم الطويل ، واقتربت منه وسألت عنه ، وقالت إن إيفيت خبطت على بابها كأنما لكي تستنجد بها ، ولم يكن يعرف كيف نظر إليها ، كان يعرف فقط أن هناك عذاباً لا يوصف ، وراء عينيه المرفوعتين إليها ، ولم يكن في غرفته غير كرسيين ، فجلست رامة على الأرض مستندةً إلى الحائط ، وكانت تنظر إليه وهو يحاول أن ينهض قليلاً ليجلس على السرير فيسارعون جميعاً إلى دعوته أن يستريح ، ورفعت ركبتيها أمامها وغطتئها بحاشية قميصها الأزرق الباهت المطرزة بشریط من

الدائلا الصغيرة جدا باهتة اللون أيضا تحت الضوء القليل في غرفته ، وأحس الشاي والحنو والزمالة وفعل القرص المهديء كلها دافئة في جوفه ، وهم يتبادلون الأحاديث عن الندوة وحكايات المؤتمر والسفر القريب بعد غد والرحلة مع الضيوف إلى السد العالي وسفر فريق الواحات بعد ذلك ، وكيف أن قدرى عبد الفتاح سيضع قائمة توزيع السفر غدا ربما على الأكثر ، وكانت رامة صامتة جدا على غير عادتها ، كانت تعرف . وكان الهدوء يعود فيتسلل إليه وقد اطمأنوا فخرجوا وتركوه لينام وأطفأوا النور .

كان النوم يُرثق بعينه في استسلام الجسم المنهك لليأس القديم ، عندما خيل إليه أنه يسمع دقات رقيقة متتابعة على بابه ، ولم يكذبهم بالنهوض حتى انفتح الباب ، وفي العتمة التي لا يضيئها إلا نور القمر من وراء زجاج النافذة الجانبية ، رآها مندفعة إليه ، صامتة ، وجهها متقد بعزم جسدي متوهج . نُضت قميص نومها بحركة واحدة خاطفة ، وانزلت إلى جانبه تحت الغطاء الخفيف ، كل مجد جسمها العاري المتموج وهو يتلقى دفقتها الجارفة بين ذراعيه ، والأطراف المنبعثة تتماسك وتتشابك ، وترتفع وتنعقد ، تتماس وتلتحم في موسيقى التكشف والتعاقب الحارة ، كان جسمه يبيض بالارهاق والتنهك والشبق معا ، تسوقه اندفاعات متعاقبة ومتزامنة من الحب والرفض والعرفان والسكران معا ، وعندما خف ضوء القمر من وراء الزجاج ، وتقطر منه غبش الفجر المبلبل بنور شاحب كان الصراع مازال يدور بين الجسدين المعدنين المقذوف بهما إلى أحدهما الآخر قذفاً ، من غير حسم ، على السرير المهوش الذي تشعث فرشه وانحرف يكشف جانبا من المرتبة وسقطت ملائته على الأرض . واندفعت فجأة ، مرة واحدة ، وقبل أن ينسدل قميصها على بذخ الجسم المخدول كانت على الباب دون كلمة . وتذكر أنها كانت ليلة سبت النور ، وأن الجمعة الحزينة قد انقضت .

كانت قد قالت له ، فيما بعد : هل تعرف أنك جرحتي ، ليلتها ، وجدت نقطة دم على .

ولم يكن . يذكر ، على الاطلاق ، هذا العدوان الفيزيقي الخشن من جانبه ، لم يكن يفهمه حتى ، أو يتصوره أصلا .

وبعد الغد ذهبوا لترميم المعبد الصغير القديم في الصحراء .

عندما قالت له : تعال قل لي تصبحين على خير ، وغطّني حتى أنام - كأنها تريد أن تختفي عنه ، وعن قسوة العالم كله - دخل معها إلى غرفة النوم في بيت الشعري اليمانية . كان السرير مهوشاً والملاءة مكورة تحت قدميه . كان الديك الجسور المطرز بالأحمر والأصفر ، على الحائط ، طالما صاح بزقاع بهيج وملء بالحرية في فجر متكررٍ من الضوء الساطع على أمجادهما القديمة ، مازال يطل عليه ، فاتحاً منقاره الأحمر ، أنحرس الآن . وكانت الستارة الثقيلة مسدلة على اللوح الزجاجي الواحد العريض في النافذة التي صنعها من الألومنيوم والخشب المعرق في الحائط الحجري السميك ، وكان يعرف أنها تطل على المآذن الرشيقة كالإبر تطعن السماء ، وعلى مقابر العاشقين الثلاثة ابن الفارض وجميل بثينة وكثير عزة في صحراء المقطم المزدهمة بأجداث الفجّار والعشاق والقتلة والضحايا القدامى . وكانت الدبّة التي اشتريها معا من اسكندرية ، في فجر حبهما العتيق ، مارالت معلقة بقدميها ويديها ، بفروها الساعم البني الفاتح ، تلتصق بقائمة السرير الخشبية اللامعة . قالت له إن عفاف الحمزاوي كانت عندها ، باتت معها الليلة الفائتة ، ولم ترتب السرير عندما قامت . كان يعرف صاحبها القديمة ، صلبة ضامرة قائمة العود ، تمسك بعصا ، وترتدي البنطلونات دائما ، أو معظم الوقت على الأقل ، قوية القبضة قوية الفك ، في عينيها نظرة جامدة وحادة ، وكانت عفاف الحمزاوي لاتلين ، ولا تصبح إنسانة تقريبا ، إلا مع رامة ، وقد كبر أولادها الآن ، وتركوها ، وهي تذهب أحيانا إلى رامة وتقضي الليلة معها . وأحس ميخائيل بلذعة هيّنة جدا من الغيرة ، تدعو فقط إلى الابتسام ، لا أكثر .

كان عليّ أن أعطيها من عري وحدتها القاسي ، ومن الأيدي المتطلّبة .

وكان قراري أن أتركها لوحشة الليل الخاوي ، ظناً مني بأنها هي التي تريد أن تُخرجني إلى الليل ، الآن أو قبل الثامنة صباحاً سواء على أي الأحوال ، من دفء القرى الوثيقة التي عدنا فعثرنا عليها من جديد ، لآخر مرة .

أنا الآن في الخارج ، فماذا أقول ، وقد أصبحت كُلي شوقاً مجسداً إليك ، وتفا لا تحقيق له . أريد أن أسبر غور عينيك الذي لايسر أبدأء أن تزدهر في طياتك الباذخة زهرتي الوحشية الممتلئة المتفحصة ، أن ينفجر الدوىّ بأنني أحبك حتى يملأ أطباق السماء والأرض ، أن تحترق شفّتي وتنعمان مرةً أخرى بمذاق واديك الناعم المخضّل ، ماذا يحدث لي ، ماذا يحدث ؟ والعالم مدمّر ومدمّر يحيق بنا . لست أنا ، لست أنت ، بل جحافل الساقطين . وماذا تمهم الأعداد ؟

قِتلة واحدة غير مبررة ، لأنها لا يمكن أبداً أن تكون مبررة ، تعدل كل الذلّسات والطوباويات والعقائد والأيدولوجيات بل ترجح كفتّها في الميزان . قلب واحد مضروب يتنزى في الوحشة والشوق والغربة أفدح ثقلاً من ملكوت السموات . لست أنا ، بل أنت . نحن .

وليس في هذا الجمع بيننا ، في النهاية ، عزاء ، أى عزاء .

حولي جحافل القتلى والعطاش إلى الحُبّ وإلى الماء ، والمطروحين بلا نجدة ، والموطوءين تحت عَجَلات المطاط الثقيل وأطنان النار ، فكيف تقضين ساعات وحدتك ؟ أم يمكن أن تنكسر الوحشة ، ويتحطم الوحش بحراشيفه الجارحة ؟ أهذا ممكن ؟ ممكن ؟ حشجة الاحتضار المحرقة تقول : لا .. لا ! لكن الاجابة الحتمية الوحيدة هي : نعم ، نعم ! في قلب اليأس المضروبة دائرته بإحكام كامل ، وفي قلب التمرد الأحمق الذي لا يتوقف عن اختراق الدائرة ، في وتب وسقوط متكرر بلا نهاية . في اليأس المقاتل .

القبضة التي تخطيط خطاً أصم على جدار قلب مسدود مصمت ، ما أشد صلابة حجره ، وهو يهيم مع ذلك بحب مُهدّر .

يا إمام العاشقين ، يا أبا الزهراء ، أين رحمتك ؟

أين عينك المغمضتان تحت قبلة شفتي ، تمسحان هذا الوجع عنى ، وعنك ؟ أين نفع شعرك ؟ لست أختبئ فيك من قسوة الألم ، بل منك أعود ، فأنظر الى وجه العار والامتهان ، دون أن تطرف عيناي . المهانة قائمة أبداً ، غير ممحوة ، تتحدى الغفران ، وتغلبه . يا حبيبتي حاشاي أن ألحق بك جرحاً ، ولكن الجراحات قائمة أيضاً ، لا تندمل ، لن تبرأ أبداً .

في هذه الساعات التي يُطبق فيها الحصار على وعلى أهلى وقومى وعالمى ، صرختى إليك ليست إلا الحنان المتحدّر من حُرقة الأحشاء نحوك ، كانت بيننا آبار الوحشة .

فيم تجدي الصيحة الساقطة سدى ؟ من أين لي بنعمة الايمان ؟

هل نعمتي فيك أنتِ وحيدك ؟

قال ميخائيل ، ببساطة ، لنفسه : ما أشد سداجة هذا كله !

الباب الثالث

أضغاث الورد القديم

عندما عاد من الغورية إلى مينا هاوس ، كان الفجر قد أوشك أن يطلع على المدينة التي
تَعْرَى جسدُها الجميل المتألق بأنواره ، من قبحة النهارى ومن زحف جحافل السيل البشري
الحزين الذي ينهبه طول اليوم .

التاكسي يقطع به المدينة الخاوية ، وفي نفسه همود بعد صحب الحفله وزحامها . كان
مغلقاً من الداخل . هاهو قد أعطاه رسالته الطويلة القديمة - خفية عن الناس وعلى مرأى
منهم في وقت واحد - ولم يكن يظن أبداً أنها ستلقاها . ولم يفكر ، ولم يترك نفسه يفكر فيما
إذا كانت - حتى - ستقرأها . كأن ثم قراراً قد اتخذ له ميخائيل آخر في داخله : أن
يصمت عن نفسه ، ألا يكون ثم حوار أو كلام بينه وبين هذا الكامن الذي رفض أن يقرّ
بوجوده ، حتى ، ونفى عن نفسه أنه يتربص به . لم يدرك ، ولم يضع لنفسه ، أن الرفض هذه
المرّة سيكون قاصماً لا يعرف عواقبه ولا يطبق تصوره . لذلك رفض أن يطرح فكرة الرفض
نفسها ، دون أن يضع لهذا الرفض صيغةً أية صيغة . أقفل على نفسه كل الأبواب وقال إن
الأبواب ليست موجودة أصلاً ، وعندما نام بسرعة ، في غرفته بالفندق ، كان نومه عميقاً جداً
ومصمتاً واحتشاد الأحلام فيه كتلة سقطت الى قاع ساكن أسود الماء .

بعدها بأيام قلائل تغير فيها وجه العالم وأضاء ، كانا في ميدان الحسين . وفي الميدان هذا
الروح من الهجة العريقة الكامنة . كانا يجلسان في القهوة العالية بدرجتين عن الأرض ، والجامع
أمامهما ، رصين الجدران ، أضلاعه مكيئة ثابتة ، والقلائل يدخلون من بابه ، بهدوء وألفة ،
الأنوار تتخايل وتدخل بين النجوم من وراء المئذنتين الرقيقتين الذاهبتين في زرقة السماء الداكنة
جداً ، الرحمة الحجرية لها عذوبة طعنة الواهين . وضَع صبي القهوة الخفيف القدمين أمامهما
كوبين يملأهما الشاي الأصهب ، والماء الرقاق ، في زجاج رائق مضع ، والسكر الباهت
البياض ، في فنجان قهوة غليظ الجدار ، باهت الزرقة ، عروته مكسورة ، وملعقتين صغيرتين
من الصفيح الخفيف ، على المائدة الرخامية التي انكسرت شظية من حافتها ، نَعَمَتِهَا الأيدي
والسنون .

كانا يجلسان على طرف الأرضية المرتفعة للقهوة ، وكانت تفيض بحبوتها التي تتدفق رغم
حواجز ملابس لا منعة لها أمام طوفان متصل من فيض أنوثتها . ساقاها العبلتان تنحسر عنهما

الجيب الداكنة التي كان نسيجها الفاني قد نحول إلى مجرد قشرة عضوية وجزءاً لا ضرورة له حقاً من جسمها القوى المستغنى بذاته . ابتسم لنفسه ، بسعادة صافية ، عندما خطر له أنها لا تكون هي ، حقيقة ، إلا من غير ملابس .

صعدت إليهما المرأة ، عيونها ثقيلة بالكحل ومليئة بالمعنى ، والمدورة المعقوفة على شعرها تؤكد مرونة كثة خشنة الملمس فيه ، وهي تقول : من ريحة سيدنا الحسين . عندي بخور هندي وبخور جاوي ، من ريحة أهل البيت .. رنا يخلى لك الست يارب ، ويخلى لك البيه .. لاجل خاطر سيدنا الحسين . وعندما يأخذ العيدان النحيلة التي جفت عليها عجينة البخور القائمة المحببة ، يشم طعمها الحريف ، وزدئ الحلاوة أيضاً ، وتكرر المرأة دعاءها لها ، بنظرة فيها تواطؤ أنثوي ، كأنها دعوة تقع بعد حدود الإغراء بكثير ، في وسط لغط واطيء النبرة مغلفاً بالليل الفسيح ، من أبواق السيارات ، والأتوبيسات في شارع الأزهر ، ونداءات باعة اللبان ، والبرقال الطازه ، والمسابح ، والقفاطين البلدي في أكياس شفافة من البلاستيك ، والآيات المخطوطة على أوراق مؤطرة بزخارف عربية ميكانيكية الصنع ، وصيحات صبي القهوة من الداخل ، ووشيش عربة الكباب والكفتة أمام القهوة ، وترجيع القرآن من ميكروفونات بعيدة إلى الورا . وتقبلت منه أعواد البخور ، من غير ورق ، يتحات على أصابعها غبارها ويسطع فوحها ، وهي تنحني على المائدة الرخام بينهما بصدرها الوثير خلف البلوزة الخفيفة التي يحس أنها ليست هناك ، ويلوح كأنها لا تستشعر كل نظرات الناس التي لا يمكن أن تعبر بها إلا أن تلتفت ، مُبَاغِتة ، تقع لحظة في أمر قوة كأنها ليست من هذه الأرض .

صعد إليهما الدرجتين ، يتأرجح قليلاً إلى اليمين وإلى اليسار بخطوته المخلجة ، وقام ميخائيل فاحتضنه وقبله على وجهه الهائش بلحية عظيمة سوداء أحس نعومة شعرها تحت شفتيه . وقدمه إلى رامة : بشاي أبسخيرون ، تلميذي القديم في معهد الآثار القبطية . يعمل الآن في التليفزيون ، مصوّر ، فنان حقيقي وله تصاوير غريبة . أهلاً بشاي ، ماذا جاء بك ؟ كيف أنت ؟

سلم بشاي عليها ، ورفع يدها إلى فمه فقبلها باحترام .

كان عريض الكتفين ، مليئا ، غائر العينين في اللحية الغريبة الضخمة التي تسقط إلى صدره ، ومايفتأ يملسها بيديه من أعلى إلى أسفل في حركة إيقاع متكرر غير مدرك تماما .

وجاءت السويدا في ثلاثه أقداح ، لرجة مُبَيَّضَة سائغة الشكل ، ولها رغوَة طفيفة عليها فصوص الفول السوداني المكسورة . وبعد قليل كان بشاى يحكى لها عن زمن صباه الأول عندما جاء من الصعيد وأقام مع ميخائيل ومع صديق رسام كان يدرّس الرسم لبشاى في المدرسة الثانوية في المنيا اسمه أحمد قنديل ، ثلاثتهم في بيت بالعجوزة له حديقة ، وشارعه ليس له اسم ، بين الغيطان والبيوت القليلة المتباعدة ، وكان عندهم كلب ضخّم شرس الشكل لكنه وديع جدا لا يبح أبدا . وقال لها إن ميخائيل كان عندئذ يترجم كتابا عن قواعد اللغة القبطية ، بالاشتراك مع أحد أساتذة المعهد الذي لعله آخر من يتكلم القبطية في بيته مع أبيه وأمه وزوجته ، وكان هذا الأستاذ يشكر من أن أولاده لا يريدون أن يتكلموا معهم ، ويرتدون بالعربية . وقال إن ميخائيل كان ينهض في الرابعة صباحا ، ويترجم صفحتين قبل النزول للوزارة ، يوقد النور في غرفة المكتب الوحيدة التي هي في الوقت نفسه أتيليه أحمد قنديل ، مليئة باللوحات وأنايب الألوان وفيها رائحة الترابنتينا ، ويصنع لنفسه الشاى وهو يسترق الخطى ، ولكنه على كل حرصه يقلق زميله في السكن ، وينغص عليهما حلاوة نومة الصبح ، ثم يعود فيترجم صفحتين أخريين بعد الغداء ، ويشتغل ساعات لانهاية لها بالليل وقال إنه كان مسحورا بهذا الدأب الصبور ، والمقدرة . ثم حكى لها حكاية عن ميخائيل والموديل . قال أن أحمد قنديل كان يدعو الموديلات ليرسم صورا عارية على نسق سيربالي قليلا ، وكان ميخائيل وبشاى يخرجان الى الفسحة الضيقة المربعة عندئذ ، ويتركان الرسام مع الموديل حتى لا تحس الحرج ، وقال إنها كانت تأخذ عشرين قرشا في الساعة ، وفي يوم من الأيام كان على ميخائيل أن ينهى مراجعة الكتاب وكانت المطبعة تنتظر وكان عليه أن يسهر حتى الصبح ، وجاءت الموديل وخلعت ملاءتها ودخلت الأتيليه وتخرج أحمد من أن يدعو ميخائيل للخروج ، ورفضت البنت أن تقف أمام اثنين ، فقال لها أحمد أن صديقه رسام أيضا ، وطلب منه أن يصنع لها اسكيتش بالحبر الشينى على الورق ، وأعطى البنت عشرين قرشا أخرى ، وضحكوا جميعا .

تذكر ميخائيل أنه رأى ، عندئذ ، أول امرأة عارية في حياته ، وتذكر الجسم الأسمر النحيل ، الثديين المرتخين والبطن الهضم الذي لم يكن يبدو نظيفا تماما ، والبنت تضم ساقيها

الضامرتين المُفَوَّقَتَيْنِ في وقتٍ معا ، برشاقه الموديل المدرّبة ، مقفلة ، بخيلة ، وأنه أحس فقط برثاء للبت ، كان فضوله الجنسي قد توقف ، وهو يضع على الورق خطوطا تجريدية باردة ، وأحس أنه غش نفسه .

نظر إلى المئذنتين اللتين تصعدان في السماء باسترحامٍ حجري ، عمودان من صَبَّار مُضَلَّعٍ منحوت ومفرغ .

وشاركت رامة بحكايةٍ أخرى عن موديلٍ أخرى اسمها عزيزة كانت تجيء إلى حسين داود ثلاث مرات في الأسبوع ، بانتظام ، في شقته التي يتخذها أتيليه في عمارة قديمة بعماد الدين ، وكيف أحبها ، وكيف صبرت عليه زوجته حتى مرت مرحلته العزيزية ، وصبرت أيضا على مراحل الموديلات المتعاقبة ، المرحلة الحُسنِيَّة ، والعلِيَّة ، والبهِيَّة ، حتى تاب الله عليه ورجع يرسم طبيعة صامتة .

وكان بشاي ايسخيرون ثقيلًا في جلسته معهما ، مطمئنًا ، وواضحٌ أنه لاينوي الذهاب . وكان ميخائيل يعرف أنه تزوج ، وسافرت زوجته الى أوروبا وتركته ، وأنه سقط في قبضة ملاحقة المرأة بنمط متكرر ، وكأنه حواذي . طلبوا الشاي مرة أخرى ، وميخائيل قلق قليلا ، وبادلته رامة النظرات وفهمت عنه أنه ماحيلته الآن ؟ فقالت فجأة إنها تدعوها ، كليهما ، على العشاء وأنها هي الداعية ، فقبل بشاي على الفور ، وقالت إنها تعرف مطعما في أرض شريف ، وراء فندق أطلس ، تعرفه من أيام سكنها هناك ، وبعد عشاء اصطياد التاكسي ، كالمعتاد ، من شارع الأزهر ، جلس بشاي بجانب السائق ، أما ميخائيل فقد وجد يدها بجانيه ، ومدتها إليه بحركتها القديمة المُعابثة والمحملة بالمعنى ، ودست يدها برفق بين المقعد وبين فخذه ، وابتسمت له ، كأنها في طلبٍ مسبقٍ للمعذرة .

كان الباب الزجاجي ، بلونه الأصفر الداكن مضيئا من الداخل ، صغيراً في الشارع الجانبي الضيق القليل الإضاءة ، في الخارج ، والاسم منقوش بالخط العربي والافرنجي بزرَكشِيَّة قُرطِيَّة « مطعم دى لامانشا » ورسمُ الفارس الوحيد المخدول قضيف العود سمهريّ الرمح كأنه متحيرٌ في ساحة العالم ، ومن وراء الزجاج مباشرة تأتي الستارة القطيفة الثقيلة الحمراء ، فتمس وجهه بمداعبةٍ واثقة الطوايا ، وهو يأخذ بخصرها في الدخول ويحس متانة الجسم ولدونته معا .

حالت على الفور صدمةً موسيقى أمريكية لاتينية ، أو تاهيتية ، فوارة ومتالية وعنيفة الإيقاع . وجاءت معها على الفور مضيضة سمراء داكنة الشفتين فياضة الجسم ، تبسم لرامة بخدودها المتهدلة قليلاً تحت عينيها الواسعتين ، وتأخذها في حضنها : أهلاً يارامة ، اتفضلي ، اتفضلوا . أين أيامك يا حبيبتي ؟ تفضلوا على البار ، الأول ، تأخذون كأساً أو شيئاً قبل الأكل .

ودهش ميخائيل لحرارة الترحيب ، ورفع الكلفة ، كأنهما صديقتان ، ولكنه استدرك نفسه ما يعرفه من أن كل من تعرفه صديق ، وهمست له رامة : كنت آكل هنا بانتظام ، وتصادقنا ، أنا أحب الناس ، والناس تحبني ، كما تعرف .

ومالت المضيضة بسرعة على منصة البار ، لتقدم لكل منهم ، بحركة واحدة ، وردةً بلدي حمراء داكنة في عز مجدها ، متفتحة ومطلولة يقطرات دقيقة مشعة الماء ، ساقها النحيلة مكحوتة من الشوك وملفوفة بورق فضة وثيق العبك وغنى الملمس . فتقبلها رامة ، شكراً ، وتسألها عن أولادها حازم وبسمة وعزة ، وكيف هم الآن ؟ وترد المضيضة الوافرة البدن ، وهي تكاد تتحرك للذهاب ، ثم تميل فتهمس في أذن رامة بشيء وهي تنظر إلينا ، في معابثة مطاوعة مرتاحة ، وتضحك رامة ضحكها القصيرة الخفيضة المُبْتَنة ببحرٍ مليئة تنقطع مرة واحدة ، بسعادة انتصارٍ وترقبٍ للانتصار .

بعد مشاورهٍ وجيزة باسمه طلبت رامة ثلاثة سكوتش . كان على البار اثنان فقط معهم ، أحدهما واضح أنه قد خرج في سهرته للفتك والعريضة المحكومة ، مفتوح القميص على شعر صدره الأسود المفتول ، ومعه زميله الطويل الشمعي الشمالي الملاح ، يتكلمان بالانجليزية الحشنة من ناحية وأمريكية الفنة من ناحية . وكان على الكنية نصف الدائرية التي تدور بالبيست بنات يرشفن الأبريتيف بأناقةٍ مهملة مع رفقاتهن الصغار والكبار . وعلى ساحة الرقص زوجان اثنان فقط ، يدوران ويخبطان الموكيت بهندسة عاطفية ليست جيدة الحساب جدا . فقال بشاي : ألا ترقصان ؟ وضحك ميخائيل ضحكة حرجة وهو يحس بالحرج ، وندى خفيف من العرق على جبهته وزجاج نظارته ، وقال إنه لا يحسن الرقص ، فقال بشاي لصديقه وأستاذه القديم : جرب يا أخي . أرقص ، اترك نفسك تنطلق ، مرة واحدة . ونظرت إليه رامة نظرةً محتشدة بالسؤال والدعوة والغرابة ، وكرر ميخائيل نفسه بآلية ، من غير لَمَعان ، أنه لا يحسن الرقص ، وكانت قد بدأت فيه هذه العملية البطيئة التي لا رجوع فيها ، من العناد والرفض والبعد ، دوران عجالات

أنيابها المثلثة باهشة للحم الداخلي ، وكأنما حدس بشأى أسخريون شيئا ، وكأنما هو أيضا قد قرر في داخله ، بتلقائية التعود ، أن أرض المصيد مفرحة . فقال له : هل عندك مانع أن أرقص مع رامة ؟ ولم ينتظر إجابة طبعاً ، ولم تأت إجابة ، وقال : تسمحين ؟ وكانت لم تتحرك للقيام حتى هذه اللحظة ، كأنما تنتظر انجلاء مسايبة خاطفة من فارس لحظتها ، فقامت من المقعد العالي المستدير غير ذى الظهر ، وانزلت إلى الساحة في حركة بدء الرقص المعتادة وكان جسمها جزءاً من الموسيقى التاهيتية الحوشية ، كأن جوارحها اللينة المحكومة الأنثوية هي التي تعزف هذه النغمات الزاحفة تحتك بالأرض ثم تتلوى على نفسها وترتج بالتماس والأبواق تشب في تصاعد أجش يحوطه أنين الخشب المتراوح الأنفاس .

عادت إلى ميخائيل فتاة الجيشا التي لا ينسى لحظة جسمها من وراء الكيمونو الأبيض الطويل ، في فندق كيوكو ياما تحت جبل فوجي . كانت عذبة الفم وخصرها ضخم تحت النسيج الحريري ، وكانت معه طول العشاء ، وكانت بعثة الآثار المصرية التي صاحبت المعرض قد أوشكت على الانتهاء من عملها وتستعد للعودة في الصباح . حدثته عن ميشيما وكاواباتا ، وكيف تُطهى سيقان الجمبري بالساكي ، وحدثتها عن ميشيما وكاواباتا وعن الكرنك وكرداسة ، وعن سداجة القناع الذهبي الفاحش الصياغة الذي جاء مع المعرض . وقالت له إن اسمها « ظل الياسمين » وقالتها له باليابانية وكان وقع الاسم في مسمعه ينوس بجرس صغير وهو يسقط من طرف لسانها . ولم تجد صعوبة في إغرائه بالرقص على موسيقى إسانية في المرقص شبه الخاوي ، ووجد نفسه يهتصرها برفق ، وتآلف الموسيقى بين أطرافهما بلا اقتحام ، وعندما أحسته قويا متصلا بجذ مكانه بدفء واطمئنان بين ساقها نظرت إليه بفهم وود جسدي له مقابسه التي لايجوز الخروج عنها وقالت له إنه يحسن الرقص جدا وأن الرقص معه متعة حقيقية ، وودعته بالليل ، على باب الفندق ، بقبلة مدرسية مثقفة وإن كان فيها شبهة — كنفح زهرة حميمة — من الشكر والفهم الجسدي .

كان ميخائيل يحسو كأسه الثالثة ، وقد استدار بنصف ظهره ، يرقب الساحة التي تطعن عتمتها بقع ضيقة من الضوء ، دائرية صفراء مستقيمة نازلة من السقف الذي يوشوش بخفيف ثريات البلاستيك المطفأة الآن ، ورأى ساقها تدوران وتلمسان أرض الموسيقى وقد التصقت بفارس لحظتها ، وخذها تحت اللحية الهائشة السوداء ، ورأى يدها البضة بأصابعها

المكتنزة تتحسس شعر مؤخر عنقه بحركةٍ حميمة ، نفس حركتها عندما كانت ترقص مع ساح مند
أزمان بعيدة . ووجد ميخائيل أوراق الورد قد تمزقت بين أصابعه وتفتتت على رخامة البار بجانب
كأسه الفارغة ، نثاراً أحمر جفّ الآن ويست نداوته ، يصنع على الرخامة المُجَزَّعة شفرةً ملتبسةً
بينها شرائح رقيقة من ورقة الفضة المُقَصَّنة تومض ومضاتٍ متقطعة . وكان يحس تمزق الورد في
داخله ، من غير دم .

عندما نزلوا السلم الصغير الدائري إلى قاعة المطعم في دورٍ تحت الأرض طلقت رامة
أكواقيتا وستيك باربار ، وطلب بشاي أبسخرون كِرْشَة بالبصل مع البيرة إيل ، وطلب
ميخائيل وزاً مشويا بالبرقوق والتفاح مع ربع زجاجة بورجندي سان جورج ، ومازالت أمامه
كأسه الرابعة من السكوتش نزل بها في يده ، وأصرت رامة أن تدفع الحساب بعد أن شربوا القهوة
التركي السادة .

في العودة ، في التاكسي الذي وجدوه أمام فندق أطلس ، ركب معهما بشاي جانباً من
الطريق ، واقترح أن يصوّر بيتها المملوكي بالفيديو وأن يُريها الكولاجات الفوتوغرافية التي يصنعها ،
وأعطته رقم تليفونها ونجحت في أن تتخلص منه بلباقة ، وقالت له ، وهما في طريقهما إلى
الغورية : صديقك هذا ليس في عظامه ذرة من الشر . فصمت لأنه كان مازال في حالٍ المفارقة
والنأي ، وكانت تعرف . كان وجهها منوراً في عتمة التاكسي بنضارةٍ متضرجة وقالت له :
ياحبيبي كنت أنتظر منك أن تخرج عن صمتك . أن تدافع عني . أن تقول ، بكل حركة منك
وكل كلمة ، ودون حركة ولا كلمة ، أن تقول إني مرأتك ، ليس لأحد أن يمد إليها يده . لكنك
سكت .

ومالت عليه ، في التاكسي الذي يُقلع في شارع المعز الموحش بأطلال صروح الرهبة
القديمة ، في سُدفة آخر الليل ، بمغامرةٍ غير مأمونة العواقب ، وقبّلته على فمه قبلةً ندية وحرارة
وسرية ، وكان وجهها منوراً .

عندما أُعطيَ لنفسى الحق في أن أُسمِّيك باسمك « حبيبي » فهذا من شأني أنا . أما أنت
فتعرفين تماماً شأئك ، وأعرف أنكِ حزمت أمرك ، وقطعت فيه . ولك أيضاً مطلق الحرية في
ذلك . ليس هذا حتى بحاجةٍ إلى أن يُقال . الحب هو الحرية . هذا صحيح . أين الحب ؟

لأجسد قوانين مختلفة . أما تصوراتي فسأحتفظ بها . أما ما أقوله فما حدواه ؟ بل حتى مامعناه ؟ ما معنى أن أقول إنني أحبك ، إنني أفتقد نظرة عبيدك تلك الخاصة جدا ، بلون الرمل الداكن الذي تضرب فيه الخضرة العميقة ، وأفتقد نبرة صوتك تلك الخاصة جدا ، والحتمية ، وما معنى أن أسميك ؟

نفيّتي إلى الصحراء الغربية

بخور الصندل والمر والمسك ، المضطرب ، الذي يصعد ، ويظل معلقا لا يصل إلى حضنك . العيد لا يأتي بعد ، على أنني أقيم له صلاة البرمون التي تمجد الأفراح البائدة القائمة الترائيم . الآن تقوم دوريات الحرس أمام البوابات العتيقة ، والسيارات السوداء الضخمة مضاعفة ومطاط عجلاتها الهائلة مسدود معمّض العينين ، وحوش رديئة ، والأبواب التي كانت تصد غارات البدو موصدة أمام الأحياء . كأس من خشب ، مستوحش النيذ ، أنت . طلبت بصبي فسفحتها لك . على العتبة الرخامية المسوحة بأقدام جحافل القادمين آثار قطرات دم باهت ضنين . كتفت قلبي لك لكنك لم تنظري الشقين المتطرين ، مفتوحين ، نبضهما لا يتوقف ، مستميت . قبور الشهوة مفتوحة كما في اليوم الأخير ، في نداء الأبواق الجليل ، وجلست على عرش ساقيك الذهبيتين الذي تحيط به النيران والشاروبيم ، والتفت لي ذراعاك المورقتان الثقلتان بالتمر ، وسقطت فلم يُقمنى أحد الشاروبيم ، اخذلوا جميعا بأجنحتهم الهشة أمام سطوة الملاك الشرير . صليل الناقوس البهيج وهنأف الهوسانا .. هو سانا يتكتمه الحلق الجريح ، وأخطأني النار المحيية من الأموات ، وأنا لن أريح حياتي إلا بالموت ، لا ، حتى الموت لم تنكسر شوكته في رمل الصحراء العامرة بأجداث الشهداء القدامى ، ليست لهم قيامة . ليس هناك ربح ولا خسران . صفير رياح كيهك يخترق ستار التسايح ، وأثارك تقطر دسماً على الرمال . ليس الحب لذاته ، بل الحب لك أنت التي لا تعرفيني . أما أنا فأعرف طعم كتفك المدورة الناعمة تحت شفتي ، ويداي الخاويتان لهما ذاكرتهما التي لا أحكمها ، ذاكرة حية ومرتعدة ، ببضاضة لحم الإلهة الذبيحة الصاعدة أبدا من بين أنياب الثنائين ، متفجرة بالمن والسلوى .

أما هي فقد قالت له : أنا لا أتكلم . لا يهمني أن أتكلم .

وقالت له : أنت الذي أحبيتك أعز ما أحبت في حياتي .

قال : في جلدثة الطريق الليلي ، تحت وطء الخشب ، والمسامير الحادة المسننة الأنياب
تغوص في عظم يديه المشبوحتين ، وقدميه المشلولتين عن الرقص . كيف ترضى طائعا أن تمزق
أوراق وردتك ؟

أحتججُ إلى صدرى المفتوح وردة الرأس المحنّى تحت غار الشوك ، مخضلة بطلّ الدم الذي
يتفصد ببطء ولا يسقط أبدا على تراب الجلجثة .

وقال أيضا : أمازونة القاهرة الغربية ، شقيقة المحارب في خضم طواحين الهواء ، بدرعه
القديمة التي لا تصد شيئا . فروسية الإعطاء الجسديّ بريئة وأولية ، تعود . وتعود طاهرة من كل
لوثة .. ليست من هذه الأيام . تتجاوز كل الأيام .

قال لها : أحبك لأنك أنت . أحبك الحين معا .

من على سريرها كان يرى الجبل ، أغبر صخرها في غبشة الفجر ، وخشونة رماله ، من
وراء لوحة الزجاج الواحدة العريضة المبلولة من الخارج بالندى ، وكان يراه ، على الجبل ، عن
كثب جدا ، أساريره ناعمة تحت عينيه الغائرتين ، يثب نازلا من صخرة إلى صخرة ، وفأسه في
يده ، ودخان قربانه المرفوض مازال يصعد من شقوق المغارات والخلوات ، والدم على يديه . سرب
الشاروبيم والصاروفيم يرفرف حواليه كأنه يطرده بحفيف جارح مصمّم ، وعيونهم لامعة كالخرز ،
وكانت حواليه بناته ، لأعداد هن ، أجسامهن الملساء المدورة الحنيات قوية ، يتلوين من الشهوة
تحت وطأة عشق الأجنحة . أبيضحت تحت هجمة الأجنحة كل حرمان أجسادهن . صرخات
الديسكو المبحوحة تلتصق كالحيات بالأثداء المبدولة وسفوح البطون . والأجنحة العريضة القوية
نلتف بينات الناس فوق أذرع مفتولة ، ومضات النيون حمراء تنظر إلى عريضة الأطراف جاحظة
العيون ، عويل اختلاط الأجساد المتراكبة يصعد إلى السماء تحت النور ويسقط مرفوضاً على
الجبل . دققة الشفرة الكودية تنزلق منها ، على الأرداف المتكومة المتقبضة والمفرودة ، شرائح
الورق المخرم الطويل عليه التواءات الخطوط المثقلة بقهر تجريدي بارد الملمس وانفجار الكرات
الصغيرة الخشنة الحراشيف يهوى على الوجوه المدفونة في الأحضان القاسية بدموع مصنوعة من
الأعصاب المحكوكة ، وبنات النور التفافات من ضباب الفجر الأبيض الرقيق ، قاماتهن الشفافة

تتحلل وتذوب في الزرقة التي تمتلىء عند الشرق بصفاء المراعي المعشوشبة وقد تشربت دم أبيهن المقتول .

ومبخائيل قلبه مع الأجساد المتروكة على الجبل معذبةً بنشوة المعصية .

تحت السحاب الأسود المبرع عبر ساحة ليله مقمرة ، وصيحة الديك بلا صوت ، كان عناقهما . الدموع التي لا يمكن أن يحتجزها ، ورفرفة القلب المبدد والجسم المنقضي ، إيدانٌ كلها ونذير ، كأن الموت غدا ، وكأن كل انفصال للجسدين المنهكين بالتحقق والمتعة مية صغيرة أخرى ، تحفزهما بلا عقل إلى تلمس الالتصاق الجديد وإلى وطء شوكة الموت تحت الشفاه المتماصة في حنو اندماج وثيق ، والأيدي تضغط على الظهر ، ولا فكاك للذراعين حول دوران النهدين المضمومين وهما يجدان صياغة جديدةً لدنة ومقاومة ، تحت الصدر المشدود .

عندئذ كانا يعرفان صمت المطلق .

والظلمة تسد الطريق .

حضرة الفاضل المحترم أبي العزيز الخواجا قلندس قلادة

بعد السلام والسؤال عن صحتكم جميعا وخصوصا الست أم مبخائيل ، ومبخائيل أفندي ، والبنات فردا فردا ، أنا في حاجة إلى جزمة سوداء نمرة . ٤ حشمة لأني بعد وفاة المرحوم اشتريت جزمة وطلعت كوتش وأنا مكسوفة جدا . ياوالدي لانتي إذا كنت لا أطلبها من والدي الحنون أطلبها من مين ؟

والدي تجدنا مشغولين جدا لأننا أرسلنا لحضرتك خطابين بوصول الطرحة والفستان ولم يصلنا الرد من مدة أربعة أشهر وأكثر وإنما مفتكرة فيكم وخصوصا في الحالة الحاضرة ونحن نحمد الله جدا جدا لأنه يحمي شعبه من الأخطار المحدقة بهم . نسأله تعالى أن يحميكم من كل شر ويكفيكم شر الغارات على الأسكندرية ليلا ونهار فأرجو سرعة الافادة . من كرميتكم عزيزة قلندس .

تحريرا بالزرابي فيوم في ١٩٤١/٩/٩ .

قال لها ميخائيل باسمها وهو يشرب فنجان قهوة على الصوفا المنخفضة ، تحت صورة المولد ، إلى جانبه شجرة نبات الظل ، ينفض رماد سيجارته على الموكيت ويتأمل نسيج خشب المشربية العريق اللمعة :

— تذكيرين أول أيام الاسكندرية ، أول أيام رحلتنا الأولى ؟ وكنا نمر بعد كوبري النزهة ، على المحمودية ؟

فرفعت إليه عينين راضيتين وامقتين ، وفخذاهما مدورتان من جلستهما على الأرض ، تحت قدميه ، وأحاطت ساقيه بذراعها المليئتتين .

كانت سماء الصباح الفضية تهمي برذاذ خفيف الوقع يطير به هواء الاسكندرية المبلل من الترعة ومن خضرة الفيضان القريبة ، وكان أسفلت الطريق مرآة سوداء لامعة وخطرة قليلا .

هل كانت تلك هي المرة الأولى التي قدم لها ذراعه بحركه مجاملة ومقارئة جسمانية بسيطة وصفو ، ليست فيها أدنى فكرة تخلفية ، بمجرد حنو الزمالة ؟ والمرة الأولى التي أحس فيها ، على ذراعه ، ثقلها الهين المطاوع في معطفها الصوفي الخفيف الناعم بحمرته الداكنة ؟ كانت ابتسامتها له منورة ، كورد الشتاء النادر ، وهو يحدثها عن ماريو بوليس الراقدة تحت الرمال ، ويقول لها على الله ' يصبح الغد صباحا ، فالاسكندرية أحيانا تظل غائمة متصلة الرذاذ أياماً بطولها ، وهما يخطوان بحرص على حديد الكوبري الذي يهتز قليلا ، والترعة السوداء الضيقة تحتهما بين ضفافها الملتفة بالخضرة الدسمة ، والتراب الداكن من البلل تنحدر عليه خيوط بطيئة من الماء يشق له مسارات دقيقة متعرجة ، والتين الشوكي بأقراصه الغليظة الشرسة الشكل تحت الرذاذ يحيط بخص خشبي موارب الباب منير بمصباح كهربائي أصفر على نصبة القهوة الضيقة بوابور الجاز وعدة الشاي والأكواب المصفوفة .

كان سياج الكوبري من الحديد المشغول الدقيق نباتاتٍ لاهتز متفرعةً ومتلوية برشاقة الأرنبو ، من آخر القرن ، صقيلة السواد ، فيها نفس الخطر الكامن وديعاً الآن ، واستشعر نفع جسدها الرطيب الدفيء ، في برد الهواء الخفيف ، وهما يسرعان قليلا تحت المظلة المفردة الواحدة يرفعها بذراعه الأخرى ، في طريقهما الذي مازال طويلا بعد ، إلى كازينو النزهة . وكانت بجعة بيضاء تنساب بجلاها الرشيق ، تلعاء العنق ، لاترى شيئا ولا تهتم بشيء ، على ماء المحمودية المتدفق إلى البحر ، ينقشه رذاذ المطر بنسقي متقلب ومستعر من النقط المائية الدقيقة الراهفة

السنان تخز سطح الماء ، وماتنى تظهر وتختفي وتظهر من جديد على بشرة الماء السمراء الغنية .

عندما عبرا الكوبري ، وكانا يسيرون تحت أشجار الكافور والتوت والجميز العتيقة الضخمة التي تظل الشارع من الجانبين ، وتسقط من دغل غصونها المتراكبة قطرات ثقيلة مفاجئة من الماء ، انفلتت ذراعه منها مرة واحدة ، وانزلق وسقط على الأسفلت المبلول . وجد نفسه على الأرض ، لم يحس كيف وقع . عندما قام بسرعة واستعاد توازنه مدت له يدها ، وكان محرجا ولكن غير مرتبك ، ونفّض الماء من على معطفه الוותربروف ، وضحك .

قالت له : كان لوجهك ، ساعتها ، لون مدهش ، وبديع !

من الهواء الطلق الخفيف البرد ، ربما ، ونحجل سقطته ، والأمن الغريب الذي كان يعمر قلبه ، عندئذ ، معها .

في اليوم التالي سوف يركبان الترام ، ويذهبان معا ليشتريا لها دبة صغيرة من دكان في المنشية الصغيرة .

طلبتك نفسي ، وأنت عليك أحشائي ، فلم أجدك .

وكلك مشتهاة . مُرهبه كجيش بألوية ، والحلم لا ينكسر ، عندما تدخلين عليّ ، كالنار المتقدة ، أجد قلبي تربة غميقة من الطين الطري مغرزة بحب الرمان ، صفوفاً دائرية من العقيق الحّي المتشعب ، دمي يتحلّب من انتهاك الجواهر المدورة المشقوقة . أنت المُنتهكة وشبابة أهدابك سكاكين مرهفة دقيقة الذؤابات .

أعبُ من النهل الطامي بالرحيق المُسكر ، وأظل عطشان أبدا .

ما أقسى حب الرُرد والظماً .. ! اشتياق لا يسكن ولا يهدم . هيام للقلب في تيهاء وثيرة المهاد ، لا أثر له على أرضها ولا قرار .

متى تأتيني إجابة الهمود ، بعد تلهّب نار اليأس ؟

أنتِ أنا ، وأنا أنت ، أريدك أن تقبلي هذا اليقين ، يقين العطش ، حتى عندما لا أراك ،
ولا أسمعك ، حتى إذا لم أرك أبداً بعد ، فأنتِ معي ، يقيني كامل رغم كل رمال الخماسين
وترابها السخن الدقيق الحشن في الفم والعينين . أحج إليك ، قبلي ، مرة كل عام ، كل شهر ،
كل يوم ، مرة في كل نبضة قلب ، في كل رنوة ، ودفقة ، ونفس .

جسدك الأسود المهيب الهشّ النعومة قائمٌ أمامي في كل لحظة ، مبدولٌ ومنيع ، رحمة
ورهبته لا تفرقان وملاسته تجرح يدي . استبحتته حتى غوى الغائر العميق ، ولم أطرق عتبه
قطرة الدم من يدي أنا ، لا منه .

أنت لست قديسة ، ولست منفصلة ، أبداً .

قال له يباع الزهور ، في الغورية ، بجلايته البيضاء وعليها بالطو كافي ، وهو ينظر إليه
من وراء نظاراته المدورة السمكة ، وطاقيته من نفس قماش الجلاية : وردة واحدة ، واحدة
يعني ، ياسيدنا الأفندي ؟

كان الدكان الأسود ، تحت القبوة ، مبلطاً بمرتعات مبلولة ، عليها جرادل البلاستيك فيها
ماء قليل وفروع حنك السبع ، وعصفور الجنة ، وذقن الباشا ، المتشابهة .

قال : وردة واحدة . نعم . ولكن أريدها تساوي ألف وردة . نقّها على ذوقك إنك
يامعلم ، وحياء دينك . حاجة للغالي .

ابتسم الرجل عن نواجذ مبرّية مُصْفَرّة ولكن طيبة ، مثلومة ، ولعت النظارة :
— عينيّ يافندينا . وغلاوتك إنك وردة بالدنيا كلها . على شانك إنك يافندينا ، وعلى
شان الغالي .

حياة الصحراء الترفية .

مستديرة الجسد ، ناهدة الثديين ، واقفة أمامي بعينيها الحزینتين الجميلتين ، ملتفة حول نفسها ، كحرف الهاء في آخر أجديتي ، وملتفة حول جذعي القائم بعصارة المعرفة ، هي حملت إلى المعرفة التي بها أتعذب وبها أقف عارياً أمام وجه الله .

تنهمر هبات الوهج من مهجتي وتحمي في غير هيئة ، همس السهوب إلى ليس تلهية عن الهوان وليس فيه نهى عن النهار . تهب أهوية الشهوة ويهجّ اللهب — الهيام حتى التهلكة وينهض المهر بين النهدين تحت هددة الهدب المتهدل ويهوي في الهوة في هيجاء الوله ، هتكت المهرة الهاذية بالهوى حتى الانهيار ولكن الهمة هادئة قائمة غير مهلهلة ولا صهد الهوب قد هجع . لا هزيمة هناك ولا زهو التيه بل تهاويل مهدورة . اللهفة تهومات مهیضة والبهاء جهومة ، هسهسة تهجد الجسد هفهاف وهديل اللهج باسمك لا يهدم قهر العالم بل ينهال عليه الهدد . ولكنه لا يهاوده ولا يهرب من المواجهة . أهتاف المهضوضين طول الدهور ليس إلا تهبة هجينة أمام هزيم رعد الهول ؟ أهنيهم هباء ؟ أهدير الهلع مهصور ؟ بينا الأوام تهديه ؟ ماذا بهم التأوه أمام وجه الهولات الشائهة ؟ ما هممة الأنهار وهجس الزهور ؟ لكنها لا تهدأ ولا تستنيم .

كانت قد قالت له : ماذب الوردة المسكينة ، تسحقها وتفتتها بين أصابعك ؟ نعم رأيتك طبعا . صديقك لم يكن في عظامه ذرة من شر ، كان طفلا كبيرا . أعرف أنا نوع دون جوان المكشوف اللعب ، الغلبان . ولكن مادمت أنت قد غضبت ... هل كنت تريد أن تمزقني أنا ، وتفتتني . قطعاً صغيرة ؟ لماذا لم تفعل يا حبيبي ؟

كانت مستندة إلى حضنه ، وكان تحت وجهه ذلك المثلث المقلوب الذي يقع طرفه الأسفل في آخر الوادي الناعم بين ثديها ، مجعد الجلد قليلا جدا ، فيتجعله ذلك محبوا أكثر ، وسمته أعمق ، من التعرض للشمس والهواء . وبين النهدين المتماسكين اللدنين المكشوفين ليديه ، رأى شعرة دقيقة وسوداء ، رقيقة ومستدقة الطرف ، غريبة جدا في البشرة الدسمة الوثيرة . مس طرفها بطرف أصبعه وقال : هل أنزعها يارامة ؟ قالت باستسلام وخضوع : انزعها يا حبيبي .

وطرفت عينها من اللذعة الخاطفة في انتزاعه لها مرة واحدة ، ولم تصرخ ، فأنحنى يقبل موضع سين الأم الحاد المنقضى ، بقبلة لهفة ، شفتاه نديتان وجائعتان . الحلمة الداكنة تمتلئ وتتحدد شقوقها الدقيقة المتعرجة في الكرة الصغيرة الصلبة . شمس السماء وردة قائمة متكررة مرتين على قمة الرئي اللدنة . الأكام الساطعة بنار سوداء تفتح عن التويج المدفون بين ضفتيه . الأكامتان الطويلتان الصاعدتان إليه تنضمان عليه في اخضلال أنفاس حري ومبلولة بقطر سحب نقي له وهج شفاف . أقطف الوردة الناعمة الذهبية الغميقة التي يحرسها التين . وقد قتلنا التين معا بأيدينا العارية المتشابكة في عناق لا ينفصم . رفرقة أجنحة العنقاء تنزل من السماء بنفج من الهجة ورؤوسنا تعوص تحت السوسن الطافي على صفحة مياه الأردن متتابعة الرقعة موجهها متصاعد الإيقاع مع الفرح حتى نضرب معاق مياه وضاء شاسعة الأفق ، بين آكام شاهقة من أضغاث ورق الورد الأحمر الطرى المهروس تنهاوي بعضها على بعض .

سأعرف أن أسنان التين المزروعة سوف تنبت من جديد بألف تين ، وأن النورة التي تصطلي بالحرارة مازالت مطوية في أسدافها الخضراء الكثيفة الغضارة ، بعيدة المنال .

سوف تمتلئ أقداح الدموع ، وتفيض .. ياسلام .. ! فليكن . وماذا في الأمر ؟ كم من أنهار متدفقة من الدم والدمع تتجمع في طوفان يغرق الأرض ، من القتل المتكرر والامتهان المتكرر ، فباى حق ترفع قدحك أنت إلى أعلى ؟ باسم ماذا ؟ كيف تجرؤ ؟ شقاء العالم بحر طام ليس لأواجهه أبداً من ضفاف . افعل شيئاً . لا تنقل لي إن شقاء أى أحد - يعنى شقاءك أنت ، تريد أن تقول - يعدل شقاء كل العالمين ، منذ تخلق الكون وحتى ينتهى . أى صلف صغير .. ! أى فجور .. ! لا . بل من حقاك أن تعادل بينهما ، وإلا فكيف تعرف الآخر ؟ ذلك كله لن يدرأ حسك بالجريمة المدفونة ، بالنكوص أمام وجه الجريمة التي تملأ صفحة الأرض والسماء . ولا يبرره . الاعتراف يسد الطريق أمامك ولا يفتحه . ليس هناك من ثار للحقيقة ، دمها لا يجف .

قال لها : إن محافظ الإسماعيلية أصدر تعليمات إلى مديرية الأمن بالمحافظة بتشديد الحراسة على المستشفى العام لمواجهة تجمهر الناس على أبواب المستشفى مطالبين بجثة رجل لقي مصرعه في مشجرة نشبت في الشوارع . ظلت الجثة لأكثر من أسبوعين في انتظار الطبيب

الشرعى الذى يجىء من المنصورة ، فليس فى الإسماعيلية طبيب شرعى مقيم . قال إنه فى ١٢ أكتوبر الماضى زار المحافظ المستشفى العام واكتشف وجود تسع جثث ، تسع ، ناجمة عن حوادث السيارات ، تنتظر وصول الطبيب الشرعى منذ أكثر من عشرة أيام ، قال واكتشف المحافظ أنه لا توجد ثلاجة بالمستشفى لحفظ الجثث .. تصوّري .. قال ونشرت الأهرام أن المكاتبات مازالت مستمرة .

سما طرقات على الباب ، نهضت وسوت ملابسها ، وألقت نظرة سريعة على البيت ، وفتحت الباب .

دخل مصطفى ، وجهه مندى بالعرق ، يهيج قليلا من طلوع السلم ، والحر ، وكانت حافة قميصه ، كالمعتاد ، قد خرجت عن حزامه الذى نزل قليلا على بطنه ، وشعره الذى فشا فيه شيب مبكر ، مهوَّش . وجلس على مقعد منخفض ، بثقل .

قال : أبدا .. كل شىء تمام .. أرسلت أمى للصعيد ثانية ، الجو هنا ملبد ، وهناك ملبد ، خلاص ، هناك أخف حتى . وأعطيتها قرشين لشترى خروف العيد . ووعدتها بأن أعيد معها .

قال ميخائيل : مالك يا مصطفى . سارح يعنى ، قليلا ؟
قال مصطفى : أبدا . كل شىء تمام .

كان واضحا لميخائيل أن كل شىء ليس تماما إنما هو مضطرب ، تماما ، فى ذهن صديقه . كانت عيناه تتجهان إلى شىء ما ، يتجاوزهما .

رجعت رامة ومعها الشاى ، فى كل تحركها إيماء بالرعاية والحنان .

تردد مصطفى لحظة ثم قال : فى ذهنى فكرة ما . مهمة . سوف أقول لكما عنها ، فيما بعد . أريد أن أتكلم فيها مع أحمد أولا .

وقال : لا ، لا ، لا ، لا تسألني الآن . فيما بعد . أعد أن أقول لكما . بالعكس ضروري أن أقول لكما .

قالت رامة : أخذت إجازة بدون مرتب ، من المصلحة .

قال مصطفى : ماذا ؟ خير ؟ ما السبب ؟

قالت : إسمع ياسيدي الحكاية . أنتم تعرفان أن موسى دايان ، قطع ، وإيجال يادين كانا يقومان بحفائر جنب سانت كاترين . وطبعاً سرقوا ماعمرها عليه . قال هواة آثار ، وعلماء .. قال ميخائيل ، بعناد : يادين ، نعم ، شغلته في أوراق البحر الميت لا يمكن أن يُنكر . قالت : قطع هو الآخر .. عالم يمكن ، ولكن لص وقاتل ، أولاً وأساساً . المهم . في ٧٩ كان من ضمن ما سرقه خرطوشة مهمة ، عليها اسم نعمر نفسه ، انظر ، ترجع إلى ذلك العهد .

قال مصطفى : أعرف أنهم يرفضون إعادة ما نقلوه ..

قالت : هذه هي الحكاية .. ما سرقوه تعنى ..

قال ميخائيل : يعنى ما الذي حصل ؟

قالت : ياسيدي طلبوا مني في المصلحة أن أكتب لهم ، نطالب بردها . لم أتردد ولا لحظة . رفضت نهائياً . مأزق ؟ طبعاً . لن نختلف أن الهدف عظيم . أن تُرد إلينا آثارنا المنهوبة تحت الاحتلال ا على العين والرأس ، بل ضروري ، وعلينا أن نناضل ، أن نحارب لاستردادها . الطرق كثيرة . ولكن أنا أكتب لهم .. تنكسر يدي ولا أكتب .. أضع اسمي على ورقه تذهب إليهم ؟ إن شاء الله تنشئ .. مازالت أرضنا مرتهنة ، وتحدث كما لو لم يكن هناك شيء ؟

قال مصطفى : وبعد ؟

قالت : طلبت إجازة ، وخرجت ، وعلى استعداد وحياتك أن أتركها لهم ، وأمشي ..

كانت قد أعدت له الإفطار ، وشربت معه قهوتها الأولى ، كانت قد وضعت على كتفها هذا القميص النايلون الشفاف الفاتح الزرقة ، المفتوح ، أكمامه قصيرة تقف عند أصل الذراعين ، بلقائفها المنفوشة ، على غرار اللقائف التي تحيط بفتحة العنق الواسعة ، وكانت عارية تحته ، ثدياها وبطنها حقيقة مجسمة ، في نور الصباح اللبني الرقراق في البيت ، وساقاها متبتان ، غنيتان .

قالت له : تعرف « رؤيا آدم » ؟ النسخ الغنوصي المكتوب بالقبطية الذي كلفتك عنه ؟
كلفوني بشرح فقرات منه والتعليق عليها ، لينشر في كتاب عن مخطوطات نوح حمادي .

قال : من ؟

قالت : جاءني خطاب من المعهد البولندي للآثار .. المهم ، تعال ، نكتب معا
صفحتين فقط ، لكي أخلص ، وأفرغ اليك .. هل تسمح ؟ من فضلك ؟

ابتسم وهي تجلس على مقعدها أمام المكتب الضيق الأنيق الموضوع في الركن ، بين
حائط المشربية المخرمة بصوء الشمس الخارجية الرفيق ، وأوراق نبات الظل العريضة الساقطة ، وراء
العمود الرخامي المدور . جلس بجوارها ، في الركن الضيق ، على مقعد صغير . أمامهما النص
القديم بالحروف التي يعرفها ويحبها ، والورق الأبيض ، والكتاب الكبير الذي فيه الترجمة
بالإنجليزية ، وعلى الأرض مقالة عن النص ، بالفرنسية .

يدها الرخصة تجرى على الورق ، بخطها الكبير ، كانت ساقه تمس ساقها المدملجة
العارية ، وهو ينظر إلى نهديها المهترئين قليلا ، بامتلائهما الركين :

« الرؤيا التي علمها آدم ابنه شيث في السنة السبعمئة قائلا : أصبح الى كلماتي ، يا بني
شيث . عندما خلقتني الرب من التراب ، مع أمك حواء ، انطلقتُ معها في مجدٍ كنتُ قد
شاهدته في الدهر الذي منه جئنا ، وعَلَّمْتَنِي كلمةَ معرفةِ الرب الأبدية ، وكنا على هيئة الملائكة
العظام الأبديين ، لأننا كنا فوق نور الرب الذي تَخَلَقْنَا وأعلى من القوات التي معه » .

قالت له : ميخائيل ، وبعد ؟ ساعدني في مراجعة النص من فضلك . لا تنظر إليَّ
هكذا ، أرجوك . ألم تشبع ؟

وهي تضع يدها بحنو على ركبته .

قرأ ميخائيل :

« بَارَحْنَا المجد الذي كان في قلوبنا ، أنا وأمك حواء ، مع أول أنفاس المعرفة التي هبَّت في
داخلنا ، أنا وأمك حواء . وبعد ذلك أصبح الرب ظلاماً في قلوبنا » .

قال ميخائيل : المجد الذي في جسدنا ونور قلبنا هو المعرفة ، يارامة ، معرفة أخرى وأوليّة . وبهذا المجد سنغلب كل قوات الملائكة الأزلين . معرفتي محرقة : الورد الساطعة بين يديّ المخلص من قهر الرب ، يأتي مشعاً بالنور والظلمة في داخله ، غير المخلوق ، المولود قبل كل الدهور .

هتفت به ، باسمه وجادة : ليس هذا في النص .

قال : المعرفة لا تنتهي الى قرار .
فنظرت إليه . هي التي تعرف .

هأنذا أجلس ، في صباح شتويّ صحو ، على سور الكورنيش أمام صفحة البحر الساجي . لكن السور عال جداً في السماء ، مبنئ بكتل من صخر خام غير مستوي الأطراف ، خشنة الملمس ، وأنا أتشبث بها بيديّ ، وإلى عمق كبير أرى البحر أزرق صافياً شفافاً ، ساكناً كبللور لا قوام له ، مائيّ ، لا يكاد يترجرج . والماء واضح تحت عينيّ ، أرى منه القاع الرمي الأبيض الناعم الطيات . وتصعد من القاع جزيرة هي صخرة واحدة ، بارزة ، تشق الموج الساكت الزجاجيّ ، حتى تطعن بشرة البحر ، نائمة من سطح الماء الشفاف . تحتيّ ، من بعيد . وعليها امرأة غير محددة الملامح ، يخفق لها قلبي في توجس ، أعرفها ، ساكنة ، هامة الجوارح ، عارية ولكنها مغلّفة ومطوية على نفسها . حنان قلبي يدلّني عليها ، وهي مبهمة وغامضة ولا تلتفت إليّ . الجزيرة الصخرة تنزل إلى عمق بعيد جداً ومرئية طول الوقت في الماء ، ضيقة قليلاً من أعلى ، وعريضة راسخة في نزولها حتى الرمل الملبس البياض .

وأقول لنفسي : لا يمكن الغوص إلى تحت . إلى كل هذا العمق . ليس هناك إمكانية للنفس ! بهدوء ، دون توتر ، دون أزمة . لكن العمق كله مرئيّ وواضح ودعوته حتمية لا رفض لها .

الباب الرابع

وحدانية القلب

كان ميخائيل قد أعد لنفسه إجازة قصيرة ، في القاهرة ، يقضيها في الفندق . أثر ألا ينتقل من مينا هاريس ، بعد المؤتمر ، واستمر في غرفته ، ووافقت إدارة الفندق أن تعطيه تخفيضاً عن الفترة التي سوف يقضيها على حسابه .

بعد الحفلة لم يشأ أن يقرأ النخب الحار غير المعلن بينه وبينها ، وأوى إلى الصمت الذي يألفه . كان خائفاً . كان يعود من زيارته للمصلحة ، من عند أصدقائه ، من المشى الطويل في الشوارع ، من المسرح ، من مكاتب الأزهر وسور الأزبكية ، يقضي النهار وشوطاً موعلاً من الليل في البلد . وكانت مسيرة التاكسي ، متأخراً جداً ، في شارع الهرم ، رحلة جافة الهواء خارجة من ليل القاهرة إلى كتلة الهرم المهيبة المبهمة ، فيها أمان لا يفسره لنفسه ، ليجد ردهة الفندق العريق خاوية ومنيرةً بألوانها الداكنة . والسلّم الخشبي القديم يتر تحت قدميه ، وهو يصعد إلى غرفته العلوية ، ويسرع في أداء طقوس استعداده للنوم ، نافذته مفتوحة على الحديقة التي تتنفس في نومها ، أنفاس الأنتظار .

وخلال أيام أربعة ، كان يحرص ، بنوع من الاستمتاع المقلوب على وجهه ، أن يتيقظ من نومه مبكراً جداً ويخرج من الفندق بسرعة ، ويقضي نهاره كله وجانباً كبيراً من ليله في الخارج ، وكان موظف الاستقبال في آخر الليل يعطيه مفتاحه مع الإشارات التليفونية التي جاءته وفيها رقمها واسمها وأن يتصل بها من فضلك ، مرتين أو ثلاثاً أو أكثر كل يوم . فلا يفعل شيئاً . ينام في الساعات الأولى من الفجر ، ويتيقظ وحده مبكراً ، صامتا وعنيداً . وتنبه ، فيما بعد ، وقال لها ، أن قلبه ، وجسمه ، في موات غريبين عنه ، تنبه إلى أنه فقد حتى توتر الدفن الجسماني المتصلب الذي يأتيه عادة قبل اليقظة ، وبملاً لحظة مغادرة النوم بالحلم الفيزيقي البحت الذي يحلمه الجسم ، وحده .

كأنه يقطع رحلة فرار من مواجهة لا يعرف عمّ تمخض . كانت مجرد واقعة أنها تطلبه ، بهذا الإلحاح ، منذرة ومهددة ، فيما يخشى ، أو كانت إجابة حاسمة . كان يعرف ، بل كان ينكر تماماً ، أن اتبعجاس البراكين القديمة قريب جداً ، وأن أرضها هشة هائرة حتى إن ظلت متماسكة القشرة ، على شروخها ، طوال هذه السنين . كيف يحتمل طوفان الجسم ، لو انطلقت من محبسها الغائر في لحمه ؟ كانت إجابته المؤقتة حمقاء جداً : مجرد الفرار ، والاستعداد

الكامن ، غير المعترف به حتى الاستماتة ، أن يصبح هذا الفرار دائما .

كانت رائحة الصحراء تأتيه من نافذة سيارتها الفولكس ، حادةً وجافةً بالرمل المحترق طول النهار ، وكان في المقعد الأمامي بجانبها ، وهي تقود بتمكّن وتصميمٍ وتعب قليل . ووراءهما محمود ، مقطبا غائر العينين وجهه عميق الغضون . وسامية قد أغفت ، على المقعد الخلفي ، شعرها البنى قد سقط على القماش . وورق الرسم ، والكتب ، والقواميس ، وانبتق من امتدادات الرمل المتموجة صخر الرخام النقي الأبيض ، تركت عليه الشمس الغاربة ماءها المحمرّ الرقاق ، بعد أن دفن قرصها المدور الكبير نفسه ، بسرعة ، وراء أفقٍ مشعث مدبب الصحور . وكانت الصخور ، بتكعيباتها الممزقة ، مطمورةً الرئيسي في الرمل ، تبدو في نور المغيب كأنها مدّخنة ، وأطلال قرية مهجورة صعدت على حيطانها المكسورة كئيبان الرمل ، سقطت أركان البيوت ونبتت بين أحجارها أغصان قائمة الخضرة شائكة متينة ومعجونة بعصيرها القليل العيد . وعلى جانب الطريق ، وراء كئيبان ناعمة جدا تصفّر السيارة بينها بأريز الحرك الثابت القلب ، جبانة قديمة تحطمت صلبانها السوداء وأحنت رؤوسها .

بعد اثنتي عشرة ساعة من الرحلة على الطريق. الأسفلت الناعم السواد ، والرمال على الجانبين بريئة وغامضة في القلب الثابت لكئيبانها الصغيرة ، وأكوام منها تزحف ببطء على قواعد أعمدة التليفون المتلاحقة ، كان طنين السيارة وصوت اصطدام جيركين الماء نصف الفارغ ، وجيركين البنزين ، بانتظامٍ رتيب ، قد أصبحت كلها دقائق نجافة في وعيه .

ووصلوا الى استراحة الآثار وراء المذنة جنب الاتحاد الاشتراكي في الميدان الرملي الضيق بشجيراته النابتة وسط دوائر مبلولة يحيطها سورٌ منخفض من الحجر المكسر .

في الغد ، من الساعة الثامنة صباحا ، كانت جماعة الأثريين الصغيرة تدخل من البوابة الرومانية ، إحدى كتفيها مهدمة ، وعلى الأحجار الألفية المغبرة اللون المحببة ، نقشٌ باليونانية على طول صفحة الواجهة ، والكباش رابضة ، أربعة على كل جانب من الطريق ، مدورة الأفواه مضمومة الحَجَر ، قرونها المعقوفة ممتلئة مثلومة السنان ذابت في كتلة الرأس ، وبطليموس الثالث يقدم القرابين لآلهة مصر العتيقة التي ما تزال ماثلة بحضورها الغريب ، على اليمين آمون وخوفو ، وعلى اليسار أوزير ومعت وسخمت ، والمعبد الصغير بأعمدته المتوجة باللوتس التي في حَجَره

التقديم عذوبةً مازالت تفيض ، مفتوحٌ تحت قرصِ الشمس الأبدى ، فوقهم ، قادماً من آلاف السنين ، فوقه حَيَّتَان ، يقظتا العينين ، وحوله جناحاه العريضان يضمنان سماء الصبح الشفافة الزرقة التي تكاد تكون بيضاء.. والرمال تحت أقدامهم ، في فجوات مكسورة بين الصخر الأملس الصلابة .

قال له معاون المركز الشاب المنهضم الوجه ، رشيقياً في حلتة العسكرية التي فتح أعلاها عن شعر صدره الرياضي الملنوف ، وأمسك الكاب بيده :

— الصعايدة جاءوا أمس باللوري ، ومقاول الأنفار يريد عربون الأجرة من المصلحة . يريد أن يرجع إلى أسيوط اليوم ، ويأتي يوم الثلاثاء .

فقال ميخائيل إن الشغل سيتهي قبل ذلك إن شاء الله ، فالعملية عملية تنظيف وترميم بسيطة جدا ، رفع الرمال عن قبو المعبد وصلب قاعدة العمود لن تأخذ أكثر من يومين ثلاثة على الأكثر ، وأن الفلوس والكشوف والسلف عد الست المفتشة والسيد المدير المالي الذي معنا ، وإن شاء الله تدبر الحكاية ..

أعمدة البردى والنوتس تتناوب ، وعلى الحيطان مازال الفلاحون منحنيين عليك في الزمن الصحراوي القفر ، يستنطقونك بكل ما في أجسامهم الأبدية الشباب وتستجيبين لهم باللذائذ اللدنة الثابتة عبر كل الأزمان ، عراجين الشهوة الحمراء بين السعف الذي ينوس في الهواء الجاف .

تحت حائط مبنى من الحجر ، قاعدته مُسوَّدة من هباب النار ، شائهة الشكل ، جلست جماعة العمال الصعايدة على الأرض ، بجلايبهم البيضاء وعممهم ولبدهم ، دائرتهم مغلقة على نفسها ، في داخلها تقارب بلا صوت ، مهملة ومزدراة من الخارج ، وعرف أن قرابته بهم حجرية ولا اسم لها ، وتبضُّ من داخلها بعذوبة منكورة .

وكان بدو الواحه يقفون ، فرادى ، من بعيد ، أغرابا ، في صلف جاف ، جدوع نخل مقتحمة وغير مثمرة .

قرأت رامة النص المحفور ، بصوت خفيض ، وثقة :
— على من يدخل هذا المكان أن يكون طاهرا .

رد عليها ، في ذات نفسه ، متضرعا :
— نحن أطهار . نحن أطهار . نحن أطهار .

يدخلون من البابين اللذين على اليسار لقاعة كبار الكهنة ، بها أعمدة البردي الأربعة .
كان أوزير واقفا ، عبر الحدّ النهائي غير المحسوب ، ابتسامته غير مرئية ، وهو يتلقى قرابين الوز
المسمن المذبوح ، وأصابع البلح المدور ، وسمك البلطي المملء بجسدانية مُسرَّعة الزعانف .
وفروع الشبت الدقيقة ، وأوراق الخوص العريضة ، وعيدان البصل الأخضر المكور الرأس المستدق
الأطراف .

على الأرض جذور مستديرة مشعّرة الأطراف ، كل مابقى من الأعمدة التي سقطت
وتحطمت شظاياها وحملتها أيدي المقتحمين والناكرين .

طائر عنخ ، الرخ ، ذكر العنقاء المستحيل ، بجناحيه المفرودين المتصلبين ، لايزال يخلق ،
منتصبا ، فوق عرجون النخل الطريّ الخصب ، الطير الوحّدانيّ الذي لا يأكل إلا من رأس
نخلته المفتوحة له .

كان الأثريون ، ومساعدوهم ، والمعاون ، يأتون من ورائها في حلقات من اثنين أو ثلاثة ،
تنفرط وتتجمع وتنعقد يتحدّثون بصوت منخفض في فرجة الصحراء والاستعداد للعمل ورهبة
خفيفة من حضور كامن في هذه الأطلال ، ومن مشاغل الغد ، معا .

والجعارين السبعة ترحف حول أقدامهم ، منتفخة بصلاية غمقة من طين الأرض السبخة
المغمورة أبداً في الطميّ العتيق-، متجددة الصلابة ، تظهر أبداً وتغوص في عمق الرديغة
المُحيية .

وكانت رامة بجانبه ، خفيفة الخطو ، تتجسم في بنطلونها الضيق المريح الشكل ، أنوثتها تتجاوب في ألفة قديمة مع أنوثة الأعمدة الناعمة ، وتستثير ذكوره استثارة هينة ولكن محسوسة ، ومعاون المركز الشاب يرمتها بنظرة مفتونة ومهذبة في الوقت نفسه ، وهي تفيض عليهم جميعا بحبوية نسائية وقوة لآرد عليها .

حول ساحة إيزه وأوزير المهجورة مخازن خيرات القرابين المكادسة وملاجيء الفصح والأشواق والصبوات والنبيد . وفي الحجرات المنقورة في الحائطين ، على الجانبين ، آثار دخان المشاعل القديمة ، ويقول ميخائيل في نفسه : أنارت للعاشقين القدامى طقوس الحب التي لا تموت ، يلوذون بها من قهر الأجسام المتقلبة على الصخر . ويقول أيضا في نفسه : وأنارت للمهارين بعقيدتهم الجديدة مواطن النواذ بإيمانهم المتكور وصلبانهم السرية في قهر الحوافل المدجحة بالحديد تطبق عليهم بقوانين الياكسا الرومانا الامبراطوري ، حتى أطراف البرية .

حتى انتهوا إلى آخر المعبد ، فتحة ضيقة مردومة بالرمال الناعمة فيها شقافة وحطام من الصوان والبازلت التي تسد جانبا من مدخل درجات تسعة ملتبسة الضوء تفضي إلى القبو المنحدر المتسع العالي السقف ، عتمته فسحة ممتدة تحت الأرض تحيطها جدران سامقة ، كأن فيها ، لاتزال ، أصداء الترائيل الغابرة والبخور العتيق . قدس الأقداس الذي مازال غير مسبور وجزء منه مطمور ، والشمس تضرب جانبا منه بنور مصفى غريب ، فتستضيء فيه فجوات رملية من آثار أقدام الآلهة التي تركته ، وتبين شروخ دقيقة في قاعدة العمود الواحد الضخم الذي يصعد في وسط الهيكل — القبو ، يستند إليه السقف .

كانت رامة ، تتحدث إلى الضابط الفتى ، كما تتحدث إلى كل الناس ، كالألهة ، ليس من علي ، بل من سياق آخر بلا صلة ، كالمطر ينزل على الأشجار والأشجار ، كل الناس وكل الأشياء كل العشاق وكل الغرباء ، بجياذ ما ، وراء كل العفوية المدروسة والفيض الأنثوي ، بنفس العطف غير الانساني ، لأنه غير ضعيف ، بنفس الانقطاع أيضا لأنه لا مكان ، أصلا ، لا للاهتمام ولا للامبالاة على السواء ، بالرغم من الاقتراب الفيزيقي الغلاب . قال ميخائيل لنفسه : هذه المرأة التي اشتغلت بالثورة ، ومازالت أصابعها في عجين الثورة المضطرب الخمران ، عندها ارستقراطية من نوع ما ، ككل الثوريين الحقيقيين ، ليس التعالي بل السمو والتجاوز المفاخرة .

كانت تقول ، لمعاون المركز ، بنوع من الأمومة والاستجابة المحكومة لحركة شبابه ،
وغرارته : هل تعرف حضرتك أن هذا الهيكل مخصص فقط لإيزيس وأوزيريس . أنت عارف
طبعا قصة إيزيس وأوزيريس ، أليس كذلك ؟

ضحك معاون الشاب مُحرَجاً قليلا ، كأنه خائف من الامتحان وقال بسرعة : طبعا ،
طبعا الواحد هنا تعلم الآثار والتاريخ وكل حاجة .

فعلها أشفقت عليه ، ولم تضغط ، وأخذت تشرح له ترتيبات القاعات ، وطرزها ،
وكيف أن القاعة الأخيرة ، قدس الأقداس ، كانت مازالت مردومة حتى ١٩١٤ .

قال ميخائيل ، صامت الترتيل : أرضى الطهور . عندما يدحلك ربح رع المشرع
الحارق تتقدسين ، وكل الاستباحات تتطهر .

ثم قال : ألم يفت أوان الترتيل ، إلى غير رجعة ؟ وهل تظن أن شعر الصلوات الصدىء له
معنى ، أى معنى ؟ ألن تغادر أبدا مراهقة الوهم الذي يعبت بك بسخيف وسفه ؟

كأصحاب الخرق والمرقعات الذين يصرخون على أبواب المعابد والكنائس والمساجد
الجامعة ، أصرخ : أيها الناس اقتلوني !

انقضت بي الأسباب بعد أن كنا أنا وأنتي ، ليس مابيننا شعرة ، ليس ما بيننا لا أنانية
ولاغيرية ، بلا مقاربة ولا هجران . مركز دوار بلا بدء ولا انقسام . والشهادة هي الثواب . أيها
الناس اقتلوني ، واقتلوها . فلا يعود انقطاع ولا قسمة . صراخُ الداهلين بالتوحد المطعونين طعنة
الموت من افتراق ، هذا الزئير الفاحش صمئت مطبق ، تام . لسان ما لا يُحكى ، ولا يمكن أن
يند عنه صوت ، أدنى صوت .

في المستقبل ، كان كل شيء صافيا ووديعا ، وقال لها :
— أذكر رحلة من أولى رحلاتي في البعثات الأثرية، في ١٩٦٤ أو ٦٥، عقب استقلال
الجزائر ، كنا في جامعة وهران ، في حلقه بحث ، دعانا إليها قسم التاريخ ، عن العصر
اليوناني - الروماني . كانت تلك أول مرة أراك فيها . مرت عليها الآن خمس عشرة سنة أو أكثر .
همس لي مصطفى : انظر ، هذه التي تدخل مع زوجها ، باحثة في الآثار منتدبة هنا مباشرة بعد
الاستقلال ، وماركسية كبيرة .

قالت : لا أذكر .. لا أذكر أبدا .

قال : أنا أيضا كدت أنسى ، تماما . عندما جئت للاسكندرية لتعملي معنا في المتحف
اليوناني الروماني ، ودخلت عليّ أول مرة ، في ١٩٦٩ ، بالضبط ، كنت متأكدا أنني أراك لأول
مرة . لم أذكر حكاية الجزائر إلا بعد ذلك ، عندما حدثتني عن بنعمار .

وقال : ولكني مازلت أذكر هذا الحضور الذي دخلت به علينا حلقة البحث ، في وسط
المنافشات . أذكر القامة الطويلة ، والنظرة المترفة ، والجمال الذي يصدم . مازلت أذكر القاعة
الواسعة شبه الخاوية ، والمدرج الدائري ، والضوء الخافت إلا من قضيب النور الساقط على
المنصة الطولية الضيقة . ودخولك هذا في نصف العتمة . وأذكر أن حسن كان معك ، لا أذكر
عنه شيئا إلا خطوة بطيئة ممتلئة أيضا ، كأن دخولكما معا نوع من التعطف والتنازل على
الأثرين الغلابة الموقدين من القاهرة ، لا يعرفون شيئا . وأذكر غضبي على هذه البنت
الأرستقراطية التي أوحى لي بينات جاردن سيتي والزمالك النازلات من بيوتات العز والأراضي
والعزب والأصل التركي المختلط أنا القادم من طفولة مضطربة مع الحفاة والصعايدة والغلابة في
حواري غيط العنب وأزقة راغب باشا ، في وسط زرائب اللبن ومطاحن الدقيق . وقلت لنفسي :
ماركسية أيضا ، هذا ادعى للغضب . وأذكر المشية المناسبة الموقعة ، وخطوات الجسم الرشيق
الأمير ، كنت نحيلة شيئا ما عندئذ ، أليس كذلك ؟ وأذكر ، بغموض ، البشرة السمراء وشفتين
قانيتين في الضوء الخفيف ، والماكياج شديد الإتقان ، وهو شيء لم أراه منك أبدا بعد ذلك . هل
كان ذلك صحيحا ؟

قالت : أبداً يا حبيبي . لا بد أن خيالاتك شطحت بك . هل أنت متأكد أنني ذلك
الشيء الأسطوري الذي تحكى عنه ؟

قال : لاشك عندي لحظة واحدة . كنت أنتِ . وكل هذا الحقد والغضب الذي ثار لي وكاد يخنقني والذي شدني اليك ، مرة واحدة ، شدة المصير ، هو نذير لا يمكن أن يخطيء .

قالت : بتعقل ، وغضب مُنحَى به إلى الوراء حتى لا يعكر هذه اللحظة الناعمة من وداعة العتب وتصفية التذکر :

— ثم ما حكاية الطفولة الفقيرة وهذا الهراء .. ؟

فقاطعتها : لم تكن فقيرة تماما مع ذلك ، بل كانت مع الغلابة الذين لا اسم لهم .

فأكملت : وحكاية الأرستقراطية وبت العز هذه؟ منك أنت ، نعمة جديدة ، النعمة التي أهلكتنا في الأوائل ، في الخمسينيات ، عملت صراعات لانهاية لها المثقفين ضد العمال .. وأبناء الشعب ضد أبناء الذوات ، في داخل الحركة ..

قال مُطاييا : أنت تعرفين أنه ليس عندي ، دون تواضع زائف ، ابتذال القصد الساذج وراء ذلك كله . تعرفين أنني لا أعتبر أن عندي مجداً خاصاً في أنني — أو أي أحد — جاء من الحواري والأزقة ، أو أنك — أو أي أحد — جاء من أولاد الذوات وتعلم عند الراهبات أو كان جدّه من بيوت الأشراف ... ليس هذا كله عندي بشيء .

فغيرت الموضوع ، وحكت له عن تقرير علمي جاء للمصلحة من جامعة جوتنجن بألمانيا الغربية عن نتائج فحص مجموعة من المومياءات المصرية القديمة ، وأن صور الأشعة التي التقطت لجمعية أحد الكهنة قالت إنه كان مصاباً بورم خبيث داخل رأسه ، وأنه منذ أربعة آلاف سنة أجريت له عملية جراحية دقيقة في المنخ ، وأن الجراح القديم استطاع إزالة الورم ، وقالت إن نتائج البحث أثبتت أن الرجل عاش بعد هذه العملية عدة سنوات .

سمع الحكاية صامتاً ، متفكراً .

وسوف تهفّ عليه ، فيما بعد ، ذكرى جلسته معها ، مرة ، في كافيتريا في المعادي ، لم

يعد يذكر اسمها ، بعد أن اشترى معا ، بلوفر من الصوف له ، اختارته له ، أبيض وبرقية ، من فرع شيكوريل بالمعادي ، وحمل الكيس النايلون وجلسا إلى مائدة يذكرها تماما ، من وراء الزجاج ، وأنها طلبا بيرة ستيللا ، وطبق بيض مقلي بالبصطرمة ، كبيرا اشتركا فيه معا ، جاءت به مضيقة طيبة الجسم كرخيف الخبز الطازج ، وفي خديها المتهدلين غمّازة كالأطفال ، وكانا قبل الظهر بقليل ، والمكان دفيء وعبق برائحة القهوة ، وثم رذاذ خفيف يسقط على الزجاج ، في مرة من المرات النادرة التي يهجم فيها بل المطر في القاهرة . وقالت له :

— كنت أنام على حجر جدتي ، وأنا طفله ، أم أمي ، وكانت بيضاء الوجه وبيضاء الشعر ، قُطنة بيضاء . وأموت في رائحتها ، مزيج من الماء العطر والصابون النظيف . وكانت تحكي لي الحواديت التي أحكيها الآن لِعزّة بنت منال . وكانت تسافر إلى باريس كل سنة في الصيف ، وتأتي لي بجهازى ، كاملا . وأنا عندي أربع أو خمس سنين ، التروسو كاملا للسنة كلها ، الفساتين ، صيفي وشتوي ، والبائنات والكيلوات والشرايات والجزم ، كل حاجة ، حتى الفولار الصغير والقبعات المدورة للمدرسة وللخروج ، كلها ، من عند البون مارشيه في باريس . وكنت أفرح بها ، أول يوم ، أطيّر من الفرح وأريد أن ألبسها كلها ، صيفي وشتوي معا ، ثم أنسى ، حتى أنها موجوده ، ثاني يوم .

قالت : وكنت أتخيل البون مارشيه هذا مثل صيدناوي وأكبر منه ألف مرة ، وكله قباب من الزجاج المضلع والحديد المقوس ومصاعد مفتوحة لها أبواب مشبكة وليس فيه إلا الملابس الصغيرة التي تكفي كل بنات العالم ويمكن أن أمشي فيه سنة دون أن أخلص . بعد أن رأيته ، كان صغيرا جدا .

لم ينقطع حديثي إليك ، في الحقيقة ، منذ سنوات طويلة ، منذ عرفتك ، هل أقول قبل أن أعرفك ؟ وجودك معي ، منذ شفق الصبا المُحمر المختلط الغيام عبر الحواري والساحات ، على حافة الاسكندرية المُزبدة بغضب البحر وفي غيطان الصعيد ، في المعتقالات وعلى شط النيل في الطرانة ، في منعطفات أحلام الشباب الفسيحة الخاوية وعلى تلال أندونيسيا ، في شوارع سنغافورة وعلى الثلوج في اسكتلندا ، تحت الأشجار الأفريقية العملاقة على المحيط الأطلسي وفي سريري الضيق في ماربوليس ، في غرفة السطح المعلقة القديمة الطراز في مون سكاريان وفي الزقاق المطل على خيام الفجر في مخرم بك ، أتحدث إليك وأنت غير متحفة بعد

ولكن موجودة ، وأنتِ هناك حاضرة على الفرقة ، وأنتِ معي في قمقم حبنا ، على السواء . ومازلت لا أعرف هل تضيفين بهذا الحديث المتصل الذي لا يكف أم تطلبينه ، وهل يصل أو لا يصل ، على كل تعثره ، وعطبه ، ونوياته العقدية المتخثرة ، وهميانه المنسرب السلسال ، وشطحه وتحليقه ، وهويته وانحطامه ، الشيء الذي أعرفه تماما ، أنه ، منذ البداية وإلى نهاية غير مرئية ولعلها غير موجودة ، حديثي موجّه إليك أنت ، وأنتِ وحدك . بيأسٍ - له وجه الأمل الخفّي - من أنه سيصل إليك ، يوما ما ، وأنتِ ستعرفيني . كان يقيني كاملا أنني لن أتلقى ردا ، أبدا ، وأنه لن يحدث أبدا ، هذا الوصل الذي هو حبّ ومعرفة . معجزة الزمن الآخر أنه قد حدث ، وأنه يبدو كما لو كان لم يحدث . بقعة محرقة النور ستظل أبدا في بؤرة القلب ، لا أكاد أستطيع أن أنظر إليها .

قلت لي : ليس موجها إليّ .

قلتُ لك : هنا يخونني ذكائي فعلا . لا أفهم . فروض الفهم كثيرة إلى حد الإرباك . واحتمالات التأويل متعددة جدا .

قلت لي : ماجدوى تعدادها ، وطرحها أصلا ؟ ماجدواها أصلا ؟

قلتُ لك : مادام الحديث مستمرا ، على أى حال . وسيظل مستمرا . سواء قيل أو لم يقل ، سواء وصل أو لم يصل ...

قلت لي : مادام كل شيء يدور هنا ، في رأسك ؟

قلتُ لك : أو بتعديل طفيف ، يقلب كل شيء على رأسه ، كل شيء يدور في دخيلتي .

قلت لي : الكلمة المفتاح هي الداخل ، نعم . القمقم .

قلت لك : مادام الشوق الحارق إلى الخروج ، الخروج إليك أنت ، مازال حارقا ، وأشد ؟ مادامت المعرفة كمّا مجهولاً بعد ؟

يبقى هذا الحب . متحققاً أو مُحَبَّباً ، سواء ، كاملاً ، في أحيان نادرة - كم كان رائعاً ! - أو تعتوره وتتحيفه أخلاطُ من الإخفاقات والخواجز ، سواء . متوهجاً في الشمس أو مطموراً تحت ركام الكتمة والحرس ، سواء .

قالت : في أحيان نادرة ، فقط ، يظالم ؟

قال : ليست الندرة أو الوفرة بمقياس .

هل تعرفين - حقاً - مدى الزلزلة التي أتحدث إليك من غمارها الآن ؟ أمواج الماء المملح التي تغطي صفحة العالم ؟ الحافة التي أقف على حرفها الهاري كل مرة أتحدث فيها إليك ، كما يحدث الآن ؟

وأرى نظرة الاستفراب ، ما يشبه الإنكار وكأنه الرفض ، والتشخص ، والصمت على كل حال ، النظرة التي رأيتها حينما حاولتُ أن أقول ما يشبه هذا ، وأنت مغلقة الأكام مسدودة أمامي ، في ثوبك المسدل الثقيل .

قلت لي : غريب جداً أنك - وأنت رجل الكلمات لا تحسن الحديث .

وأرى في الوقت نفسه عينيك المحبتين تفيضان بمخو خارق لا يتصور ولا يُصدق ، نظرةً خطفةً تنقضي . ولا تنقضي أبداً . لكن الصراع مع اليأس لا ينقضي ، ومع أنواع الغضب - والغضب من المجهول على الأخص - ومع المسوخ الشائهة الأنياب التي متى نزيحها عن الكتفين ، كلانا ؟ ومتى نعرف خفة الحرية ونزقها العظيم ؟ على الأقل ، طيب ، في هذه السواخ التي نختلسها من الزمن الضنين ؟ هذه أيضاً نعرفها . وبقية . وتبدو كما لو كانت لم تحدث .

قال ميخائيل : على تَبَج هذا اليم من العلاقة زَيْدٌ أسود كثير . حقه ألا يكون .

كان ممدداً على سريره في استراحة الآثار في ماربوبوليس ، بالقميص والبنطلون ، منهكاً ، لم يكن قد نام طول الليل ، ونور أول الصبح يضيء الستارة الصفراء الكموني الحكومية ، على

النافذة الشرقية العريضة في غرفة نومه . كم الساعة الآن ؟ الخامسة ربما . كانت يقظته حادة الأطراف أعصابها مكشوفة لأقل اهتزاز .

سمع صوت عجلات سيارة تأتي من بعيد ، وتقرب ، صوت دوران العجلات واضح ، تحبب الأرض بانتظام وهي تكشط الرمل على الطريق المذكوك بالحجر والرمل ، فنهض ؛ لا يعرف من يمكن أن يكون القادم الآن . ووضع قدمه في الصندل بسرعة ، وأزاح الستارة . رأى تاكسي مصر الأزرق الداكن بالأبيض ، واقفا في الصحراء ، والخفير الصعيدي مقبلا يجري من بعيد ، في جلايته الفضفاضة في هواء الصبح المبكر ، خارجاً من الكشك الخشبي الذي ينام فيه . ورأى مصطفى ينزل ويحاسب السواق ومعه حقيبة يد صغيرة .

شور له من وراء الزجاج ، ولم يره مصطفى ، فأسرع يستدير ليفتح الباب .

— أهلا مصطفى .. يا أهلا .. حمد الله على السلامة . اتفضل . ماهذه المفاجأة المفرحة .

— أهلا بك .. هل أزعجك ؟

— ياخبر ..! أبدا يارجل .. معقول ؟ تسعدني طبعاً . أهلا .. أعمل لك الشاي ؟

كان الخفير قد وقف بالباب ، مازال عابسا ، أول أشعة الشمس تسقط على غضون وجهه القاتم فتضئ خطوطها الرفيعة المتعرجة ، وعيناه ضيقتان مركزتا النظرة .

قال ميخائيل : شاي وحياتك ياعم شعبان .. وأنا أيضا ..

قال شعبان ، بصوت جاف ، مختصر : حاضر .

قال ميخائيل : أخليه يحضر لك الافطار ؟

فرد مصطفى بثقل : لا . ليس الآن . بعد الشاي ، يمكن . الآن أريد أن أغسل وجهي

فقط ..

بعد الشاي سقط بينهما صمت وجيز محمل بالانتظار .

قال ميخائيل بود ، وشيء من القلق ، صريح : والآن قل لي .. ما الحكاية ؟

قال مصطفى . بصوته الأجلش : أبدأ كل شيء تمام . اسمع ياميخائيل ، ببساطة هكذا ..
جاءوا البيت عندي ، وقلبوا الدنيا . بالصدفة تأخرت عند أحمد ، وبثُّ عنده الليلة التي فاتت .
الولد ابن أختي هو الذي جاءني على وجه الصبح ، وقال لي . قضيت النهار عند أحمد ،
وخرجت إليك بالليل . طبعا كنت أنتظرهم منذ أن قبضوا على طارق في البلد . وربما كنت قد
بثُّ عند أحمد وفي ذهني انتظار ما . أحمد غير معروف عندهم . اسمع ، بقي .. سأقضي عندك
هنا يوماً أو اثنين . لا أظن أنهم سيفكرون أنني هنا ، ثم أنك أيضا غير معروف الآن ، ياعم
أنت خلصت منهم من زمان . لكنني لا أريد أن أضعك في أى موضع حرج . سأمشي على
طول . لم أريد أن أذهب إلى فندق بالاسكندرية الآن . الفنادق كلها عندها تعليمات كما تعرف .
لكن سأمشي غداً أو بعد غد . عندي أقارب في كفر الدوار . تبقى منها زيارة ، واجازة . إجبارية
صحيح ، لكن وماله ؟

وضحك مرةً أخرى ، وهو ينهج قليلا من مشوار الكلام .

قال ميخائيل : أهلاً بك يامصطفى ، ولا يهمك . أقعد هنا كما تحب ، على راحتك ،
أى وقت .

قال مصطفى : طبعا الخفير وعمال الحفريات سيلاحظون . وقد يخرجك أنه ...

قاطعه ميخائيل : لا تقل هذا .. لاشأن لهم بشيء .. اطمئن أنت واسترح قليلاً ..
أدخل ثم .. ثم أنك مفتش آثار قد الدنيا .. هل نسيت ؟

وقال لنفسه : طبعا الموقف حرج . وطبعا وضعني في موضع لا أملك فيه شيئا إلا أن
أخذه إلى .

ولكنه كان مستريحاً في داخل هذا القلق نفسه ، كأن القرار قد صُنع له في داخله ، دون
أن يبذل جهداً ودون أن يفكر ، ويقلب الأمر على وجوهه المتعددة .

قال لنفسه : أفضل قراراتي تلك التي تُفرض عليّ ، ولا أفكر فيها . كأن أحداً ما ،
آخر ، بداخلي ، هو أنا الأحسن والأفضل ، هو الذي يتخذها بدلاً مني .

قال له مصطفى : لماذا تبسم ؟

قال : أبداً . تذكرت شيئاً . سأحكى لك بعد أن تنام وتسترخ .

ضحك مصطفى فجأة ضحكته المليئة المشحونة ، من بطنه ، وقام لينام .

عندما عاد للقاهرة قال لها :

— اسمعي ياسمى ، أأست مؤرخة أيضاً ؟ في أهرام اليوم ، أرخى عندك :

« كنت أعيش أنا والدي ووالدي منذ سنوات في بلدتنا مركز أبو قرقاص محافظة المنيا وفي
حجرة بالايجار مظلمة ليس بها ماء ولا كهرباء ولا أى « أساس » سوى حصير ننام عليه .. كان
والدي يعمل فلاحاً بالأجر ومات وتركني أنا ووالدي نفتحش الأرض وملتحف السماء. واشتغلت في
مخبز بالبلد لكي نجد ما يسد رمقنا .. وحصلت على الثانوية والتحقت بكلية الطب جامعة
الأزهر .. لا أجد من يقف بجواري ولا مأكّل ولا ملبس ولا كتب وخلافه .. أنا مقيم بحجرة فوق
السطوح في أحد أحياء القاهرة سقفاها مغطى بالبوص وأرضها كما جعلها الله لا أجد ولو بطانية
أفرشها لكي أنام .

الطالب شحاته حسن المنزلاوي

الأميرية مدينة الفردوس شارع أبو بكر الصديق حارة وهبه حسن منزل رقم (٧)

وكانا يتعشيان ، ، بعد أن صنعا الحب مرات عديدة ، والأكل على الطبلية النحاس
الواطئة ، في الجانب الأيسر المنخفض بدرجة عن القاعة الكبيرة ، وبجانبه الأستريو الضخم الذي
قالت عنه : هذا الوحش الموسيقى ! تتحدّر منه إيقاعات باخ التجريدية الدقيقة الوجدان ، على
البيانو البللوري الضفء . النور المنسدل من القنديل المملوكيّ يقع على تشاييك المشربية المظلمة
بورق النبات الداكن الحارّ النفس .

العشاء البسيط على طبقين مسطحين ، بلا عمق ، من الصينى القديم الأزرق العميق ،
وعليه زخرفة ذهبية باهتة بأفنان نحيلة عليها ورق رفيع ، عليهما غطاءان من الكتان المطرز .

قالت له : جئت لك بشيء تحبه .

رفعت الغطاء ، وقالت : سومون فيميه ..

قال بفرح : غير معقول !

كانت شرائح السومون المدخن ، بلونها الأصهب نصف الشفاف عليها لمعة زيتية مخضلة
وفيه عروق مضلعة متراوحة ، داعية .

وكانت زجاجة النبيذ الألبانى الأبيض مخنومة ، ورشيقة العنق ، وورقة الاسم قديمة
مصفرة وعليها رسم قصر بأبراج ، والحروف القوطية باللون البنى صعبة القراءة . وإلى جانبها ،
في طبق من القش المجدول ، فاكهة مجففة وطرية الجلد ، برقوق أسود ، ومشمش ، وتين ،
ويلح . والخبز الشامى المحموش سخن ، شرائح رقيقة لانقصافها فرقة خافتة بهيجة .

قال لنفسه : كيف تنتقي الأكل .. ! كأنه كونسيرتو أحيانا ، وفوجعة مرة ، وسيمفونية
املة مرة أخرى .

فض نخم الزجاجاة الثمينة ، وعلى غير عادته انزلت الفلينة خارجة من العنق الطويل ،
ناعمة ، بصوت شهقة خافتة مبلولة . فضحكا ، وشربا ، بدقة نخب من غير كلام ، وللكأسين
رزين كأنه آت في سياق إيقاع باخ الشفاف . وكان للنبيذ نكهة عطر قديم ومرهف .

ثم وجدا أنهما ، دون أن يعرفا كيف بدأت الحكاية ، في غمار مناقشه مضطربة اللغات .

قال لها إن البابا كيرلس الخامس كان قديسا حقيقيا ، وأن له معجزات ، عندما كان حيا

وبعد أن مات . قال إنه من سلالة آباء الكنيسة المصرية العظام بطاركة الاسكندرية المدينة العظيمة والنزبة والحبيشة والمدن الخمسة ، وقال إنه عندما مات ، بعد هزيمة ٦٧ ، طيبره بالطيب والحنوط ، على عمادة الكنيسة القبطية ، وأجلسوه على العرش البابوي في الكاتدرائية المرقسية . جلس ، وهو ميت ، في يده الصولجان ، متوجاً وعليه الطيلسان ، مغمض العينين ، لحيته عظيمة ، هادىء الأسارير وإن كان يبدو أنه كان يتألم لنا ، ويعطينا بركة . قال إن صفوف الناس كانت تدخل الكاتدرائية الشاسعة الشاهقة الجدران ، والشمامسة يرتلون المزامير بصوت حفيظ ، وأن الناس جميعاً في مصر مروا في هذا الموكب المهيب ، يكاثمون بدموعهم ، وبعضهم ينتحبون بصمت ، كانوا أقباطاً ومسلمين معاً ، كان الميت الجالس على كرسيه العالي ، بمعنى ما ، هو تجسيد حي لمصر ، وخاصه في تلك الأيام السود بعد هزيمة عبد الناصر وعودته القليلة .

قال : لذلك ، بمعنى ما ، نحن لسنا أقلية . أيا كان عددنا . وليس البطريرك مجرد رئيس طائفة دينية . ليس فقط خليفة القديس مرقس ، هو أيضاً ، رمز بل أكاد أقول الرمز الواحد الباقي من آلاف السنين .

قالت : يمكن . ولكن هذه نظرة محدودة جداً ، وجامدة ، وبعيدة جداً عن واقعنا . جدلية الواقع المصري الآن مختلفة ، وتسير في سياق آخر . كيف يمكن أن تنسى تراث عبد الناصر ، تراثنا الذي جلاه لنا عبد الناصر عندما علمنا ، ككشف لنا ، أننا مصريون صحيح ، ولكن عرب أساساً . إن مصر ، إن لم تكن قلب الوطن العربي ، وقائدته ، فهي على الأقل ، بالتأكيد ، جزء لا ينفصل عنه باللغة والتراث والتاريخ والمصير ، والثقافة كلها ، وماشئت .. أى كلام آخر يقطعها عن هذا الجسم الكبير ، ويُميتها .. أليست هذه ، بالضبط ، هي مؤامرة الاستعمار ، ومقاومة إسرائيل ؟

قال : لا أقطعها . هي أصلاً ليست منه . حكاية الجسم الواحد ، وقلبه أو رأسه أو ماشئت ، ليست إلا مجرد استعارة . مجرد محاولة بالكلام . ليس أكثر منى عداوة للاستعمار أو للصهيونية ، لست بحاجة أن أقول ، ليس أكثر منى يقظة لما يدبرون ، هذا مفروغ منه . لكن حكاية الجسم الواحد ؟ هل نحن عرب ، حقاً ؟ ما أصعب الإجابة على هذا السؤال . هو سؤال قائم وجددي . ليس محلولاً . مصالحنا مشتركة ، نعم ، جغرافيا مشتركة ، صحيح ، تاريخ له دوره ، نعم ، أما الثقافة ، بمعناها الأعمق ؟

قالت : ماذا تعنى ؟

قال : لست أتكلم الآن عن معركة سياسية متقلبة الأدوار ، ومتغيرة .. ليس التاريخ معطى ثابتاً أو قيمة تجريدية سلفية . الجغرافيا والمصالح شيء آخر ، مقبول ، بل ضرورة وعملي . لكن هناك عمق آخر ، عمق هوية مركزية في أرض غنية جداً متعددة الطبقات الجيولوجية بالمعنى الثقافي . والكلام عنى كأقلية ، يغيظني ويشيرني ، لسنا أقلية . نحن أهل البلد . وبهذا المعنى فالمصريون جميعاً قبط ، بغض النظر عن دينهم . هذا اسمهم ، كما تعرفين . مسيحية الأقباط مصرية ، وخاصةً بمصر .. وأولياء مصر وقديسوها لهم أعراق بعيدة في هذه الأرض .

قالت : ما الهدف وراء هذا التوقع ، هذا الفصل ، هذا التعصب الشوفيني ؟

قال : أقر وأعترف . أنا شوفيني المصرية . بالرغم من كل الحجج العقلية التي أسلم بها . ثم لماذا تُغرقنا في هذا الجسم العربي الكبير ، كما تسمينه ؟ أى عرب ؟ عرب النفط أم المسحوقين في الشوارع والقرى والكفور ؟ بكل جرائم النهش والتزريق والتجويع والقتل الذي يرتكبها هذا الجسم نفسه على نفسه ؟ والتي تُقترف عليه من الأجسام الضخمة الأخرى ؟ أنا ، أحلم ، رغم كل جدلية التاريخ ، بالكائنات العضوية الصغيرة الحرة المنسجمة في ديمقراطية فلك واسع ، به فجوات كبيرة وبين نجومه تواصل الإشعاعات . معذرةً للتشبيه والاستعارة . هذا أقرب ما أستطيع أن أقول ، إلى ما أتصوره . لا أطيق المونوليثية والقوالب المصمتة الضخمة الجرم . الدول العظمى وأشباهاها .. لا أحتمل ثقل جهاز الدولة العظمى .. هذا ، بطبيعته ، هو القهر والآلية وطحن الإنسان الفرد الواحد الذي هو الحقيقة الفردة الواحدة .. الباقي كله ميكانيزمات ، وتجريدات ، وأدوات قمع .. غير إنسانية ..

ثارت فجأة ، وغضبت ، وانكشفت أسنانها الدقيقة :

— ماذا تقول ياميخائيل ؟ هذا الكلام يلعب بنا في أيدي الاستعماريين ... هذا إفقار للامكانيات الهائلة في صراعنا ضدهم . هذا بالضبط ما تريده إسرائيل ، وما تفعله في لبنان ،

والأكراد في العراق ، والجنوبيون في السودان ، تمزيق إلى وحدات صغيرة يسهل إخضاعها ،
وابتلاعها .. هذا ، كأقل ما يقال ، جريمة ..

قال ، بتعقل : أبدا . ليس هذا ما أعني . الصلات ، التحالفات ، ترتيب الصفوف ،
وخاصة في الديمقراطية ، هذا ضروري . هذا كل ما يلزم . أما الاندماجات ، والتسطيح ،
والتكتيل الأصم .. فهذا ما أرفضه .. وعندما أتكلم عن مصر ، فعنها كلها أتكلم ، دون أغلبية
ودون أقلية ، مع الاحتفاظ بحيوية كل الثقافات الداخلية المتفاعلة ، أتكلم عن جسد مصر الواحد
المتعدد الأعضاء انصهرت فيه الروح العريقة من الأزل واتحدت فيه بجوهرها ، دون انفصال .
أتكلم عن أقاليم في جسد .

قالت : إسمع .. افترض مثلا أن هناك في إنجلترا ، في الشعب الإنجليزي ، أقباط ..
قاطعها باسماً : لا يمكن أن يكون في الشعب الإنجليزي أقباط .. الأقباط ، بالتعريف
وبالتحديد ، فقط في مصر ..

وضعت شوكتها بعنف على النحاس قائلة : ماذا تظنني ؟ أتصور أنني لأعرف ؟ أنني
بهذا القدر من الجهل أو الغباء .. أو ماشئت ؟ معذرة .. إسمع لي .

وقامت .

قال : رامة .. ماذا حدث ؟ هذا كلام .. تعالي .. كمل عشاءك .

قالت : أشكرك . اكتفيت ..

أوصدّت كلّ الأبواب عليه .

بُهِت ، أرتج عليه تماما . كيف تجرى مناقشة ما ، مبتورة بالضرورة ، وناقصة ،
بعفويتها ، بسخونتها حتى ، إلى هذه النهاية ؟ أحقيقة تحس أنه يتعالى عليها ، يحسها أدنى منه ؟

كيف تُخطر لها ؟ وهو الذي كان — على العكس — يراها تُقلل من ذكائه ، ويستشعر منها تهويناً لعدّته العقلية ؟ بل تسترخص عقلايته ؟ قال لها مرة : أنا لست عقلاًنيا . فقالت ، مستهولة : هووه ... ! كل شيء عندك عقل . فدهش ، أولاً لأنه لم يتصور هذا لحظة واحدة ، أنه كله عقل ، وثانياً لأنه كان يؤمن أن كل شيء انفعال وجموح قلب .

عندما لحق بها ، وقد نسي الأكل والنبيا ، كانت قد رقدت على الصوفاً المنخفضة وقد التفت بعباءة من الكتان ، سوداء ، كان قد أتاها بها من كرداسة . وغاصت برأسها تحت العباءة ، وجمعتها حولها ، وضعت وجهها تجاه الحائط الحجري ، تحت صورة المولد ، ولم ير إلا ظهرها المكوم على نفسه . عودة إلى ظلام أولي صامت . بعد أن رفضت كل شيء . الآن كل شيء الآن ، في ظنها ، قد رفضها ؟

وضع يده ، برفق ، على كتفها ، تحت العباءة السوداء ، وناداه . لم تجب . اقترب منها ، وناداه . وضع وجهه بجانب رأسها المشيع عنه ، وناداه .

قالت : أرجوك . أريد أن أنام الآن . أتركني من فضلك .

كان لها ثقل جسم متروك ، مرمي . بينما من شأن جسمها القوي الذي يعرفه ، الخفة ، والنزوّ ، وتدفق ضخم مليء بالرشاقة .

لم يكن يفهم ، أبداً ، هذا الموقف ، الذي يأتي ، أحيانا ، منها . موقف غير شرقي وغير مألوف من نساءنا . الانحجاز ، الانفصال ، القطع . أهذا من آثار تربيتها عند الراهبات ، وفي مدارس سويسرا للبنات ؟ رفض المرأة عندنا هو استدعاء واسترضاء ، هكذا كان يظن ، الرفض النسائي دعوة للمصالحة — مادام سياق الحب سيارا ، لم يجف — وحيلة جسميه للطلب من جديد . حسه الجسدي ، هو ، لا يعرف الرفض ، مهما كانت الاصطدامات العقلية وغيرها شائكة .

فأصرّ . وقال : اذن اسمحي لي أن أرقد بجانبك .

قالت : أتركني من فضلك يامبخائيل .

قال : لا أعرف كيف أتركك .

قالت بصوت خفيض ضارع على وشك الانكسار : أرجوك اتركني الآن . سأعود إليك بعد قليل . أريد أن أنام .

قال : لا أستطيع .

نهضت مرةً واحدة ، وقالت : لا تستطيع .. لاتستطيع .. حاضر ياسيدي .
وذهبت إلى السرير في غرفة النوم المطفأة النور ، ولم تخلع عنها العباءة بل أحكمت لفها حول جسمها المغلق .

بعد لحظةٍ واحدة أحسها نائمةً بالفعل ، أنفاسها هادئة ، منتظمة ، ولكن رازحة . ليس في نومها استسلام ، بل توتر .

في عبق الليل ، في عمق النوم ، عرف الجسدان أن يتصالحا ، بحكم قانون خاص حميم ، يتجاوز الإرادة ، كأنما على الرغم منهما كليهما . كانت قبلاهما صامتة وحادة الوقع ، مكتومة ، والأطراف غير الواعية تتماس في بحبٍ مشدود ، تحت ضغطٍ حتمي ، لا يقبل به لكليهما .

هيا هوب الأبدية على حبال شرع المراكب الرشيقَة البطون التي تُقلع في بحر النيل العريض ، وعلى أسلاك التليفون الثقيلة المرتخية على سهوب الرمال . أوزير وحتحور ، سيدى الأربعين وست دميانة ، مارجرجس والسيدة زينب ، أتمس أجسادهم الباقية التي لافناء لها ، وأتمس عليها ، أتطلب النعمة والبركة ، تسقط على كتفى قطرات الشمع السخن ، ونفثات العرق الزكي ، متفصدةً من جباههم ، ينحدر الدم والمسك من عيونهم المفتوحة للأبد التي تقبل أوجاعنا ، وبصمتها نفسه تُحرّضنا على أن نعرفها . ترتيل الشيخ رفعت رخيماً ، موجعا ، عذبا ، في رمضان طفولتي ، شيق في قلبي ، وأذان الجامع الذي كان يطل على بيت عمتي في شبرا ،

يَصَاعِدُ فِي الْفَجْرِ ، أَسْمَعُهُ فِي حَلِيمٍ مُسْتَمِرٍّ ، يَجِيئُ لِي صَدْرِي ، حَلَاوَةُ الْمَوْلِدِ تَتَقَطَّرُ فِي فَمِي ،
وَمَوَاكِبُ الصُّوفِيَّةِ وَالذَّاكِرِينَ وَخَارِقِي الْأَفْوَاهِ بِالسُّبُوفِ وَرَاشِقِي السُّكَاكِينِ فِي الْجُنُوبِ يَتَرْتَحُونَ وَرَاءَ
الْخَلِيفَةِ الْأَبْيَضِ الْعِبَاءَةِ فِي مَوْلِدِ سَيِّدِي كَرِيمٍ ، أَمَامَ بَيْتِ خَالَتِي حَنُونَةٍ فِي غَيْطِ الْعَنْبِ ، نَشْوَةٌ
مِنْدَرَةٌ بِالمَصَائِيحِ الْكَهْرَبِيَّةِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الْبَطْلُونَ ، يَهْتَزُّ بِهَا الْهَوَاءُ ، وَمَأْذَنُ سَيِّدِي أَبِي الْعِبَّاسِ ،
وَسَيِّدِي أَبِي الدَّرْدَاءِ الَّذِي صَعِدَ مِنْ تَحْتِ قَبْتِهِ ، بِالْبُرْنَسِ السَّمْنِيِّ الرَّقِيقِ ، وَطَارَ فِي السَّمَاءِ
يَحْمِلُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ الطُّورِيْدَ الَّذِي رَمَاهُ الطُّلَيَّانُ عَلَى بَابِ سَدْرِهِ ، رَأَيْتُهُ . وَالْآيَ الْبَيِّنَ النَّاصِعَ الَّذِي
انصهرتُ فِيهِ ، كُلُّهَا ضِفَائِرُ أُخْرَى ، عَضْوِيَّةٌ ، فِي نَسِيحِ نَفْسِي .

كَأَنَّهُمْ ، مَرَّةً أُخْرَى ، فِي طِفْلُوتهِ ، وَقَدْ تَأَخَّرُوا فِي الْعُودَةِ مِنْ كَازِينُو أَبُو قَيْرٍ . كَانَتْ أُمُّهُ ،
وَأَصْحَابُهَا ، قَدْ تَرَكَوهُ وَحْدَهُ ، بَيْنَ الْكُرَاسِيِّ الْقَشِّ وَالْمَوَائِدِ الَّتِي تَقَشِّرُ خَشْبَهَا مِنْ مِلْحِ الْبَحْرِ وَحَرِّ
الشَّمْسِ الذَّاهِبَةِ . بِيوتٍ وَشَوَارِعٍ صَغِيرَةٍ فِي مَدِينَةٍ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ . وَالْبَحْرِ اللَّيْلِيِّ غَامِضٍ ،
عَلَيْهِ أَسْنَانٌ صَغِيرَةٌ مِنْ أَنْوَارٍ مُتَرَاقِصَةٍ فِي الْبُعْدِ ، مَرَاكِبُ الصَّيَادِينِ الَّتِي لَا يَرَى مِنْهَا حَتَّى يُقَعَّ
السُّودَاءُ الطَّافِيَّةَ عَلَى الْمَوْجِ الثَّقِيلِ الْجَسْمِ . وَصَفَارَةٌ بِأَخْرَةٍ تَأْتِي مِنْ وَرَاءِ الْأَفْقِ ، مَوْحِشَةٌ وَطَوِيلَةٌ ،
نَدَاؤُهَا عَيْرٌ مَجَابٍ ، مِنْ ظِلْمَةِ الْبَحْرِ الْمَمْتَرِجَةِ بِجِلْدِ السَّمَاءِ الْقَاتِمِ ، لَهَا صَدْيٌ أَجْشٌ يَمْلَأُوهَ
بِالرُّوعِ ، فَيَتَشَبَّثُ بِالرَّمْلِ الرُّطْبِ تَحْتِ الْكُرْسِيِّ الْقَشِّ الْمَتْرُوكِ عَلَى الشَّاطِئِ ، وَيَزْحَفُ نَحْوَ حَائِطِ
الْكَازِينُو الْعَالِي الَّذِي لَا يَرَى مِنْهُ ، مِنْ تَحْتِ ، إِلَّا دَائِرَةً مَتَمِّعَةً الْحُدُودِ مِنْ شَعِّ النُّورِ الرُّطْبِ فِي
الظُّلْمَةِ ، تَأْتِي مِنْ وَرَاءِ الزَّجَاجِ الْمَغْبُشِ بِالنُّورِ الْمُصْفَرِّ . الرَّمْلُ يَرْتَحِبُ بِجِسْمِهِ الصَّغِيرِ الْمَسْتَوْحِشِ
وَيَجِدُ فِيهِ إِجَابَةً مَبْهَمَةً لَا يَعْرِفُ أَنْ يَقْرَأَهَا . كَانَ فِي الرَّمْلِ الدَّاكِنِ الطَّرِي حَنَّانٌ وَفَهْمٌ ، كَأَنَّهُ
يَضَعُ وَجْهَهُ عَلَى فَخِذِ أَنْثَوِيَّةٍ تَتَلَقَّاهُ بِدِمَائِهِ وَفِيرَةٍ ، مِنْ غَيْرِ غَضَبٍ ، فَتَتَحَرَّكُ طِفْلُوتهِ تَنْزِعًا مِنْ
أَسْرِ بَرَاءَتِهَا إِلَى مَعْرِفَةٍ جَسْمِيَّةٍ جَدِيدَةٍ ، لَا يَخَافُهَا بَلْ يَحْسُ فِي نَفْسِهِ قُوَّةً جَدِيدَةً غَيْرَ مَفْهُومَةٍ
وَلَكِنْ وَاضِحَةٍ ، وَكَأَنَّ هَذِهِ الْغَوَايَةَ قَدْ جَاءَتْهُ وَهُوَ نَائِمٌ ، النُّومُ كَمِينَ مَنْصُوبٌ لَهُ فِي الْعَتَمَةِ ،
مَهَاوِيهِ لِاقْرَارِهَا ، وَأَقْدَامُهُ غَيْرُ ثَابِتَةٍ عَلَى حَرْفِهَا ، النَّائِمُ فَرِيسَةٌ لِانْجَاةِهَا ، عَلَى أَرْضِ الْبَحْرِ
بِأَمْوَاجِهِ السُّودَاءِ قَرِيبَةً جَدَا مِنْهُ .

فِي عَمَقِ الظُّلْمَةِ ، حِينَمَا لَمْ يَكُنْ صَحْوًا بَعْدَ ، رَأَى أَنَّهَا وَاحِدَةٌ ، غَيْرَ مَنْقَسِمٍ ، يَطْفُو عَلَى
وَجْهِ الْغَمْرِ ، وَالْمَاءُ لَهُ قَدَامٌ لَدُنْ وَصَلْبٍ مَعَا ، يَقَاوِمُ انْغِمَارَهُمَا فِيهِ ، وَلَا يَرْفُضُهُ ، ظَهْرًا لِبَطْنٍ ، لَهَا
رَأْسٌ وَاحِدٌ ، وَعَيْنَاهَا يَرَى بِهِمَا ، وَهِيَ عَلَى جِلْدِ الْمَاءِ الْمَعْجُونِ بِالطَّمِي الثَّقِيلِ ، الْعَيْنَانِ يَقْضَتَانِ ،
وَالنُّورُ الْوَحِيدُ فِي الْكُونِ هُوَ نُورُهُمَا الدَّاخِلِي ، كِيَانُهَا الْبَاهِرُ السَّاطِعُ الْجَمَالِ وَقَدْ تَخَلَّقَ مِنْ قَاعِ هَذَا

الطمى الغني الذي يملاً الآن داخله . وهو يعرف أنها إن جاءت إليه بالمعرفة ، فقد عادت إليه بالموت . الموت هو ما يعرفه في قلبه . وهذه المعرفة بهجة لاوصف لها . صرخات الموت لاعداد لها ، صرخات فرح ليس فوقه فرح ، تنقطع فجأة ، وتتجدد ، صرخات بلا اسم ، بلا انتهاء ، ورأى أنه حسنّ هذا النوم هذا الطنؤ هذا الانغماسُ هذا الصحوُ هذا الفرح ، الليلُ الشمسُ الحبُّ التوحد ، حسنٌ وكاملٌ في ذاته ، لا يحتاج لشيء ، على أنه محكومٌ به عليهما ، والحكم غير منقوض : ثموت الشياطين من تحتها ، مائةٌ منها كل يوم ، في زمنٍ لاحساب فيه للأيام .

جاءه الصوتُ الشيخ ، في القداس الالهى ، في عيد القيامة ، مُجهداً من الصوم الطويل ،
يرنّ في صحن الكنيسة الفسيح الخاوي :
— أعطنا يازب نعمة وحدانية القلب .

كان ميخائيل يعرف أنه لن يأتيه ، هو ردُّ على الدعاء . فارتعد قلبه من التوجس المدفون .

الباب الخامس

السقوط في قدس الأقداس

عندما رنّ التليفون ، في غرفته العلوية في مينهاوس ، كانت الساعة الثانية صباحا ، قبل أن يسقط في نومه تماما . أمسك أنفاسه ، وتعلقت أنظاره بالجهاز الأسود القديم الطراز المعلق في الحائط ، رنينه عال وملحّ في الهدأة المحبوسة . كان يعرف أنها على الطرف الآخر .

هو الذي ينتظر أبداً ردها على ندائه المتصل ، ويظن أنه مامس رِدْ أبدا ، قد عُقد له عزمٌ آخر ، من وراء نفسه . عزم من خشية الاختبار ، مجرد مجيء التليفون في هذه الساعة من الليل إجابة نحاسية على الاختبار . لم تكن حاسمةً ، عنده ، بما يكفي ، بعد . في عملية معقدة التلايف وجد أن عزمًا بالرفض ، قد انعقد ، على الرغم منه وبرغبته معا ، ولا نقض له الآن .

استمر الرنين زمنا طويلا جدا ، وهو جامد الجوارح ، مرصود ، لا يتحرك في رقدته على سرير الفندق أدنى حركة ، ملففّ عليه بأربطة وثيقة لاتنفسك ، مفتوح العينين على آخرهما ، يحس برداً هادئا ومطمئنا في جسمه الميت . حتى انقطع الرنين المجاجل فجأة ، وجاء صمت مضاعف ، سمع فيه لأول مرة صرير جدجد خافت ، تحت في الحديقة . ونام على الفور ، دون أن يفسر لنفسه شيئا . نوما مظلما .

في استراحة الآثار ، كان نومه قلقاً من التأهب للغد ، في الغرفة الكبيرة الخاوية إلا من الأسيرة المتراحة حول الحيطان الحجرية ، وعبد الجليل وسامح ومحمود نائمين في الحر ، والنافذة الخشبية مفتوحة على القمر ، وكان ماء الحمام المشترك يخثر طول الليل ، وصوت الانهمار الخفيف المتصل في الليل لجوج ومصمم ومخدر في النهاية ، وكان حسه بها ، نائمة تحت القمر في الغرفة الأخرى ، مع البنات ، مؤرقا ، وكان يحلم بالقباب الصغيرة التي ترتفع وسط مربعات الجدران المكسورة ، في جبانة البجوات ، والرمال تصعد على القباب التي انهارت صلبانها ، وكانت ظلالتها ، في حلمه ، طريلة على الرمال .

في الثامنة تماما من صباح الأحد كان في الموقع . كان قد قال لنفسه إنه لم يعد يحتفل بالعيد ، كأيام زمان ، وسيأخذ إجازة مضاعفة بدلاً من إجازته التي قضاهها في الشغل ، وأنه لم يكن يستطيع أن يضيع هذه الفرصة متعللاً بالعيد .

وكانت قد حكت له ، هي ، عن نومها مع سوزي وسامية وإلهام ، في السرير العسكري المفرد لكل منهن ، والمُلة السيلك ، تحت المرتبة القش ، تغوص بالواحدة فتحبسها في نصف السرير ، تستنجد . والغرفة كانت مفروشة بالحصير ، وفيها قلة ماؤها كالشاهد ، وكيف سرّحت شعرها أمام المراة الصغيرة المعلقة بمسمار مغروز في المونة الجافة بين الأخجار العارية .

وحكت له عن قرص القمر الذهبي الذي لا يُحتمل .

كانت الأعمدة المتقابلة تقترب ، ولغظ العمال الصعايدة من ورائهم ، هي إلى جانبه ، ومعهم المعاون ومدير قصر الثقافة ورئيس العمال . كانت عملية الترميم منوطة به أساسا ، ولكنها تصرفت ، بالاتفاق مع عبد الجليل ، وصرفت للعمال سلفة من الأجر فأرضتهم وكسبتهم ، واشتروا ليلتها الشاي والدخان ، وغنوا أغانيهم الموجعة الخشنة حول الراكية الصغيرة التي كان نارا تبدو باهتة جدا في القمر ، تحت جدار الخص الخشبي الضيق الذي فرشوا أمامه ، بعد ذلك ، جانبا من أحرمتهم الصوفية وبطاطينهم الناصلة الفتائل ، وتغطوا بجانب آخر ، ووضعوا بجوارهم فؤوسهم وجواريفهم ومقاطفهم اللينة الفارغة .

كانت شجيرات الزيتون والتين وزروع الشعير والليمون تمتد حول المعبد ، يمر إلى جانبها مصرف ضحل محفور في الرمل المتناسك ، وهو الآن يحس قدميه خفيفتين وأطرافه مرنة ومتوترة معا ، من المسئولية والترقب . كان فريق الشؤون الادارية والمالية ، مع سلوى وإلهام وسوزي ، قد ذهب لجرد المخزن الذي تكومت فيه كنوز الآثار المرمية ، تركت تحت حراسة الخفير الحكومي الذي صرفت له بدلة ميري ومفتاح ضخم حديدي للقفل المربع ذى اللسان ، وبنديقة عتيقة وخمس طلاقات ، كلها عهدة .

مر الفريق الفني والمسولون والعمال ، من خلال طريق الكباش التي تحاّث فأصبحت تقريبا نحوًا تجريدية منقرّة الحَجَر ، ثم ساروا بين صفى الأعمدة بتغضُّبها الناعم العطن العذب التشكيل ، عبر القاعتين المكشوفتين لسماء الصبح ، قاعة الشعب ، وقاعة الكهنة ، تحت الأطلال المنخفضة الساقطة من جدران الكنيسة البدائية المهتمة تماما .

دخل ميخائيل من الستارة الحديدية المشبكة على الباب ، ونزل تسع سلالم منحوتة من البازلت في درج معتم ضيق ، وأخذت الرمال التي سَفَتْ من الفتحة تعلو حوائله على الدرج بينها ممر صغير صخري زلق من حبيبات الرمل عليه ، وورائه ريس العمال . وبقيت هي مع المسئولين والعمال فوق .

كان قدس الأقداس معتما وفيه رائحة جفاف الزمن الذي توقف هنا ، كأنه لم يبدأ ولم ينته ، وسقفه عالٍ ومنقوش بقصر رع المتشعب بأصابع رقيقة ومتوترة حولها نجوم صغيرة متكررة في دقة مرهفة لا تأتي إلا من العشق المؤله والرحيق معاً ، بألوان زرقاء عميقة ، وذهبية ، وطوبى محروقة ، بينها بقع ساقطة مُشعَّة تَرَكَّت الحجر الجيري عارياً محبباً يكاد يكون بذىء الخشونة . ثوت التي تلد الشمس تُسقط أشعتها على حنحور بنت رع المحبوبة ، إيزه المتحوّرة ، في ضرعها الخصبية ولبن الحب ، وعيناها خضراوان . شمس الوحشة المحرقة تُصوِّح صحراء أحشائه القاحلة .

القاعة واسعة ومهيبة وغازية ، يرتفع في الوسط تماماً العمود الوحيد المكين يستند إليه السقف ، صلباً ووردياً وناعم الجسد معاً ، وينتهي بتاج فخور من سعف النخل المقوس الصوان ، لا يكاد يتضح في العتمة جماله .

كان في قاعدة العمود شرح طولى دقيق يكشف عن شق في لحمه الداخلي ، وتحت أحجار ضخمة سقطت من كتف في الجدار ، وتركت مكانها فجوات غائرة فيها رمل وشيخاف . وعلى يمين الدرج أكوام عالية وهشة من الرمال طمرت فيها الدرجات الأخيرة وفيها شظايا حجرية ورخامية وحطام فخار وزجاج سميك صلب أزرق غير جارح .

لم تكن ثم مشاكل في عملية التنظيف والترميم ، وقد قام بمثلها عشرات المرات ، ولكنه عندما تفحص الشرح في قاعدة العمود ، بنظرة سريعة وخبيرة ، ساوره قلق خفيف ، وفكر أنه ليس أمامه إلا عمل صلبة خشبية متينة مؤقتاً ، وحتى هذا سيتأخر حتى يصل الخشب بسيارات النقل من أسيوط ، وحتى تمر المذكرات التي لا مفر منها ، فلم يكن سد الشرح ممكناً على الإطلاق باستخدام الأسمنت العادي ، ولابد من حفته بأسمنت جديد عليه أن يصل إلى تحديد مركباته ، ونسبها ، وهو ما يفكر فيه من زمن طويل ، فلابد الآن على الأقل من تركيب

تفقيضة حديدية حول العمود إلى حين أن يلتئم الشرخ تماما ، إذا قيَّضَ له أن يلتئم . وكان يعرف أن المدير العام قدري عبد الفتاح بطيء الحركة وبخيل ومحافظ التفكير ، هذه مشكلة سيعالجها عندما يأتي حينها ، هي الأخرى ، الآن ياريس طه نبدأ بالرملة ، العمال ينزلون بالمقاطف ، واحداً واحداً ، واثنان فقط هنا بالجاروف ، البركة فيك ياريس ، أنت معلم الكل . والصعيدى الصلب العود بعمامته البيضاء المتعددة الطبقات من القماش الأبيض الناصع ، وكبرياء قامته : العفو يايبه ، البركة في نفسك أنت ، حضرتك خيرك عثينا كلنا . أنت الأستاذ . والله المصلحه كلها مافيه خير من غيرك يا باشمهندس . صارمأ وطيباً في غير نفاق . وثارت في القاعة القدسية التي تخضع الآن لإجراءات العملية ، هبوة خفيفة من غبار الرمل ، واحتكاك الجواريف بالأرض الصخرية ، ودبدة الأقدام المنتظمة ، صفاً من الصعايدة يهبط ، ثم صف يصعد ، ثمل ذكى دؤوب خشن الوجوه ، ويغنى أيضا غناء الصبر والشجاعة وخفة القلب معا ، وكوم الرمل يتناقص ، عندما انتقل ميخائيل إلى الطرف البعيد من القاعة ، كأنه يبحث ، ويوشك أن يجد ، الكتابات السرية المنقوشة على الأساطين وحجارة الرُق التي تُخبأ وتحفظ في أخفى أماكن الهياكل وأغمضها . وكان على الصور والكتابات بقع سوداء ، يعرفها ، من فضلات الخفافيش .

عجيجُ العباب يعربد في قاع القوقعة التي عصفت بها الأعاصير وعركتها فتعرت إلا من تعاشيب الربيع العافي ، لكن طعنة أعياد العطايا تتعدى العدم إذ نبتاعم نغمي المتع تشنع في عمود الضلوع . عسف العلل والتياغ عقايل الروع عادت بعد أن كان التعري يلتمع بشعار الأعراس . عوة الضراعة عاتية . أين العنادل عذبة الإيقاع في مناعم العشق العجاج ؟ تعتلج الشعائل ، ولها عزيف ، وتندلع في العروق ذات العناليج التي تُنشعب في عنان العتات . وقعت منى درعى مزرعاً ، في البلقع الوسيح ، الوجع العضوض يسفني ومالي من عوذة في الفجيرة . وعقيقة العين العزيزة عهد مرتعش . عرامة العيمة إلى عصارتك إلى عقب زروعك اليانعة تخلع أضلاعي . عطشان إلى مراتبك أنا . أمأنت فتعودين بعباءة تهجاعك العميق . تعلق بك عراجين عمادي . لا يشفع لي صرع عبادة صعبة عنوت ، وأنا أقطع الوعور في الهزيع الأخير .

كان الضوء القليل النازل من فتحة الدرج لا يكاد يصله ، وقد انحنى يتأمل الكتابات المنحوتة ، بطول أسفل الجدار ، بالخط المقدس . وقد ابتعدت عنه قليلا أصوات العمال ولغط العمل .

فجأة ، صُدمت حواسه كلها بقعقة مكتومة مُزلزلة . ارتفعت عيناه بحركة تلقائية خاطفة ، فرأى سقف القبر يتأرجح ببطء ، ويميل على الدرج ، ويخطّ عليه ، بينما ترخ العمود ، بطيئاً جداً ، ثم انهار جانب من السقف على مدخل القاعة ، وهبت عاصفة مدوّمة من الرمل ، وساقطت حوائيه ، في الظلمة المفاجئة ، في هدير يصك الأرض ويتدحرج ويرتطم بالرمل الذي يتهاوي ، في آخر ضوء ، ويتغير شكله بسرعة ، أحجاراً ضخمة كأنها لا وزن لها . التقطت عيناه آخر ضوء من على الدرج ينطفئ ، وسادت حوله عتمة كاملة وصمت تام .

في أقل من خطفة البصر انتبه ليجد نفسه في السكون المفاجيء ، يمد ذراعيه أمامه ، ويدرك أنه يُقعى على الأرض ، مُحنياً رأسه إلى صدره ، يحدق في الظلام ، ودهنه متوقف تماماً .

قال لنفسه ، بأية ، كأنه يقرر خيراً ، جانب الباب من القبر قد سقط .

ثم عرف فجأة ، بقلب سريع التدهور أنه وحده في قدس الأقداس المتهار .

نهض قائماً ، ببطء وحذر . فاجتاحته سعادة مفاجئة وأحس نفسه يتسّم ، وخفيفاً جداً ، فقد وجد نفسه سليماً ، لم يصبه خدش .

وأحس أن عفرة الرمل تهبط ، وأن أنفاسه ترتاح ، وعيناه تبدآن تُميزان الفراغ حوله والجدار القريب منه ، ولكنه لا يرى السقف ، ولا موقع الانهيار عند نهاية الدرج . وخطر له بسرعة أن الجانب الرئيسي من السقف متماسك وقوي ، وأن بناءه قد اطمأن وثبت بعد زلزلة سقوط جناحه الأضعف عند الباب ، وأن حوله حيزاً بقدرٍ معقول ، وحسبها في ذهنه بسرعة ، ربما عشرين أو اثنين وعشرين متراً مربعاً ، القاعة كلها تقريباً لم يمسه شيء ، واقتصر الانهيار على المدخل . وكان واضحاً أن العمال كانوا جميعاً ، في اللحظة الدقيقة الحاسمة ، على السلم أو قريباً منه جداً ، وسأل نفسه بقلق هل جرح منهم أحد ؟ وهل سلم الرئيس طه ؟ وأجاب على نفسه فوراً أن هذه أسئلة سوف يعرفها إجابتها ، فيما بعد ، وأن الاجابة أو عدم الاجابه لاتعنى شيئاً الآن ، على وجه الدقة ، فليس في يده شيء . ثم خطر بباله : فيما بعد ؟ هل سيكون له فيما بعد ؟ هجس به ما يقول إن احتمالات لجأته هو ضئيلة جداً ، فهو يعرف الامكانيات المحدودة

جدا في الخارج . وجلس على الارض بهدوء تام وغريب ، وقال لنفسه كأنما يفكر في شأن شخص آخر لا صلة له به ، أو في حل معادلة هندسية ، إن النهاية تكاد تكون محتومة ، وإنها ستجىء إما من تناقص الهواء الصالح للتنفس ، ثم انعدامه . الاحتناق إذن . وأبعد ، بآلية محكمة ومن غير أدنى جهد من جانبه ، ترويع صورة الاحتناق ، وإطباقها ، وقال : وإما من الجوع ، والعطش . ولكنه لم يكن يتصور أن هذا ممكن ، كأن الجسم وحده هو الذي يُقرر ، أو وحده هو الذي يُعاني ، هذه المسألة . وكان جسمه الآن مستريحاً وقويًا في غير حاجة إلى شيء .

العممة تنجاب من حوله قليلا قليلا ، من غير أن يحس ، وهو الآن يرى كل شيء واضحا في نور خفي وسري وغريب وصامت جدا ، لم ير مثله على كثرة ما نزل الأقباء والأنفاق والممرات والأقداس المدفونة .

قال لنفسه : كأني في العالم السفلي ، معكوس خيمي التي هي العالم ، وكأننا في عكس ٢١ مارس اليوم الواحد الذي تشرق الشمس فتبرّ قدس الأقداس كله ، وتاماً ، المرة الواحدة طول السنة . ولكنه نورٌ عكسي ، نورٌ بالظلام .

ثم عاد إلى ما كان فيه .

لم يكن بيده شيء الآن ، أدنى شيء . مشى ببطء وتعثر إلى موقع الانهيار . كان كل شيء قد سكن . ورأى بوضوح أن احتمال تقلقل المدخل ضئيل جدا ، بل منعدم . وتمنى فقط أن يكون الحجر لم يسد المدخل تماما ، وأن تكون هناك رمل وشيخافة ولو على مساحة ضيقة وراء الأنقباض العالية ، بحيث يتاح لعملية جرف الرمل أن تفتح منفذا .

كان ثم شيء ما في داخله قد قام عنه بمواجهة الدعر القاتل الكامن ، وحارته ، وقهره ، أو رده على عقبه ، على الأقل ، في مكمنه غير المحسوس . الفرع نواة مدفونة تماما كأنها لا توجد ، لكنه يعرف أنها هناك ، تفصله عنها فصلا تاما ، تلك القوة التي تولت عنه حرثها وردّها وطمرها تماما .

ثم أخذ يصعد ، بتعثرٍ وتحوُّطٍ ، فوق الأحجار المكدسة على كومة الرمل العالية ، يتحسس بيديه حوافها ، ويجرب زحزحتها لكي يعرف ثقلها فقط ، ويزج عنها طبقةً ضئيلةً من الرمل بكفيه المفتوحين ، فيهبط الرمل إلى الداخل قليلاً ثم يستقر على نتوءات الحجر والأنقاض .

كان ينهج في هذه العتمة المنيرة الصامتة ، وليس إلا صوت احتكاك كفيه بالرمل والحجر ، وهو يحسهما تنتفخان قليلاً ويتوزر جلدتهما ويتشقق قليلاً ولكنه لا يحس أدنى ألم ، وما يزال يعمل في كسح الرمال ، طبقةً بعد طبقة ، لا يعرف تماماً إن كان يمضي في الاتجاه الصحيح نحو المدخل ، كأنه يرقب نفسه وهو يعمل ، محايداً ، من مستوى آخر .

ولم يكن يحس خوفاً من العقارب التي لا بد أنها مخبئة تحت فتات الحجر المدفون في الرمل ، ولا من الثعابين الطويلة الرفيعة الجسد التي بلون الرمل . كان قد ألف أن يتوقعها ، صحيح ، في هذه الأماكن ، وعرف أن ثم تحذيراً غريزياً يأتيه من جسمه ، من غير إرادة ، أينما وُجدت . ولكنه الآن ، بشكلٍ غير مألوف ، يعرف أنه في منطقةٍ ما وراء التحذيرات ، ووراء الخوف نفسه . كأن الخوف قد أصبح هو العنصر الذي يتنفسه ، ويعيش فيه ، ومن ثم فليس غرابة ولا ضغط ، بل لا يحسه أصلاً ، لأنه هو أصبح وجوده نفسه .

وخطر له ، ولم يتوقف لحظة ، أن تنفسه منتظم ، بل منظم ، في شهيقٍ وزفيرٍ محسوبٍ ومحكوم ، مع الجهد المتصل في العمل . ولم يتسهم هذه المرة عندما اقتنع بأن هناك مصدراً ما للتهوية في القاعة الفسيحة . وقال لنفسه : إعجازٌ معماريٌّ ما ، كيف يتجدد الهواء بيننا لا تبدو له ثغرة . ثم بشكلٍ عمليٍّ أكثر : أو أن المدخل لم يسدّ تماماً . هناك ، لا بد ، فجوة أو خنية في النظام الذي اتخذته تساقط الحجر والرمل ، يسمح بمرور الهواء .

ولم يدهش عندما لاحظ أن الكلام قد جاء بصوتٍ مسموع ، وله صدى . لم يكن غريباً أن يتحدث إلى نفسه بصوت عالٍ ، حتى عندما كان في الخارج . فقال : إذن فقد أصبح هناك ، من الآن ، خارج ؟ عالم آخر ؟ وهو لم يتوقف عن إنزال الرمل عن الأنقاض ، وقد بدأ يحس أنه يصعد عليها قليلاً قليلاً . وكان لاحتكاك تدحرجه أحياناً على الحجر ، في الوحشة ، حفيفٌ يرجع به الصدى . كان يعمل بإصرارٍ لا تفكير فيه ولا تردد ولا تراوح في إيقاعه ، كأنه

لا يقدر ، لو أراد ، أن يقف . لم يعد يحس إنهاكا ولا راحة ، لا أمل ولا يأس ، يدها وعقله وحسمة تدور كلها دورة لها قانونها الذي لا شأن له به . كان في بُعد ما من داخله يوقن يقيناً كاملاً أنه يخفر الرمل ويزيح الأنقاض في اتجاهٍ مستقيمٍ وصحيحٍ بلا أدنى شك . مرسومٌ بدقة مطلقة ، ولا يفكر حتى في أن يتساءل عن مدى صحته ودقته . ولم يكن يعرف ولا يهتم أحطُّ الليل أم انجاب . كان حلقه جافاً ولكن غير مُحرق ولا مر ، وكأن في جسمه فجوة ولكنها تدور برأسه قليلاً كالخمر الخفيفة .

يده تحفران ، بلا وهن ، وهو نائم مفتوح العينين ، كأنه ساعة لا يمكن إلا أن تدق ، وتدور .

وكأنما كان يحدث نفسه في هذا النوم الصحو : كم حياةٍ عشتها ، كلاً على حدة ، بكل حدثها ؟ الصبي المنزوي تحت جناح المسيح ، نهباً لأشباح الليل وآثام الليل ، المُراهق العابث بالأرقام والكلمات ، بالمعادلات والأشعار ، والحالم بالبنات وصُور النساء الحافلات ، بصُور بنتِ امرأةٍ واحدةٍ متعددة ، حافلةٍ بشبق عريق المحتد في الحكايات ، والفتى الشاطح المتسكك عن لحم الحيوان والمقتحم الأحرام والمسحوق تحت وطأة الحرمان ، والضارب في لحم المخطورات ، والثائر الثوري المتحدي بالأفكار والساخر بالأخطار ، الساقط في يأس المثقفين المغامر بالهرب إلى مراوغة أنوار دُوراة في الفراغ ، العاشقُ أبدأ الراقِد في تهوية من صبابات الوجد قلب الأرض بلا قرار ، فمهندس ترميم الآثار الذي وهب الآثار حياته ، بلا هوادة ، كأنها قضيته ، والغائص في نصوصي قبطية عويضة وعصية ، الرجل الذي رصد ، لحساب أسرته الصغيرة بلا تردد ، كل الصمت المُستفى على الانفصام ، والصدّاح كأنما برغمه بقصائد قصار الأجل لا تصل إلى أحد ولا تعنى شيئاً ، وقال لنفسه : وفي كل حياةٍ منها ، كل حياة ، كل مرة ، راهنتُ بكل شيء ، حتى حافة الموت . ولكن فقط حتى الحافة . لم أخطُ بعدها الخطوة الضرورية التي تجعل لها معنى . وفي كل مرة خسرت الرهان . فهل الآن هو ما بعد الحافة ؟

وفي اهتزاز سُدف الوعي المعتم ، يأتيه وجهها المعشوق الصامت الجمال ، وحده في كل هذه الحيات المنقضية ، ينحني عليه ، ويسقط حوله شعرها الطويل الأسود الذي عرفه في ليلة القمر في أسوان ، بعبقه الحار ، أعشابٌ بحرية مبلولة وساخنة من الشمس ، وهو مفتوح العينين ، يحس مسّه الغنى على وجهه وعلى عينيه ، ويشرب له ، ويختفي كأنه لم يوجد أبداً ، الوحيد الذي كان له وجود .

شظايا هذه الحياة الواحدة المتعددة ، متكررة . هذه الحيات المنشققة المتفارقة ، متطابرة كالشواظ ، أظل أنعمها وأرقق حوائفها ، ولكنى فى النهاية أرضى بتشعثها الخشن . أريد فى الوقت نفسه أن أضع لها مساراً مستقيماً ، وصيفةً لا تقبل التفتت والانحيار ، ونسقاً ، فأجده عصياً .

حضرة والدى المحترم الخواجا قلدس

وصلنى جواب حضرتكم فى الوقت الذى فىه كنا نذكركم والغريب أننا معكم دائماً وإن لم بالجسم فنحن معكم بالروح والقلب .

نعم مضت مدة ولم نكتب لكم لأن البنات كانوا راميين الحصبة والآن الحمد لله .
مادمت أنت موجود ياوالدى فأنا مبسوطة بصرف النظر عن الماديات لأن وجودك على الدنيا أمامى هو كل شىء ويسوع يخميك .

سلامى لأخوتى وأخواتى الأعزاء ولعل ميخائيل افندى أخذ شهادة الثقافة العامة لكى يطمئن عليه الله يطمئنا عليكم .

من عند كريمتكم عزيزة قلدس

الزراى فى يوم ١٩٤١/١١/٢٤

فى العتمة حسدها رمالاً حريرية ناعمة حول جسمى تنفلت من يدي تغمرنى وأغوص فىها وقطرات الدم تسقط من كفى بطيئةً لا ألم فىها .

من داخل العتمة المنيرة بالكتابات السرية أقاوم شيئاً يشدنى إليك . أنت التى على الجانب الآخر من أنقاض قدس الأقداس المستباح ، وأصدّ عنى هذا الطعن الظامىء العيين تتلاحق هجماته مع ضربات يدي . أحاول أن أعلم هذا الانهمار من الحنو والضعف الذى تسقط معه جدرانى الداخلية صفحاتٍ من الماء ، أعلمه أن يصلب ، أن يثبت ، وأن يعرف - أخيراً - أن الوحدة نهائية وحقيقية ، وأن النهاية أيضاً وحيدة وأن تلك ربما هى الحقيقة الوحيدة التى لا بدّ ، لا بدّ ، من معرفتها .

« أضاءت لى الذكرى وجهاً أغرّ ملتبها .. »

لكنى لأعرف . ولا أسلم .

هأنذا تحب ، عمود الوجود الذي تستند إليه السماء ، وهو أيضا نخلة نجران السامقة الملفوفة في عيدها بشقوق ، الخبز الموصلي ، صاعدة من الرمل السخن الملبد بالحجارة والخزف المكسور ، وموشاة بحواشٍ سفهاةٍ مسترخية النسيج . القرط الذهبي الصغير الذي أهديته إياها نجمة مدورة في أذنيها ، حلى السلاسل تنوس تحت العنق الممشوق وعلى حبتى التمر الحلو الداكن فوق الربوتين الصغيرتين المدورين ، تاج جدائلها من الصوان الفادح الفواح العبق الذي ولد تحته أوزير وولدت معه ، وفيه ، إزة عشتر العزى الألف الأولى من بين الملكات .

والقينيقي ، دامياً ، مهيض الخناح ، رث الجسم يقوم حياً من تحت النخلة بعد مَوْتِ الظهر ، على يده قطرة دم ، كمن ينهض من حريق مدخن في طيوب أعشاب المر المحففة والصندل السوداني ، أما خمر البلح الذي كان أبوه يقطره في بيتهم في أخميم ، صافياً وثقيلاً وكان لشفافيته وزنٌ وزوجة ، فهو يغسل به أحشائه ، إذ تنفتح في كومة النيران المتهدبة .

وجد نفسه على الأحجار ، هل كان نائماً ؟ أحس عينيه مفتوحتين وأنه لم ينم ولم يستيقظ ، العتمة الساجية فسيحة حواليه ، وهو يرى في نورها السرى عين رع مشبعة فوقه ، ومسددة إليه من السقف ، في أطراف أنامله تومض النجوم الذهبية .

صحا فجأه ، صحوة كاملة ، وتنبهت كل حواسه ، مرصودة . كأنما سمع دقات مكتومة من الخارج . لم يسمع لأى قرح أن يقترب منه أدنى اقتراب . وظلت قوة ما في داخله تحميه من الفرح . وسمع أيضا صوتاً غريباً عليه ولكنه يعرفه ، أجش مبحوحا وهادئا جدا يقول : إذن فهم يقتربون . وأدرك أنه صوته هو . من غير أن يفكر رفع كتلة من الصوان حادة الطرف وعريضة القاعدة ، وجدها ثقيلة ، وراح يدق بها على الحجر أمامه ، فوجيء أن صوت الدق مكتوم وغير حاد وغير قاطع . كانت الضربات من الخارج بعيدة جدا ، ثم انقطعت . هل كان سمعه يخذعه ؟ أهذا هو هذيان القرب من النهاية ؟ قال لنفسه : تمالك فقط . إذا كانت النهاية قادمة ، فلتكن كريمة . توقف عن الدق ، لم تأت الضربات من الخارج . وعرف لماذا لم يكن قد تفجر فيه الفرح ، وعرف أيضا هذة الصمت ، وشيئا آخر يأخذ الآن ثقل قناع الحياء .

وجد أنه ، من فترة طويله جدا - لا يكاد يذكر متى بدأت - يحفر بيديه ، وهو لم يعد

يحسهما إطلاقاً ، كأنهما أداتان غريبتان عنه لهما إرادتهما الخاصة ، وكان في جوفه تقبّض ، كالتشنج ، لكن لا يُؤتي الماء ، وهو يتبع ، فقط ، بفضولٍ وترقب ، تلوياته التي تشد وتفرج ، على التعاقب . قال لنفسه : فقط لأينهار السقف تحت ضرباتهم فوقي . لو سقطت كتلته الهائلة على الآن .. واختفى الخاطر على الفور واستمر يرقب يديه تعملان ، بإيقاع أبطأ ، وارتفع التقبّض المتناوب إلى حلقة ، ولم يجد من الريق ما يخففه ، وقال لنفسه ، بصحو : أعراض العطش قد بدأت ... وخيل إليه أن إغفائه القصيرة تتسارع الواحدة بعد الأخرى ، لكنه لم يكن متأكداً .

في تلك اللحظة رأى حمامة ، تنطلق كأنما من لا شيء ، ترفرف من طرف القاعة البعيد ، ثم تستقر على تنوء العمود المدور خلفه . ظن نفسه يخلم ، ولكنه يقن من أها هياك ، وبعد لحظة تبعها حمامة أخرى . هل كان لهما عش في الركن تحت السقف ؟ هل الهواء الخارجي يأتي من هناك ؟ هنا هبت به عاصفة جارفة من الفرح اكتستحته هذه المرة ، ثم انحسرت مرة أخرى . وأحس الماء حول شفّيته ، وأدرك أنه كان يتسم ، وأن الابتسامة قد شققت شفّيته الجافتين ، وفمه . لكن وجّع هذه الابتسامة كان وجعا رقيقاً مُرضياً .

وعندئذ فقط تذكر ما كان يعرفه طول الوقت ، أن هناك في أرضية المعبد فتحة تقود إلى درب تحت الأرض ، غير مستكشف بعد ، يقال إنه يُفضي إلى مقابر الخارجة القديمة ، صحيح أن الفتحة مغطاة بشبكة من الحديد مثبتة في الأرض الأسمت ، ولكنها على أي حال مخرج ، مهما كان مشكوكاً فيه .. هل يعرفون كيف يأتون إليه منها ؟ أم هي خدعة ؟ وسأل نفسه في غير وضوح : أتكون مقبرتي أنا أيضا في قدس الأقداس ؟ وعبر السؤال كأنه لم يجيء .

أفاق من اضطراب وعيه ، لحظات . كأنما يحس تحته سرير صباح ، وطفولته ، في شتاء الاسكندرية ، دافئاً في الأغطية ، وهو يصحو من نومة بعد الظهر ، لكنه نفس السرير في فندق ريزينيا ، وصوت البحر له وشيش منتظم إذ يرتطم بصخور الكورنيش ، وشوقه إليها يجيش في داخله المُغيم . سوف تأتي له من الجنب ، وتقول له إنها خجلة ، وهو يقول لنفسه أنه لا يهدى ، هو على يقين . ولا يصدّق . لا يصدّق نفسه : كيف يمكن لكل هذا الشوق أن يوجد ! .. هذا الجموح الذي لا يكف ، بعد كل هذه السنين ، في عرام محتدم ، في شهوة لا تنطفئ ، تزداد اتقاداً ولا تكاد تُحتمل . الآن أريدك . خطر له وهو على سريرته الملبس يقولون إنه عند النهاية

شتعل الشهوة ! وقال : لماذا النهاية ؟ أى شيء هذا ؟ السكون والهدوء ينسرب إلى داخله ، قال : أريدك أن تطمئني أنت أيضا ، في سكون معرفة نهائية ، إلى حنوى إليك الذي يغمرك كلك . أريدك أن تعرفي . وأعرف الاستحالة . وحشية حبي أذكرها ، ومجده لا يغرب . وحتى لو كانت هذه هى النهاية ، فأني هكذا أوجد . بها أوجد .

الذين يجلسون أبدا إلى أنوال السيج المثبتة على الرمال ، يصوغون الطرز ، تسمع أرواحهم صوت حور أينما يوجدون . حينئذ يُسمع أنين الذين أُعلقت عليهم الدوائر .

بوعي مُصيرٌ كان يغالب الإغفاء ، يستسلم له ويفيق ، ويقول لنفسه : لو نمت الآن ، فهل يمكن أن تستيقظ عندما يصلون إليك ؟

وكان على رصيف المعادي الذي يصعد منه الركاب إلى القطار المتجه إلى حلوان جنتان ، لكلب ، وقطة ، متفختان ، لم تنفجرا بعد ، مضت عليهما أربعة أيام . كان مكتب ناظر المحطة لا يبعد عنهما كثيرا .

في يوم أحد آخر ، بعد أن كانا بالأمس في النزهة ، وعرا الكوري الحديدى الصغير على التربة ، كان ميعادهما في محطة مصر . خرجا من الباب الحديدى المشبك ، يجريان على الرصيف ، لا يباليان النظرات المستغربة قليلاً من الواصلين والمسافرين والجمالين وباعة الصحف والبيض والكرويا ، منطلقين في اندفاع بهجة مشتركة بأنهما معا ، صديقين لا أكثر ، لا يعرفان بعد أن الحب مرصودٌ لهما ، كامنٌ يترصد بهما . وخرجا إلى الساحة الفسيحة ذات الأعمدة والهواية الكبيرة الرومانية الطراز والرخام الأسود اللامع المكسوة به الجدران المتينة ، ونشق ربح الشجر المهتز ، وغرقا في لجب الميدان ، وأخذها إلى الترام المؤدى إلى المشية الصغيرة ، كانت العربة بمقاعد ذات الخشب المتجاور الرفيع الصقيل شبه خاوية في صباح الأحد ، والناس ينظرون من الزجاج السميك المضلع الحافة شديد الصفاء إلى سماء شتوية الزرقة ، بعد مطر الأمس ، يطير فيها سحبٌ خفيف ملاءت هفهافةً من نُدْف القطن البيضاء .

كانت لا تعرف الطريق الذي يقطعه الترام ، بالضبط ، وتساله عن أسماء المحطات

والشوارع ، والعجلات تدق القضبان بإيقاع متكرر ، صوت دقائقها يعلو وينخفض . وعندما نزلا بعد التمثال الأخضر الرشيق ، الفارس الملتحي ، بعمامته وسيفه وملاسه التركية الفصفاضة الذي كان يسحره في طفولته ، على حصانه المتوفز بصدرة العريض وإحدى سيقانه مرفوعة أبدا ، برشاقة خرافية ، في الهواء ، وأشجار النخل الملوكي البيضاء السوق تهتز جدائلها الغنية في رقة الريح ، وأنفاس البحر الندية تأتي من انفساحه المنتظم ، صوت الموج يرتطم بسور الميناء الشرقية الأبيض ورذاذه يتطاير على الرصيف العريض المغسول ، من بعيد ، دخلا في حوارٍ المنشية الصغيرة ، معظم الدكاكين مغلقة والشوارع المرصوفة بالبالزات متعرجة ، والكنيسة اليونانية خلفهم بجدرانها البيضاء وقبتها الناعمة الدوران ، وصفقت يديها فجأة وهي تندفع إلى دكان صغير ضيق الباب جدا ، في وسط الأكتاك الخضراء القائمة الطافحة بحزم الزهور قد امتدت أجسادها النضرة مطلولة وتدلّت في عنف ألوانها ورقتها ، وجذبت من يده وهي تدحل بجانبها إلى الدكان فيمتلئ حيز الدكان بها ، ويقف ميخائيل نصفه بالداخل ونصفه على الرصيف ، وهي تنتهي بلا تردد الدب الصغير بفروره البني الناعم ، والطوق المذهب الصغير حول عنقه ، مدملج الجسم مكور السيقان عيناه الحمرتان السوداوان تلمعان بمرح وتضرع معا ، معلقاً بخيط أصفر مضمفور رقيق ، وحده ، كأنه غريب وسط العرايس والبالونات والدُمى البلاستيك المنتفخة الحدود وكرات أديداس ومضارب الاسكواش وألف صنف وصنف .

قالت له بانفعالٍ طفلةٍ وفرحها : ميخائيل .. أنظر ما أجمله !

وأنزلت الدب من على العصا الأفقية التي كان يتدلى منها ، وسط ركام اللعب والتواضع ، فأصبح له وجودٌ فجأة ، وهي تضمه إلى صدرها ، وتلاغيه بمناعةٍ خفيضةٍ وحارة ، همس :

— يا حبيبي .. إم م .. يا عيني عليه .. !

ونظرت إلى ميخائيل بعينين داكنتين غائمتين وهي تقول :

— أنظر .. ألا توافق معي أنه فائق الجمال .. يامبخائيل ؟

هل صوتها هذا الذي يناديه ؟ من اسكندرية ؟

عندما رفع رأسه وجد شقاً من النور ، غير ساطع ولكنه مؤكّد ، يقطع له هباءً غائماً

من الرمل المتطاير الدقيق .

لغظ أصوات كثيرة بعيدة ، وصوتها الملهوف الواثق في وقتٍ معا ، مليء وبعيد وحنون
ومتملك :

— ميخائيل .. 1.

هتف باسمها ، ولكنه لم يسمع صوته ، وجد أنه يفتح فمه بلا صوت ، ولكن صوته شق
حاجراً في حلقه واندفع فجأة ينادي .

لم يكن يرى شيئاً . كانت الأصوات تأتي من مستوى منخفض عن حاجز الرمل
والأنقاض ، من آخر درجة في السلم التي أحس أنها تحت كومة الأنقاض .

جاءه صوت الرئيس طه يصيح : يا باشمهندس .. إزيك ؟ بخير ؟ حمد الله على السلامة
يا باشمهندس ..

رد بصوت لم يسمعه إله ، خافت ومتمن وحميم : بخير .. بخير ياريس .. كتر خيرك ..

أخذ يصعد الكومة التي استنارت له الآن ، بحرص ، يرتقى ، يبطء ، الأنقاض والرمل
التي تنهار تحته قليلا ، ثم يزحف نحو الشق الطولي المنير ، في الغبار الدقيق ، وهو يرى بعينه
الأيدي الكثيرة توسع الثغرة من الرمل والشقافة والجص القديم ، واستجمع كل قواه ليدفع بجسمه
الذي يحمك بالحجر والرمل دفعة أخيرة نحو النور . أحس أصابعه تلامس الأصابع المكتنزة العذبة
الملمس ، خشنة الآن وقوية ومازالت حلوة المس ، وسمع صوتها ، من تحت ، من الجانب الآخر ،
عبر الثغرة التي تسمع شيئا فشيئا ، وهناك ناس كثيرون في الحيز الضيق للسلم ، قامات وأصوات
وأيد ونداءات ، وأحس الشمس من ورائهم جميعا ، هادئة النور ، على وشك الغروب . ثم قالت
له في وسط اللغظ وصوت تساقط الرمل والحجر :

— إيه يا باشمهندس .. ؟ هكذا تغيب عنا كل هذا الوقت ا

لم يكن هناك أعذب من هذا الصوت .

قال : كم الساعة الآن ؟

سمعها تسأل بصوت ملح ، قلق :

— إيه ؟ ماذا تقول ؟

رفع صوته ، بجهد ، وقال :

— كم الساعة الآن ؟؟

سمعها : ستة بعد الظهر .

قال : ليس كثيرا .. سبع ثماني ساعات شغل .. ليس كثيرا .

سمعها : هل تضحك علينا يا باشمهندس ؟ ست وثلاثون ساعة !

قال لنفسه : كان يوماً طويلاً .

ولم يستطع أن يتسم .

بعد لحظة أحس انفراجاً مفاجئاً ، سقطت كتلة من الحائط بعيداً عنه ، إلى الخارج ، وصيحات حاسب .. إوُع .. نحل بالك ، ثم جاءت هتافات الصعايدة ، والجماعة كلها ، وأحس الأصوات تختنق بدموع الفرح ، والأذرع تمتد إليه ، تحيط به ، ترفعه ، آمنة ، عرف كيف يستسلم لحب الناس وفرحهم . وكانت عيناه جافتين . وعندما وقف أخيراً على قدميه ، في الحيز الضيق المفتوح ، ترنح قليلاً ، ووجد نفسه في حضنها ، تلقه بذراعيها ، وتقبله على خديه باندفاع ، تهمس : حمد الله على السلامة ... حمد الله على السلامة يا ميخائيل . والدموع تترقرق في صوتها .

عندئذ فقط انهار الحاجز وبكى ، بصمت ، وأحس نفسه يتطهر .

صعد درجات السلم يستند إليها من ناحية وإلى الرئيس طه من ناحية ، ولا يكاد يحتفظ بتوازنه على الرمل المنحدر فوق الدرجات الصخرية ، وفي آخر نور الشمس الناعم كانت الوجوه والأذرع التي تعانقه مختلطة كلها ، الدفاء والأمن في قبلات الرجال والنساء ، لا يعرف تماماً من هم ، من ، كلهم زملاء ، والعمال ، ومعاون المركز ، وسلوى ، ومحمود ، ومدير قصر الثقافة الشاب ، وعبد الجليل ، وإلهام ، والفونس ، وغيرهم ، وغيرهم ، في دوامة الترحيب والتسليم والضحك والبكاء والهتاف والجري إليه ، والتحلق حوله .

كانت أعمدة المعبد تبدو كأنها جديدة ، كأنها منحوتة الآن ، فقط، لم يكد يرتفع عنها الإزميل ، في الشفق الوديح الفسيح ، وهواء الصحراء النقي يملأ صدره .

قال لنفسه ، فيما بعد : الآن أعرف كيف كان لعازر القائم من الأموات ينظر إلى العالم ، كأنه في اليوم الأول للخليقة . كل شيء ، كل شيء ، جديد ومفاجيء وغير محسوب .

وقال : كل يوم ، كل يوم يأتي عليّ ، هبة ، فيضٌ وزيادة . لم تكن في الحسبان .

وفي اليوم التالي رجع كل شيء إلى نصابه . في شم النسيم كان لقاءه بها ، بين الأعمدة ، بالصدفة . وكان يحس نفسه تائهاً قليلاً . وفي الليل مرت القافلة الصغيرة بالفيوم ، وكانت بالليل تستند إلى كتف محمود الذي يقود السيارة ، وسألت عنه ، فجأة : أين ميخائيل ؟

بعد الظهر قال له أحمد ، بصوته الهادئ فيه غنة خفيفة ، وهو مطرق برأسه الفضّي الشعر :

— كنت في مظاهرة الأزهر ظهر اليوم ، أليس كذلك ؟

قال ، مُفاجأً : نعم . كيف عرفت ؟

قال أحمد ، محاولاً أن يُنجي السؤال بعيداً : أبدا .

قال بإصرار : ولكن كيف عرفت ؟ هل كنت هناك ؟ لم أرك .

قال : من فوزية . أنت حاولت أن تساعدها بعد أن أصيبت .

قال : آه .. هذه البنت ؟ هل تعرفها ؟ هل رأيتها ؟ هل هي بخير ؟ ثم ماهي الحكاية ؟

قال أحمد : أبداً فوزية معنا . لا ، خير ، الإصابة خفيفة . غرزتين في الرأس ، لا ارتجاج

في المخ ولا شيء ..

قال ميخائيل لنفسه : معنا ؟ من هم ؟ تنظيم ، فعلاً ؟ ولماذا يقول لي الآن ؟ وهل

أرسلوني ورائي ؟ هل يراقبونني ؟ يريدون أن يتثبتوا مني ؟

وقال لنفسه : ياه .. كأيام زمان جدا .. مارالت القواعد مطبقة .. قواعد الأمان ..
ولكن لماذا يقول لي الآن ؟ إعلان بالثقة ؟ شهادة بالاعتراف يعني ؟

قال أحمد وهو ينهض : أحكي لك فيما بعد .. أستاذ الآن ..

كتب موسى بولس من أسيوط ، إلى الأهرام :
« لقيت ٩ سيدات مصرعهن في الحال ، وأصيب ٨ أخريات بإصابات خطيرة ، بسبب
التراحم على لحم العيد . توجهت السيدات للحصول على بونات اللحم الخائى بمناسبة عيد
الأضحى ، وتجمّع النسوة فوق سلم مبنى المكتب الذي لم يتحمل الضغط فانهار السلم » .

وكتب محمد على إبراهيم نجاتي يقول إن من أبناء قرية نجاتي ، مركز شبين الكوم منوفية ،
يوجد ٣٠٠ تلميذ في التعليم الإلزامي لا يوجد لهم مكان ويقومون بدراسة المواد في فناء المدرسة .

كانت في البطلون البلوجينز ، يُجسّمها ولكن لأُحدّها ، تهج قليلا متضرجة الوجه ،
وكان حَبّ الرمل الدقيق الأبيض على رموش عينيها المقوسة قليلاً الواسعة ، وكان الخط الأسود
العميق السواد على جفنها العلوي عريضا ، يُبرز خضرة ماء الثر العميقة في عينيها ، يعود بالروح
المضارية الوحشية من موطنها الغائر ، وعيناها زهرتان شرستان بشمس أخرى متفجرة ، في حُسيا
الفقدان والتشدان وأقيا الطلّبة .

وعندما أخرج ، ويقع على آخر نور الشمس ، ينشق جسمي ، والعالم ، شقين ، لا
جسر بينهما . في الجرف العميق صرختي الباقية من الزلزال ، من حب ميئوس منه . هل هو
حب اليأس أيضا ؟ أم هو اليأس المُختَلب الذي ظل دائما قناعا لا يُقَضّ ؟

هي صلاة الكفران عند الممسوسين القدامى : أيتها الروح الشرسة ألبسني أنايتك ،
ليست غيرانيتك ما أريد ، بل التفريد ، بل التوحيد ، وأجدان في اثنين ، إثنين في أنايتي
فرد ، ولم تعد هناك غيرية .

ما أريد ، بوحشية ، أن أعيش حبي معك . وأن أخلص نفسي فقط لما أريد .

. وما أفعل ، بصميت وحبوط ، أن أظل مهندس ترميم الآثار الذي يرعى بيتاً في الاسكندرية ، بعيداً ومُنحى به ، ويغمر يديه في النصوص لكي يخلصهما منها بسرعة ، في سفينة زهيدة الخشب مختلطة المسار تشق طريقاً متلوياً الخيوط في بحار القلب الضحلة مجهولة المسالك .

خيل إليه أنه قال لنفسه : تبرز من صُوف الحمل العجوز أنيابٌ لامعةٌ كالعاج ، مقوسة ومدببة ، قادرةٌ على النهش . فهل هي نهاشة ؟

وأنه قال : أرجع الوجع علاجٌ للذات المنقسمة الجريحة ؟

لم يعد يرى وجهه الساقط داخل صفحة الماء . ذلك هو الحل الناقص . ينظر إلى الماء . فلا يرى . فرسيس المنقطع .

•
كأنما فاته أن ينتهي كل شيء ، في عتمته المنيرة ، بكرامة ، ببساطة .

لا أعرف مع ذلك قراراً .

ما أريد أن تلتئم ضحكتي مع بهجتك الحسية ، وأن يستقر مركبي في واديك .

وما أفعل أن أبقى صارم الشكل ، ثابت الخطى . والتفتت مخبوء .

المطلق سيد ، العدالة ، والاستحالة ، والاستشهاد على الحد الأقصى . هذا لا يرى ، ومن ثم فهل يوجد ؟

الألفة ، والحل الوسط ، والجنس ، والنقص .. هذا هو وجه الماء المتقلب المتموج تحت شجر الشوارع .

قالت له : أنت تجمع أحسن ما في العالمين .

فلم يقل : وأسوأهما .

قالت : لو كُنّا التّقيّنا منذ عشرين سنة ، كان يمكن أن يلتهم أحدنا الآخر ، وأن
ننجح - أو نلحق - نجاحاً مدوياً - أو إخفاقاً مدوياً ، لا أقل ، أو مزيجاً مدوياً مزليلاً من
النجاح والإخفاق معا . كان يمكن ذلك . أما الآن فقد فات الأوان . تأخرنا جداً .

فلم يقل : الاختيار الآخر . الأصعب . الأبقى . لأنه ليس اختياراً ، بل استحالة .
وليس فيه إمكان . لم يكن ممكناً فيه شيء آخر .

قالت : لا أريد أن أخرج في نهضة ، بل في صخب .

فلم يقل شيئاً .

قال له أحبُّ أصدقائه إليه ، مرة : لم يكن من الممكن أن تصنع ، مع رامة ، حياة .

بُهِتَ جداً ، ولم يقل له : إن كل الحياة معها . وإن الحياة - في النهاية - لا تصنع بل
توجد .

لم يقل له ، ولا لأحد ، إنه معها يحدث شيء غريب . يحدث . يختفي الشخص . لا يوجد
الانفصال ولم يكن موجوداً . أصلاً . هذه الكتلة الناعمة من جسدها ، طيّعة ، ومحتوية على
نارها المكتومة ، ليست أخرى . العالم نفسه ، جسد الكون ، جسد الإله . الخبز الصعيديّ
الناضج بخميرته في الشمس ، النيذ الكثيف الشفاف ، العذب المرّ معا .

الباب السادس

شمس العيون الدفينة

كان الرنين ، في صمت نومه ، عاليا ، مُصِرًّا ، له أصداء تملأ غبش اليقظة . التليفون ، في هذه الغرفة العلوية ، بعيدٌ عن سريره ، معلقاً بالخائط على النقط القديم . والستارة الداكنة الحمرة ، قد خفَّ لونها وأصبحت بلون دم البرتقال الشفاف ، تضربها الشمس التي لم تكذ تضيء ولكنها منذ الآن فتية وساخنة ، وتجب عنه هواء الصحراء . يزيح عنه الغطاء الخفيف ، في غرفة ميناهاوس القديمة ، جاءته فجأة رائحةٌ من الخشب الذي ضربه الحر ، والرمل الخفيف العتيق في الأركان لا تمتصه شَفَاطات المكائس الكهربائية .

نهض ، دون إرادة تقريبا ، يستجيب دون تفكير للنداء اللجوج في وخامة صحوره المختلط المعالم ، لم يضع نظارته ، حتى ، على عينيه ، وهو يرفع السماعة ، ويستند ، قبل أن يقع على الأرض ، إلى الرخامة الكبيرة الصهباء اللون المُجَزَّعة في عمقها المحمر بفروع بيضاء متشرجة ، يحس برودتها المنعشة تحت مرفقيه ، ويقول بصوت مُغلق : هاللو ، وهو مدرك ، على الفور ، وقبل أن يأتيه الصوت ، أنها هي .

النورس الجارحة الجريحة ذات الجناحين الكبيرين تطير إلى داخل غرفته المطلّة على الصحراء وتنقضُّ عليه ، ضارعةً ، قادمةً من البحر البعيد .

كان الصوت مكبوح الحرارة وهي تقول ، مباشرة ، دون تحية :
— لماذا لا ترد على التليفون ؟

ولم يكن هناك ، في الحقيقة ، رد . فقال : أبدا .. أصلي أنا أرجع متأخرا جدا ، وأنزل مبكرا ، ولا أريد أن أزعجك ، في وقت غير مناسب يعني ..

قالت : بدمتك ، أهذا كلام ؟

قال : كنت أنوي أن أكلمك اليوم .. صحيح ..

قالت : إذا كنت لا تريد أن تكلمني ، قل لي . ببساطة . فأعرف .

وفجأة تكسر صوتها ، واختنق ، يغالب الدموع .

وأكملت : أنا .. مستعدة أن أفهم ..

انكسر الصوت تماماً ، وصمت . وسمع شهقة الدمع ، بعيدة جداً ، مكتومة .
وانكسر فيه عزم لم يكن يعرفه ، وتحدث ، وسقط .
فهمت : رامة ، رامة ، أنا ؟ لا أريد أن أكلمك ؟ أهذا ممكن ؟ كيف يمكن أن
تتصوري ؟

ثم قال بسرعة : اسمعي .. سأكون عندك بعد دقائق ، مسافة السكة يعني . ليس دقائق
بالضبط ، ولكن بأسرع ما يمكن . أنا نارل على الفور .

قالت وهو يكاد يراها تنسم ، ذامعة : أهلاً وسهلاً .. تعال تشرب معي قهوة .

قال : لا ، القهوة لا تكفي . أريد إفطاراً حقيقياً .. عندك فول مدمس ؟

قالت : عندي كل ما تشتهي .. أنت عارف .

وجد نفسه يمسك بالرخامة التي فقدت كل بردها ، باليد الأخرى ، متقبضة .

وكانت حركة حلقة ذقنه ، والدوش الخاطف ، واللبس ، كأنها تم وحدها ، بإيقاع
غائب وقصير الدقات ومتلاحق . وكان التاكسي ، من الهرم إلى الغورية ، في صبح القاهرة الباكر
جداً ، يطير من غير وقت . لم يعرف أكانت المسافة طويلة أم لم تكن هناك مسافة أصلاً . كان
لا يفكر في شيء . وكان هناك فرح يملأ العالم ولكنه كظيم ودفين ، كأنه ليس هناك ، وليس له
صوت ، أبداً . بل هو لا يذكر أنه لم يكن يفكر في شيء . ولكن نسقاً للتساؤل ، غير مفصّل
عنه لأنه لا يجرؤ على مواجهة الاجابة ، كان يدور في طبقة من البهجة والتشوف والسعادة ، تحتية
وخفية جداً ، من وعيه المضطرب ، ويخيل إليه أنه كان يتسم ، لوحده . منذ متى لم يكن معها
حقاً ؟ ثماني سنوات ؟ أهذا صحيح ؟ أم يمكن أن يكون قد انقضى هذا الزمن ، منذ تلك الليلة في
الأوبرج ؟ الليلة التي مازالت أسوأ ليلة عرفها ، على كخرة ما عرف من ليالي سبعة ؟ لم يكن
السؤال واضحاً في ذهنه ، ألم يكن قد خطر بذهنه ، مع ذلك ؟ لم يكن هناك في كل حسه ثم
كلمات ، ولا صور ، ولا شيء محدد ، بل رجرجة ماء منير ومعتم معا ، ليس فيه شكل ولا
حد ، كانت شوارع القاهرة يكرها ، طازجة ، ومتفرقة . فقط .

عندما نزلت الجماعة إلى المقبرة التي انفتح بابها في حوش البيوت الفلاحي المزدهم ، تحت
الفرن مباشرة ، على يسار الزريبة المربوطة فيها جاموسة واحدة عتيمة ، تحت النخلة المعجوز المتربة
المضلعة الحراشيف ، كانت قد فرغت من حديثها مع الفلاح الضاوي المنحوت الوجه من
النازلت المجذور ، تحت عمامته الكبيرة غير النظيفة تماما ، قالت له إن قرار مصادرة البيت سوف
يصدر قريبا ، وستعمل كل جهودها لتخلص الاجراءات سريعا ، وأنه سيحصل على مبلغ طيب
سعر السوق وأكثر ، مع تعويض مناسب ، وقالت إنه منذ الان قد عُيِّن حارساً رسمياً للمقبرة ،
بمكافأة شهرية قدرها عشرة جنيهات ، وأن القرار مع البيه باشمهندس وسيسلمه صورة ، وسألته
هل يمضي أو يصم ؟ وأجاب الرجل بكبرياء إنه سيمضي ، فقالت ماشاء الله ماشاء الله ، على
خيرة الله ، وكانت زوجته قد ضمت الطرحة السوداء المقفرة قليلا على وجهها ، حياءً من
الحكومة التي اقتحمت عليها فرنها وحوش بيتها ، وهي تجمع بين ساقها طفلها الذي ليس عليه إلا
قطعة من قميص مغبر لا لون له على اللحم ، يزحف على الأرض ، ويقوم قيبين ذكره وعدته
الصغيرة المتربة ، والذباب يأكل عينيه ، فهشته عنه ، ورفعتة إلى صدرها بلا تردد ولا تخرج ،
ببساطة ، وأخذت ثناغيه بصوت حنون ومنخفض ، كأنها وحدها مع الطفل ، فبكى بصوت
مفزع ثم هدأ واستكان إليها وهو يحدق إليها ، أوقعته فجأة في سحرها الخاص ، ثم سلمته لأمه
وهي تقول ، بعفوية كأنها فطرية : خمسة وخمسة ، اسم النبي حارسه ، رينا يخليه لك
ياحجة .. ما اسمه ؟ فترد عليها بفخر وخوف محامر مازال من الحسد : محمد ياست . رينا
يخليك ياست ويطول عمرك ، ويحط في إيدك البركة يارب . كان أبناؤها وبناتها يقفون صامتين ،
وتأتي من الباب ضجة الأهالي وصوت الخفير الحكومي بيندقيته الطويلة يزجرهم ويرددهم ويثرثر
معهم .

قالت له ، تحت : هل تعرف أن صاحب هذه المقبرة من بلدياتك ؟

فابتسم لمفاجأتها المعتاده وقال : صحيح ؟ إسكندراي ؟

وكان يضحك لنفسه من خطأ سؤاله الواضح في نفس الوقت الذي ترد فيه :

— ميخائيل ! كيف ؟ سواحي يعني . كان قائداً للأسطول ، وحارب الحثيين في

الشمال ، وذهب إلى بوئت جنوبا وعاد بالبهار والتوابل والخشب النادر .

قال : صحيح .. فمن كان الذي يكره البحر ؟ ليس الناس ، ولا القادة .. ؟ أظنهم

الكهنة ؟

قالت هامة حتى لا تسمعها بقية الجماعة : عفارم عليك يا حبيبي .. ثم بصوت عادي : البحر عندهم حرم محظور . لا تجرّ لهم رؤيته ولا السكنى بحضرته .

كانت العينان ، في ضوء البطاريات اليدوية الكبيرة ، مفتوحتين على سعتيها ، نجلاوئين فجأة ، أمامه ، في هبوة الغبار المعلقة المتصاعدة تحت اقتحامهم بعد السكون دهورا طويلة . وكان إحساسه بانتهاك الحرم حيا مازال ، وهو يتفحص بعين خبيرة ماى متانة المقبرة وصلابة بنائها ، إذ يتقدمون ورائه بحذر .

والبنت بوجهها القبطي المسحوب ، ذهبية قديمة ونضرة ، تنظر إليه من غير عتاب ، تراه ، وتعرب عذاباته الخفية ، الصغيرة والكبيرة ، وتفهمها ، أيضا . وكان يظن أنه يموت ولا يقول عنها ، فأحس فجأة أنه مكشوف ، ولكن فقط في ضمرة هاتين العينين .

قال لنفسه : أكان ذلك في معبد هيبث في الخارجة ، أم في تلك القرية جنب الفيوم التي نسيت اسمها ؟

كان رامة قد قالت له : لا تمس علاقة دفيئة . لا تفتح عليها .

خطر له أنه يعرف هاتين العينين ، بموجتهما الداكنة الخضرة التي تضرب الى شفافية في قوام ماء البحر ، وأن دوران الوجنة السمراء الصافية مازال في راحتي يديه المفتوحتين تمسان نعومته .

كان للرائحة فوح قديم ، حرافة الصندل العذبة ولذع النطرون وحيدة طيوب المر التي هدأت في الليل الطويل . وكانت شمس العينين تستضيئ في سماء محبوسة وضيقة ، لاتضم غيرها . وكان يحس أنه يحبها جدا وأن بينهما حاجزا لا يراه ولا يمكن أن يتخطاه . وكان يدعوها باسمها القديم وتبسم عيناها ، فقط بخير وعرفان ، وكانت ساقاها التي جانبه ، دائما ، ملتفتين ومليئتين بجسدانية حية لا غلاب لها من وراء الكتان الناصع الشفافية يزدهر عليه موسن الوادي الفضى يفتح ويختفي ، وعندما ينحني يقبل شفيتها السوداوين فتنتقل إليه منهما دسامة فيها دفء

بعيد جدا ، كأنها ذكرى فقط ، والرعدة الخفيفة في الشفتين كأنها اهتزاز أمنية غير متحققة .
وكان يعرف أنها تحبه .

كانت تصعد إليه ، ذراعها مائز الان الى جانبيها كأنهما بين شرائح الكتان العريضة غير المرئية . ولكن الذراعين ترتفعان ببطء ، وتُحيطان به ، فلا يحس إلا نفحة العطر الذي لا يذبل ، والطيب القديمة ، ونعومة خفية . على صدرها الناهد الثابت عقدان من أحجار الياقوت الحمراء الباهتة وحصى اللازورد الأزرق ، والعقد الثالث حولها من حجرها الزمردى الخاص صفاؤه المشع محبوب ، ونوره موجّه الى الداخل ، ولا يكاد يحس ارتفاع النفس في صدرها . لحمها الذهبي تدب السمرة ، وعلى شعرها المفروق في منتصف الرأس ، إكليل من الغار ، ذهبي وقديم السمرة ، ويتدلى من أذنيها قرط له ثلاث دلائل تنتهي كل منها بكرة صغيرة ذهبية باهتة ، تهتز ، ولاصوت لها . وكان حاجباها كثيفين مقوسين باتساع على العينين المفتوحتين ، والحدقتان كبيرتان جدا ، نظرتهمما إليه ، وإلى بعيد ، في نفس الوقت ، ليس لعمقها ، ولا لامتلائها ، نهاية . وكانت تقول له بلغة لا يعرفها ، ولها جرس مألوف جدا ، ويفهمها من غير أن يكون قد سمعها : يا حبيبي . لماذا أنت بعيد ؟ لماذا لا تجيء .؟ وكان يرتعد ، ويتمنى لو يلحق بها ، ويعرف أن هذا غير ممكن الآن ، ولعله غير ممكن أبدا . وكانت غوايتها له ، في أرض ليله ، من خلف كتابات منحوتة الظلال ، عابرة ، لا يكاد يمسكها بيديه ، كانت تروده وتمضي وتعود ، على غير انتظار ، من غير ميعاد . وكأن حضورها مقيم لا يرى ولا حدود له . وكان فقدانها ، في غمرة حبه ، يذهب معه بشمس الليل ، ويُجفف قلبه . شمس السيون زهرة ليلية صلبة ، حادة الأطراف ، باقية ، لا تنقضي .

قال لها : كان لي ، في الزرابي فيوم ، أخت لم أرها أبداً ، ولم أعرفها أبدا . كانت أختي لأبي الذي عاش في الفيوم ، يشتغل بتصدير البصل والبيض إلى الاسكندرية أثناء الحرب العالمية الأولى ، وبعدها بقليل . قال لي أبي إن تجارته من هذا العمل ، في العشرينيات كانت رائجة ومطلوبة ، وكان يسهر طول الليل يشتغل ، وأنه في تلك الفترة عرف كيف يشرب قهوته مع الأفيون ، حتى ينشط إلى العمل ولا ينام ، وقال لي إن زوجته ماتت في الفيوم ، فترك البلد إلى الاسكندرية ، وترك ابنته في رعاية أخوالها ، ولم أرها ولكني قرأت خطاباتنا إلى أبي ، فقط ، بعد أن مات وأنا في كلية الهندسة .

في الصباح ، في غرفته المغلقة ، كانت آثار عبقها ، ههافة جدا ، خيوط ضباب خفيف تختفي بمجرد أن يُنشَقَ هَبْوَتُهَا ، لا تكاد تُحَسُّ لكنها تترك في جسده ما يشبه ندبة أسنان رقيقة الجرح .

قال : اللحظة التي لا تُحتمل ، لحظة اليقظة في الصباح ، وامرأة إلى جانبه ، نائمة ، مطمئنة ، بعد تحدر النوم ، واضطراب الغيبة ، والشغرات المفتوحة على نصف الحلم نصف الصحو ، وتدخل ، فجأة ، قسوة النهار ، ووحشته .

وعندما كان يستيقظ ، في تلك الأيام ، كانت تقول له ، وهي تحس الوجود الغريب معهما ، في غرفة نومهما المقفلة : هل تشم تلك الرائحة ؟ خفيفة جدا ، ولكن .. رائحة غريبة في البيت ، تأتي من عندك ، مثل رائحة الكنائس المقفلة ، كأنها رائحة الشمع الموقد .. أو .. البخور .

فيصمت . أو يقول ، فقط : غريبة .. !

قال : كيف يمكن أن يجيا أحد .. أي أحد .. مع هذا الألم !

قال : ما الذي ييقيني ؟ ما الذي يجعلني أمضي في طريقي ؟ إلى طريق ؟ أمضي في سبيل الحياة ، ككل الناس ؟ أحسُّ - قليل على أي حال - بالواجب ؟ أحقا قليل ؟ أحسُّ دينيُّ ما ، غير واضح الشكل ؟ أمجرد عناء الحياة ؟ دون معنى ؟

وقال لها : صوتك الذي فيه غربة ، وتغريب ، عندما تتكلمين إليّ ، كأنني أي أحد ، كأنني أي شيء ، يصبح الألم فيزيقيا بحتا ، وليس فقط شعورا ، وإحساسا . بل تقبُّض ، وتذقُّق للدم إلى المعدة ، وتقطيع حاد ، قلت لك : أي شيء إلا أن تعامليني كغريب . قلت لك : من أجل نعمة الله ، لا تقابليني كغريب هذا كل ما أطلب . فعندما تغريبنني ، أنا الذي أقف دائما على حافة غربة العالم ، أسقط على الفور في هوة الغربة الأخيرة التي لانجاة منها . عندما التقيت بي قلت : أهلا . كيف أنت ؟ ويدك في يدي غريبة ، صامتا ، فسقطت على الفور . مازلت أهوى . وليس هناك قرار .

قال لنفسه ، نقسوة ، وماذا تريد ؟ أن ترتبي في أحضانك ، مثلاً ، وتبتك لواعج الهوى ،
والضنى ؟ كما تفعل أنت ، أو لاتفعل في الحقيقة ؟ ولماذا صبيانية الغربية هذه ؟

وقال ، عاتدا : نيرة صوتك ، وماتوحي به ، هي الكم غير المحسوب ، دائما ، وبيروعي
مدى الأثر الذي يمكن أن تحدثه في أية خلجة في هذا الصوت ، أية إيماءة منه . لماذا لا
أخذك ، كما يقال ، على علاتك ؟ لماذا لا آخذك موثوقاً فيك تماماً ، ثابتة ، ودائمة ؟ هذا
ماتطلبينه مني ، في الحقيقة ، فقط . ولكن أهذا ما أنت ؟ كيف أنسى . في أية لحظة ، نظرة
الحب في عينيك ، وصوتك ، تقولين : « أنا أحبك » ؟ كيف يمكن أن أنسى ؟ ألم أعرف حبك ،
كلّي ، وكلّك ، معرفة ليس بعدها معرفة ؟ ولكنك تستطيعين أيضا أن تقولي : كيف أنت ؟
وما أخبارك ؟ بغيادٍ وعدم اهتمام ، أهذا عنصر دائم من عناصرك ؟ هذا التغيير ؟ وإذا لم أكن مجرد
عابرٍ في طريقك المزدحم ، فهل أنا عندك مرحلة منقضية منذ الآن ؟ عندما قلت لك : الناس
يتغيرون ؟ نظرت إليّ فقط ، دون كلمة . ولم أفهم - كعادتي - نظرتك . كنت أرد ، بغاوة
طبعاً ، عن سؤالك لي : لماذا تظن أنني أعاملك كغريب ؟

قال : يا أكرم نفسها ! أن تقبل مني هذه المواجهة بالثكران الذي كأنه خيانة ؟

وقال : ولكن لماذا ، عندما أسألها : « ألا تعرفين أنني أفكر فيك كل لحظة ، وأنتي معك
في كل لحظة ؟ » لا تأخذ هذا ، أيضا ، قضية مسلماً بها ؟ بل تقول ، ساهمة متفكرة : « لا
أدري » فتغوص الطعنة في مقتل . هي تعرف ، تماماً ، كل مقاتلي . عندئذ أفقد كل توازني ،
فعلاً . كيف لم أستطع ، حتى الآن ، أن أجعلها تثق في حبي ؟ أهذا من طبيعة هذه العلاقة
نفسها : هذا الانفتاح الدائم على رغبة لا عجة في التأكيد ؟ ومع ذلك فما أكثر اللحظات التي
هي تأكيد كامل ، لا يمكن أن يكون وراءه أي تأكيد ؟

الكلية ، الإطلاق ، النهائية ليست لا مبالغة ولا إغراقاً ولا صورة من صور الكلام . هي
حقيقة بسيطة ، على مستوى معين . لا تأتي إطلاقيتها من المقارنة بل من مجرد وجودها بذاتها .
ليس للنسبية هنا مجال ولا سياق .

هل مللتِ يا حبيبتي هذا التقليل المستمر للنفس وهذه الهواجس الأَسْكَالَة الأَنْياب ؟

هذا هو النسيج الذي صُنِعَتْ منه ، لا ، بل الذي به وُجِدَتْ .

فلا تدعيني ، لأنك تغريبنني ، أُمِقتُ نفسي ، وأحتقر نفسي ، أكثر مما أفعل .

أعرف أن هذا كله لابد يبدو لك شيئاً خاصاً بي وحدي لاشأن لك به ولاذنب لك فيه ، هذا ما قلته ، بهذه الكلمات . صحيح ، ولكنه لأنى أحبك ولا أعرف كيف أقتنع أنك أنتِ قد أيقنتِ يقينا ثابتا بهذا الحب . حتى لو لم أرك أبداً بعد ، أريد فقط أن أعرف معرفة نهائية أنك ستفكرين فيّ أحيانا بمحبة ، دون رفض ، وأن أكون غير مدان . هذا كل شيء .

ليس يقيني موضع سؤال ، بل يقينك ، فيم تفكرين وماذا تفعلين .

قال لها : ما أسهل أن تعود الكُبح ، وأن تنطبق قيودُ الزمت على النفس من جديد .
الخطر قريب جداً مني . وهرولة العودة الى جُحري مألوفة ومجرّبة !

بعد أن عرفت انفجار بهجة الحرية غير الموصوفة ، وسقوط حيطان الكبت ، سطوع الفرحة الجنوني بهذا التفتح ، الحس الفسيح بالانطلاق ، ومن ثم القوة .. القوة التي لاتعنى الأناية .

قالت : أنت طهراني .

قال : الحواجز الخلقية الموروثة والأصلية أحسها أحياناً بلا قيمة ولا ثقل . أعرف أنها في داخلي ، قائمة وفعالة بشكل ما ، لاتتمحي ، ولكن الفرحة يُفرقها كالسيل . والفرحة أكثر خلقية من كل طهرانية ممكنة .

قالت له : كان يجب - ويحق - لك أن ترفع قامتك إلى السماء .. لأن رامة ناجي تحبك .. أعلى أنا أن أقول لك هذا ؟

قال لها : ولكن مزاجاتك المتغيرة تتضمن الرفض لي ، تنطوي على رفضي - وأنا عندئذٍ آخر - وتعني عودتك إليك أنتي ، كأنما في غضبٍ طفليٍّ من نفسك ومن العالم ، كأنما في عقابٍ للآخر . كيف أقول لك يا حبيبتي إنني لست آخر ، ولست الآخر . هذا هو كل حَجَرِ النواة ، ومالم تمسك به فسوف نطفو على العباب ، حطامَ خشبٍ سرعان ما يفوص .

وقال : هذه المزاجات المتقلبة لا أطيقها . بعد ذلك بكثير أحبها لأنها منك ، لأنها في النهاية وجهك الثاني الذي إن أشاح عني فلعله بذلك يقول لي إنني هنا فعلا ، وإنه يطلبني . أو هكذا أتصور . ولكنك عندما رفضت حتى أن تنظري إليّ ، وغرقت في النوم فعلاً - النوم العميق - في داخل عباءتك السوداء ومازالت موسيقى باخ منسّية ، وأنا مازلت واقفاً أمامك ، بلا حلّ ، هل تعرفين معنى هذا الرفض ؟ أهذا هو الإلغاء الذي تقولين ؟ ألم يكن قد بدأ مبكراً قليلاً ؟

قالت له : هل تعرف ، كنت قررت ألا أرى وجه سيادتك بعد !

وكانت تضحك من غضبها ولكنها بذلك كانت تؤكد .

ولم تقل له : ولكن هذا غير صحيح - بل هذا النوم نفسه - ماذا أفعل بك ؟ - هو قولي لك إنني أحبك ، وإنك قادر لذلك أن تغضبني . نومي وأنت معي هو كم أنا آمنة مع ذلك ووثيقة وقد أسلمتُ لك كل شيء ، حتى غضبي أسلمته لك . لذلك لم تعد هناك ضرورة لليقظة ، ولا حتى للمصالحة ، بالكلام ، لم تعد هناك ضرورة للحرب ، ألا ترى هذا ؟ أهذا صعب ؟ ويؤلمك أيضاً ؟ ماذا أفعل بك يا ميخائيل يا قلديس ؟

كانت قد قالت له : ألسنت تقول إنك تحبني ؟ فهذه أنا بمزاجاتي وتقلباتي .. ! الحب أيضاً أن تعرف ، - وتحترم - قوانين الحبيب .

ولم يقل لها : ما أصعب - وما أسهل - أن أضع يدي على هذا التراوح . والانقلاب ، من محورٍ إلى آخر ، وما أسرع ما تطلبين - وأطلب - الاستجابة : أنت التي تعيشين بمنطق التضاد في داخلك ، لا بمنطق الانصهار والاندماج الذي لا أعرف غيره . أنت الأرستقراطية

تسل والتريبة والمزاج ومنت البلد المصرية الضاربة بكل نفسها وجسمها في طينة مصر وتراب
ماهرة ، أنتِ العقلانية المفكرة المدفوعة مع ذلك بحوافز هوى لا يقف أمامها شيء ، أنتِ
تسبم الحافل الجميل بحماته الحارة الغنية وخذ الإرادة القاطع معا ، البورجوازية الثورية كلاهما
تقي عندك ممعا ، الصداقة في كل كذباتك ، صاحبة جسد الأعمدة وضاربة ناقوس الهيكل
قدس والمشدنة المشوقة المتضرعة بشهوتها إلى ماهو مستحيل ، أنتِ المعلمة المضيفة المفتوحة
كتابات أبدا ، والطلسم الحفي المعنى أبدا ، لكنك ياسيدتي أميل مني وأقرب إلى التركيب . أنا
سيط وساذج أعيش بالتضاد والتوازي ، بكل حدة الانشقاق وصرامة الانفصال ، في حلم .
توحد .

كانت قد قالت له : ليس هذا كله ، الذي نعيشه الآن ، صحيحاً . لا يستقيم .

وكان يعرف أنها لا تتكلم عن الإطلاق بل عن النسبية .

وقال : مازلت - لكى لاتؤليني رعا ، ولأنك تحبينني رعا - تخفين عني أشياء كثيرة .
مازال يعذبني هذا .

قالت : أنت الذي تقول هذا ؟ أنت المطوي على كل شيء تقريباً في داخلك .

لم يقل : معك وحدك مفتوح ومكشوف ومُعَرَّى ، وفرحي بهذا لايقاربه فرح من نوعه
أبدا .. تقريبا .

بل قال - مُسِئاً ، مهاترا ، على رغمه : أهذا حقيقةً يهملك ؟

ثم أدرك سخافته فاستدرك : أنتِ الأقدر على الحب ، والأكرم ، بلا شك . أنا مع ذلك
أحمل لك شيئاً أعمق ، وأكثر جيشانا وغورا .. أنا أحبك أكثر ..

فقلت : بل أنا أكثر .

قال : أنا أكثر .

قلت : أنا .

ضمّها وقد صفت نفسه من كل غيمة وهمس في أذنها : أنا وأنت ، كلانا أكثر من الآخر ! أنا أكثر وأنت أكثر .. !

وقبلها فلم تستطع إلا أن تتمم وشفتها تحت شفّتيه ، وعرف أنها مصممة ولم يسمح لها أن تفتح شفّتيها لتقول : أنا أكثر .. وأصرّ على قبلته حتى كادت تخنق فضربته على كتفه برفق وإلحاح ، وأفلتت شفّتها منه وهي نشهق : تريد أن تموتني . !

قال : بعد الشرّ .. إن شا الله أنا .. !

فقبلته هذه المرة ، هي ، حتى كاد يخنق ..

في صبيحة شمّ نسيم آخر كانت تتغطى بملاءة السرير ، مريضة ، والنافذة الزجاجية مفتوحة قليلاً على المئذنة السامقة ، والجو في القاهرة غائم ومحايد ، مترب قليلاً بالخماسين .

كان قد قضى عيده معها - من غير احتفال ، كانت تغالب الألم ، وتتقبل حبه في ألمها ، بمضض ولكن بغير صدّ ، كان جسمها الذي سقط عليه قميصها القصير الواسع وانخر عنه ، مثيراً حتى في الوجع ، وله رائحة غريبة حريفة وعذبة كفاكهة شديدة النضج . وهي لاتكاد تعن كلما انشعبت في داخلها طعنة وجع ، قالت له إنه في جانب البطن ، ولكنه كان واضحاً أنه ليس من الزائدة الدودية ولا من الكلى وليس مفصلاً . كان الألم من مرض غير مفهوم . وكانت هواجس الخوف عليها تساوره وتعضّه وتفرغ منته ولكن يردّها عنه ويخفيها ويهون من أمرها ، ويقول لنفسه سوف يمضى المرض من تلقائه ، ويشعر بعجزه وقلة حيلته وعندما يهدتء من روعها ويطايها يحس كلماته وإيماءاته قاصرة وغير كافية وكأنها مصنوعة وكأنه غير معذب بها ، وكأنه يقول كلاماً بلا مبالاة . وكان قد طلب المصلحة وأبلغ بإجازة مرضيّة لها وقالوا له إنهم سيرسلون الطبيب ، متى ؟ ربنا يسهّل ، اليوم إن شاء الله وعلى الأكثر غدا فرجاهم أن يرسلوه بأسرع ما يمكن وقالوا مرة أخرى إن شاء الله وربنا يسهّل ، وكان متحيراً وناقماً على نفسه ، وكأنه ناقم

عليها ، كأنه من غير المسموح لها أن ينال منها وهنّ ولا أدنى عطب ، ولكن خيسته أمام المرض كانت تقليدية وعظيمة . كان يذكر أنه في صباه ، عندما مرضت أخته ، التي يجيها ، بالتيفود في ١٩٤٢ ، كان يهرب من البيت لأنه كان لايعرف ماذا يفعل ، وليس في يديه ما يفعل ، ولا يطيق ، ولأنه ، من الحب ، يرفض مَرَضَ مَنْ يحبه ، ثم ماتت أخته ، وبكاها كثيرا ، وقال لنفسه إن الحزن ورقه القلب قد فات أوانها وأنه ليس لها أدنى أهمية . وألبير أخوه الذي سقط في نفس العام وبفس المرض ، كان قد حمله على ذراعيه ، والولد الذي كان مرحاً ومليء الجسم والامع الذكاء قد نحف وزنه كثيرا وتجمّد وجهه وسقط شعره ، من التيفود ، بقطع من جلد الرأس الذي بدا متسلخا وبه بقع بيضاء مبللة ، وعبر به شارع راغب باشا ، بين الناس وعربات الكارو الحملة بالدقيق والتراموايات المحملة بالغرباء ، إلى العيادة الحكومية ، لمسحوا له رأسه بدواء مطهر بنى اللون ، ويعود به في الزحام ، وكان ألبير واهنا على ذراعيه ، بسنيّه التسعة وصامتاً كأنه عاد إلى طفولة متأخرة ، كان يملكه وهو يضم إلى صدره ، ويحبه جدا . ومات بنكسة قاسية أنهكته تماما بعد أن تماثل للشفاء . ولم يعد أبوه أبداً بعد ذلك إلى ماكان عليه . وكانت الضربة فادحة . وكان يقول لنفسه : أمقت المرض ، والألم ، ولا أعرف كيف أقبله ولا كيف أتعامل معه . كأن أحبائه يخذلونه أو يخونونه ، فعلاً ، عندما يمرضون أو ينألون ، وعلى كل رفق قلبه بالخوف عليهم ، والحذب والتوجع ، يبدو صلباً جامداً وفي كلامه لا مبالاة أو حتى برود ، الجفاء الذي يردّ به على فرعه وضعفه أمام الخطر عندما لايعرف كيف يُلاقيه ، إلا أن يجري إلى الأمام ، أو يجري إلى الخلف ، يحتضن المرض والألم بجسمه هو ، أو ينفيه عن نفسه ، ويلغيه .

ولما دقّ الباب فتح ليجد نفسه أمام امرأة نحيلة قصيرة رقيقة الجسم ، ترتدي الطرحة البيضاء تحيط بوجهها وشعرها ، وثوبها على الزى السابغ التقليدي ، وحذاؤها رجالي منخفض الكعب .

نظر إليها مستطعماً ، فقالت بهدوء وطيبة :

— الدكتورة من مصلحة الآثار .

قال : أهلاً وسهلاً تفضلي يادكتورة .

فقالت : العنوان صعب جدا . تعبت في الوصول . إن شاء الله المدام بخير ؟ أين هي ؟

قادها الى غرفة النوم ، وألقت نظرة ممتنة إلى المصحف الكبير المفتوح على مكتبة الحائط الجانبية . وحاولت رامة أن تنهض فوضعت الطبيبة يدها برفق على كتفها وقالت : لا .. لاخليك مستريحة يا حبيبتي .. وجلست على كرسي أحضره لها بجانب السرير ، وظل واقفا لحظة ، ولكن الطبيبة بدأت تسألها عما تحس ، وطلبت منها أن ترفع قميصها للكشف ولم يجد من نفسه مبادرة الحركة للخروج من الغرفة وقد فاتت اللحظة فبقى وهو محرج قليلا ، وكانت - كمعادتها - عارية تحت القميص فحول بصره قليلاً وقد أحس بالخجل ، وبعد انتهاء الكشف قالت الطبيبة وهي تكتب تذكرتها الطبيبة ، برقة : لا .. لا شيء .. خير إن شاء الله .. بسيطة .. سأكتب لك إجازة أسبوع ، وبعدها سنرى .. فقط اليه زوجك يحضر هذه الأدوية ، اليوم إذا أمكن .. ويتصل بي في أى وقت إذا لزم الأمر ، في أى وقت ، ولكن لن يكون هناك داع إن شاء الله .. وهي تغلق حقيبتها الطبية وتنهض للخروج . كانت رامة قد همت أن تقول شيئاً ولكنها استدركت نفسها ، كان شكلهما ، معا في البيت ، زوجياً جداً ، لكنها نظرت إليه ، من مرضها ، وفهم من نظرتها حس اللوم ، بل حكم الإدانة ، والفضب ، فهو ليس زوجها حتى وإن كانت قد قالت له إنها مرأته ، المرأة التي له ، حتى وإن كانت قد قالت له ، بصوت ملؤه النعاس والحس بالأمان ، مرة ، عندما عاد إلى البيت متأخرا ، وفتح الباب بالمفتاح الذي أعطته له ، ووجدتها نائمة ، وقبلها على جبينها برفق : رجعت ؟ الساعة كم ؟ ياه .. أحس أنني زوجتك جدا . ونامت على الفور يند عنها أنين رضى وارتياح .

عندما نزل ، بعد انصراف الطبيبة على الفور ، كان سعيداً بمعنى ما لأنه وجد شيئاً ما يعملها لها في مرضها ، بعد طول الحيرة واللدد . كانت القاهرة في شم النسيم خاوية ومغلقة ، وكان بحثه عن صيدلية مفتوحة مغامرة غير محسوبة ، حتى وصل إلى الإسعاف لكنها أيضا كانت مغلقة . واكتشف ، مع سائق التاكسي ، صيدلية مجهولة صغيرة في حارة من بولاق ، وعاد بعد أن دفع للتاكسي بسخاء ، وقال له الرجل : « بالسلامة إن شاء الله ، كل سنة وأنتم طيبين » ، وفكر أن حظه كان لا يصدق أنه وجد التاكسي أصلاً وأنه وافق على عملية البحث معه عن صيدلية مفتوحة في فراغ القاهرة هذا الصباح الغائم بتراب الخماسين الخفيف . وعندما سمعها ، بعد ذلك ، ترد على سلوى بالتليفون ، وتقول لها : « أشكرك يا حبيبتي ، لا يانور عيني ، أبدا ، أنا أحسن الآن بكثير ، لم تكن تنقصني الرفقة ولا العناية .. » وهي لا تنظر إليه ، ويعرف أنها تتجه إليه وحده بهذه الكلمات ، أحس نفسه ، أخيراً ، له فائدة ، أكثر بكثير من لحظة عودته ، عندما قالت له : « مدهش ، لا أعرف كيف جئت بالدواء اليوم ، لم أكن أصدق أنك

ستحصل على شيء» .. ولكنها قالت له ، فيما بعد : « لأدري . كان عندي شعور بأنك غير مهتم بي ، حقاً . كانت كلماتك تأتيني غريبة وليس فيها إحساس » . وكان يعرف أنها على حق . في الأزمة لم يكن يعرف أن يتكلم ، وإذا تكلم جاءت كلماته بعيدة لا صلة لها بها ، اكتفى بأن قال : « لا أعرف أحياناً أن أنقل ما أحس به » ، فقالت مُنكرة : « أنت ؟ غريبة ! » فأحس مرة أخرى قبضة الذكرى ، والحزن ، والحس بالخذلان من صباه . كيف يمكن أن يُصحح القلبُ خياناته القديمة ؟ وكيف يعترف ؟ آثام القلب لا يُبرئها شيء ، ولا الاعتراف ، عليك أن تقبلها - أو ترفضها - ولكن تُحْمِلْ ثقلها الرازح ، وتعرف كيف تحمله . فأحاط كتفها بذراعيه ، فقط ، وكان وجهها العذب الأسيل فيه جراحات دفينه خفية ، قريباً جداً من وجهه ، ضمها إلى صدره أكثر قليلاً ، فقط ، وقام فجأة وخرج مسرعاً من الغرفة ، ليتألم نفسه .

ياحبيبتى ، لا ، لست أصر أبداً على أن أراك قوةً كونية ، حتى إن كان فيك هذا الإثراء بالخلود ، بالانفصال عن الزمن ، ونضارة الفينيقة الأبدية .

دعيني أفصح تماماً ، بقدر ما أستطيع . أتهجأها حرفاً حرفاً ، كما يقال .

لا ، لست أحب وهماً من صنع خيالي ، ولا أنا أصغر إليك كما أصغر إلى « مطلق » ما أقيمته لنفسي من تصوراتي « المثقفة » ولا شيئاً في هذا السياق كله . بل أحبكِ ، أنتِ ، امرأةً غنيةً بأنوثتها الحية ، الحسية ، وكبيرة القلب ، وجريئة ومُحِبَّة وتعرف كيف تفكر وجميلة ، وتعيش في هذا الواقع الأرضي الذي نعرفه كلانا ، بأصفاده وفروضه علينا ، وبإمكانات الحرية فيه أيضاً ، أحبكِ بما فيك من ضعف وحاجة ، ويزيد ضعفك من حبي لك ، طبعاً ، وكما هو ضروري ، وبما فيك من قوة وعزم وجسارة أيضاً . أما تلك القوة الكونية ، أو شيء ما يشبهها ، أو يفوقها ، فهو شيء ما عندك يستثير مُقابله عندي ، قوة حبي لك . ولست أعرف ما هو هذا الشيء . المطلق ينادي المطلق إذن ، وما يجاوز الانساني يستدعي نظيره ، عاشقٌ أنا أعرف مَنْ أعشقت ولا علم لي به . أفيض بالعشق إلى مالا حدود . هكذا أحسه ، ماذا أفعل ؟ ليس هذا مجرد طاقة محبوسة تفجرت وفرغت ، وليست هذه مرحلة ما منقضية ، ولا احتياجاً عابراً ومتقلبا ، هناك ثبات في هذا الحب يفوق كل مدى ، جيشان دائم لقوىٍ حميمة جداً وعميقة إلى غير ما قرار ، وباقية . مقوم من مقومات الوجود ، رابطة لاتنفصم لها اليوم من السطوة والضراوة والتحقيق الذي لا يُوصف ما كان لها في أى وقت ، وأكثر ، وأكثر ..

لا ، لست متواضعاً أبداً ، ولا واقعياً بائنين مليم ، ولا عاقلاً في الحقيقة ولا شيئاً من هذا القبيل . وليس هذا أيضاً وهماً من أوهامي عن نفسي ، أتوهم كثير أنه ليس عندي أوهام عن نفسي .

هل هي صدفة خاطئة في المكان والزمان ؟ ما يسمى بالمقادير ؟
أم على العكس تماماً ، هو حتم محتوم ؟
ولست أعرف ما إذا كان ذلك كله يصنع معنى . أثق أنك بحدس ما ، فيك ، على الرغم من حواجز الكلمات التي لا اجتياز لها ، تعرفين ما أعنى .

زهرة الصبار الحمراء ، يانعة ، وحيدة في وسط امتداد رمال الصحراء البيضاء الشاسعة ،
تزهرين يوماً واحداً وتبقين بلا انتهاء .

وشوقي إليك أعنف جدوةً الآن من أي وقت مضى . عاتٍ وطغيانه لايتهي ، ليس له
بر .

اليأس أيضاً قائم لايتحول .
لن أتعلم أبداً كيف أكون واقعياً .
أقبلك على عينيك اللتين تروعانني ، وأنت تُفويضينهما من أجلى ، وعلى خدك الرخيم ،
على شفتيك المليئتين بماء حياتي . ولا تنتهي قبلتي .

هل هذه النجوى الطويلة مملة عندك ، وغير مهمة ، وليست صحيحة ؟ أم هي مسلية
وشائقة ؟ أتخالف قاعدةً من قواعد السلامة الخلقية ، أو السواء النفسى ، أو معايير ما ينبغي
وما لا ينبغي ؟ أهى شىء مَرَضِيٌّ وغريب قليلاً وليس من الأصول فى شىء ؟ وهل هناك بيننا لعبة ،
فى النهاية ، لها أصول وقواعد ؟ أنا أقول لا ، لا . أقول هذا أنا ، كلى ، فى الميزان . ودائماً كفتي
مرجوحة ، ودائماً لا أعرف ، ولا أهتم ، بقراءة الميزان .

فى غمراته التى تعلو به وتميد ، كان دائماً يريد أن يعرف كيف تتلقى - هى - هذه
الهجمات العاطفية ؟ كيف يمكن أن ترى هذه الاقتحامات ؟ قالت له مرة إنه حتى الشيخ

التفزاوي يرى أنه في العشق من الضروري حُسن الأدب . كيف يقول لها إن العشاق القدامى كانوا يسيئون أدبهم في حضرة الهوى بل كانوا لا يعرفون مأسوء الأدب ، وإنه اذا صَحَّتْ المحبة سقطت شروطُ الأدب ، كما يقول شيخه الذي يحبه .

أم لعلها تفكر أن هذا كله شيء لا يتعلق بها، على أى حال ؟ كم قالت له هذا ، مرارا ، أهو صحيح ؟ لا يمكن ! هل هى تفكر ، ربما ، أن ذلك كله إنما هو من خصائص هذا الرجل ، سواء كانت هي . . . موجودة أم غير موجودة ؟ لذلك فهى ، ببساطة ، تُنحى ذلك كله عن نفسها ، وتنفيه ، ولا ترى له اعتبارا . كيف يمكن لها أن تُقابل هذا الحب باستغراب ، ثم بالإلغاء ؟

قالت له : لا أدري . حتى لو لم أكن موجودة ، فأنت ملىء بالحب . أنت مخلوق لهذا النوع من الحب والألم . لي أو لغيري سواء .

فشرح لها طويلاً أن هذا من حَظَل الرأى ، ولم تجب ، ولم تقنع .

كان يحكي لها عن أخيه الكبير ، من زوجة أبيه الأولى التي ماتت في أخميم ، فترك أبوه البلد وذهب الى الفيوم . قال لها إنه لا يذكر تماما هل رأى أخاه أمين أم أن الصورة التي في ذهنه هى صورته الفوتوغرافية الكبيرة ، البنية اللون ، التي كانت معلقة في بيتهم في غيط العنب ، وعليها شريط أسود في الركن ، حتى حال السواد ، وانتقلوا إلى راغب باشا ، ووُضعت الصور كلها في أرضية دولاب الملابس . وقال إنه ربما كان رآه فعلا ، وأنه كان يشتغل في السنبلابين ، في السكة الحديد ، ولعله زارهم في الاسكندرية ، ولعله لم يزرهم . وقال لها إنه مات أيضا في ١٩٣٦ أو قبلها ، في حادث قطار . سقط بين العجلات . وقال لها إنه سيحكي لها فيما بعد ، كيف عرف بموته ، وهو طفل ، وإنه الآن سيقراً لها خطاباً منه لأبيه .

حضره المحترم سيدي الوالد العزيز . .

بعد لثم يديكم الطاهرتين واتماس صالح دعواتكم ، أبلغ حضرتكم أن مأموريتي للآن لم يحدّد الكشف . وذهبت يوم الخميس الماضي ، واليوم السبت ، فعلمت أن رشوان باشا

بالاسكندرية وربما يحضر الأربعاء . وربنا يجازي أولاد الحرام ، الباشا قال لمدير المستخدمين حدّد الكشف على أمين قلدس لأقرب ميعاد ، وحضرته يؤخّره للآن . والله ياسيدي الوالد المسلمين أحسن من النصاري لأن حضرته نصرائي زينا وأنا أترجاه مع أني معى الحق ، وكثير من الموظفين ساقهم عليه السكرتير الخاص للباشا ، لحد ماقال له السكرتير : الباشا يزعل .
المقصود الله موجود حتى أزلي ويجازي ..

أتمس من حضرة سيدي الوالد وأنا في أشد حجل من حضرتكم أن ترسل لي جانب نقدية ، لأنه لا يوجد عندي نقدية بالمرّة والشهيد المسيح على ما أقول وأتمس عدم التأخير . سلامي للعموم خصوصا الست خالتنا وميخائيل باشا وعائدة الصغيرة .
واقبلوا فائق احتراماتي .

السنبلالوين في ٩ سبتمبر ١٩٣٥ ابنكم المطيع أمين قلدس .

قال لها : إذن فقد كانت الحادثة في ١٩٣٦ أو ٣٧ ، قبل أن آخذ الابتدائية على أى حال .

قال لها إن الموت كان كثيراً في صباه وطفولته ، وقالت له إن طفولته كانت مدللة جداً .

وقالت له : تصوّر ، شجرة القشطة الصغيرة مرضت هي الأخرى ، انتقلت إليها كأبتي . انظر هنا ، هذه الورقة ، اصفرّت وجفّ جلدها . وجنبها هذه الصغيرة ترتعش ، ولونها يسود قليلاً ، لم تكن في الأيمن بهذه القتامة . هل تحبها يامبخائيل ؟ هل تحب شجرتي ؟ ضع يدك على هذه الورقة ، نعم ، هكذا ، بخنان .. يا حبيبي !

لم يكن يريد أن يحزنها . كانت بالأمس قد نامت نوماً عميقاً ، بعد عشاء خفيف صنعه لها ، بإرشاداتها الشفوية المتصلة بين المطبخ وغرفة النوم ، من حساء ، ونسيرة دجاجة مسلوقة ، وزبادي ، ولقمة عيش حمّص ، وبعد كثير من الدواء ، وكثير من الحنو ، وقليل من صنع الحب ، ولم يكن يريد أن يوافقها على أن مرضها قد انتقل إلى شجرتها أو إلى هاتين الورقتين العريضتين منها ، على الأقل ، وأنها عندما استيقظت اليوم وقد عادت الحمرة الخفيفة الندية إلى سمرة بشرتها الصبوح ، وتمطت براحة دون ألم تقريبا ، كان النبات قد تحمل عنها الفداء وقدم نضارته قرباناً لنضارتها .

كانت نانا ميسكوري تهمس بغنائها الأجرس العميق ، فقد خفض المسجل إلى آخر درجاته ، كان ثم حضور بعيد لصوتها ، فقط .

قالت : يا حبيبي ماذا فعلت بي ؟ لقد شفيتُ تقريبا .. !

قال : الحب ، والحساء والنسيرة ، عملتها كلها حسب الوصفة التي كانوا يعملونها للمرضى ، من أمثال سيادتك ، في قرية أمي ، بالضبط .

قالت ، متطلعة ، متوجسة : ماذا ؟

قال : أبداً ، بسيطة . يمسون بعراب أسود ، غطيس .. لازم غراب نوحى ، يستلقون لحمه ، ويُعشّون به المريض - أو المريضة ! - من حسائه ، زيادي طازه ... بس .. والشفاء ، بإذن الله ، مضمون .

قالت له : يادمك ..! ولو ..! لحم الغراب كان لذيذاً جداً ، وفيه الشفاء أيضا ..

قال : صحيح .. لكن المهم هو ما لم أقل لك عنه ، الحجاب !

قالت : قل ياسيدي .. حجاب ماذا ؟

قال : حجاب موصوف ، على جلد الغزال .

قالت : أين ؟

قال : كتبته لك ، وأنت نائمة .. لن أقول لك أين .. لكن الوصفة أن يُكتب ثلاث

مرات في اليوم .

وكان يمر براحتي كفيه على ظهرها ، ويكتب عليه بسبابته ، كتابة رقيقة .

قالت : ثلاث مرات فقط ؟

قال : على الأقل . وكل زيادة فيها بركة .

فاحتضنته ، وقبلته .

في القديم ، كما يحدث أبداً حتى الآن ، كان مد التوتر يرتفع عنده ، كلما اقترب ميعاد

مجيئها .

ولما جاءت ، دخلت عليه ، مسرعة الخطو . قبلها بسرعة على خدها ، وفكت الكوفية الطويلة البيضاء التي كانت تدور بعنقها وترمي على صدرها وبطنها ، وألقها على الاستوديو ، وانحنت فأحس بحركتها المألوفة وهي تزحزح حذاءها عن قدميها منه ، ووضعت حقيبتها الكبيرة البيضاء ، وحقيبة يدها المربعة من نفس اللون والظراز ، ونظرت إلى ساعتها ، وتهدت بارتياح .

قال : حمد الله على السلامة .. أحضر لك شراباً ؟ سكوتش ؟
قالت : ياليت يامبخائيل . أغرقه بالماء ، كما تعرف .. هل تتصور أنني منذ ساعتين بالضبط كنت ما أزال في بيروت .

وهو يُعدّ الشراب - كان ينتظرها في بيتها القديم - كانت تتكلم ، كما لو كانت تحدث نفسها عن هذا العالم المائل على غير وجهه ، عالم المثقفين ، والمشتغلين بالكلمات ، واللغات ، والتاريخ ، والكتب ، بدلاً من العمل . وسألت هل صحيح أنهم وحدهم في النهاية هم القادرون على التغيير ، في المدى الطويل ، لأنهم القادرون على الفهم ، والمعرفة ، وعلى النقل والتوصيل ؟ وقال إنه لا يظن ذلك وأنه ربما ليس هناك تغيير ، وربما كان الفعل - كالفعل - بلا جدوى ولا تأثير ، لأن هناك قوانين حتمية ومتكررة النفاذ ، وأن ذلك كله له حديث طويل على كل حال ، وأنت متعبة الآن ويجب أن تستريح .

ولكنها أخذت تحكي له ، على الفور ، وهي متربعة على الاستوديو ، بعد أن غسلت وجهها ولبست شيئاً واسعاً مريحاً ، كيف مضى بها التاكسي في الشوارع الضيقة المرصوفة بالبازلت ، تعلو وتدور وتنخفض بين أسوار البيوت الحجرية على المرتفعات ، تهدل عليها أغصان العنب العجوز الخشنة والخبيزي الأفرنجي ، تحت سفوح ناطحات السحاب بجراياها الشاهقة ، من الزجاج المدخن وتشبيكات الصلب والألومنيوم . قال لها سائق التاكسي : أهلين .. من ذا الذي لا يعرف عنوان المكتب في بيروت كلها ؟

قالت إنها صعدت سلام ضيقة ، ولم يكن على الباب حراسة ، ولكنها لما دقت الجرس لاحظت أنه كان مغلقاً من الداخل بعدة مزاليح سمعتها تصطك وهي تفتتح واحداً بعد الآخر .

وكان في الغرفة الواسعة مكتب واحد عريض لا يجلس إليه أحد ، زُجَّجَ عليه الأكوام المعتادة ، من المجلات والكتب والأوراق ، وزهرية آسيوية رفيعة العنق من الخزف الأسود اللامع ، وفيها عيدان زهر جاف بنفسجي مُبَيَّض من القِدم ، وكانت في الغرفة سكرتيرة تجلس إلى مائدة الآلة الكاتبة ، وبجانها تليفون من غير أرقام ، وتلبس حذاءً غالياً إلى ماتحت الركبة ، وميني جيب ، وجاكته كاكبي ، رحتُ بها بالانجليزية ، بلهجة الجامعة الأمريكية ، ثم انتقلت على الفور إلى اللهجة اللبنانية . وكان الحائط مغطى بأكملها بالملصقات ، وخريطة فلسطين بالسكك الحديدية والطرق من أيام الانجليز ، وصور ليلي خالد وماركس وهوشي منه ولينين وماو وجيفارا هائلاً ضخماً ، وفتاة عربية الملامح تحمل بندقية على شكل خريطة فلسطين بمحدودها القديمة سوداء مضغوطاً عليها ، وشعارات أخرى وأعلام اتحادات ونقابات فلسطينية ودولية والأبيات الشهيرة : « آه يا جرحى المكابر وطني ليس حقيبة وأنا لست مسافر ، إنني العاشق والأرض حبيبة » قالتها كأنما تترنم ، وصورة رسمية تحت الزجاج وفي إطار أسود عريض لياسر عرفات بالكوفية المخططة وابتسامته مازالت شابةً بعد ، وصورة على ملصق لجورج حبش ، فتىً بعد أسود الشعر والسيجارة بين السبابة والبنصر المفتوحين ، وابتسامته هادئة لاتكاد تُرى تحت شاربهِ المشدَّب .

وقالت إنها انتظرت قليلاً حتى دخل غسان ، قالت إنه ثوري حقا ويعرف كيف تكون الأولويات . قالت إنها كانت تموت شوقاً إلى أن تراه بعد أن قرأت له رواياته وقصصه ، ولكن موهبته الهائلة وصدقه مع نفسه هي التي تجعله يضع الثورة والجمهير العربية قبل الرواية والقصة . قالت إن نظرته كانت صافية وليس فيها أدنى قلق وإنما تعرف هذه العيون ، عيون الذين يسرون إلى موتهم ، بعيداً كان أو قريباً ، مفتوحة وصاحبة كالشمس . وقالت قلبها سقط عندما تعرّفت على هذه النظرة . وطردت عنها بسرعة هذا الخاطر وقالت إنه هو الذي دبر لها الجماعة المسلحة الصغيرة التي كان عليها أن تذهب في صحبتها إلى قلعة صور على البحر ، لتصوّر كتابات فينيقية تحتاجها لبحثها للماجستير ، قالت إنهم كانوا شباباً صامتين جداً ، ولم تعرف حتى أسماءهم . وقالت إن الرحلة التي لم تستغرق إلا سحابة اليوم كانت غريبةً ومليئة . وعندما عادت كانت بيروت مضطربة ومتوترة تحت أنوارها اللامعة ، وطلقات رشاشات سريعة تتناوب مع دقاتٍ ثقيلة ، وتصمت . وكان الطريق إلى المطار ، لحسن الحظ ، مفتوحاً .

وقالت إنها في طريقها في حى الفاكهاني رأت فتاة تقف على شرفة انصرت من نصفها ، وسقط جزء من الدرابزين الحجري الذي يحيط بها ، وكانت تنثر ملاءة سرير على حبل به مشابك الغسيل ، وتحتها دكان مقفل بباب من الصاج المضلع ، انبعج طرفه العلوي ، وأمامه قضبان حديدية ملتوية ، وعلى الحائط بجانبه ، بخطّ طفلي : ثورة حتى الموت ، مكتوبة بين آثار طلقات الرصاص المدوّرة التي نُفّرت حجر الحائط . قالت إن الفتاه ابتسمت لها ، من الشرفة ، وهي تمرّ تحتها بالتاكسي ، إلى المطار .

قال : صمت غسان الثوري والكاتب معا بلا انفصال ، بعد . انفجرت سيارته الملقومة وهو يفتح بابها ، وتالت موجات القتل والساقطين تحت تفجّر النار البذيئة عبر السنوات السود التي لا تريد أن تنتهي .

قالت إنها لا تثق بالثوريين العابسين الكالحي الوجوه . وإن الثورة فرح في الأساس .

قال : البهجة تحدث وتمضي كالحلم غير المتكرر كالشمس في الليل . وشمس الحلم في الليل تسطع حارة وسوداء ، وحوافها حادة . وألم البهجة لا يُطاق . أما القتل فمتكرر ، لاينقضي . والذي يتبقى هو الليل الطري الثقيل . قهر الأمم التي بلا وطن الجوع في قلب الوفرة المهذرة ، والإنهاك ، والظماً ، وانتهاك الأطفال ، والقلب الذي يبكي وحده لا يواسيه أحد ، ومياه النيل التي تغيض وتُدجّن وتُلجّم وتتلوث قُدسيتها ، والغرباء الذين اقتحموا الديار وسحقوا فصوص القلوب في الرمل ، والزراع قد هجروا الأرض بحثاً عن اللّعب والحُدع الإلكترونية ، وتركوها للخراب والبدود . التعذيب تحت الإشراف الطبي والاختناق المحسوب بدقة ميكولوجية في زنازين السجون المصنّحات ، والموت في المهد من الجوع ، والاختفاء وراء الأشواك الحديدية ، وملقات العدالة على قارعة الطريق يدوسها الرائح والغادي وجدران الأقبية الاسمنتية حسنة الإضاءة تُطبق على أصحاب الحلم ، الأحلام مُراقبة والكلمات – كل الكلمات ، أى الكلمات – مهذرة وملوثة ، كالحجارة الصغيرة المكسّرة في الشوارع الغاصة بالقمامة ، طوفان التليفزيون بالهراء والخرافة والعنف الأحمق المزيّن بأقنعة الحكمة المغشوشة وغيبات النصوص الميتة ، بينما اللصوص يصعرون الخدّ في المرسيدس الفاجرة القبح .

كم من الجرحى والمصابين والساقطين إعياء والصامتين !
كم من القتلى ، مجانا .

قال : كنت أظن أن السعادة ممكنة ، وأن الحب ممكن ، وأن العدالة – في نهاية الأمر – ممكنة . الآن فقط عرفت ، المستحيلات الأربعة .

قالت : هذه سخريّة سهلة ولا تليق بك . والعديد أصبح الآن موضة قديمة ، أليس كذلك ؟

قال : بل قديمة جدا ، جدا . بل هل أقول : قدم الوجود ؟

قالت : هل تنكر الآن اللحظات التي فيها توجد ما تسميه بالمستحيلات ، الحب ، السعادة أقصد إلى آخره ؟

قال : بل لأنني لا أنساها أبداً يقبض على عنقي المستحيل . كم نشدت وجه الحق ، وجه العدل ، وجه الحُسن ، كم نشدت اليقين ، طول العمر ، عبثاً فيما أظن ، أحيانا . لأنها توجد . توجد . توجد . ومع ذلك ماجدوى الكلام عنها ، حتى ؟ حصاد هذا الهشيم – كما يقال – في كل يوم . ليس له عيد . مازال الهشيم حصيداً ، ويظل ، كل يوم ، بلا توقف .

وقال لها : وهذه النعمة ، كما تعرفين ، ممجوجة جدا ، ومملة . وليس فيها أدنى رومانتيكية أيضا .

ثم قال : حتى الحلم ، كنت أظنه ممكنا .

قالت : إمكان الحلم – كما أكاد أسمعك تقول – مطلق .

قال : هذه الهمتات كلها لا تُغنى ولا تسمن من جوع .

قال : والألم ؟

قال : والعبث .

الباب السابع

ظل الشمس المستحيل

في طرارة الصبح الأولى كان التاكسي الذي جاء به من مينا هاوس قد اخترق القاهرة ، وهو الآن يلف ويدور في الغورية التي تصطبج على يافتاح ياعليم يارزاق ياكريم ، بين بياعي البليلة والكشري والحمص المسلوق في عرباتهم الملونة بالأخضر والأحمر ، فواحة برائحة القمح المغلى وزجاجها مغبش ببخار الأكل السخن ، واسطوانات البوتاجاز الطويلة الصدئة بجانبها ، والناس تأكل بملاعق صفيح من أطباق بلاستيك قد اجرب لونها قليلا ، ثم تدب الكوز المربوط بدوارة في برميل مملوء بالماء غير الأورثوذكسي ، تشرب بعد الأكل . والعيال تذهب للمدرسة ، صبيان وبنات ، بمرايل كالحة البياض يجرون ويتنادون وعلى ظهورهم حقائب للكتب من نفس قماش المرايل المصفر . والبنات المنقبات يجرن أذيال أثوابهن السابغة وعلى رؤوسهن الطرحة البيضاء ، ناضرات الوجوه كالراهبات ، من أمام القهوجية والحلاقين الذين يكتسون التراب العتيق وكومات صغيرة من الشعر المحلوق بالأمس من على الأرض ، ويرصون الكراسي ويهشون الذباب من الواجهات الزجاجية ، ومن بين المنجدين والاستورجية والسمركية الذين يعكفون على شغلهم ، من الآن ، على الأرصفة الضيقة وتحت الأسبله والقبوات وحيطان المساجد المنحوتة بالنقوش والكتابات التي لا يقرأها أحد . وفي مداخل البوابات الحجرية العريقة علق التجار القفاطين البلدية وقمصان النوم الحريري النايلون الملونة والبنطلونات الجينز وقمصان الأولاد والقمصان النسائية المشغولة بأسلاك فضية وذهبية اللون مخزمة وتبدو ثقيلة وموحية بعريضة حسيه ما . وشباب في غايه الوسامة ربوا لحاهم وحفوا شواربهم على السنه وعلى رؤوسهم الطواقي الرقيقه الحروم ، والعربجية قد أسندوا عرباتهم الكارو بأذرعتها الطويلة العارية على بوابات خشبية هائلة وسوداء من القدم وبها مسامير غليظة الرؤوس ، لم تعد تفتح أو تغلق من زمن بعيد ، بينما أحصنتهم تقف مخنية الرؤوس تلوك الفول والشعير في المخلاة الخيش المعلقة برؤوسها ، نائمة العظام ، منهدة الخصى ، وفي دكاكين كالحقاق يشتغل الرقا والخطاط ، عيونهم التي لم تصح بعد تماما من النوم قريبة جدا من شغلهم ، وهناك لمة من الناس متزاحمة أمام بوابة الفرن التي تنز النار في رحمها الداخلي المتقد . وطلبة الأزهر الصبيان ، بالملابس الأفرنجي والقفاطين والعمائم يمشون بسرعة ، أو بوقار ليس من سنهم ، ويفسحون الطريق للتاكسي الذي يزحف ببطء لا يرفع السائق يده عن عصا البوق المكتوم ، الصغيرة ، تحت عجلة القيادة ، ولا يكف عن النداء ، بخفة قلب وهو يتغنى :
إوع ياسيدي .. إوع يابابا .. حاسب يامولانا .. خل بالك ياأختي حتى وقف أخيرا أمام الباب الخشبي وعليه رقم ٢٢ ب وشجرة الجميز الهائلة الجذع ، لفات عضلها بارزة ومضلعة وعلى طرف خشن من غصن قديم مكسور منها ، خشبه أسود عتيق ، تحت خيمة الورق المترب

العالي الذي ضرب الجدران والتفّ على نفسه تحتها ، بزغت نبتة صغيرة جدا يانعة الخضرة ورقية وبرّكر ، تمتر في هواء الصبح ببراءة موجعة .

أفرغ العالم من زحمته كلها ، عندما دفع الباب الخشبي المعقود ، واجهة عقده محلاة بالصنّج المعشقة المركبة ، فصرّ على مفصلاته ببطء . نشق ریح الحوش الداخلي المكنون الهاديء فجأة بعد الضجيج الخارجي ، وكان في وسطه مربع من بلاطات الحجر الجيري ، على أحد أضلاعه دكة خشبية تحت شجرة الجميز الداخلية ، وأمامه زير من الفخار البني المحروق مندى ولامع من الماء ، وعلى غطائه المدور المصنوع من فلق خشبية متلاصقة ، كوب من البلاستيك .

كانت نبوية ، غامقه السواد بوجهها الطيب وشفيتها المتهدلتين ، هائلة الأرداف ، تملأ حلة كبيرة من الألومنيوم من حفية مركبة على الحائط في الحوش ، نازلة من ماسورة رفيعة خارجية ، صباح الخير يانوية .. صباح النور ياييه يسعد صباحك . والسلام الحجرية الضيقة بين حائطين مصمتين ينيرها مصباح كهربائي أصفر اللون في الصبح ، على كل بسطة منها .

لايعرف فيم يفكر . كان خفيفا وسط الناس والشجر والحجر .

فتحت له الباب ، وأغلقتة وراءه بسرعة ، ووجد وجهها فجأة على صدره وهي تحتضنه ، دون كلمة ، وعندما رفعت رأسها إليه كانت عيناها تسبحان في الدموع ، من غير صوت ، ونفسها متسارعا .

قالت بصوت مختلج خافت : تعال .. تعال .

الفانوس النحاسي المخرم مفرغ النقوش وراء زجاجه الأزرق كان منيرا فوقهما ، وراء الباب .

وفي البيت رائحة الصبح ، وكنّ الليل المنقضي ، وسكون تام .

همس بلهفة : رامة .. !

وهو يقبلها على شفتيها قبله ملهوجة .

كانت الدموع تنساب على صفحة وجهها الناعمة المضيئة بهدوء ، وهي تبتسم له ابتسامة صغيرة وعذبة .

قالت : لاشيء .. هذا لاشيء . من الفرح ، فقط . دموع الفرح . تعال . ادخل ، اقمع هنا ، لحظة واحدة وأجىء لك .

أشارت إلى الصوفا التي يدخل جزء منها بين برورين في الحائط ، تحت صورة المولد ، مفروشة بالأحرمة والقصب والوسائد الصغيرة الخضراء بها خطوط ذهبية باهتة ، ورأى تحت حائط المشربية ، بضوئها المتقطر ، من خلال تعاشيق الخشب الدقيقة الناعمة ، الشكمجية المعدنية المنقوشة بزخارف نباتية ، وعليها عقود متدلّية من الكهرمان واللازورد وسلاسل وحلقات هلالية ، مرمية عليها بنوع من الإهمال المترف ، والكراسي المنخفضة من الخشب الأخميمي . .

انفلتت عنه ، وهي تمسح عينيها ، ووجهها ، يديها بسرعة ، خجلة من فرحها ومن دموعها .

جاءه صوتها من المطبخ ، كأنما تريد ألا تفقد الصلة به ، ولو كان ذلك بالكلام عبر البيت : أعمل لك قهوة .. عارفة .. تركي ومضبوط ..

فضحك : تمام .. تمام .. أنت لا تسين .

جاءت ، ورأى ، كأنما لأول مرة ، أنها في جلالية نوم رقيقة وطويلة وتمتلىء فتحتمها بصدرها الوفير الحر ، وجلست بجانبه على الصوفا ، وقد تركت القهوة في المطبخ وقالت : ثانية واحدة وأجىء إليك بالقهوة ، لا أريد أن أتركك . فاحتضنها ، على مهل هذه المرة ، وأحس مرة أخرى ، بعد السنين الطوال ، كم هي قريبة منه ، عاد إليه عطرها الخفيف الذي يعرفه ورائحة جسدها الصاحي من النوم وشفته تجوسان برفق على الخد الناعم الذي مازال فيه بلل خفيف ، وهي تغمض عينيها لحظة ، ثم تدفعه عنها ، بحنو ، بأهون حركة ممكنة ، وتقول بصوت حار : القهوة .. انتظر .. آتى بالقهوة الأول .

مرة واحدة ، وكأنها هناك طول الوقت ، يجيء حسّ بالحياة معاً ، معها ، لا حساب للزمن فيه ، قديمٌ جداً ، ويحدث الآن ، كل لحظة من جديد .

هل أتذكر الحلم المراد المتكرر القديم : أنى في بيتها الذي سوف يصبح من الآن ، بيتنا ؟ أم هو حلم داخل الحلم ؟ غرفتها ، في بيتها ، على شاطئ بحر غير موجود ، أصعد إليها السلم واثقا وعارفاً ، كما لا يحدث لي إلا نادراً . أعرف مسّ الخشب الذي هو عنصر الحلم — النبوءة ، ونفح أنفاسها تحت تشايك الشجر القديم الدفء . أمشى ، ليس لقدمي وقع ، على السجاد في الممر الطويل الضيق . أعرف هذا الممرّ الحميم ، وأعرف الغرفة الأخرى التي لم أدخلها بعد ، في جوف الحلم . أعرف كيف تضع ملابسها وكيف تغطي سريرها ، أعرف الدولاب الخشبي الداكن اللون قليلاً المقفل على أشياءها الصغيرة . وأعرفها مستريحة ، راقدة مستندة بذراع واحدة على الفراش في ثياب النوم ، تنظر إلى نظرة فيها فهم وتذكر وحزن وانتظار ، والستارة الرقيقة تهديء من نور الزجاج في الخارج ، وتشييعه في شفافية مائية ثابتة الوقع ، أعرف الراحة الوحيدة والنهائية في هذا الحلم داخل الحلم . وأعرف أنه حلم نبوءة . وغرابة . وشيئٌ موج هاديء يذوب على سيف بحر غير موجود ، على رمل أصفر دقيق ودسم أجسد تحت الشمس الخارجية في قلب القاهرة القديمة المزدهمة بالناس . هناك الموقع الوحيد على هذه الأرض الذي أعرف فيه معنى الحرية وتتوارى كل الهولاء ، تنفتح لي السماء وتأتي رفرفة الأجنحة العريضة النورانية ، تحت عينيها . الآن . حقيقتي .

لم يعرف متى وكيف فرغا من شرب القهوة ، في صدمة حمياً اللقاء . تدفق الحديث بينهما ، دون أدنى حاجز ، منذ اللحظة الأولى . لم يكن هذا حديثاً بل مفاخرة كاملة ، وحرية كاملة ، وفرحاً ، وتوهجاً ، تتخلق فجأة . وهي معه ، بكل ذكائها ، ولماحبة عباراتها ، ودفء الكرم الروحي الذي لاحد له عندها . ووميض الكلمات التي تأتي إليه بعفوية ، كأنما تتشكل ، كاملة ، بمجرد لمسة ، وكل المخزون في داخله ، الأفكار والتعليقات والحكايات والنكت وتسميات الإعزاز السريعة الحانية ، لا يعرف كيف تواتيه من غير أن يدعوها ، تتألق وتحمي وتخلق وتنساب ، يعجب يكون الحديث وصلاً حقيقياً كأنه انثيال دفق الحب نفسه في كلمات حارة ومبرئة وجارية في نهر يسبحان فيه معا : كأنها حركة النفس المتجسدة الطافية بمتعة ، وهناك في داخله صفح كامل لنفسه عن كل لوثات التخاذل والهرب والتقاعس والغضب وكل ما تنطوي عليه تضاعيف الهواجس ، صفح كامل كأنه لا يوجد ، لأنه لا يوجد أصلاً ينب له .

قالت له : فهمت رسالتك . وطلبتك . وعجبت لماذا لم تجيء ؟

قال لها وهو يضحك من غير أدنى حرج ولا أدنى ترسب إن الألم القديم كان شيئاً مخيفاً وإنه لم يكن يستطيع أن يدخل إلى الهلكة من جديد ، فقبلته بسرعة على شفثيه كأنما لتسكته ، وأخذت يده إلى صدرها . فبأخذها إليه ، وذراعه حول دوران كتفها ، وهي تطمئن إلى صدره لحظة ، ووجهها مرفوع إلى وجهه ، فاعنقني وقبل أعلى كتفها .

قالت : لم أكن أعرف أنك تحب كتفي إلى هذا الحد .

واعتدلت بسرعة ، كأنما لكي لاتفوتها اللحظة وقالت : كم أنا سعيدة بك . فقط .

وقامت وقالت : قهوة أخرى ؟

قال إنه هو الذي سيصنعها هذه المرة ، على طريقته .

ووقفت تتفرج عليه ، في المطبخ ، تحت الأرفف المحفوفة في الحائط الحجري ، عليها زهريات ، وطاسات ، وقماقم من الزجاج مليئة بالنور الأزرق الشفاف . وهو يبحث ويسأل عن البن والسكر والكنكة والملعقة الصغيرة ، فتدلّه عليها ، ويجدها ، وقالت إن البن طازج ومحجّج فقال طبعاً وهائل أيضاً ومن يدريك زىّ العسل وأحسن ، ولم يتوقف نهر الحديث الوصال الذي انطلق يهضب بهما معا على أمواجه الخفيفة المليئة المسرعة .

قال لنفسه : ولم يتوقف أيضاً طوال ستة أيام كاملة ، الزمن هو الذي توقف فيها ، لم نكن نعرف النهار من الليل ، ولم تبرح البيت ، وعرفنا من نعماء الحب والحنان والفهم والقرى مالم يعرفه أحد . وعرفت فيها أنك أنت عندي المرأة ، المرأة التي لي ، دون أدنى تحفظ ، وعرفت بين جسدينا هذا المتجاذب الذي لا يطاق ولا يرد ، والحرية التي لا مثيل لها . وليست حرية فيزيقية فقط ، بل كاملة ، وأنت المرأة التي جسمي لها برىء وفوق كل قانون . والصفاء الذي في زرقه باهرة ساطعة .

وعندما عادا من المطبخ ، وكل منهما يحمل فنجانه ، بحرص ومرح ، في يده ، جلست

على الأرض ، تحت قدميه ، على السجاد . باسمه قليلا كأنها لا تشعر أنها تبتسم . وانحسرت
جلابية النوم الرقيقة النسيج عن ساقها الممتلئين وهي تلمها تحتها ، وكانت ترفع اليه نظرة يرفرف
ها قلبه ، وترى كيف تتوتر ذكورته ، ومازالا ، بحكيان حكايات ، يبدو أن رصيدهما لا يفرغ ،
حتى وضعت فنجانها على المائدة الصغيرة النحاسية ، وأحاطت رجله بذرعاها ، ووضعت
رأسها على ركبتيه .

فنزل إلى الأرض بجانبها ، وضمها إليه .

وعاصفة الحب تهب بهما أخيرا ، لا يوقفها شيء ، وتنشق عن برقها الملتهب ذي
الشُعَب ، وهما جسداً واحد متقلب الأيدي والأطراف ، تطير اللفحة بالثياب والسيقان ، الشفاه
تلتقي كما لم تلتق أبداً من قبل ، تتحد في تماس عميق وتدخل كل الحُرْم ، وتتكشف كل
الأحناء ، الشوق الجسدي يخلق ويحيط بحنو عذب ، عيناها ساطعتان تحته ، وجسمها إليه هو
الكمال وتتحقق كل الأحلام المليئة المكتنزة الناعمة الطوايا ، موسيقى البهجة التي لا توصف
والعالم كله يصعد ويهبط ويصعد إلى عنان الأفلاك ، في دورات تفوق كل الأحكام ، حتى لا
تطاق ، وماتزال تصعد ، ولا يمكن احتمال الفرح ، وصرخة واحدة ، في وقت واحد ، تنحجر مع
التحقق النهائي التام . وفي السماء صفاء فجأة ، وسلام لا حد له .

قالت له ، ومازالا على الأرض وجهها قريب جدا من وجهه :

— المجد القديم ، كما كان ، دائما .

فكأنه هو الذي قال . لم يتحركا .

السنوات الطوال ، كم ؟ ثماني ، تسع سنوات ، أو أكثر ؟ من الفراق والعذاب الدفين
والهواجس ، اختفت كأن لم تكن ، أبدا .

قال لها : وكنت قد قلت لنفسي ، بحماسة ، وقد تيقظت ذات يوم من النوم ، إنني
شفيت من حبك ، وأحسست قلبي صفحة هادئة ، بدلا من القلب المستمر ، والطعنات .
وكأنما كنت أعرف أن هذه خدعة ، ولا أقول . ولم يكن اليأس مريحا ، ولكنه كان هناك . اليأس
وحده كان يقول لي . — من غير أن يقول . إن الحب موجود .

وضحك بخفية لم يكن يتصور أنها يمكن أن تحدث له وقال : ولم كنت أحمق ، ولا أفهم شيئا أبدا .

فنظرت إليه نظرتها ، من غير أدنى مرارة ، وقبّلت ظاهر يده ، ولم تتكلم .
وكان حسّ شفتيها نعمة .

عندما كنا يعمودان من المطبخ ، بالقهوة ، رأى بجانب باب المطبخ الزجاجي ذى الضلفتين ، تحت الحائط الحجري القديم ، قرصاً خشبياً مدوراً وكبيراً ، مقلوباً على ظهره إلى الحائط ، ولم يفكر كثيراً ما هو ، كانت إلى جانبه قوائم مائدة مخروطة السمّانة أنيقة الشغل ، وبجانبها مباشرة صناديق من الورق المقوى عليها ماركة فيليس ورسوم تخطيطية لأجهزة ما ، مازالت محزومة بشرائط حديدية رفيعة ومتينة ، ومائدة المكوى الرفيعة الطويلة مطوية وقائمة إلى الحائط .

في حكاية من حكاياتها الكثيرة ، وهي متربعة على الأرض ، وهو نصف مضطجع مائل على جنبه ، من فوقها ، على الصوفا ، وأمامها السكوتش والماء وسطل الثلج الألومنيوم الصغير ، في ساعة من ساعات الليل أو النهار التي لم تعد تستبين أو تتحدد أيها ، وهما بين تدفقات الحب والكلام والنوم الفّرر والأكل والمفاتيحة والقرى بلا حدود ولا تفريق في عيد متصل ، قالت له إن عباس فؤاد ليلتها كان جديراً بالشفقة وهو يتكلم عن أمجاده الثورية القديمة ، كأنما كان يبرر نفسه أو يبرر تاريخ شيء قد انقضى للأبد .

قال لها : وزوجته لم تكذب تفتح فمها ، هل لاحظت ؟ ظلّ باهت لنور منطفيء بالفعل .

قالت : غائبة عمداً . كأنه قد مصّ كل دمها . دراكيولا - لا مؤاخذه - من نوع خاص . هذا النوع من الرجال . هل تعرف أنه يجب إلهام ؟

قال : لا ؟ إلهام ؟ الصغيرة الجسم ، الطفلية ؟

قالت : لا تخف عليها يا حبيبي . ليست طفلة جدا ، مع ذلك .. !

قال : حبّ حبّ يعني ؟ للآخر ؟

قالت : يامخائيل الله أعلم بما في الصدور وخائنة الأعين .. طبعاً للآخر .. مالنا نحن
ومال عبيده ؟

قال : ياستى ربنا يحنّ على عبيده .. الرجال دائماً غلابة على كل حال ، وأطفال .

قالت : ليس كل الرجال .. غلابة ؟ برّيه منكم أنتم يارجال .

خطر بباله ، بسرعة : برئت مِنّا ؟

وحكّت له حكاية قديمة ، قالت : اعتقل حسن ، كما تعرف ، بعد ثلاثة أشهر أو
أكثر ، قضاها في الشقة التي استأجرتها لهما وهو خليل عبد المسيح ، في سيدي بشر . سافرت
مع خليل إلى بورسعيد وهربته للخارج ورجعت ، حكيت لك هذا ؟ أليس كذلك ؟ المهم لم
يرض حسن أن يهرب ، أو أن يسافر ، دعك من كلمة الهرب هذه ولا تفتح باب المناقشات
فيها ، أوافقك ياسيدي ، ليس الهرب ، لم يرض أن يسافر ، كموقف سياسي ، وقبض عليه .
فذهبتُ إلى وائل نور الدين ، تعرف هو الذي شغل حسن واعتمد عليه في الجرنال ، ذهبتُ إليه
وقلت له ببساطة : أنت لست رجلاً .

قال بدهشة : وائل نور الدين ؟ قلت ذلك لوائل نور الدين نفسه ؟

قالت من غير اهتمام ، تقريراً لواقع ، بلا أدنى ادعاءٍ لأي شيء : نعم . كان قد وعده
بشرفه كرجل أنه لن يُعتقل . قال إنه ضمنه عند عبد الناصر . فخرج حسن ، وذهب
للجرنال ، وقبض عليه هناك . عبد الناصر كانت له أشياء كهذه ، أو من حوله ، لا أعرف ،
ليس هذا مهماً الآن .

قال : وكانت له سياسة ، ماذا يهم الناس ، أو الأفراد يعنى ، بإزاء أهداف قومية ، بإزاء
حركة التاريخ ، كما يقال ؟ المهم ، ماذا قال وائل نور الدين ؟

قالت : لم يفتح فمه . ولم يكن هناك شيء يقوله أو يفعله . ولم يكن هذا مهماً أو مطلوباً

حتى . المهم أنني قلت له ، وكفى . الرجل عليه أن يفني بكلمته ، ولو على رقبتة . هذا ما أفهمه .

قالت : وبعد ذلك كان عليّ أن أكافح ، وحدي ، لكى أربي البنت . وأن أواجه كل شيء . لم يكن مرتب الوزارة يفعل شيئاً ، بالطبع . أعطيت دروساً خصوصية لطلبة معهد الآثار في اليونانية القديمة . وترجمت نصوصاً عنها لمجلة الإنجليزية تصدر في بولنده مرة كل عام . وناضلت للحصول على مأموريات في مواقع التنقيب في الفيوم ، وتونا الحبل وغيرها . كنت أسافر كل يوم للقاهرة بعد عمل اليوم ، وهلاك اليوم ، في الموقع . وكنت مازلت نشطة في الحركة ، رغم الاعتقالات ، في الوقت نفسه . وبالليل ، وحتى ساعات الفجر ، كنت أحضر الاجتماعات . ونصدر البيانات وتعمل من أجل التوحيد ، وتدبر أمور المعتقلين . لم أقبل منهم مليماً . أقنعهم بأن كل شيء تمام . المهم في هذه الحكاية ليس هذا بل هو الذي لم يأت بعد . كان أبو عقبة صديقاً قديماً للعائلة . وكان يودنا ويورنا في البيت ، وله علاقات عمل مع أخوالي ، وهكذا ، لم تكن التأميمات قد حدثت بعد ، تذكر ؟ وكان أسطول المرسيديس الحمراء الشهيرة ينقل القاهرة كلها ، من كل أحيائها إلى كل أحيائها ، غير أعمال شركاته الكثيرة الأخرى . وتقدم الرجل إلى ، ببساطة ، لكى يساعدنا في الأزمة . لا ، لا ، لا يذهب عقلك الشغال كل مذهب . الرجل كان شهماً ، جتلمان حقيقى من المدرسة القديمة . تكلم عن الزواج مباشرة بوضوح ولباقة في الوقت نفسه ، ومحساسة ، أيضاً، للمشكلة . قال إن المسألة متروكة لي ، وأن الطلاق – إذا قررت أنت ذلك – ليس مشكلة بالطبع ، مهما كان مؤلماً ، وهو يقدر ذلك تماماً . وقال لي : « لاتردى على الآن . فكري » بالضبط ، حسب الأصول .

قال : وفكرت ؟

نظرت إليه بسرعة وقالت : ولاتانية واحدة يا حبيبي . ياخبر ! أبو عقبة ؟ ثم أن الحكاية كلها كانت حكاية مبدأ ، وموقف . ليس سياسياً فقط . شيء أبعد . ثم أن منال كانت عندئذ في الثامنة أو التاسعة ، ذكية ، لماحة ، ورقيقة مرهفة ، وطموحاً ، جداً ، من يومها . وقد بدأت بالفعل تتحول ، من وراء براءتها وطفولتها ، إلى امرأة صغيرة . صحيح ، كان هناك هذا ، ولكن كان هناك أيضاً شيء أبعد . أخلاق . نعم أخلاق . ولا تقل لي إن الاخلاق مسألة اجتماعية حسب التفسير الماركسي . لا ليس هذا ماركسيا حتى ..

قال : ولا ماركس كان ماركسيا .. !
قالت : نعم . هناك شيء أعمق .

قال : ألم أقل لك أنت - في الحقيقة - طهرانية ، وطهرية جدا . ككل الثوريين الحقيقيين .

قالت : لا أعرف . المهم أن منال عندما كان عندنا ، مرة ، بعد ذلك ، وقد اقتنع الرجل ورضى بنصيبه ، قالت له إنها تريد أتوبيس ، لعبة تلعب بها ، يعنى ، في البيت إلى جانب لعبها الكثيرة ، فقال لها ببساطة : معاصر .

وفي صباح اليوم التالي ، على طول ، كان الأتوبيس يقف أمام الباب . أتوبيس حقيقي ، مرسيدس ، أحمر ، ضخمة ، جديد بشوكه . وفيه السواق . وطلع الرجل إلينا ، وقال لمنال : « جئت لك بالأوتوبيس . خلاص » . تصور ، الأوتوبيس واقف أمام البيت ، يزحم الشارع ، تحت الشجرة ، وسقفه يرتفع إلى الشبايك ، والجيران يتفرجون ، وكل البوابين في الشارع اتلموا ، وياسيدي الله يرضى عليك الله لا يسيئك ، في عرضك في طولك ، ورأسه وألف سيف الأوتوبيس لمنال - التي وقفت مشاوهة ، مبهورة ، لاتفهم ، وغاضبة أيضا كما لو كان قد خدعها ، فبن وفين ، وبعد مناودة وطلوع الروح ، رضى الرجل أن يسحب الأتوبيس ، وجاء لها ، بعد الظهر ، بطقم « ماتش بوكس » كامل من الأوتوبيسات .

قال لها : كيف رددت عليه ، في حكاية طلب الزواج يعنى ؟

قالت : أبدا . قلت له ببساطة أن هذا غير ممكن . وغير وارد أصلا وأنا لسنا بحاجة إلى شيء أبدا . أنت تعرف أنني أسدد كل ديوني . كلها . وقبل على الفور ، وإذا كان قد صدم فقد عرف كيف يخفي صدمته ، برشاقة . وظل الرجل صديقا ويزورنا بانتظام كلما جاءت فرصة ، حتى جاءت التأميمات وكان قد سافر إلى اليونان قبلها . جاءه خبر ، ودبر أمره ، كالمعتاد .

قال : كم كان عمره ؟

قالت ، صابرة عليه ، حانية عليه : في الستين ، يمكن أو أقل قليلا . لا أعرف . ثم
تأثر لنفسها ، مشاكسة برفق : ولكنه محتفظ بنوع من الشباب الرجولي الكهل ، تعرف هؤلاء
الناس ...

قال لنفسه : هؤلاء الشيوخ - الدون كيشوتات - رماحهم مشرعة مازالت ، أعرف
هؤلاء الناس .

ولكنه قال لها : أتوبيس ، حقيتي ، بحاله ، وبالسواق .. أمام باب البيت ، لعبة
للبنات .. ما أظرف هذا .. !

قالت : لم تكن أزمة المواصلات وصلت إلى حدها الخرج بعد ، وإلا كنت احتفظت
به ، برغم كل شيء .. وسقته في شوارع القاهرة ..

ضحكا ، ونزل إليها على الأرض ، وقبلها قبلة مخطوفة على حنية كتفها المليئة العارية وهي
تلتمع ندية ، ونشّق ، بعمق ، أحفّ نفاثاتٍ من عطرها وجسدها .

قالت له : هل تعرف الساعة كم ؟

قال : لا . عشرة بالليل ربما ؟

قالت : الثانية والنصف صباحا !

قال : غير ممكن .. مستحيل .. لا أصدق .

قالت له : تعال ..

ومدت يدها إليه ، وقام معها .

في الممر الضيق الطويل إلى الغرفة الداخلية ، بين الحائط الذي يفتح فيه باب ثان واسع
يرى منه العمود الرخامي المستدير ، والصناديق الكبيرة المغطاة بمفرش الكتان البني المنقوش ،
عليها أطباق من الصيني الأزرق بالأبيض وزهرية نحاسية كبيرة ، تحت المسرحة المملوكية العالية
المطفأة الآن ، وبين المكتبة الصغيرة ذات الرفوف الضيقة ، بها كتبها ورواياتها وقواميسها ، وعليها

نسخة كبيرة الخط من القرآن ، مفتوحة ، وكأن كل جانب منها صدر سفينة مقوس ممتلىء بالكبرياء ، ينبثقان من محور واحد ، ويبحران معا بجرء لازم فيها ، وحواشي كل من الصفحتين المفردتين ، بتسيجها الممتلىء الباهت ، منمنمة بأفنان وأوراق متداخلة وهندسية وزهية باهتة . وأمامها الحامل الثنائي اللوحتين ، يحمل صورة لأقرب الناس إليها ، تعرّف فيها على منال ، وعزّة التي لم يكن قد راها .

في الأعياد تُدهن كتفا حتحور بالطيوب والزيت الطيارة العبق وتُسكب دمء الأضحيات على الثديين المصبوبين والبطن المسبوك ، تنقطر الى وهدة الحرم المكنون .

بنان حَسك الأسلاك المستحصدة تَسوط الجسد وتُسور سماديره ، تستجيش سلاح السطوة المسنون على سَنمة فينوس المستديرة بين عماليح الاستمرار السليسة . الشمس تكسر الحُبوس ، ساطعة وسوداء السني . سقطت سدود السجن . الغسق العابس والسُدف الدامسة قد انحسرت الساعة ، وهواجس السراب مطموسة . موسيقى نواقيس المَسرة تنسدر على سهول شاسعة . أي إيزيس ، ياسلطانة ، هاقد استجبت للاستنجاد . أساور النحاس لها وسواس على الرسغين والسلاسل تيمس على الانسكاب المسبوك . انسداد الساتان الناعس من على الساقين المسحوبتين اللتين تنوسان وتنسابان من مسكته المستحكمة . يستطلعان ويستصرخان ويستهلان السكرات المستمرة ، تُسديه سنابل جسمها ، سائغة ، فيستطعم السلاقة إذ تسيل ويستاف التسيّم السخن . يسفهما السعير وهو يحسو الكأس التي تسح . وسنابك السيراييوم لها سورة مستطيرة وسُعار التمريس على ملاسة السُمرة المَسودة . يتلمس السحاب المتسلسل السقوط . ويسوخ السهم مغروسا في مرسائه الأسيلة . ثم انبجاس المساورة الذي يستنم إلى الوسن تسفى عليه السوابح المسترسلة حتى يُوسد الاستكانة إلى الحنان الأخير .

كان قميصها ألساتان ، في ضوء الصبح ، خفيف الزرقة جدا ، سماويا وصافيا وناعما ، مفتوح الكتفين ، له شريطان عريضان يتقاطعان على النهدين المتنزّين ، يصنعان مثلين يضغطان قليلا على حشو الصدر اللين ، ويلتقيان من وراء العنق ليتركا أعلى الظهر كله مكشوفاً مدورا ، باهر الجمال ، ثم ينسدل يعانق حنيات البطن المستريح . وكان له شقان من الجانبين ، عند أعلى الساقين العبلتين بسمرتهما البرونزية الفضة .

وفي الأعياد ترفع السلول عن حتحور المقدسة ، عن الأبتسامة العارفة الفاشمة التي فيها أقل قدر من الحزن ، ونور الألوهية .

سهم مرشوق في جسد الطلثة لاهتزازه ذبذبة على سطح الأشواق الساكنة . موسيقى صانجات النشوة تصلصل وتشرئب وتثوخ في ثبج البطن الوثير يثج منه الصبب تحت دماثة الكيب المتسايل الجسد والتببق يشق شرخاً في العرش المثلول تحت شمس العطش المطلولة بين شراشيب الشعر الرقيق المبلول .

عندما كان يحدثها بالتلفون من استراحة ماريوبوليس ، في مرة ، قال لها ، كأنما بعث العشاق الصغار : ماذا تلبسين ؟ جاءه صوتها الخفيض المشحون : القميص الذي نخبه بالشريطين . الآن أريد أن أكون بين ذراعيك . خذني في حضنك . خذني إليك .

شوقه إليها لا يطاق .

والأصفاد تعتصر حشو الأشواق وصبب سورة العشق . الصبار الصلب مغروس في صلصلة الصرخة التي تصب بالصبوات والصبابات وتسقط شظايا وشواظا شقوقها منشعبة في شفق سماء مشفية على السقوط . عطشان ما زال أسير في صحراء تصوح العظام حتى الصلب المكسور وليس ثم سلافة للصدان الذي يصطي بصهد الصهباء المثالة في قفص الصدر الموصد .

عندما كانت راقدة على الصوفا ، ملففة ، في تلك الليلة ، بعباءتها السوداء ، بعد أن تركت العشاء ، وموسيقى باخ ، وذهب يصالحها ولا يفهم عنف رفضها له ، ولنفسها ، من جراء كلام في السياسة ، وكان وجهها تحت العباءة إلى الحائط الحجري القديم ، ونور الشمعتين قد ذاب وخفت وتقطر في أحضان الليل القاسية ، جاءه صوتها مكتوما كظيما ومليها بالبغض : لا أطيقك . إبعد عنى أرجوك .

وقرب الآخر ، قالت له : ليس هذا ، كله ، صحيحا .

وقالت له : لن أدعك تفسد حياتي ..

قال : لا أفسدها . لا أعرف كيف يمكن أن أفسدها .

وقال : ألم أوافق على طلبك المستحيل ؟ قلت لي : « عندما يأتي الوقت ، لا تقلها أنت ، ولا تفعلها أنت . هذا رجائي الوحيد . دعني أنا الذي أقول . ونفترق أصدقاء » . ألم أقبل منك هذا الافتراض المستحيل : أنني - في يوم ما - أكون هو الذي يقطع . هو الذي يمشي . هو الذي يقرر المضي عنك . ظلّ الشمس المستحيل .

وقال لنفسه ، بمرارة خفيفة ما : ولكنها عندما قالت لي ، في اليوم الغريب الأخير : « تقرر ، فوراً ، أن تمضي الآن ، أو تنام عندي بشرط أن تمشي قبل الثامنة صباحاً ! » . عندئذ كان غضبي مكتوماً ودفينا إلى درجة أنني لم أعرف أنه هناك . كان في خروجي نعمة نهائية ..

وقال : لم تكن أبداً - كيف يمكن أن تكون ؟ - نهائية .

ويقول : في هذه المحنة المتصلة ، حيث الفرح قليل ، والكفاءة - على كل المستويات - ليست مجدية ، أحياتك لم تفسد ، على أي حال ، من غير أن يكون لي يد فيها ؟ لا . لا أتوقع أن تكون قد فسدت . وحياتي ؟ هذه العطبُ فيها من الأول . وأنت كنت - ومازلت - الفرح الحق فيها ، رغم العطب . كم يهزني الشوق إليك ، وأناهي . شوق مضطرب متلاطم اللجج . الآن طاحت الأحلام والمنى ودرست رسوم الأخيلاء . لم يبق إلا رسيس الحب ، راسخا لايريم ، مركزاً وأخرس لا ينبس ، لاعين له ، ولاشكل ، ولاقوام . حسم مظلم . وأعرف أنه مامن صوت يجيب على صوتي . حتى أنت لا تسمعيني . هل سمعتني أبداً ؟ وعلى الأخص لا يسمعني من أحبهم . مازلت أضرب في ساحة الأشواق الشاسعة لا أرى لها شطاً ولا حافة .

قال لنفسه : هذه المشكلة قديمة ومشهورة . ولها اسم في السيكو باثولوجي .

وقال : طيب إذن . جرّدها من كل الإحباطات الكثنة والنباتات المتسلقة العنيدة ، وانزل إلى صلب المشكلة ، إلى حديدتها الأولى ، أليست هذه القطيعة صحيحة ، في صلب عظمها صحيحة ؟

قال : قال الخيزري : كل الهوى صعب، ولكنى بليت بالأصعب من أصعبه .

وابتسم ، وقال : فمادا أقول أنا ؟

وقال : والأصعب فيه هو هذا اليأس المعاند المحايل الذي لا يقبل ذاته ولا يسلم بذاته ،
وله وجه آخر ، هو وجه الجمال المراوغ الذي لك .

قال : رصيفي القديم ، عندما نادته رامتة قائلة له : يا ضيفي .. أنا لبلاك ، أحابها وهو
يُغذَّ الحطى على الرمل السخن في تيه توليه الذي لانهاية له : اسكتي يا امرأة ، اسكتي . صوتك
ينأى بي عن ليلاى .

يارامتي .. أين صوتك ؟

قالت له : خذ ياسيدي عندك . هذه رسالة من واحدة بلدياتك . اسكندرانية ، تكتب
للأهرام اليوم ، مسجل عندك هذا التاريخ ١٨/٥/١٩٧٩ من فضلك :

« أنا واحدة من ملايين الأمهات المصريات . قرأت التحقيق في الأهرام عن المواطنة التي
تحتاج إلى نقل كلية سليمة إليها تنقلها من شبح الموت . أقدم إليها كليتي مقابل مبلغ من المال
نتفق عليه سويا . لا أطمع في الكثير بل فقط في مبلغ يعينى على تربية أولادي الثلاثة :
١١ و ٦ سنوات . أنا في الثلاثين من عمري . وأعرف أن نقل كليتي قد يهدد حياتي ، لكنى
أيضا لم أعد أملك شيئا أبكى عليه بعد ما باعت كل ما أملك . كنا نعيش ولكن مات زوجي ولم
يعد عندي شيء يستحق أن يباع أو يجد من يشتريه . ليست بطولة منى أو ادعاء تضحية ،
ذلك أننى حاولت الانتحار منذ أربعة أشهر وأرجو من الله أن يغفر لي ماكنت أنويه . قل لي
أنت : هل أمامي طريق شريف آخر ينقذ بيتنى وأولادي . أرجو ألا تنشروا اسمي حرصا على سمعة
أولادي » .

ولم ينشر الأهرام اسمها .

فقال : نعم .. نعم ..

ثم استطرد : وتسجيلاً بتسجيل ، هل أقرأ لك ، من بين رزمة الخطابات القديمة ، خطاباً يعود إلى أول سنة لي في الكلية ، كنت عندئذ أدرس الهندسة ، وأكتب الشعر المنثور . إسمعي ياستي :

خالي العزيز قلدي افندي

الله وحده يربنا ، ولا يوجد إنسان في كل العالم يمكنه أن يدبر أمرنا ، ولكن الله وحده أسأله دائماً أن يبرئنا في وفاة العزيز الغالي ألبير بعد فجيعةنا جميعاً من سنين قليلة في أمين الغالي الذي لا ينسى . أكتب هذا ودموعي تسيل فما من قوة على الأرض يمكنها أن ترد قضاء الله ولكنه أحكم منا وحكمته ارتضت ذلك فانك له المشيئة .
بالحقيقية ياخالي خطابك ألهمني صراخاً ليسوع أن يلاطفك .

ونعلمكم ياخالي أن ابنة عمنا هنية قد وافاها الأجل المحتوم وهي في جنينة البر الثاني . أنا وبقطر وزكري افندي قمنا باللازم في الدفنة والجنائز بما يرضي الله وضمائرننا . وحكيمباشي المستشفى قرر أن الوفاة كانت بالسكته يرحمها الله ويرحمنا جميعاً .
أما أنا فباكر بإذن الله سأعمل العملية الثالثة في جسمي الذي لاهو لاهي ولا هو ميت . الله يرحمني بأحد الاثنين وله وحده فوضت أمري . وبشارة أخى ابن أبي وأمي قد أخفى أمر العملية الثانية على أمي فلم تحضر لتراني . ساعه الله ولكن من حرصه على ألا يكدرها . وباكر العملية الثالثة بقيادة حكيمباشي المستشفى الميري . الأولى كانت في الخصية والثانية في الذراع وباكر عملية البواسير وقطع في المستقيم لأنه أتعبني جداً ولم أعد شفيق السابق بل دائماً باك شك والحمد لله الحمد لله ألف حمد وشكر .

ختاماً لك ياخالي العزيز أن تتوجه إلى الله وهو وحده القادر على حمل أتعابك . ولامرأة خالي تعزيتي والله يدبرها ويبارك في ميخائيل افندي وسعدنا بدخوله الجامعة ويحفظه لكم .
أخميم في ٧ نوفمبر ١٩٤٢ . ولدك شفيق

كانت نائمة بجانبه ، وهو يقظ يدخن بتوتر .

سمعتها تقول من عتمة وعيها في النوم ، كأنها تفكر بصوت :
— مختار الحجر يريد أن يتشبث بأخر بقايا رجولته .

قال بصوت خافت ، كأنما يريد أن يستدرجها :
— رامة .. كيف ؟

لكنها كانت قد عادت للأرض الفيقة التي اشرأبت تشهق منها ، فلم ترد إلا بأنين غامض الغمغمة .

عندما دق التليفون في بيتها ، في الظهر ، التقطته ، وهو بجانبها . كان صوتها المدروس الخنون ، الكفاء ، المحايد في وقت معا ، هو الصوت الذي عرفه منها ، منذ السنين الأولى ، حتى أنه كان يحز في عظمه عندما كانت تستخدمه معه في فترات التباعد المحسوب . وضعت يدها على السماعة ، وهمست إليه بسرعة : مختار الحجر . فأوماً برأسه ، واستمر يمرر يده ، يبطء وتهجد على ساقها المكشوفة الملمومة تحتها على الصوفا ، وهو قريب منها جدا . وقالت في التليفون إنها اليوم لن تستطيع أن تخرج ، هي حقيقة في غاية الأنسف لذلك ، لكنها ملحوظة ، الأسبوع القادم إن شاء الله . اليوم عندها عمل عاجل عليها أن تنجزه — ونظرت إلى ميخائيل ، بسرعة ، نظرة هادئة لاغواية فيها ولاضعف — وشرحت طويلا مشاكل النص اليوناني الذي قالت إن عليها أن تترجمه للانجليزية اليوم وترسله غدا بالبريد الجوي إلى بولنده ، وقالت إنه نص معقرب ولكنه لذيذ . وامتلأ ميخائيل بالشكران لأنه ظن أنه هو النص القديم المعقد المفتوح الصفحة أمامها .

كانت قد قالت له ، في وسط أمواج حديثهما المتصل ومفاتيحهما التي ماتفتأ تتسع لها آفاق جديدة ، إن مختار الحجر صديق ، ولعله أصدق أصدقائها وأنه — أيضا — يحبها ، حب الصديق — حرصت على أن تؤكد — وكأنه يرى فيها عيون مصر . وقالت إن يوم الأربعاء أصبح — تقليديا الآن — هو اليوم الذي يخرجان فيه معا ، بانتظام ، ليشربا بيرة مثلا ، بيرة على الأخص ، في كبرى ، الذي تدخل إليه من شارع فؤاد في هذه الفسحة المرصوفة الملونة البلاط وسط جدران العمارات والبوابات التي تعود للثلاثينيات ، ملقف هواء وواحدة هدوء في زحمة سرا القاهرة ، ويتحدثان . وقالت إنه ملأ دماغها بكلام طويل — وعميق المغزى بلاشك — عن الكمبيوتر واستخداماته في اللغة ، والتساوقات المثيرة التي كان بسبيله إلى أن يكتشفها في النصوص العربية القديمة .

استمع إليها بهدوء ، ثم قال : هل تعرفين أنني أعرفه منذ الأربعينيات ؟ وأنه صديق قديم وعزيز جدا ؟ فبهتت ، وقالت : وساكت وأنا أحكي كل هذا الوقت ؟ فضحكا ، وقال إن مختار طول عمره إنسان فذ الذكاء ، وذو اقة للفن أيضا . فقالت : تقول لي ؟ طبعاً .. وقال إنه عبقرى وليس مثله أحد في تدفع الشباب الدائم والحىوية التي لا تفيض . كأنه يريد أن يسبقها إلى مالن تقول .

وحكى لها أنهم جميعاً - شلة جامعة الاسكندرية في الأربعينيات - كانوا على قد الحال ، يعنى أولاد ناس مستورين بالكاد ، أو أقل قليلا في السلم الاجتماعى ، يعنى ، ولكنهم كانوا جميعاً خارقى الطموح ولهم شطحاتهم ، الذى فعل شيئا منهم ، أيا كان ذلك الشئ وأيا كانت قيمته، والذى اختفى . وقال إنه في أوائل الأربعينيات كانت تأتي لىلاسكندرية مرة كل سنة ، فرقة سيمفونية اسمها « أوركسترا فلسطين » وكان عازفوها وقائدها من الموسيقيين يهود فلسطين الصابرا الأصليين ومن اليهود الهاريين من ألمانيا الهترية والنمسا المحتلة أيضا . وكانت سينا محمد دلى المبنية على طراز أوربالي إيطالي - مسرح سيد درويش الآن قال - مذهبة ومنورة وباذحة أنيقة في دقتها من الداخل ، وكانت هذه السينا الأوبرا الصغيرة تسيل أيامها بالأرستقراطية الاسكندرية مما كان يسمى الطبقة الراقية، وبورجوازية اليونانيين والطلائنة والأرمن ، وضباط الجيش الثامن الانجليز ، والعسكريين الديجوليين ، أما المضربون الغلابة فلا يحضر منهم إلا جماعتنا ، إذا استطاعوا . قال : أذكر أن التذكرة كانت ربما بعشرين أو خمسة وعشرين قرشا ، مبلغ طائل في ذلك الوقت ، كان علينا أن نحال لتدبيره . قال : أنا كنت أبيع كتب الثانوى ، وألّم مجموعات المجلات القديمة أيضا ، وألّم ثمن التذكرة ، أو التذكرتين إذا كنت محظوظا جدا . أما مختار فقد كانت له حكاية ذائعة الصيت . رهن چاكتته الجديدة الوحيدة لكى يشتري « أبونيه » بالأربع حفلات جميعاً ، واكتفى بالبلوثر والقميص في عز شتاء الاسكندرية ، ولا أحد يعرف كيف رد الرهن ، رأيناه بالچاكتة بعد ذلك ، بهدوء ، دون أن يقول شيئا عن الحكاية كلها . قال إنه عند سمع المأساوية لتشايكوفسكى ، لأول مرة من أوركسترا فلسطين ، وجد أن الدموع كانت تنهل من عينيه بالرغم منه ، كان في الصّف الأول لأنه لم يجد تذكرة إلا بأربعين قرشا ، كيف دبرها ؟ لا يذكر الآن . وخيل إليه أن عازف التشيللو الأول ، مدور الوجه ، صلب العينين من وراء نظارته ، ينظر إليه بابتسامة فيها سخرية وصرامة . وأنه فكر بعد ذلك أن الرجل كان حَرْفياً فقط ، يؤدي عمله فقط ، وصهيونياً أيضا ، لا يعرف إلا كفاءة معينة في كلتا الناحيتين . وأن الكفاءة هنا تساوي القتل . وقال إنه لن ينسى أبداً - مع ذلك - أول كونسير له ، الكونسير البكر .

كيف عاد بعد منتصف الليل ، والعساكر الانجليز يملأون شارع فؤاد وشارع النبي دانيال ، وقد لبسوا الطرايش واستولوا على الخناطير يسوقون خيولها بالكرباج ويصيحون ، ولكنه وصل إلى بيته في راغب باشا ، تحت الرذاذ الخفيف ، والشوارع لامعة السواد ، وهو بالجاكته فقط والقميص المفتوح ، كأنه كان يخلق ولايسير . قال إن البهجة التي عرفها ليلتها لم تتكرر أبدا ، بهجة الكشف عن جمال غير مقصود ولكنه محتم الوجود ، والمشاركة في نشوة صفاء لم يكن يعرف أنه يوجد ، والاستغراق في وجد صوفي حسي معا .

ثم قال : لم تتكرر . إلا معك . وهي معك - كل مرة - غير متكررة .

كانت تنظر إليه كما تنظر عندما ينهل بانسكاب أسرار قلبه الساذجة شيئا ما ، كأنما بشيء طفيف من الاستغراب ، بلا دهشة ولا رد فعل . كأنما هي لا تتلقى ، ولا تهتم .

وقالت : أما حكاية .. هل عندك مانع أذكره بها ، حكاية رهن الجاكته ؟

قال : مندهشا : مانع ؟ طبعا لا . هذه حكاية مشهورة . كل القدامى يعرفونها .

قالت له فيما بعد إنها ذكرته بها .. وأنه قال إنه لا يتذكر .

قال : غريب جدا .. أنا أيضا لا أتذكر ، أو بالكاد : كل شيء عندي ، قبل ١٩٦٩ ، كأنما هو ملك شخص آخر : القرارات والقراءات ، الشعر القديم والهندسة ، المعاناة السياسية والعمل اليومي ، الأفكار والأحلام والآمال الغريبة وأنواع القنوط القديمة ، كلها غائبة بل غائبة . كأنني شخص آخر - أنا هو نفسي مع ذلك على نحو ما ، طبعا - الطفل الشاب لكنني أنا المدفون الذي أظنه مازال حيا ، أنفاسه الكثيفة على وجهي .

قال لها : عندما أنظر إلى أحلامي في تلك الأيام - أحلامه هو - أجد صورتك ونبرة صوتك ، ومس جسديك . حتى هذه الموجة من شعرك العبق برائحة خاصة ، أعرفها منه هو الذي كنت أظنه قد باد .

وقال : محال أن يواصل الظل الشمس .

وقال : ولكنى أعيش — دوماً — هذا المحال .

وقال : اقبلي طلباً المعترف .

قالت : هل تذكر يوم كنا نجري عند مصطفى باشا ، في الليل وغنيت لك ياريس البحر
خدني معك أحسن لي ، أتعلّم الكار يوسع البال ، أحسن لي ؟ عندما فاجأنا عسكري
الداورية ، وسألته عن المحطة ؟

قال : أذكر ؟ كيف لأذكر ؟ أنت لم تسأليه ، بل زجرته ..

ف نظرت إليه بشيء من العتب ، وابتسمت ، وقالت : هل تعرف أننا كنا نجري على
أضخم مقبرة من آخر العصر اليوناني وبداية الرومان ؟ وجدوها أخيراً .. منحوتة في الصخر ، بها
قاعة كبيرة ذات أعمدة ؟ وسرايب مازالت مطمورة ؟

قال : متى ؟ كنت أعرف أنهم ينقبون عنها ، لكن شغلي في المتحف لم يسمح لي بمتابعة
العمل . لازم اكتشفوها وأنا هنا ، في الإجازة .. عندما أعود سأزورها .. على الأقل كى
أتذكر ..

قالت له : ياطول بالك يا أخي ..

وقالت له ، عابدة القمر القديمة ، كأنما بشيء من الخجل ، وحس بالذنب ، طفيف ،
وبالردة : تعرف ، لم أعد ، فقط ، فضية ، وقمرية أو ماشئت . أنا الآن اسمح لنفسي أن ألبس
شيئاً من ذهب .

كان ينظر إلى سلسلة ذهبية رفيعة جداً ، رآها أول مرة في الحفلة .

قبل أن يأتي إليها من الاسكندرية ، في المرة الثانية ، كان قد عرج على الصائغ القبطي ،
عم فلتس ساويريس ، في طريقه إليها ، وأتى لها بسلسلة أخرى ، رقيقة جداً ، من الذهب — قال

له الرجل من وراء نظارته السميكة إنها عيار ٢١ لأن ٢٤ هـش وسريع إلى الكسر - تنتهي بربع ذهبي رقيق الصفحة عليه رسم التور القديم الذي ولدت تحت برجه .

وكا حدث في الزمن الأول ، فتح العلبة الصغيرة جدا ، وهو يقول : كل سنة وأنت طيبة ..

قالت ، عيناها تتقدان بنورهما الأخضر : الله ، هذه أول مرة في حياتي أضع فيها سلامة برجي .

وأخت عنقها إليه قليلا ، ولم يفهم بسرعة ، فقالت بصبر وتسليم : لبسها لي .

فتح القفل الدقيق بأصابع أصبحت فجأة ، فيما يحس ، كبيرة جدا ، وأحاط عنقها بذراعيه وهو يضع السلسلة حوله ولم يكن يستطيع أن يقاوم فقيل مؤخر عنقها .

نزلت السلسلة على صدرها العاري ، واستقرت بجانب السلسلة الأولى التي تنتهي بعلامة عنخ الذهبية ومفتاح صغير جدا ، بين نهديها .

قالت وهي تلعب بعنخ والمفتاح بين أصابعها : هذه من منال ، وهذا من عزة .

كأنما تجيب على سؤال لم يجزؤ أن يفصح عنه .

ثم أكملت : عزة الصغيرة تلعب دائما بهذه الأشياء ؛ وتقلبها وتتأملها ، مسحورة ، كأنها علامات .. وتسال دائما : مامي رامة هذه من من ؟ أقول : من مامي منال ، ثم تسأل : وهذه من من ؟ أقول : من حبيبتى ونور عيني عزة ..

فقال : وعندما تسألك . هذه من من ؟

قالت : سأقول لها : من شخصي أحبه جدا ، جدا ..

أُنضِجُ ثمرتيك الناهدتين على فتقومان في محبسهما بتحد ، وتتكور ، على ذؤابتيهما ، قطرة
في عذوبة العسل وحده حرافته ، تمتلىء حبة الرمان وتتقطر في فمي ، طراوة النسيج اللدن تلتصق
بالخصر المطاوع وتتثنى على الربوة الصغيرة محتشدة تؤكد ذاتها ، فأفتح البئر الغائرة وأسير عمق
المتعة الخصيبة وأعتنق حرير الساقين ونقش الزهور يرتمي عليها بظلال ثابتة سوداء ومضيئة من حر
شمس خفية ، والعمود دفين في النعومة ، وأرسم الثمنمة الحانية .

شفتاه على جبينها المدور ، على هلال رقيق مدبب الحافتين يضم قرص الشمس المحتدم
بنار هي برد وسلام احتفال تشارك فيه موسيقى الأفلاك الجليلة ، زهرة الشوك البيضاء بزغها
الهفهاف على رأس ثور طيبة الأسود ، تحت تعاشيق الخشب المملوكي التي تريد أن تحصر -
وأن تُطلق - المستحيل . الذي يحملنا على ظهره الشاسع الامتداد هو أوزيريس أئيس الطفل
المقرن الذي ثلَّ عرش رع يوماً وليلة لا ينتهيان في تحوله السابع . التياتين التانين العمالقة
تنقضُّ عليه ويفور الماء الحميم في القيدر المنصوبة على الجبل الشرقي الموحش ، بين نباتات الظل
الممتدة التي استطلت الآن أوراقها عريضة وملائة ، تحت النجوم نشوة العرامة وبدائية الدم
المتدفع يثج من المرق المزرعة بجزازات الأشواق والصبابات ، والرأس المجزوز يشب للحياة ، من
إرتماض قسوة الهديان ، مبعوثا وسط تهليل إشارويم الممثلين بكامل المعرفة والصاروفين
المشتعلين بكامل الحب أجنحتهم لاتكف عن الرفرفة حول الثور الجعران المتجدد الحياة بالحق
ابن بتاح ملك المكان الخفي . سيرابيس الفرج المجلجل والبهجة المدوية في عقيق البرق الذي
يشرح السماء . الرأس الفخور الذي يبقر أحشاء الأرض باندفاعه الجموح ويحنان لاحد له
يغتذي بثمر الآلهة ، ترقص حوله تسع رامات هن هي . في دورة تشرئب إلى ذروة النصوص
اللائلأ ، ديونيزيوس ميثراس الشمس الثيل بروج أورفية ، أثب إليه ، في طفولتي ، عبر استحالة
البئر العميقة في سيرابيوم كوم الشقافة ، فأصل ، لكي أجدده يقوم حرسا لاتغمض عيناه على بوابة
التين الشاخنة بحراشيفه وذيله الذي ضربته قاتلة ، ويحلق كالنسر بين عناقيد النجوم المتقطرة
حلماتها الداكنة تنز بالمتعة ، ويرقص مع البجعة القمرية المستديرة البطن البيضاء إيزيس الفاتحة
فاها بقرة القبر المقدسة . الثور الذي يثور تحت حوافره تراب القربان ، في أزقة الطرانة وشوارع
أخميم حيث بؤرة النهر القديم ، مسوقا إلى الذبح أبداً عشية سوق منصوبة في مولد متجدد بالذكر
والبخور ، ومكللاً بأعواد الخضرة تدبل بسرعة وبالشرائط الملونة الممزقة من الملابس النسائية الريفية
الحميمة الخفاء ، ثور بابل الذي تحمله عشروت على بطنها ، الثور الذي هو أب التين ،

والتين الذي هو أب الثور المجتّح ، لا يموت بل يجيا إلى الأبد وبه الحياة وفيه تكون . النار الماء ديونيزيوس أوزيريس ديونيزيوس المقدوس به إلى العباب في بطن الوادي على قارب هشيّ يمد به الماء الخصب وينهض ويميد ويمخر فوق الطوفان مع إيزيس الواحدة الواحدة إيزيس أم الأرض الوثيرة المهتزة بالعشب الأخضر اليناع الدمث ، حتحور أمّ النور أمّ الأولياء أمّ الآلهة أجمعين أمّ أبيها بنت ابنها . الثور سيراييس الألف والأوميجا الحقّ الأول إله القضيب إله الحمامة التي أطلقها المخلص رع تسفّ وتسمو وتمدل بأنين المتعة . رماد الاحتراق يرقّ بالحياة وينصبّ في شرايينه دم زاجريوس الثور المذبوح أضحية وقرباناً لإله الذكر الأنثى معاً الملتحي بجداول الشعر الضارية العيقة معاً المسيح العذراء المشبّوح الذراعين بالمسامير رضاع المحبة ساقط يتقطر على الصليب ، تيريزياس المفتوح العينين لا يبصر في النور لأن نوره الداخلي لا يطاق ، وثدياه ليس فيهما بذاءة بل طهر أخير يصعد من ثبج المياه البدائية الحارة والمعتمة بنور يسيل على تخوم الوجود الكامل واللاوجود ، وينفجر بزئير الانتهاء .

قالت : ممن أسبه جدا ، جدا .

كانت البنت الصغيرة سمراء ذكية الوجه ، في مثل سن عزة تقريبا ، ومدت يدها إلى السلسلة الذهبية المزدوجة الآن ، بنجل ولكن مدفوعة بشيء لم تستطع أن تقاومه ، فتركتها رامة تلعب بها ، ثم رفعتها إليها وقبلتها بحنان أيّ قدرٍ مقصودة هي به وأي قدرٍ مقصود به إلى حبيبها الصغيرة ؟

كانت قد جاءت مع أمها التي تحضّر الدكتوراه في الرقص الفرعوني وبينما كانت تتحدث عن طقوسه وعريه وملابسه وزينته وأحزمته وعقوده ، المقدس منه في المعابد والهياكل ، ورقص الغانيات والفلاحات في القصور وفي الحقول والطرق ، خرجت رامة إلى المطبخ لتأتي بالتوراة التي أعدتها للبنت ، وبالشاي ، وكانت قد دلت البنت وقبلتها واحتضنتها في نوستالجيا واضحة المرجع وأخذتها معها وكانت صديقتها الذي نسي ميخائيل اسمها غائرة العينين في وجه ضارٍ ، جافة الجسم ولكن بجفاف أنثوي يوحى بنساء الصعيد بشبههنّ الحار الصلب العميق ، وصوتها فيه بحّة ، وكانت قلقة وتدعو الجسم للخفقان ، ذراعها الرقيقتان تبدوان هشتين قابلتين للكسر بسرعة ، وخصرها هضيم وصلب . لم ينس هذا . واستقر بينهما على الفور فهم لا مخرج له ولكنه قائم ، وكان ميخائيل يتكلم عن الإيماء ، والمائم ، والمحاكاة والتسامي . وقال إن الرقص الكامل ،

والقدسيّ حقا ، هو الرقص الذي فيه غياب ، كالصوفية ، وأن اللاوعي الجسدي ...

قاطعته رامة وهي تدخل ، ومعها البنت، في فمها ، بلذة ، قطعة التوراة ، وفي يدها الأخرى الدب الصغير الذي اشتراه من الاسكندرية ، والمعلق الآن في سريرها بيديه ورجليه ، وقالت باسمه : ماهذا ؟ ماهذا ؟ أسمع أنا .. أسمع عن « اللاوعي الجسدي » من أول وجديد ..

قال ميخائيل : اللاوعي الجسدي .. بل اللاوعي فقط . هذه النشوة الجسمانية الخالصة حتى لاتعود جسمانية ، لا يخامرها أدنى حس بالذات . أو - إذا شئت - هذا النزول - وليس نزولا على الحقيقة - بل اندماج بآليات حيّة متموجة القوة ، معذرة على آليات .. ، قوى ، طاقات متفاعلة ، آليات من غير أى آلة أو أى أداة .. الغياب ، الذي هو التصاق أساسي بالحضور .. الرقص هنا كأنه الفعل الجنسي الصراح بزىء جدا وليس فيه أى إضافة غريبة .

قال لنفسه : ماهذا ؟ هل أبشر ؟ أنا أجنّ في سريرتي الخبيثة مشرأ لا يكل يتوق أبدا إلى أن يصعد على المنبر ؟ يائسا . من البشارة ما زلت أبشر .. بماذا ؟ بأشياء رثت تسمياتها من فرط ابتذال الاستخدام . أشياء لا اسم لها . أشياء اسمها البراءة في يتابعها الأولى هل هي القربى والرحمة والفهم وقسوة الحق أيضا ؟ هل هذه التي اسمها معت الإلهة الحقانية أم العدل ؟ أين الميزان ؟ ثم .. ثم لا يحدث - دائما - إلا خذلان البشارة والتقاعس عنها ، انخزالها ، بل بطلانها أساسا . ليس إلا الحيف ، والجُموح ، والانسداد ، والانتهاك ، ووطأ زهرة القلب وقمّع الورد الساطعة . لكنني لا أضجر من التبشير ، حتى بعد أن تخلّيت عنه ..

لايفارقني حلم الحوارى المسدودة . دائما أعود إليها وأنا نائم . أمشي بين الحيطان التي تزدحم وراءها حياة الناس المحتشدة الغاصة المتقلبة . تنضح بروائح الطبخ، وبقايا النوم وماء الغسيل وتخفّرات الولادة والموت ، الشبابيك القديمة مفتوحة المصاريع على الأثاث المهدم العنيد الساخن ، والأيدي تشوّر والاطفال كثيرون يجرون بصمت . كل شيء هنا يدور دون أدنى صوت . النساء ينثرن الغسيل المطهّر من أدران الأجسام الخشنة الغليظة والناعمة والواهنة والناحلة والمليئة الأجساد التي تتزاحم حولي ولكنني لا أراها أحس ضغطها وانفراجها أعرف أنها حولي ولا أراها أونا أسير على التراب أحاذر من برك الماء الآسن العطن على جانبي البيوت والملاط الأصفر يتقشر عن الحيطان ويسقط ليكشف عن بقع الطوب الفاتحة اللون العالم مختنق الانفاس

وفجأة أحد نفسي أمام دوران مقفل الخيطان تتجمع وتلتئم أمامي كلما اقتربت من فتحة يتخايل وراءها نور حاد بعيد في الراح الذي يبدو أنني لى أصل اليه أبدا مهما متيت . أقرب بحضرة عارفة ولكن يخامرها رجاء غير معترف به أقرب وقلبي يدق ، السور بعيد حقاً ولكنه هناك أمام أعرف أنه هناك . وفجأة أكاد أصطدم بالحائط الذي يلتئم جرحه أمام عيني ورأسي يكاد يرتسم به . الصمت المسدود يلتف بي ويدور بي لا ينتهى إلا بالتر الجارح حدّ المسكن يقطعه .

اليقظة في صمت الليل وأنا أدخن سيجارة حدّ خارج ومبرىء .

الباب الثامن

المنار الخفيّ على الطريق

قالت له : ما أجد هذا .. كما كان دائما .. !
كانا مايزالان على الأرض ، جنباً الى جنب . راحة عميقة في كل أوصاله وهو مستند
بظهره إلى الصوفا ، يدخن ، وهي تنظر إليه .

قالت : جوعان ؟

قال : طبعا ، ميّت من الجوع !

فابتسمت له .

قالت وهي تنهض : حالاً .. في ثوان . عندي بفتيك جاهز ، في الثلاثية . أنزلته من
الفریزر مبكرا . لن يأخذ ثواني . عندك مانع من المكرونة بالفرن ؟ أسخنها لك ، بايتة صحيح
ولكن تأكل أصابعك وراءها . وبيرة ، وتساعدني في عمل السلطة . والفاكهة بلح أسود ..

قال : ياه .. كل هذا .. ؟

قالت : الخير كثير والحمد لله .. ألا تقول لي جوعان ؟

قال : ميّت من الجوع .. !

مدت إليه يدها ، فنهض معها ، ودخل معها المطبخ وكأنما يراه الآن لأول مرة ، مع أنه
صنع القهوة فيه ، معها ، منذ ساعات ، صعد الدرجتين إلى المر الجانبى ، أمام الباب ، على
الأحجار العتيقة العارية لوحة تجريدية ، ألوانها الجديدة اليانعة تعطي المربعات الحجرية معنى
خاصا .

كانت قد صنعت في البيت المملوكي عملاً مدهشاً . ركبّت بابا زجاجيا ، بضلفتين ،
بين الفسحة الصغيرة التي ينتهى إليها المر ، وفيها القرص المدور وصناديق الورق المقوى الكبيرة
ومائدة المكوى ، مسنودة كنها إلى الحائط ، وبين المطبخ الذى كان في القديم مدخلاً أو رواقا ،

أوسع قليلاً من الردهة الضيقة ، ومكماً لها ، مازال نصف حائطه الأيمن - وأنت داخل - مكسواً بالقيشاني القديم اللامع ، له خلفية صفراء قديمة عليها نعمة زرقاء بالثفريعات الدائرية المهندسة بحسابٍ دقيق ، كل دائرة منها تحتضن في داخلها مئمن أضلاع بالأبيض ، يمس قطرها بلا انفصال ، وفي داخله حنو الأفنان الرقيقة المتلوية ينتهي كل منها بزهرية تجريدية صغيرة جداً ثلاثية الأوراق . أما نصف الحائط فوق القيشاني ، ففيه تجويفات منقورة في الحجر ، قاعدة كل تجويف منها مبطنة بالرخام الأبيض الذي اصفر قليلاً الآن ، وفيها كيزان وأباريق نحاسية ، وزجاجات رفيعة زرقاء مسحوبة العنق ، ومبخرة نحاسية مرشوق فيها عود بخور غير مشتعل وله مع ذلك شذاه الحريف العذوبة .

ركبت أمام القيشاني حوضاً من الصلب الرمادي اللامع غير القابل للصدأ ، وحفريات لها شكل كفاء فعال ، والفرن الكهربائي الأبيض الرابض ، زجاج فرنه مدخن ، وفوقه الدوائر السوداء المضيئة بأرقام بالنور الأحمر ، وعقاربها الدقيقة المدببة ، وبجانبه الغسالة المدورة الأسطوانية ، ثم الثلاثية الشاهقة ، تومض كلها بقوة كهربية دقيقة الحسابات على أهبة العمل والأداء ، بمجرد لمسة .

وفي مواجهته ، وهو يدخل ، نافذة عريضة عالية من لوج زجاجي واحد يتحرك على محور أفقي في منتصفه ، وتنسدل عليه حصيرة الظل الخضراء الشرائح ، مفتوحة ، تسقط من بينها خطوط الشمس الأفقية ، وحبالها الدقيقة المصفورة برقة تنتهي بكرة صغيرة مغرية الملمس . والحائط الآخر ، المقابل للقيشاني ، مازال على أصله ، مصمماً أحجاره العريضة عارية ومتينة اللون ، وهو يعرف الآن أن القاعة الواسعة تقع على الجانب الآخر منه وأن لوحة المولد والصوفاً وشجرة الظل تقع على الوجه الآخر من هذا الحجر العريض ، وقد أقيم عليه هنا الدولاب التحتي النصفى بأدراج العريضة ، وفوقه الرفوف العلوية المغلقة ذات الضلف ، كلها من خشب الزان الفاتح المجزّع ، على الطراز « الروستيك » . ورأى أن كل شيء في الأدراج والرفوف نظيف إلى حد الورع ، ومنسق على نحو صارم الدقة .

قال لها مرة : أنا أيضاً أعوض الفوضى الداخلية عندي بنوع من النظام الجاد أفرضه على نفسي من الخارج . ولكن هذا .. عندك .. هذا مفرع . النظافة التي تقترب من الوسوسة ، والنظام الذي يشارف على الطغيان ، لا بد إذن ، على هذا القياس ، لا مؤاخذه يعني ، أن فوضاك الداخلية بركان رهيب الفوران ..

فقلت ، وهي تنظر إليه عندئذ ، بفتامة ، دون رفض ودون قبول أيضا : أسمع بقى وحياة
الوالد .. دعك من معادلاتك الهندسية الآن ..

كان لوح النافذة الزجاجي العريض - وهو امتداد المشربية في القاعة الواسعة ، بعد
الجدار الحجري الفاصل - يتناغم بشكل ما مع لون الحوض النصب غير القابل للصدأ ، ومع
الأجهزة الكهربائية المشحونة بقوة ما ، بيضاء . كانت هذه الحداثة المستقبلية الايقاع ، في داخل
سياق المعمار المملوكي الداخلى ، تجعل المطبخ يقظا ، متوازن التوتر ، ليست فيه وخامة القدم
النائمة ، ولا لمعة الحداثة السطحية الجارحة .

من النافذة الزجاجية - ليست نافذة ، بل فتح كامل للجدار وحاجز رقيق ثابت معا -
الحوض الصغير ، هادئا جدا ، أرضه الترابية مسواة ساكنة حول المربع المبلط بالحجر ، وشجرة
الجميز متربة كثة الفروع وارفة ، على الدكة الخشبية والزرير الذي يبدو صغيرا ، والكوز
البلاستيك المربوط بدوارة تلمع في الشمس من بللها ولا تكاد تُرى إلا من هذه اللمعة المضفورة
بها . كانت الشمس ، في الخارج ، محايدة الحرارة بين الحيطان المسدودة المقابلة ، وجانب
المشربية الداكنة في النور .

قال لها : مدهش يارامة ، هذا المطبخ ، هذه البوارة الأخرى للبيت ، إذا صح ما أقول
يعنى ، في مقابل بوارة الغرفة الأخيرة ، الداخلية ، يعنى . هنا أيضا ليس هناك أدنى قدر من
الاصطناع أو الادعاء . كل شيء حى ، عضوى ، بما فيه الأجهزة الخفيفة ، بل لأنها فيها .
وليست الأشياء القديمة زينة للفرجة بل هى تعمل أيضا ، وفي الوقت نفسه وجدت موسيقاها
الخاصة مع هذه الوحوش الإلكترونية المُدجّنة .

قلت ، فرحة ، كطفلة : أليس كذلك ؟ يعجبك ؟

كانا وهما يتغديان على المائدة النحاسية المنخفضة مازالا محمولين على موج المكاشفة
والتعرف واستعادة القرى والحكايات ، والحديث الذي هو وصال ، والضحك لمجرد أنهما معا .

وعندما كانا يشربان القهوة كانت أغنيه نانا ميسكوري مازالت تملأ بعد الظهر المتأخر

الهادىء ، ونوره المطمئن الساجى ، بشجوها الناعم . وقالت : الدنيا حر ، وقامت ، جسدها الباذخ يهبّ معها ، خفيف الإيقاع وفياضا . وجرت تقريبا إلى غرفة النوم الذي لم يكن قد عرفها بعد ، وبعد لحظه جاءت ، على شفيتها ابتسامة لاتكاد تُحس ولا تكاد تحس بنفسها ، في قميصها المكشوف الظهر ، والشريطان العريضان يلتقيان من وراء عنقها ، نسيجه اللامع المكتوم اللمعة فاتح الزرقة جدا ، مُحكم ، وكأنه شفاف من ملائسة انسيابه عليها ، وجلست على الأرض ، فانفتح شقاه الجانبيان عن ساقها الملمومتين تحتها ، جنب الشكومية الفضية التي اسودّت من القدم ، منقوشة بتشيكلات بارزه تردّ على تعاشيق المشربية ، وقد تناثرت عليها عقود من العقيق والفيروز الكبير الحبات ، والكهرمان ، وسلاسل فضية لامعة متدلّية ، كبيرة الحلقات ، وقرط هلالى كبير مخرم دفين الوميض .

قال ، باسمأ إذ رأى أنها تنبّهت كيف تيقظت ذكورته من جديد ، وهو يحس توتر الصلابة المرتاحة الآن الواثقة ، والتطلب في غير عجلة :

— تحبين الجلوس على الأرض .

قالت ، وفي محياها بهاء خاص ، ورونق :
— أحب أن أنظر إليك ، من هنا .. أأست رجلى ، وحببى ، وسيدى وتاج رأسى ؟

قال : نعم .

قالت : امرأتك التي ظلت تنتظرك .

في البقعة الأولى من مساحة هذا النهار — الليل المتصل ستة أيام كاملة بين اليقظة المنورة والنوم العرر والامتزاج بينهما ، وتيار الحب المتصّبب قد كسر كل السدود ، قالت له فجأة :
ياه .. هل تعرف الساعة كم ؟ قال باسمأ : لا ، لا أعرف أين ساعتى . قالت : هل تصدّق ؟
الثانية والنصف صباحا ! قال : غير ممكن ... مستحيل .. أبدا .. كنت أظنها التاسعة أو العاشرة مساء .. قالت : لم يحدث لي هذا أبدا من قبل .

قالت : لامعنى لأن تعود إلى ميناهاوس الآن ، أليس كذلك يا حبيبي ؟

فابتسم ، ولم يقل شيئا .

قالت : خذ ، أمامك الكيمونو أو جاكته البيجاما أو القميص .. وتعال ..

في نصف اليقظة ، عندما كانت المآذن الرشيقة قد تحددت خطوطها في أول نور ، من بعيد ، من وراء النافذة الكبيرة ، على تقلبات الجبل العائمة ، وقد انحسرت سُدُف الليل عن شفق الفجر خفيف النسيج ، قالت : كنا نكتّ بالعرق طول الليل .. نحن الاثنين .

فيما بعد ، وكانت نائمة إلى جانبه ، تعطيه ظهرها ، في الهدية راحة بين عواصف عشقهما المتلاحقة ، قالت - كأنما تحدث نفسها : لو كنا تزوجنا من عشرين سنة . كنت أخذت بالك مني ، ورعيتني .

وكان أنينها الخافت ، من غير وجع ، فيه قبول .

قال لنفسه : لم أعرف الحرية الكاملة معها ، والانطلاق الكامل ، إلا عندما رُضت نفسي على أنني قد فقدتها بالفعل ، فقدانا كاملا . ومن كثافة اليأس ، حين أرقن أنه ما من ألم يمكن أن يكون أكبر ، وأوجع ، عندما لا يعود شيء يمكن أن يكون أفدح خسارة ، عندما لا يصبح لشيء - أي شيء - أدنى معنى أو وزن ، عندما كنت أعرف أنها لا يمكن أن تكون حبيبتى ، أنها لا تحبني أبدا ، وأنى أيضا على أى حال لا أحبها ولا شيء ، فماذا إذن ؟ عندما ينتهي عندئذ كل شيء ، عندئذ أجد فجأة أن مسوخ الكبت والتزمت والتحوط ومفازع المُنبِت ، كلها ، تُحسر ، وتُنكسر كل الجواجز في انصبابٍ عارمٍ للحب والشبق ، وتتساقط ، بصمتٍ على المتعة ، على جسدينا ، ممتزجين معا في تجاذبٍ لا يُرد ، وينبجس حنانٌ جسديٌّ ، كالدموع ، ويرتفع كالسيل ، ويستأثر بكل سريري ، مامعنى هذا ؟ الفقدان شرط للوجدان ؟ اليقين بالانقطاع هو مقومٌ تداغمِ النياط وانكسار الجوارح في انهلالٍ هُمي طامٍ لسانه فيه إلا فلكا واحداً ينطوح في طوفانٍ حُبٍ لارحمة فيه ، وكله حنان ؟

كانت عيناها الخضراوان مشتعلتين ، وكانا في العتمة ، في وهدية أخرى مطمئنة من الشبع
الوجيز ، تحت شجرة القشطة الظلية التي تنفس بهدوء مستندة أوراقها إلى العمود اليوناني القديم
الرخيم ، وقالت له :
— أصبح صديقك هذا ، تلميذك ، مزعجا ..

قال : من ؟ وكان يعرف طبعاً .

قالت : بشاي أبسخيرون . يطاردني بالتليفون ، يلحّ ، أنت تعرف . قال إنه يريد أن
يريني أفلامه على الفيديو ، عنده ، ويشير إلى أفلام أخرى تعرف ما أعني ، أو ما يعني هو ،
على الأصح . ممل جدا ، وصبياني ، هل يظن أن في ذلك ، حقاً ، إغراءً لي ؟

قال : لا أعرف .

قالت ، متجاهلة : أوه يامبخائيل .. الولد يظن نفسه دون جوان . وهو ، مسكين ،
ليس دون كيشوت حتى ! ولا أى شيء قريباً منه ، لأ ، يجد !

قال : أنت التي قلتِ ليس في عظامه ذرة من شر .. !

قالت : ليس شراً ، ليس ما عنده شر .. نعم . هذا صحيح . ما عنده هو الحماسة ،
بساطة ، وسوء تقدير . هذا طبعاً منتظر جداً في بلدنا ، في ثقافتنا ، وهو يرتدي مسوح رجولية
يريدها أن تكون مؤثرة ، يعنى ، ومُعوية ، تعرف : اللحية ، والصوت ، والخشونة في الكلام ،
واللامبالاة بجنس النساء قال يعنى .. ، في نفس الوقت مع نغمة توسيل وإلحاح مستمر .. هذا
الصنف يا حبيبي عندما ينكشف ، ينكشف عن طفل هش قابل للكسر جدا ، وواضح
الاحتياج .

قال : ربما هذا يحبب النساء فيه .

قالت : ربما .. بعض النساء في حاجة ، هنّ ، إلى هذا الاحتياج عنده لم يعد عندي صبر على الرجال الأطفال الواضحين .

قال : هذا يذكرني .. أين القطط ، والكلاب ؟ تذكرين كلابك القديمة ، عندما رجعنا ، إلى بيتك في الفلاحين على وجه الفجر ، بعد أن راجعنا كتابك عن اليونانية القديمة في المطبعة .

قالت : كتابي أنا ؟ كتابنا معا ..

قال : صحيح ، أين حيواناتك هذه التي كانت تموت فيك ، وتموتين فيها ، حبا ؟

قالت : لا ، هذا شيء آخر . هذه مازلت أحبها جدا ، هذا أيضا حرمان آخر عليّ أن أحتمله . أنت تعرف ، وأنا الآن مراقب عام في المصلحة ، المهمات والبعثات والمأموريات ، من أول ماريوبوليس شمالا إلى آخر أبو سنبل جنوبا إن شاء الله ، طولاً وعرضاً ، في كل أرض هذه البلد الكنوز المدفونة على بعد ستيمترات أو أمتار تحت أقدامنا ، في كل خطوة .. كيف يمكن أن آخذ إليّ رفاية هذه الحيوانات ؟ هذه ... حاجتها إليّ حاجة حقيقية ، أصيلة ، وبدائية وصریحة جدا ، ليست طفلية . لا يمكن أن أعهد بها إلى أحد في أثناء هذه الرحلات المتعاقبة . ياخسارة .. أفتفدها جدا ..

قال ، متذكرا : نعم .. القطعة التي جئت بها إليّ صباح يوم .. ثم ..

قاطعته : لاتذكرني . ياأخي ، لك عبقرية خاصة في استجلاب ذكريات ليست ظريفة ، كأقل ما يقال ..

قال ، مصمماً : لا .. دعك من هذا .. على فكرة أيضا ، كنا ، زمان نقتل من يأتي بالموت إلى القطعة .. عامداً أو غير عامد ..

قالت مستسلمة وباسمة : يا عينك ياأخي .. يا جبارك .

قال : أنا ؟ يا جبايري أنا ؟ وضحك .

قال : صحيح ، الحكاية المشهورة عندما ثار الاسكندرانية وقتلوا أحد الجنود الرومان ، لذلك ، بالضبط . كانت أمي تقول لي : إوغ القطة . لاتمسها . قل لها فقط : بس .. ولا تزد . إياك أن تضربها أو أن تطردها أو تمسكها حتى . وكنت أهاب القطة التي تدخل إلى شقتنا في غيط العنب ، سوداء ، غطيس ، ناعمة الشعر ، كلها تؤثر واثق لذن ، وأحبها جدا في نفس الوقت . وقال لي أبي إنهم في أخميم ، في صباح الأول ، في نهاية القرن الماضي يعني ، كانوا يعرفون . كانوا يعرفون أن شباب البلد عندما يبلغون الحلم كانوا يأخذون شكل القطط الذكور في الليل وينزلون إلى الشوارع ، ويدخلون البيوت . كان البنات محرمات عليهن أن يلمسن قطاً بالليل . وقال لي إن القطط كانت تقذف بنفسها إلى الأفران المتقدة المتلظية بالنار ، وأمها تانا فقط يسمين باسم الصليب وشارة الصليب ، وكانت القطة تخرج من الفرن تجري مضيفة مشتعلة كأنها ازدادت حياة وسطوة .. قال لي أبي إنه كان ينتظر تلك اللحظة عندما يأتي التحول .. قال لي إن ذلك حدث . ومكثت فلم أجرؤ أن أسأله شيئا ..

بست ، قطتي الإلهية التي تقذفين بنفسك إلى نيران العشق ، مرة بعد مرة ، تلتعنين بالنعمى والنعموة وتفوحين بالتوابل الحارة المحرقة والعقاير السحبية ، فحيح شهوتك يقتل التناين والشعابين ، بنت رع وامراته ، رع أبوك ، ابنك ، رجلك ، زوجك وعشيقك الذي تنتظرين تدفعين عنه تلويات الشعبان أيب الشرير الحراشيف يا أم حور أم الصقر ياسوسنة تخمين الأرضين أنت التي تشخصين القمر المضيء على جلد السماء في قلبي ، لك رأس سخمت اللبوة التي تفيض بالدفء على عيني ، تتصبين بالإحصاب المهدور على رمل القاهرة على سيف بحر خفي بل غير موجود ، تأخذين إليك وجه حتحور وترقصين حولي في آخر العمر وموسيقى البهجة التي لا توصف تملأ ماكنت أظنه صحراي فإذا هي ترف مونة بأفنان الشجرة الوارفة الأفياء ، بالإلهة بوباستيس الشرقية التي تُسدى إليك العبادة ، مرة بعد مرة ، طول الليل والنهار ، من المشرق إلى المغرب ، ومن مغرب الشمس إلى تفتّر الفجر الندي ، لكن الليل ساحتك تقودين مواكب السفن المرحّة تحت أنوار الشموع وقناديل الزيت ومشاعل الخشب على طوفان النيل ، مع صبناجات الترانيم ، جسدك يتلوى في عربدات أعيادنا ، ورأسك ، بعينيه النجلاوين المشتعلتين ، تنوس تحته ، على عنقك التلعاء ، السلاسل الذهبية الرفيعة وعقود الفيروز والكهرمان المتعددة المنصبة إلى بؤرة واحدة في مركزها الحميم بين نهديك ، تومض وتضوء وتوميء

إلى نضارة اللحم في قبضة المعدن والحجر الثمين بصلصلة مرهقة وصغيرة على الصدر المليء
تحت شريطين لامعين من اللازورد المنسوج ، أنت التي تحتضنين في عمق عينيك شمس رع غير
المنطفئة ، قاهر ست ، من لبن حنوك ترضع السمكة أخت إيزيس التي ستدير كل ما
سيكون ، يحارسة الجسد المقتول ، تحت سفع شجرة الجميز الواحدة في الصحراء من بين أربعة
أعمدة ، ساهرة على رأسه ، حتى يُبعث حياً حين تستضيء سماء عين شمس القديمة الباقية إلى
أبد الآبدين . أومن ، أومن وأصدق ، أنك أنت حقاً جسد القطعة الإلهية تفيضين بالخير والنعمة
ولا يمسك سوء .

لم يقل لها : هل تلقيت مثل هذه العبادة من غيري ؟ نعم ، بلا شك ، من كثيرين .
هذا أعرفه ، ولكني أوفى المؤمنين . فلعلك تحسبينا رقي وتعاويد ، تتملقك ، تداجيك ، أو
تدغدغك على أقل تقدير ، لكنها على كل الأحوال لا تصل إليك ، ربما ، ولا يرتفع إليك البخور
المشتعل بالوجد المكتوم .

دخان شواء ذبيحة القلب لا يصل .

القلب المعلق في الظلام .

لم يقل لها - لأنه لم يكن صحيحاً - ما يصل إليك هو ما ينبع عنك أنت ، هو الذي
تريدين أنت . وماتريدين هو الرغبة بنت اللحظة ، بنت الساعة ، أو بنت المرحلة .

قال : لم يكن هذا صحيحاً .

قالت له مرة : هذه ، عندك ، مرحلة سوف تنقضي ...

أكانت تسأل ، أو تطلب ؟ أم تقرر ؟

قال لها : أمقت حكاية المراحل هذه ، وأبغض اللحظات .

ولم يقل لها ، لأنه لم يكن يطيق أن يصدقه : قلب السماء باق ، لا ينقضى . وإنما كان يحكي لها حدوتة .

قال لها : لم تحضري معنا ، أنت ، ندوة الاسكندرية ، لا أعرف أين كنت ، خلال السنوات العجاف الطويلة . كانت الندوة عن حفائر ماريوبوليس ، تطور المدينة ، ومعمارها ، وعلاقتها بالرهينة المصرية ، والأديرة القريبة ، وهكذا ، عقدناها في فندق سان استيفانو ، وكنت مسئولاً عن الإعداد الفني ، كالمعتاد ، وصنعت من مخزن مهجور مهتملاً قاعة مؤتمرات حديثة ومجهزة ، معمارياً وهندسياً وإلكترونياً ، ومعدّةً بالكامل ، من المنصة إلى المقاعد إلى الإضاءة إلى مقاصير الترجمة الفورية إلى آخره ..

قالت : طول عمرك يا حبيبي تصنع من الفسيخ ...

قاطعها : عليك نور .. شربات يا حبيبي .. المهم .. تذكيرين طبعاً مَنْ كانت ضيفة الشرف في هذه الندوة ؟ هكذا ، لأنها كانت في زيارة قصيرة وأعطت المصلحة المليون جنيه استرليني الشهيرة لإصلاح وترميم مقابر وادي الملكات ، وتسرب المليون الله يعلم أين .. لاتذكرين ؟ جيرالدا . هي الرئيسة طبعاً وليس زوجها ، ولها الكلمة الأخيرة .. ليس بجمالها فقط ، بل بيدها القاتلة ، المهم .. تعرفين مَنْ جاء معها ؟ شيريهان طبعاً .. أقل منها ؟

قالت مرتعدة : ياساتر ... برووره !

قال : الشيء الوحيد الذي لم أصنعه ولا يد لي فيه كان صورة ضخمة تملأ الحائط وراء المنصة ، تعرفين لمن طبعاً .. هائلة ، بشعة ، ألوانها الفجة تدير الرأس .. مثل صور هتلر في زمانه ، أو ستالين .

قالت : وبعدين معك ؟ ما الذي جاء بستالين هنا ؟

قال : طبعاً .. لكن قوتها الآن ، قوتي .. ما أريد أن أصل إليه من هذه الحكاية هو أن

جيرالدا .. هل تتصورين أنها كل نصف ساعه ، وهي في جلسة التكريم الافتتاحية المخصصة لها ، ووراءها يقف ثلاثة من الياوران ، شباب في ملابس الضباط الأنيقة ، فارعي القامة ، في غاية الوسامة ، رافعي الهامة .. معلش ، فوّتي السجع أيضا ، عُدّي .. كانت كل نصف ساعة بالدقيقة ، على الساعة ، كان يمكن أن تضبطي الساعة عليها ، تقوم ، بكل هدوء وتمالك للنفس وللأمر معا ، وتخرج ، ووراءها الياوران . وتعود بعدها بعشر دقائق ، بالضبط أيضا ، على الساعة ، بفستان جديد ، وعطر جديد ، بينا المتحدثون يتحدثون والخطباء يخطبون والمصورون يصورون وهكذا وهكذا . حسبها أنا ، خمسة فساتين ، وخمس تنويحات على البارفان .. والفساتين كلها .. إيه ؟ لامعة ياستي ما إلا أنت ، تخشخش ، قوية النسيج ، مفصلة .. مفصلة يعني بمفصلات واضحة ودلائل صلبة ، كالدرع ، من اللبني إلى البيقال ، ومن البنفسجي إلى الرمادي المفضض ، ثم الضربة القاضية .. أحمر رُماني داكن فيه أشياء تبرى ..

قالت : يعني كرنقال وليس ندوة عن الآثار والرهبنة ..

قال : عرض أزياء على مراحل ، مرحلة بعد مرحلة ، وعلى مستوى رئاسي ..

قالت : وأتصور أن شيريهان كانت زرقاء من الحسد والغیظ .. لابد أنها كانت ستموت ، طبعا ...

قال : ولولا كُورس الكوسه المعتاد ، في الخطب يعني ، يمكن كانت ماتت منّا على المنصة ..

قالت : تاني .. المنصة ؟

قال : أولاني .. هذه كانت بشارة .. المهم ، هذه المرأة التي ظلت تتحصن ، وتنتقل من قلعة إلى قلعة ، بالمعنيين ، وراء متاريس ثيابها اللامعة ، ممّ كانت تخفي ؟ وماذا تخفي ؟ قالت : أبداً ، بسيطة . هل أنت ساذج يا حبيبي أم تتظاهر ؟ الحكاية التقليدية .. من تيودورا حتى إليزابيث الأولى وانت نازل .. أليس كذلك ؟ التفتت الداخلي له وجه الحصون ، ألم تشم رائحة الفساد الغائر وراء البارفان ؟

سوف تقول له ، في نوع من النوستالجيا : هل تذكر تلك الأيام ، عندما كنا في اسكندرية ؟ لم أكن أستطيع أن أحتفظ بيدي بعيدا عنك !

في المدينة العظمى التي ولد فيها التين والتي قالت له : مدينتنا ! ، كانت النوارس تتجمع في الصباح ، سحابة بيضاء متقطعة ، تحط ، لكل مزقة منها حياتها الخاصة ، تريض على الصخرة النقية الخواف النائمة من البحر الأزرق الشتوي ، ثم تهب فجأة ، من وراء الزجاج الذي يرقبنا منه ، بلا صوت ، في انطلاقات متعاقبة مصممة لها هدف لا يعرفه ، وتمضي .

ومن أمام زجاج هذه النافذة العريضة نفسها ، المظلة على البلاط الأحمر القديم في الشرفة الكبيرة على الكورنيش ، كانت تمرق عصافير الجنة السوداء ، مستدقة الذيل ربيعة الأجنحة ترفرف بنوع من اليأس ، هل تريد أن تدخل عليهما إلى الدفء والكن الكنين ؟ بينا يتقلب الجسد بين اليدين الحاذقتين المُحَيِّيتين ، تجوسانه وتنكشfan من جديد أغوار معرفة لا تنتهي ومتمعة لا تفيض . وكانت القرى التي لا يمكن أبدا أن تكون أوثق ولا أعمق ، في الغرفة العلوية المنيرة من الفندق الاسكندراني على البحر ، حيث كان الجسم الواحد المُثنى الذي لانهاية لأطرافه وجذوعه المتحركة التي تتماس وتتعانق وتتمرغ وتقوم وتتصلب وتتموج ، ويسيل الحجر في رفرة الألوهية نفسها .

قالت له مرة وهي على حافة النوم ، في البيت الذي قالت له : بيتك ! :
— ميخائيل ، اقل الدولاب ..

قال بشيء من التعجب ، وبعطيف أيضا :
— لماذا ؟ هل الباب المفتوح ينتهك قاعدة جمالية ما .. أو قانون النظام ؟

قالت ، بجد : حتى لا تخرج منه العفاريت بعد أن تنام ..

فقام من جنبها ، وسوى الملاء الخفيفة على كثران الجسم المنهالة في أول النوم ، وأغلق الدولاب بعناية دون صوت ، وكانت قد نامت .

كتب فؤاد فواز إلى « الجمهورية » يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٩ : « نزل مأمور الضرائب وسط مقابر الامام الشافعي للتأكد من عدم وجود أنشطة متهربة . ورحب التريبة في البداية بمأموري الضرائب اعتقاداً منهم بأنهم طلبة طبّ جاءوا للبحث عن جثث . ثم لزم بعضهم الصمت ، والبعض الآخر حاول تضليلهم ، وعمدت بعض النساء الى الصراخ وسط المقابر لإرهاب مأموري الضرائب ، اكتشفت مصلحة الضرائب وجود أنشطة متهربة من الضرائب في المساكن الموجودة وسط المقابر منها ورش للنجارة وترزية »

أما في بلدة دست الأشراف ، كوم حمادة ، فيروى محصول الأرز ويصرف الماء داخل المقابر حتى أصبح الموتى عائمين ..

قال لها إنهم عثروا ، في محطة مهجورة من محطات الترولي في نيويورك ، على تمثال لسائق عربة رمسيس الثاني . قال إن تمثال ميرنبتاح السائق الامبراطوري كان قد اختفى من المتحف البريطاني في لندن . وقال إنه رأى صورة التمثال في مجلة للآثار ، وأن وجهه يذكره بوجه حسين افندي الذي كان يسكن تحتهم في غيط العنب ، وكان ملاحظ الكوبري على المحمودية ، مدور الوجه وطيبا وله عينان متفتحتان ، وقال لها إن ست وهيبة امرأته ، كانت تحنو عليه وهو طفل ، وكان يحب منها حنوها وجسمها الطيب .

وقال لها إن شيئا غريبا يحدث له ، وإن العلاقات بين الداخل والخارج تتغير ، وإنه عندما يعود إلى الاسكندرية ، يلبس الأمر عليه ، ويوقن فجأة أنه إذا خرج من الباب فسيجد السلم الحجري بين حائطين مصمتين ، ويمر بالحوش وشجرة الجميز ، ويسلم على نبوية ، ويجد نفسه في شوارع الغورية المزدهمة الغاصّة بالناس وحرافة حياتهم ، وإنه من شوقه إليها يظنها بل يؤمن أنها هناك ، هذه الحياة كلها ، على بابه ، وهم بالخروج إليها ، كأنها هي جرعة نفسه للدخول إليها ، في بيتها الذي قالت : بيتنا . قال إنه في قلب هذه العلاقة كما هو في قلب القاهرة بعيد ولكنه في داخلها مهما كان بعيدا . قال تتصورين هذا ؟ أنني على يقين كامل إذ أفتح باب شفتي في اسكندرية ، إنما أفتح باب هذا البيت ، كأن هذا البيت قد تلبسني ، وأصبحت طرده هي نفسها حدود جسدي .

جاءه صوتها من القاهرة ، على تليفون المصداحة في استراحة ماريوبوليس : هل وصلتك

الهدية ؟

كان في الصوت تمهيط ، زبماء . وفهم ، بعنوية مباشرة ، أن المسألة لاتتعلق بهدية من النوع المألوف . وكان قد بدأ يعرف أن ثم شيئاً ما - له خطورته الحقيقية ، بدور بينها وبين مصطفى وأحمد ، وربما آخرين أيضاً . وكانت الاعتقالات ، قد خفت وطأتها قليلاً في آخر هذا الصيف المضطرب ، ولكن الصحافة والإذاعة كملها تفيض بخدشب الرجل التي فقدت كل اتزان ، وكان مصطفى قد سافر ، وانقطعت عنه أخباره . ووصل بعد سفره مفتش للآثار ، مهذب جداً ، وغريب ، قال له إنه كان في بعثة للحارج ، وعرف ميخائيل على الفور أن لا علاقة له بالآثار ، ولم يلبح ، وفي غضون حديثه سأل عن مصطفى وأجاب ميخائيل على انشور أنه فعلاً كان هنا ومضى من يومين وقال إنه لا يعرف إلى أين مضى وإنه صديقه وأنه قال إنه منتدب من المصداحة لمهمة يرمين في ماريوبوليس ، فلم يسأل المفتش الغريب أكثر ، واكتفى بهز رأسه والابتسام ، ثم سافر بالليل بعد أن سأل عم شعبان وفتح الخزن ونظر إليه كأنما بلا اهتمام ، ولم يقل شيئاً . وتذكر ميخائيل وكيل النيابة الذي حقق معه في الأربعينيات ، وكان مهذباً جداً أيضاً ، وسأله عدة أسئلة كأنما بلا اهتمام ، ثم عرف أن القضية أو التحقيق ، لايدري ، قد حفظ ، ولكنه اعتقل في ١٥ مايو ١٩٤٨ ، دون أن يوجه إليه اتهام . وخطرت بذهنه شوارع الاسكندرية بعد منتصف الليل ، وهو ياصق منشورات على حيطان محرم بك ، ومعه فرشاة صغيرة وسطل صغير جداً به غراء صنعه بنفسه ، وأنوار الاعمدة الطويلة تسقط عليه في الشوارع الخاوية ، وقد انقطعت الرجل وفات ميعاد التراموايات ، وهو يحاذر من عسكري الدائرية القادم من أول الشارع بحلته السوداء ، وقلبه يدق ، وحيدا في المدينة التي يدعوها بحروف صغيرة. ملصقة على الجدران ، إلى الثورة وإلى الكفاح من أجل الجلاء ، وإلى إسقاط الاستعمار والاستغلال .. وفهم من نبرة رامة أن ثم هدية في طريقها إليه ، فقال بنفس التحوط أن شيئاً لم يصل إليه بعد ، فقالت : خلاص . ستصل غدا أو بعد غد ، وأضافت لصالح الرجل أو الجهاز الذي لابد أنه يسمع ويسجل : وكل سنة وأنت طيب ، وإلى اللقاء . وعندما وضعت السماعة سمع الطقطقة المألوفة التي كان يترقب حدوثها ، وقال لنفسه : لماذا لا يستخدمون أجهزة حديثة لاتفضح نفسها ؟

تذكر أنها ، في خلال أيام أربعة قضياها في هذا الفندق الاسكندراني الذي تحولت غرفتهما

فيه إلى بيتهما المناص أيمناء، قتلما مساحة شاسعة مضيئة بنور يكاد سنائه للانطلاق . وركبا قوار
أبو قير إلى محطة مصر ، وعبرا من تحت نهر الحضرة ، وقد أسندت رأسها إلى كتفه كأن هناك
مكانه الوحيد . وجلسا في كافيتريا المحطة ، برودعا إلى لقاء قريب ، فسوف ياحق بها في
القاهرة ، في رحلته الثالثة والأخيرة ، بعد أيام . كانا يشربان بيرة من زجاجتي استيلا ، في
الكوب المضلع الزجاج بهروته الكبيرة ، والزبد المرغى على كبرمان البيرة انصافى المشج ، يومئذ
بحوية إلى سعادة متقلبة الموج ومتساوقة . قال لها إنه شرب معها بيرة ، مرة ، في القطار الآتي
إلى الاسكندرية ، بعد أن عرف أنها مسافرة ، واستطاع أن يحجز مقعدا لنفسه بجانب مقعدها ،
هكذا مناجاة ، في اللحظة الأخيرة ، فقالت إنها لاتذكر ، ولكنه نحى ذلك كله عن نفسه
بسرعة ، ولم يتلبث . كان سعيدا معها ، فقط ، بين الركاب المنتظرين الديزل الفرنسي الجديد ،
في الكافيتريا . وكأذ منهم فوج من السياح بملاح اسكندنافية وجوههم مسنونة وجافة وقد احمرت
من الشمس ، ونساؤهم في الصباح الشتوي الدافئ عاريات الأكتاف محترقات البشرة تحت
البلوزات العارية والجاكنات الخفيفة ، قال لها إن شتاءنا صيف لا يرونه أبدا عندهم ، وأنهم
يتعربن له ويصطلين بشمسهم ، فقالت له إنها بدأت تكتشف في نفسها أهواء جديدة أو لعلها
كانت كامنة ، وإنها تحب جدا هذه الثياب الخفيفة ، كما تحب اللاتجيري الأنيق الهفهاف . يقال
في همس مفاجئا إنه لم يكن يظن أنها تعني أصلا بالثياب ، مع أن لبسها كله أنيق ومنتقى وحسن
الذوق جدا وأنه كان يفكر ، بالضبط ، في أن ذلك ما كان لابد أنها تحبه . قالت : ياخسارة لماذا
لم تقل لي ؟ . قال إنه مع هذه النفثات المتطيرة من عطر النشيج الرقيق في الإيشارب الحريري
التي تلف به عنقها ، يثبث من شعرها الوحف القوي رائحة حريفة حارة ، تجمق البهارات والتوابل
والبخور والصندل الهندي القديم والمسك وفوخ جسمها الشفاف الذي لا مثيل له ، فقالت :
كل هذا ؟ وضحككت وقالت هامة يا حبيبي أنت تصف رائحة لبوة حارة ، فقال لها : في
المحطة ، وسط الناس ، دون أن يراعي : يا قبطي الوديع المشمسة .

الجوهر الواحد الذي يحمل المغايرة ولا يحتمل إلا الواحدية . النقيضان اللصيقان لاقيام
لأحدهما من غير الآخر ، أما سفينتي فهي شديدة الهشوشة يتقلب بها عباب الموج العاقي لكن
قشرتها صلبة جدا والذي يدرّ به قلبي من الحنو أمواجه أعلى وأعتى ، ولا شاطئ لها ، ولا مرساة
فيها . لاتقول لي : إرس على بر .. فماذا أفعل مادامت هذه المركب المشقوقة البطن لاتفرق
ولاتصل ، لامناعة فيها لكنها لاتنكسر ..

هأنذا أجمع في أحبولة العمى والاستحالة ولأسكت . أنين الرومانتيكية بلا شك عني
يحقق به الحصر لكنه تراوح أغنية بلغة لأعرفها وأفهم غنتها ، يחדش لحم القلب المكشوف ويجز
فيه عميقا ، كأنه يجب ألا أحاول أن أقول الذي لا يمكن أن يقال . وليس ما أحاول إلا غمضة
غائمة ملتبسة .

هتفتُ : صف لي على الطريق منارا .

قال : ما في طريقنا من منار .

قلت : إنه ، من وضوحه ، في ظلام .

قال : ويرى ، من خفائه ، كالنهار .

يا فريد الدين ، ما أقساك .. !

حكيت له حكاية عن عملها ، في حفائر إدفو ، قالت إنه كان عليها ، في عز الصيف ،
أن تترجم نصا بالديموطيقية ، وكان عليها أن تنقله أولاً من على جدار مقبرة مازالت مغلقة
للجمهور . كان النص مضيقاً لبحث تقوم به في ذلك الوقت . وكانت مصاييح غاز المغنسيوم
تضيء بقعا في الجدران ويقع ضوءها الأصفر الموحش على أكوام متناثرة من الشقافة والرمل وأدوات
التنقيب المركونة على الحائط ، وكان الهواء المحبوس جافا ولكنه ثقيل الوطأة . وكأنما كانت دوامات
صغيرة وبطيئة من الهواء الجديد النازل من الفتحة ، تضظلم بها ، تكاد تمسكها بيدها .

وكانت تعمل ظهرا ، بينا الفريق كله قد خرج للراحة في الاستراحة المبنية من الخشب
والخيام ، والصعايدة قد استسلموا للقيلولة تحت النخل . قالت : واستأذنَ الرئيس محمد - أنت
تعرف هذا النوع من الرجال ، جافا كأعمدة النخل القديمة ووجهه منحوت ، عمامته بيضاء
كالفل ، صارم جدا وعطوف جدا - قال : « تسمعين يا ست أتركك تعملين على راحتك » .
فقلت له « طبعا ياريس اتفضل أنت » . وخرج من على السلم الضيق ووجدت نفسي وحدي
في القبر الواسع الخاوي . لم يكن في صحبتي إلا الكتابات والرسوم - بحضورها القوي دائما
مهما عاشرتها - ونور المغنسيوم يبعث الحياة فجأة في أوزيريس القائم المكفن بالبياض ، ومعت
الحقانية صاحبة الميزان ، والصحبة كلها : الكلاب السلوقية الممتدة الرؤوس إلى الأمام والوحش
مغمغم الفاجر عن أنيابه وهكذا وهكذا ، ومن الناحية الأخرى أهل البلد مازالوا يزرعون حقولهم وراء

ثيرانهم ويحصدون في الوقت نفسه ونسأؤهم عاريات الصدور تعجن وتخبز وتصنع البيرة وعرق البلح ، كانوا منشغلين جدا عني ، ولكنهم معي وبدأت أحس بالحر ، لا يكاد يحتمل ، خلعت حذائي أولاً دون أن ألقى بالاً للعقارب المعتادة أو الثعابين ، كنت أعرف بحدس ما وخبرة غير واعية ما أن المقبرة نظيفة وجافة . نظرت حوالتي ، كل شيء هادئ وخاو ، الباب الخشب المصنوع ارتجالياً مردود قليلاً على فتحة السلم الضيق لاتدلّ عليه إلا كوة من نور الظهر غير محددة ، وأعرف أن الرئيس محمد يحرسه من الخارج . فخلعت البلوزة الخفيفة بسرعة دون أن أفكر وواصلت نقل النص على كراسة الرسم "لحيلة" ، بجد واستغراق ، لكنني مازلت حرائة فلم أجد بدأ من خلع الجيئة الواسعة أيضاً ، الآن أحسست بالراحة ، وقد تجردت تماماً إلا بما يمكن أن تسميه الجوهريات العارية كما يقال ، وأنا أنقل ترنيمة إلى أوزيريس ، أكدح وأكث بالعرق ولكن براحة ، لم أنقل نصاً في حياتي وأترجمه ، بمثل هذا الاتقان والراحة والجمال أيضاً .

كانت قد كتبت هذه الحكاية ضمن كتاب تنوي أن تنشره عن عملها وأسفارها ، وقالت له أريدك أن تقرأ هذه الحكايات وأن تقول لي رأيك . أخذ الورق منها ووضعه على مكتبها الصغير المستند بركن منه إلى خشب المشربية الداخلي ، تحت العمود الأبيض وشجرة الظل ، ثم شغل عنها ، بها ، بقية اليوم . فلما قالت له : « هيه رأيك ؟ » قال : « لم ألق أقرأ بعد » ، فقامت فجأة وأخذت الأوراق ومضت عنه تخفيها ، وألح عليها أن تأتيه بها فرفضت ، في مزيج من الغضب والدلال ، حتى استطاع أن يجد الورق تحت صف من ملابسها المطوية بنظام في الدولاب ، ولم تكن تعرف أنه وجد الورق وأنه قرأ الحكاية ، وغيرها من الحكايات ، من ورائها في عمق الليل ، وابتسم ، بمرارة ، من ذكاء حكاياتها ، وجراتها ، وتوشيتها ، وبراعة اختيارها ، كانت الحكايات الأخرى في كتابها ترجعه وتمضه ، فلم يقل لها شيئاً .

قال لها فيما بعد ، إنها تعمل أحسن ماتعمل وهي متجردة ، إلا من الجوهريات العارية . فضحكت بكرم وصفاء ، ولم تذكر المرارة الطفيفة في لحظة الغضب .

في النهار — الليل الأول الذي مضى بهما دون زمن ، كأننا قد وصلنا من غير اتفاق معلن ، إلى صيف من حرية الجسم والروح لا وزن فيها للمواضعات . كان البيت المملوكي دافئاً من غير أن يكون رازح الحر . وكانت قد قالت له : « عندك هنا القميص ، وجاكته البيجاما ،

والكيمونو ، البس ماتشاء» . فاختار قميصا خفيفا ، صيفيا ، رجالي التفصيل ، من قمصانها ، مفتوحاً بلا أزرار ، محايدا ، ولم يكن يضم شيئا غيره .

كانا يقرآن معا ، أو يعملان في المطبخ ، أو يشربان ، ويأكلان ويتحدثان ، يتحدثان ، ويتحدثان ، ويصنعان الحب ويقتربان ، ويتعدان ، لكي يقتريا من جديد ، لا يثقلهما شيء . لم يكن الخفاء يعني شيئا ، ولم يكن العري نفسه مهتماً بل مايعنيه ومايدل عليه ، في تجسده ، هكذا ، وتجردّه ، وبساطته الأولية . دوران كتفها الراسخة وانسداتها ، استسلام ذراعها وإيقاعهما : حركة الصدر الناهد بجماله الصافي دون أدنى بذاء ، الطيبة السفلية من الفخذين ، باكتنازهما الندى ، ربوة البطن المطمئنة وجوهرته الغائرة المستديرة ، واكتنان وهدة الكنز المدخل المأوى هادئاً ومعتماً قليلاً ، كلها ، منيرة وواضحة وبريئة براءة كلية . أما هو فيحس نفسه يتحرك ، حرا ونقيا وخفيفا ، ساقاه مرتنان مطاوعتان وصدرة ممتلىء بهواء طلق .

كان بوسعه ، بلا أدنى حرج ، بل كأن الحرج شيئا غير متصور ولا معنى له من الأصل ، أن يراها في قميصها النايلون القصير ، شفافاً ، ومفروفا بتوشية ملفلفة صغيرة من نفس نسيجه ، مفتوحة على صدرها الوثير ، ويلف على أعلى ساقها باتساع ، ورحابة ، وهي جالسة أو واقفة أو تسير ، وهي تطل من داخل المشربية على الفضاء الداخلي النائم في الشمس ، وهي تمر في الظل المتحرك المتموج تحت دغلة شجرة الظل الوارفة الخضرة ، وهي تقرأ له في كتاب من شعر الحب المصري القديم ، من ترجمة إزرا باوند ، وتصحح الترجمة عن الأصل الهيروغليفي ، وهي تأتي له بشراب ، أو تطبخ له ، كانت ، هنا ، في عنصرها الحقيقي ، متظهرة وأساسية . كل ماياتي إضافة على ذلك هو مجرد إضافة وتزيد ، وثقل وحشو وعائق ولا ضرورة له .

قال : ليس في هذا ، بأى حال ، عود إلى ميّنة الانسان الأول ، البريء ، عند عمنا روسو أو من لبّ لفه ..

في الحضور الدائم للزمن الآخر أراها دائما في نقائها .

كانت قيمة عري جسدها الأسمر الصافي تتجاوب بشكل حميم مع قيمة جسد الخشب

الداكن الخفيف البذنة ، الحى ، في المنزلة ، وتراسل بين التيمتين موسيقى حميمة . وكان
جمالها مُضمرًا في العرى ، غير مبادل بل مكنون .

أغصان شجرة خضراء ناعمة ، تأتي في ضوء مصباح الشارع الكهربائي يسقط عليها بين
جدران البيوت الحجرية العارية ، عهز على قطعة من مجاء الليل الزرقاء الدفينة .

قالت له : ماتراه ليس أنا . أنت لا تحبني في الحقيقة . أنت لا تتحدث إلى ، أنا ، في
الحقيقة . هذا كله هنا ، في رأسك .

قال : اسمحي لي أن أختلف . أنا أعرفك . وأحبك . كما لا يعرفك ويحبك أحد .

قالت : لأدري ، ربما . أنت تريد شيئًا مطلقًا ، أبدًا ، دائمًا . هذا ليس أنا . ثم كيف
يمكن أن نصون هذا ؟ كيف يمكن أن نصون حينًا ؟ الزمن يغير كل شيء .

قال لها : قلب السماء لا ينقضي . وأنا أضحم عليه ذراعي . عندما أرفض قبول التغير ،
والمراحل ، والرواسب ، فإنها تنتفي . عندما أجد أن الدائم والمطلق الثابت هو الوجود ، فلست
لا خيالًا ولا رومانتيكيا ولا هى أشياء تدور هنا في رأسي .

قالت : يامبخائيل ، ألا تريد أن تكون واقعيًا أبدًا ؟ هذا غير معقول .. وغير صحيح .
لأشئ طبعًا دائم وثابت . وهذا لا يعني أنني لأتمنى - مثلك وزيادة - أن يوجد ، أن يكون ،
هذا الدائم الثابت الذي فوق الزمن . لكن علينا أن نتصرف داخل الزمن .. هذا هو الشيء
الصحيح .

لم يقل لها : في هذه العلاقة سنز نضروي . هو الوجه الآخر للبهجة التي لا تُعقل .
الحزن ، والحب ، لأعرف ماذا أفعل بهما ؟ ليس هنا ماسوشية ، ولا انصياع لآلام طفولية
قديمة . ليس هذا . أساساً . بل هو ضروري .

ولم يقل لها : لأنك .. حتى عند كمال التحقق ، تبقيين شوقاً غير متحقق تماماً ، وفي أضراً

لحظات المجد تظلمين صبورة غير قابلة للتمام ، فيها آفاق أبعد ، لا وصول إليها . لذلك أنت دائما متقدة ، متوهجة في سريرتي .

بل قال : أعرف أنه دائما مصون . لأعرف الزمن .

ولم يسأل ، لأنه قال لنفسه إنه لن تكون هناك أبدا اجابة :
— وأنت .. هل تعرفين ؟

قال لها مرة : غريبة جدا حكاية الجسم هذه ، وما في داخله إذا أمكن — يعني — أن نقول هذا .

قال : لا أستطيع أن أنسى قصة قصيرة قرأتها من سنين وسنين ، أظن كاتبها أمريكيا ويهوديا على أى حال ، هل اسمه بن هشت أو شيء من هذا القبيل ؟ قصة خياط يهودي أمريكي ، قصير ، بدين الجسم جدا ، دحداح متراكب اللحم بعضه على بعض ، وكان الرجل رومانيتكيا جدا ، ويحب فتاة رقيقة كالهواء ، ناعمة كأنها بيت شعر ياباني — ليس هذا في القصة أظن ، بل ما بقى في نفسي منها — وكان الأمر كله مضحكا جدا بالطبع ، قاسيا جدا . ومرض الغلبان ، وشقه المرض ، والحب ، واليأس ، بلا شك ، وإن كان هو لا يعرف ، حتى لم يعد له ثقل على سريريه . جاءت البنت تعودده ، لم تكن تعرف أنه يموت حيا ، بالمعنى الحرفي ، ورأت وجهاً في غاية الجمال مضيئا بنور الموت ، وكان هذا الذي على السرير رجلا في غاية الرشاقة ، والاكتمال ، جسما كأجسام آلهة اليونان الذين في عز الشباب ، وعندما اندفعت إليه تقبله وقد تفجر في قلبها حب لا وصف له ، كان قد مات . لم يعرف أبدا أنها كانت تحبه ، على ما كان عليه ، بكل ما كان جسمه عليه من ثقل .

قال : ألا يذكرك هذا بشيء ؟

قالت ، بحزن وغضب : طبعا سلام شاهين أيضا مات . ولكنه موت على العكس تماما من هذا .

قال : امرأته نجيعة ورقيقة جدا أيضا . وصوتها - أظن أنها سوبرانو في فرقة الأوبرا
عندنا - ثاقب ومتسق معها .

قالت : آه طبعا . يموت في حبها ، ترك زوجته أم أولاده من أجلها . وهي ، ولا هي هنا .
لكن لماذا تبعد عن الموضوع ؟ ليس هذا ما أقصد . كما تعرف .

قال ، مسلما وبألم : نعم أعرف . هذا الشرح عنده ، وعند الآخرين . الشق بين الفنان
الموهوب والحساس ، وبين ذلك الجانب الآخر الأساسي عندهم ، الجانب الذي يجري ، دون
رحمة ، وراء القوة ، وراء السلطان ، وراء الشهرة أو ماشئت . الجانب الذي لا بد أن يبيع الكُل ،
غاليا أو رخيصا ، غير مهم ، في سوق السلطة . المشكلة عندهم أنهم لا يستطيعون أن يلائموا
بين الجانبين . الشرح موجه وعميق وقاتل أحيانا ، انظري كيف مات سلام عبد الغفور ..
مأساته أيضا شديدة الإيلام .

قالت : لا أفهم . لا أفهم لماذا ؟ كان سلام شاهين صديقا حقيقيا ، ونادرا . وكنت
أحبه ، صحيح . مازلت في الحقيقة ، لكنني أحس أنه مات . لم يكن هناك من هو أرق منه ولا
أكثر موهبة ، في الشعر ، في الرسم ، وفي الحياة أيضا .. هو موهوب للحياة .. أنظر كيف
يتمن نفسه .

قال ، بغضب : الشيء القديم ، المأثور ، المتبدل حتى لا أكاد أستطيع أن أكرره :
السلطة مفسدة حتى النخاع . وقد أفسدتنا - إلا من عصم الله . إحساسهم أنهم أيضا ،
هم ، سلطة ، وزيف أنفسهم بانحيازهم للسلطة . ينجلني ، صحيح ، ترديد هذه المأثورات .
لكنها ، في صميمها ، أليست صحيحة ؟ صحيحة بعد أن ننحى عنها مسوح الحكمة ،
وسلطة التقاليد ، بدورها ، صحيحة ومحزنة ؟

فلم تقل شيئا . كان في حزنها على صديقها ، ما يستعصى على التقنين والتجريد .

وأحس هو ، على يقينه من أن كلامه صحيح ، أنه لم يقل شيئا .

في استراحة الآثار في ماريوبولس ، وحده ، كانت مائدته العارية عليها كتب قليلة ، ولفة ورق الرسم الأسطورية ، ومصباح مكتب قديم . وكانت أمام النافذة ، في مواجهته ، حديقة رملية صغيرة مسورة . شجر الزيتون الداكن الورق ، وخضرة شجيرات التين على الأرض . تلتصق بآسور الحجري المنخفض صبارات قوية صلبة العود ، وامتدادات التين الشوكي المغلفة على ثمراتها الصعبة ، ثم تمتد الصحراء أمامه ، والأطلال المحفورة الواطئة ، يلوح بعدها بناء الدير الصغير المربع ، مسدوداً في ألأء الشمس ، يرتفع منه برج الكنيسة المربع الاضلاع ، سامقاً من بين السحاب الرمادي الفاتح ، اللؤلؤي النضوع ، الباهت الرقيق الشتائي . السماء الزرقاء الناعمة وراء البرج الذي يكتسب منها نعومة . البرج القديم نفسه يصبح ناعماً ، جسدياً ، ولكنه يطعن الزرقة التي تكاد لفرط شفافيتها أن تكون مشتعلة بيضاء . وهج الشمس منعكساً على موج الرمل يحمل إلى وجهك . يطفو ، في سكون . تنظرين إلى . وصفحة الرمل كصفحة البحر . رصاصية . صلبة . جسمي لا يغوص ، بل أراه ، من هنا ، يتعثر ، يتدحرج ، كومة من الحصى ، على سطحها الصلد المشع ، تحت وحشة سماء الألم الشاسعة . وهذا النداء المضلع الجوانب قائم أمامي ، في الصفاء المطلق ، صامتاً . وجرم الجرس يبدو صغيراً محدد الجوانب قائماً في الضوء الذي وراءه كأنه لن يقرع أبداً بصليبه البهيج .

الباب التاسع

الأبواب المفتوحة على العراق

كان الباب مفتوحا ، ودخلت عليه تسبح ، نازلةً إليه ، في الهواء ، جناحها مطبقان إلى استدارة الجسم المرمرى المجرع بخيوط بيضاء . كان يحس هذا الجسم المنحوت ينقضّ عليه ، دافئا ومدور الجوارح . عيناها ثابتتان . وكان يعرف وجهها . هذا اللمعان الأسمر الوردى ، مصقولا وفيه ماء الحياة . تذكر أنه رآها في الميتروبوليتان ، وأنها سحرته ، وهى رابضة ، صغيرة القد ، على منصتها الحجرية الرشيقة ، بمخالب نسرية مسنونة ملتصقة بالحجر . هولة أنثى من الأسرة الرابعة . وأنها كانت جميلة جدا ، ومنادية . جسم الثظّة الكبيرة وديع وفاجر معا ، وشعرها الجثل الرخامى ثابت التموج في جدائل عريضة منتظمة في انصبابها ، تدور بالجهة الصغيرة المدورة ، وتنزل إلى الكتفين من أمام ، حتى الصدر الناهد الممتلىء بنبضة واحدة من النفس المرتاح ، نبضة واحدة وإلى الأبد . وهو يعرف طعم شفيتها ، مازال يذكره ، عندما كانت تبسم ، بالكاد ، تحت قبلته . اللبوة المُنحّحة الحارة بوجهها الإنساني الحنون والمغلق . كانت معلقة فوقه ، عالية ، تحت سقف غرفته المقفلة ، والنور غير محدد ، كأنه عتمة شفافة مستضيئة ، وهى مازال تهبط إليه ، ساكنة الجناحين ، وجهها له وهج مكتوم ، مطايب .

تحرك الهواء المعلن فجأة ، واهتز ، وهو يراها ، مفتوح العينين في رقدته ، مكشوقا ، لا مناعة له ، ترفرف بالجناحين المتدين ، وللهواء زفيف كبده عاصفة ، وهى تنقضّ دون أن تختلج لها جارحة ، وتحتشد بها الغرفة كلها ، وتمتلىء ، وتغص ، ثم تطبق عليه .

كان على الباب دق عال متصل . عندما نهض ، رأى أنه في فراشه ، في غرفته العلوية في ميناهاوس القديم . أحس العرق باردا على جسمه ، والبيجاما الخفيفة تلتصق به . كانت امرأة الغرفة بالفندق على الباب ، ووراءها العربة التقليدية الحرارة بعجلات ، المحملة بأدوات التنظيف وغيار المناشف والملاءات ، وفي يدها المكنسة الكهربائية . قال لها : الساعة كم ؟ قالت : الساعة اثنين بعد الظهر يايبه ، متأسفة ، صحيتك . قال : أبدا أبدا . تفضلي . فدخلت وأزاحت الستارة الداكنة الحمرة ، عن شمس بعد الظهر ، ودخل الحمام وتركها تشتغل .

كان قد جاء من الغورية في الحادية عشرة صباحا ، على ميعاد للعودة على الثالثة . قالت له رامة إنها فقط ستذهب للمصلحة تأخذ أسبوع إجازة من إجازتها السنوية ، وتعود على الفور . وقالت له : على فكرة . لماذا تذهب لمينا هاوس وتعود ؟ ماهذا ؟ لماذا لا تأتي بأشيائك ؟ فقال : صحيح . طبعاً . ماهذا ؟ سآتي . وترك الفندق .

قالت له : خذ هذه سلسلة مفاتيح الباب . لا ، لا ، عندي نسخة أخرى . أنظر ياسيدي ، هذا .. العريض اللامع الحاد السن . مفتاح الكالون ، أما هذا الصديء الغليظ ، فيرفع سنّ المزلاج من الداخل ، إلى أعلى . المفتاحان الصغيران لدولاب الملابس ، ودرج المكتب . خذ جربها .

أحس دفء السلسلة ، وهو يتناولها ، من دفء يديها . كان معلقاً بها رأسُ ثورٍ كريتِيٌّ صغير جداً ، من الفضة القديمة مسودةً حول العينين البارزتين ، وتحت الخطم الدقيق بشفتيه القويتين ، وعند منبت القرنين المعقوفين ذؤابتاهما المستنتان تدوران على الرأس وتمسكان به بصنعة في غاية الدقة .

لاحظ ، بسرعة ، أن نسختها ، هي ، ليس فيها رأس الثور .
قالت له : كَلّمت نبوية وأنا راجعة .. قلت لها إنك أخي وإن معك المفاتيح .
ورددت ساهمةً بحزن خفيف ، كأنما لنفسها : أخي ، ومعك المفاتيح ..
ثم رفعت نفسها من بحيرة الأسى الصغيرة الهادئة ، وأكملت ، تحكي ، بخفة :
— وقالت نبوية ، وعيناها الطيبتان الماكرتان كأنما تقولان لي : إنها فاهمة ، وعارفة ، قالت لي : « وماله يا حبيبي . ربنا يخلّي لك ، ويروق لك أيامك يارب ، ويجبّب فيك خلقه ياست رامة ياسكّرة » .

هل احتضنته عندئذ بخفة وسرعة وهي تهمس في أذنه : ربنا يخلّيك لي يا أخي ، يا حبيبي .
ودارت عنه ، بسرعة ، عيناها مبلولتان في لحظة من اللحظات النادرة التي تُسلم فيها نفسها إلى جيشان قلبها ؟ أم أنها اكتفت بهذه المرارة الطافية في همستها لنفسها : « أخي ، ومعك المفاتيح » ،
زُبد مرارة متطايرة على بحرٍ مكتوم ؟

وعندما خرجا أخذ يجرب المفتاحين ، يخلط بينهما أولاً ثم يعرفهما ، ويعرف أن دورة هذا إلى اليمين ، وأن دورة ذلك إلى اليسار ، ويجرب مرة أخرى ، وينجح ، وكان فوق الكالون الأصفر الجديد بشكله الفعال المحكم ، قبضة يد نحاسية قديمة ، مضمومة الأصابع ، مكورة بقوة كامنة ، ترتفع وتنزل لتدق الباب من مفصلة بطيئة التحرك .

كانت السماء الخريفية ، تداو من وراء تعاشيق جدار المشربية العريض ، ناعمة تريق ضوءاً ليّناً ، كأنها جسد أنثوي ، فيها سحابت خفيفة على المآذن العامضة اللدنة الحجر .

كان ممدداً على الصوفا العريضة ، تحت ذراعه وسادة طرية ، ليس عليه إلا قميص واسع رجالي الزيّ ، بنصف كم ، من نسيج خفيف دمث ، مفتوح بلا أزرار . أمامه كأس الويسكي المشعشع نصف ملىء ، وهو يقرأ ، بهدوء ، من كتابها الذي ترجمه إزراياوند لتصانيد الحب المصرية القديمة ، تهتر للشعر في نفسه مياه رقيقة إذ كأنه يسمع نفسه يحدثها عبر كل هذه السنين ومن خلال قلب كل هذه الحضارات ، ويجد صوته المهموس كأنه باللغة القديمة نفسها التي لا تحتاج للكلمات ، ومع ذلك فالكلمات ضرورية ومحتومة . كانت قد أخذت كأسها وذهبت إلى المطبخ وكأنها مازالت معه ، في قميصها الأزرق الفاتح ، المفتوح عن صدرها الوثير وبطنها المدور المسبوك وعمودي ساقها المتينتين ، كانت قد قالت له إنها ستطبخ له على الغداء بامية ، وأيضاً سيأكل أصابعه ورائعها ، وضحكا ، وكان البيت دفيئاً فيه بخار خفيف عبر مرثى ، وشيش ماء يغلي على الفرن الكهربائي الفيليس الكبير يصل إليه مع موسيقى دينية قديمة من عصر النهضة نزل بها حتى أصبحت خافتة جداً ولكنها تملأ الهدوء المبطن العميق الصدر ، ونداءات بائع جوال تأتي معها بعيدة جداً من وراء الجدران الحجرية الكثيفة ، لا تكاد تُسمع ، شجية وغامضة . وكان في جسمه رضا الراحة ، وأوصاله كلها مازالت تتذكر ، من غير تلهف ولا حدة ، انفجار النشوة الصباحي المبكر وسورة المتعة وحمياً العشق المفاجيء الذي أتى وذهب كعاصفة غير محسوبة وتركتهما ، من غير كلام ، من غير حاجة للكلام . خضر له أن هذه التعمّات الساجية كلها تتألف بشكل نادر ولكنه طبيعي جداً ، وأن كل قسوة العالم وسطوته قد سقطت في الخارج بل كأنها لم تكن قد كانت هناك قط ، وأن الجفوة والغلاظة والقبح قد فقدت كل خشونة أسنانها ، وأن تربصها قد أصبح ، على الأقل ، مؤجلاً ويكاد يكون لا وزن له .

جاءت إليه من الباب المفتوح مبتسمة ، مضرجة الوجه ، باذخة وطبيعية جداً في انكشافها للنور الصباحي الهاديء ، وجلست إلى قدميه تحت الصوفا ، فرعت كأسها بكأسه ، وقالت : تسمع تروح المطبخ ؟ تركت لك هناك رسالة ..

واستندت إلى المخدة ، براحة .

فدهش ، وألغز عليه طبعاً ، وقام نصف قومة ، وأحس نفسه يتسم ابتسامه متحيرة .
فقلت تحفزه ، بغموض : « قم .. اذهب هناك ، وسترى » وهي تنظر إلى يقطته ، بابتسام .

لم يملك ، وهو يقوم ، إلا أن ينظر إلى ساقها المتمدنتين وسمرة جسمها المرتاح . وجرى
حافياً إلى المطبخ . البلاط الرخامي القديم دمث وحلو تحت باطني قدميه .

كان المطبخ أكثر دفئاً ، وفيه بخار خفيف ، وأنيساً ، وفيه أمن وراحة ، ونشيش الغليان ،
وعبق رائحة التوابل والطبخ يفتح النفس ، كل شيء كان بيتياً جداً . دار يبصر على الحائط
الضخم الحجر ، والطاقت المحفورة فيه ، بأباريقها النحاسية ، والدواليب الخشبية الريفية الطراز ،
يبعث عن رسالة ..

كان زجاج النافذة العريضة المطلة على الحوش المغلق ، مغيثاً بالبخار . ورأى وسط
الندى الخفيف كتابتها إليه ، بإصبعها ، بخط كبير طفلي « أنا أحبك » وقد بدأ البخار يغشى
أطراف الحروف الكبيرة الصافية بالبلل ، فبدأت تتسايل قليلاً ويرحف الغبش الغائم إلى صفائها
المقطوع .

فكتب بإصبعه على الزجاج ، تحتها « أنا أحبك أكثر » وكتب اسمه .
وجرى راجعاً إليها ، وهو يقول لها : تركت لك الرد : أنا أحبك أكثر .
ولكنه لم يسمح لها لا بالرد ولا بأن تذهب لترى رسالته .. الحنى فضم شفيتها اللتين تهمان
بالرد ، بشفتيه ، وكانت تموء تحت قبلته بالرد المكتم : « أنا أكثر » ، وضع كأسه على المائدة
النحاسية بحركة خلفية من ذراعه وهو يحيطها بذراعه الأخرى . وكانت يقطته الآن كاملة ، ويحس
ذراعها خلف عنقه فيهما طراجة ولدونة ، بطنها تحتها ، وثدياها في حضنه . نسيا تبادل الكلام ،
وكانت المتعة ، دون كلمات ، متطاولة ، متقلبة الأدوار .

عندما عادا إلى المطبخ معا ، كانت اللحمة التي تغلي في صلصتها قد نضجت جداً
ورائحتها المحموشة تعدُّ بلذةً أخرى ونعمة أخرى . وكانت الكلمات على الزجاج قد ساحت بنداوة
البلل الدفء ولم تبق منها إلا آثار باهتة . كلماته مع ذلك أوضح قليلاً ، والندى الذي عليها
أقل ، قليلاً جداً ، بما لا يُحس ، مما يحيطها . قرأت نظرتة ، وفهمتة ، وقالت بسرعة :

— لم تكن فقط كلمات علي زجاج النافذة يا حبيبي .

قال ، وفي بقعة بعيدة بعيدة من داخله سؤال غير متشاكل ولا منطوق ، وإجابته غير معلومة الآن : أعرف . أعرف يا حبيبي .

هذه الهدية منها إليه ، لم تكن منتظرة ولا سبب محمداً لها . واضحة وصافية . تتبخر وتتطاير ولكنها تجعل قلبه ، الآن ، أخف ، وتأتي إليه ، بابتسامة ، في صمت الليل ، فيسعد كطفل . ولا ينسى الرسالة الطفلية . نقاؤها دائم ، لا تقوى عليه الغير ومحن الشوق وشردة الأسئلة .

قال لنفسه : « الحب دهن في لذة ، وحبيرة في نعيم » .

ثم قال : الحب الذي لا جدوى فيه

ليس للنعمة من جدوى .

ثم قال : الحياة مصنوعة من حقائق الرحمة الصغيرة لا من أوهام الميثبات الكبيرة ، قال ماذا يجديها أنني أسألي إليها ؟ أنني أسأل في كل لحظة تقريبا ، دون سؤال : « ماذا تفعل الآن ؟ ولم تهجس خواطرها ، حتى ؟ » أنني أصحو من النوم فأقول : « صباح الخير يا حبيبي » وكأنها تسمع تحيتي وتسمع محبتي ؟ ماذا تجديها — وتجديني — صبرات كأنها مراهقة ثابتة ، متأخرة جدا ، وأنتي أحارب شوقي إليها ، وأصدته ، وأخفيه أيضا عن ذات نفسي ، لأنني لا أحتمله ؟ وأنتي أنساه ، كل يوم وأذكره ؟

قال : أين عمل المحبة ، وتعبها ؟

عندما تتيقظ في الصبح ، كانت نقلتها إليه ، من نومها ، إقبالا عليه ، وحنانا وطلبنا للحنان في الوقت نفسه . كانت قريبة من باب المطبخ في الممر الطويل ، وهو في الحمام ، عند البوابة الأخرى ، المقابلة ، من البيت . وقالت له : عندما تقترب أن تفرغ من حلاقة ذقنك ، نادني فقط ، حتى آتي اليك بالإفطار ساخنا . كانت تشرب قهوتها باللبن ، هذا كل إفطارها ، تجلس أمامه ، ترعاه وهو يأكل البيض المقلي بجوهريته الصفراوين الذائبتين وبياضه المتشعب

الأطراف بلونة ، وعليه الجبن المتبدل بنعومة حارة ، ولعقتي قول ندمس بزيت الزيتون والكهون ،
والتوسست بالزبد وعسل النحل ثم الشاي باللبن تنقب، مناسبة القهوة التركي المضبوط .

اكتشف ، وهو يصحو من النوم ، أنها نيقظت قبا . نخرج بسرعة ونادها ، وجاءه
صوتها من الغرفة الكبيرة : يا صباح الخيرات . أسرع إليها حافيا ، فوجدتها جالسة على الأرض ،
وظهرها إلى الباب ، اقترب ، وانحنى عليها من الخلف . فرؤوع إذ رآها تمسح حذاءه ، بحركة
هادئة منتظمة ، بخوذة صفراء ، نظيفة ، كثيفة الوريه . تدهور قلبه ، وسقط بكل جسمه إلى
جانبا ، يمسك بيدها بقوة : ماذا تفعلين ؟ فتقاومتها يدها ، وأصرت . وقالت له ، بعينين
محتشدتين : ماذا ؟ أأست أحبك ؟ أحب أن أعمل لك هذه الأشياء الصغيرة . هذا أحبه ،
فلماذا تريد أن تترمني منه ؟ كان صحت ثقيله ليديها أكبر مما يطيق ، لكنه استطاع أن
يتحمها .

انفلتت عنه ، في أول الليل ، فلما تأخرت عنه قليلا ، ذهب يبحث عنها ، ووجدتها في
الحمام ، كانت قد أخذت قبيصه ، والجورب ، والفانلة ، ومنديله ، ووضعها في طشت بني
صغير من البلاستيك ، نقتها في الماء والأومو ، وكانت تدعكها قليلا حتى ترغى ، وبياض الرغبة
على يديها ، وملايسه ، والماء الذي راح لونه يدكن قليلا في البلاستيك البني القاتم ، قالت وهي
تلتمت إليه : سأتركها الآن ، حتى الصبح ، حتى تذهب رائحة العرق . وقالت : « أنا صحيح
أحب رائحتك .. لكن .. » وهو واقف يرقبها ، مشلول الحركة ، صامتا ، لا يكاد يعرف ماذا
يقول ، وماذا يفعل بنفسه . كان كرمها يحاصره . كانت يداها المكتنزتان اللتان يعرف هو كل
مافيهما من حنان ، ومقدرة ، يغمرها زبد الصابون الأبيض ويسيل ، وتنفجر الرغوات الصغيرة
من غير صوت وتدوب على أصابعها الحاذقة التي تعرف كل جزء من جسمه وتعرف كيف
تسكله ، والتي يريد الآن أن يقبل أناملها إصبعاً إصبعاً ، وأن يضحها إلى قلبه ، بمائها ،
ورغوتها ، وتعجب محبتها .

عيناى الآنى حجريتان ، وجافتان .

أذكر الشوارع الهادئة الخاوية في مصطفى باشا ، الشوارع تصعد ، برفق ، وتهبط بي ،
وتدور . وقد خرجت في أول الفجر من المبنى الذي أخذته هيئة الآثار أمام الثكنات . كان
العمل في التنقيب يدور عندئذ ليلا ونهارا ، استعدادا لحضور الوزير الجديد ، لافتتاح الكشف

الجديد ، في أعياد ٢٣ يوليو ، من جديد . وكان المبنى مظللاً بالشجر الكثيف الذي اذني ما تكاد تستبين خضرته اليانعة المبلولة . والبحر قريب ، صوته يتردد من وحدتي . وأذكر الدموع غير المطلوبة وغير المفهومة والتي لاسبب محدد لها ، تسيل بصمت ، وأحس وحيهي تحتها صدخريا وجامدا وأنا أسير بين الجدران المكلاة بالنباتات والأغصان الوارفة الرطبة ، الأبواب الحديدية المشغولة تنفتح قضبانها عن حدائق غامضة في أول نور السماء الصحو ، الغيش بالندى الخار الملح .

أذهب إلى مكتب التليفون والتلغراف الذي يسهر طول الليل ، يضيء فيه مصباح فلورسنت شاحب في الفجر ، عليه ذباب ناظم . والموظف متلفف في الباطن الميري الداكن الزرقة ، ذقنه خضراء ونظاراته الطيبة السميكة مدورة ، ينظر إلي نصف نعيان ، وأنا أطلب الرقم . يدير الرقم ، بصمت ، ثم يقول : الرقم لا يرد . ويترك لي السماعة أضعها على أذني لأتأكد . ويأتي الرنين من القاهرة ، طويلاً ، وملحاً ، ولاداً . كنت أتصور أنك قد عدت من رحلتك إلى إدفو ، قلبت إيتها لن تستغرق أكثر من أسبوع . وطلبتك من السويتش ، في مبنى الهيئة ، ليلتها ، عدة مرات . وطلبت من عامل التليفون أن يتأخر معي قليلاً ، بعد ميعاده الرسمي ، وكان الرجل يجني فبقى حتى الواحدة صباحاً ثم لم يطاوعني قلبي أن أبقيه بعد ذلك فمضى إلى بيته وأهله ، وترك السنترال في المبنى ، وانقطع الخط . لم أتم ليلتها . لماذا ؟ وخرجت في أول الفجر أطلبك . ومرة بعد مرة يأتي الرنين ، فاسياً ، يتردد صده في البيت الذي أعرف دفئه ، وغيش الفجر فيه ، ولاد . وتدور بي الشوارع وهي تستضيء قليلاً قليلاً ، والسماء تصحو ، جامدة وغير رحيمة ، وساكنة . وأعود إلى مكتب التليفون ، مرة بعد مرة بعد مرة . يقول لي الموظف : على الله تحب هذه المرة . نجرب ثاني . وهو ينظر إلي بشيء من الضيق وشيء من التساؤل وشيء من التعاطف والمشاركة أيضاً ، وقد أحس إلحاح الطلب ، وأدرك ، بغموض ، دلالة . قلبت فقط إن المسألة عاجلة جداً ، وأعمل معروف . اصبر معي . ظل الصمت طول هذا الفجر الغريب هو الإجابة الوحيدة . والدموع الغريبة .

قالت له : تأخرت يوماً واحداً . واحداً فقط . وليس هذا جديداً علي شغلنا . فماذا كنت تظن ؟ كنت تظن أنني أسرح على حل شعري .

قال : أنا أيضاً لا أفهم . كأن حياتي كلها كانت معلقة بأن أحدثك ، فقط أسمع صوتك في هذا الفجر الغريب .

قالت له ، برفق ، وبشيء من الخضيب : أنت مجنون .

قال لنفسه : لماذا ؟ لماذا يحدث لنا ذلك ؟

ورد على نفسه : ليس هذا سؤالاً ، بالطبع . هو مجرد صرخة . وما أكثر الصرخات ، وأوجعها . وما أقل قيمتها . صرخة تصدر عن الروح ، عندما تصبح الروح ، في المنجر ، حيواناً مضروباً .

وقال بسخرية خفيفة : وارتجفتا للحيوانات المضروبة . مضروبة منذ وُجدت حتى تموت . ولا ينتهي موتهما .

وقال : أعني أن هذا كله قضية مفروغ منها . وفارغة ، مكرورة . واقع رث قديم مازالت تبدي فيه وتعيد . دورانٌ وحشٍ شيخ ، مشيرٌ للسخرية قليلاً ، بلى جسده في قفصٍ لا قضبان فيه ولا باب .

وقال : اصرخ . اصرخ ، ماشئت . لآمانع من ذلك طابعا ، ولا معنى له كذلك . أنت - أنت وروحك المضروب إذا شئت - معا . حيوان مضروب ؟ طيب ياسيدي .. ما أكثرها .. ألسنا جميعاً مضروبين ؟ فماذا - يعني - في أن تصرخ ؟ أو أن تصمت ، من أجل ذلك الأمر ؟ سيان . ماذا في ذلك كله ؟

يجيئني نداؤك ، وأنت نائمة ، بصوت شائخ ، طفلي : ميخائيل .. أين تذهب ؟ ويشق النداء قلبي شقين لا الشام لهما .

ومع ذلك ، فعلى شفتيك ، أنت وحدك ، اصطاح مع اسمي . لاصلح لي مع غرتي عن نفسي .

إلا ولحم ذراعيك حول عنقي ، وصدرك الناعم في حضني ، وأنت تنادينني باسمي ، الحب يتقطر من شفتيك . في غورك وحده أعرف أنني أنا ، ولست غريباً عني . ولكنه قال : إذا هربت من الرحمة ، فالرحمة سوف تهرب منك .

كانت يصمت عنها ، وهو بعيد عنها ، في اسكندرية . ولا يكتب ، ولا يتصل ، ولا يتكلم ،

نوبات فرار إلى الأمام ، متكرر ، دون تفسير . كأنك يعاقب نفسه .
قالت له : اكتب ، ولو مرتين في السنة . اجعلها امرين .. بدلاً من مرة واحدة .
قال : هذا في مقتل .
قالت : نعم . أليس كذلك ؟
قالت : كل يوم أنتظر منك كلمة . كل يوم . ولا شيء يأتي .
قالت : عندما دخلت ، بعد كل هذا الصمت ، كنت خائفة من أن أنظر في عينيك .
كنت أخشى ما قد أجده فيهما .

فأرتج عليه تماما . ماذا كان يمكن أن يقول ؟ كان غضبها يفور في عينها . ومن رفقها
به ، وحنان قلبها ، كانت تكتم الغضب عنه فيقع في تلك الهوة الغائرة المعتادة التي لا قاع لها ،
من الصمت الكامل ونفاد الحيلة تماما . ويقول لنفسه : يا أخي تكلم . افعل شيئا . وهو
يتدهور ، لا إملأك له لنفسه .

قالت له : طلبتك في اسكندرية ، على تليفون الصلحة العمومي ، ثم على رقم المدير ، ورقم
الاستراحة ، ورقم المتحف ارياني الروماني . واحداً بعد الآخر ، وأنت غير موجود . كنت
أعرف . قلت لنفسي : « حبيبي له أشياء مثل هذه . عنده تكات كهذه » . كنت تعرف أنني
سأطلبك ، لماذا تفرّ مني ؟

قال ، بعد لحظة صمت وتردد : أنا عندما أفرّ منك ، أفرّ إليك .
قالت ، ضاحكة ومداعبة وجارحة بعهد قليلا : يا حبيبي على هذا .. ! يا سلام .. !
دعك والنسي من الكلام الحلو الذي لا يؤدي ولا يجيب . ألسنت أعرفك أنا ؟

قال ، صامتا ، لنفسه : هل تعرفني ؟

قال لها : خمس سيدات ملقى بهن في وسط الرمل ، في صحاري سيتي . الحلبي
والمجوهرات الذهبية اختفت . المومياءات الخمسة مصفوفة على أرض الصحراء ، بانتظام ، في
انتظار الشحن إلى الخارج . من العصر اليوناني في الفيوم ، إلى الأرض بالقرب من الفندق الجديد
الذي يعيش على أفواج السياح المنقولة بالطائرات والأتوبيسات المكيفة ، عبر المطارات والجمارك

والمضاعف الجماعية ، إلى أسواق « العاديات » والمزادات السرية في أوروبا وأمريكا واليابان . تباع السيدات وتُشرى ، بعد موتهن بألقى عام . قال لي ، عم شعبان ، ببساطة : ترى ماذا فعلن . هاته السيدات ، حتى يرين ، بعد السنين الطويلة ، هذه الفضيحة على الرمال ؟ هذا المنطق لايقاوم طبعاً يا عم شعبان . ولكن أين المنطق في أى شيء ؟

« الأحياء الشعبية بالاسكندرية كغيط العنب وكرموز وغبريال قد مُنيت بعدد وافر من الكلاب تحتل كل شارع وزقاق .. ومايكاد الناس يستسلمون للنوم حتى تبدأ وردية الكلاب » .

أما زينب عطية ، إخصائية اجتماعية بالجيزة ، فتقول :
« أبكاني اليايمش وانهمرت دموعي مدرارا ، عندما رأيت ، وأنا أزور إحدى صديقاتي صاعدة درجات السلم إليها ، أطفال إحدى الأسر الفقيرة يبحثون في قشر اليايمش على باب الشقة المقابلة لهم ، لعلهم يجدون ما التصق بقشرة أو بأخرى ، لكي يذوقوا طعم اليايمش » .

حضرة المخترم الأخ العزيز ميخائيل افندي قلديس أهدي اليك أطيب تحياتي وأتمنى أن تكون مع العائلة في أطيب صحة وعافية .
الرجاء إفادتنا عن أحوالكم في أحميم وطرق المعيشة عندكم وشدة الحر طبعاً ، والعلاقة مع الجيران . وهل أن والدك العزيز سافر معكم أم لا من شدة الغارات على بلدنا المحبوب .
واليك أخبار الغارة التي حدثت يوم الاثنين الماضي الموافق ٢٣ يونيو ، وعدد القنابل ، إذا أمكن حصرها ، والمناطق التي ضربت في هذه الغارة راغب باشا وغبريال وغيط العنب ، وهذه القنابل كلها محرقة ماعدا قبلة واحدة متفجرة وطورييد : قبلة على منزل ستي بغريال في المنور الخلفي وانفجرت وأحدثت حرقاً ولكنها أطفئت بمعرفة الجيران ولم يكن بالمنزل أحد ولم تحدث أى خسارة مادية .

قبلة على قمة منزلنا . ومايزيد عن عشرين قبلة في ترعة المحمودية .
اثنين في شارعنا ، واحدة خلف منزل ستي وأخرى بعده بثلاثة بيوت .
خمس قنابل بشارع الترامواي من الكوبري إلى تقابل شارع ايزيس بشارع راغب باشا .
واحدة على مخازن الخشب على المحمودية وواحدة على كوبري راغب باشا ، وأخرى على وابور الدقيق الذي يوجد على المحمودية بعد الكوبري وليس الذي أمام منزلكم القديم .
وقبلة متفجرة على نقطة بوليس غربال وذهب ضحيتها الجندي المنتدب للحراسة بأن قطعت رقبتة .

قنبلة على منزل خالتي بغيط العنب ولم تحدث خسائر في الأرزاح .
قنبلة محرقة بغيط العنب أحدثت حريقا في إحدى الحظائر ، والتبن ، وذهب ضحيتها ٤٧
جاموسة .
أخرى على الخبأ .

كما تعرّض حتى أميروزو إلى قبائل الطائرات هذه اليلة وحدثت عدة حرائق ولم تلب فرقة
المطافئ نجدة الأهالي لقطع المواصلات التليفونية .

وهذا ما أتمكن من سرده لك الآن . وسمعت أن المدرسة ستتحول إلى مستشفى . منتظر
الرد بفارغ الصبر ولا مؤاخذه لركاكة الأسلوب حيث أنني لست أدبيا مثلك ، وعوض الله في
مخزنك الذي فيه مجلات الاثنين واللطائف المصورة والمقتطف والهلل وعشرين قصة وغيرها الذي
كان في منزل خالتي .

بلغ سلامي للجميع وفي الختام تقبل تحياتي .
صديقك المخلص
الاسكندرية في ٢٤ يونيو ١٩٤١
فرنسيس أنطونيوس

قالت له : قم البس شيئا يا حبيبي . عندنا زائر . سوف يأتي بعد نصف ساعة .
قال : من ؟
قالت : لن يستغرق أكثر من ساعة ... ساعة وربع بالكثير .
قال : من ؟
قالت : مدرس السيرانية .
قال : السيرانية أيضا ؟ لغة أخرى مقدسة ؟ كم من اللغات المقدسة تعرفين ؟
قالت : أبداً . عن لي أن أتعلمها . هكذا على كبر . طلع في دماغني لازم أتعلم
سيرانية .

قال : لم أكن أعرف أن عندنا من يعرفها ، دعك من أن تعلمها .
قالت : توني ؟ طبعا يعرفها ، وخبير بها . أنطون أفيسيان . لاتفرح . مصري بن مصري
أبا عن جد . ومدرّس في الجامعة أيضا . ولكن أرمني . أنت تعرف الأرمن . وحارب - يعني
كان في الجيش على كل حال - في ١٩٥٦ أيضا . اختصاصه الأصلي هو العبرية يُدرّسها في
عين شمس . السيرانية هي هوايته . كان أبوه عنده محل اكليشيات ، وحفر وجرافيك ، في

الرويسي . وما زال العجوز يشتغل في دكانه القديم وراء الأريكة ، زرتة هناك في حارة جنب المطابع القديمة ومخازن الورق والكرتون .. وصاحبي جدا الروح بالروح ..

قال : من ؟ العجوز ؟

قالت : الاثنين .

وترددت لحظة لم قالت : أريد فقط أن أنبهك حتى لا تفزع مرة أخرى . هو من نوع خاص .. ليس لأن عند أي شيء ضد هذا النوع الخاص يعني ، أبدا ، على العكس . هو في غاية اللطف ، ومهذب جدا ..

وتردد هو في أن يفهم ، وعندما دخل ، وفتحت له الباب ، هتفت به : توني دارلنج .. واحتضنته بخفة وقبلته على خده .. وهي تقدمه له وتقول في نفس الوقت : ماذا أستطيع أن أقدم لك قبل الدرس ، بسرعة ؟ شاي ؟ سكوتش ؟

سلم عليه بشيء من الخرج سرعان ما انجباب ، وجلسوا يشربون ، لحظة ، قبل الدرس .

دهش ميخائيل لأنه يرى ، ربما لأول مرة ، عن كثب ، مبصداق النمط . طبعا كان قد لاحظ ، هنا أو هناك « هذا النوع الخاص » . ولاحظ هكذا من بعيد ، أنهم غير واضحين ، وكأنهم يتسترون مما تعتبره الثقافة السائدة خللاً يكاد يُشفى على الجريمة ، أو على الأقل ما يقترب من العاهة المثيرة للسخرية والخرج . لكن هذا الذي يجلس أمامه الآن هاديء ومتالك نفسه تماما ، بل لا يكاد يعي بذاته ، برىء تماما . فلعل في انتائه لثقافة فرعية ، داخلية وضيقة ، ما يحميه أو ما يضرب حوله نطاقا من الأمان يلوذ به ، من غير أن يدري . كان ناعما جدا ، لا يصدّق . وكان أحيانا ، أثناء الكلام والتعرف ، يرفع يده ليسوى خصلة من شغره المنهمر ، بحركة نسائية لانخفاء فيها - كأنه كاريكاتير . ولكنه جاد جدا وطبيعي جدا ، وبيتسم بحلاوة مفرطة ، ويهتز في جلسته أحيانا دون أدنى وعى بأن في ذلك كله شيئا غير معتاد . كل المواصفات هناك ، ولكنه مع ذلك كان حاد الملامح ، في وجهه رجولة كأنها من تماثيل الرومان المتأخرة ، صلبة الخطوط وإن كانت غائمة قليلا كأنها على وشك التسايل والسقوط ، ولكنها تظل هناك بمجرد إرادة خفية ملتبسة .

تمهضا إلى مائدة الطعام المستديرة الصغيرة في الركن القبلي ، من وراء العمود الرخامي ، في آخر القاعة الكبيرة ، يدرسان نهما صغيرا من الأبوكريفا غير الذائعة ، وهو يسمعهما يرددان الكلمات والجمل ، ويصحح لها نطقها ، ونحوها؛ فتردد وراءه بطلاعة واجتهاد . كان يعرف كيف تستطيع أن تمحو داتها ، وتسلم نفسها ، وهي تتعلم . بينما هو قد التقط كتاب إبراهيم نصحي عن تاريخ البطالمة ، ويتعرف من جديد إلى شارع بانوب ، والمسرح الكبير الذي كان يقع في مكان المستشفى الأميري - المستشفى الجامعي الآن - ورأس لوخيلاس عند السلسلة ، حيث عثر على التين ذات يوم ، ومعبد قيصر ، والمركز التجاري الأميريون ، ودار الموزيون والمكتبة والسيرابيوم، وتلّ البانيون في كوم الذكة إحلالاً للإله بان، حيث هتف في قلب المظاهرة الكبيرة: « يسقط الاستعمار والاستغلال ، يسقط عبد الهادي وصديق عبد الهادي » ومزق صور فاروق ، معالم مدينته القديمة الجديدة المحفورة في وعيه ، متراكبة الطبقات . وعند دقة الساعة بالضبط نهض مدرستها صديقتها ، واستأذن ، ومضى ، بعد أن قبلها قبلة صغيرة على الخد .

بعد أن أغلقت الباب وراءه ، جرت إلى ميخائيل وهي تضحك ، رقبته في فمه ، وقالت

له :

— مارأيك يا حبيبي ؟

قال : لا أكاد أصدق . نموذج ناطق . وكامل . كأنه مصنوع ، وليس موجودا . لكن طبعا واضح أنه ذكي جدا ، ومهذب جدا كما قلت .

قالت : والمهم أنه يقبل نفسه على علاته أو على غير ذلك ، ببساطة ، وهو سعيد . « الأنخت توني .. » ليس في عظامه ذرة شر وله صديق ، اسمه طرزبان ، أرمني طبعا ، ومن طنطا ، رأيتهما معا ، ليتك تراهما ، في غاية الانسجام معا . الآخر نموذجي أيضا ، أسمر وقوي خشن قليلا ، أظنه مدرس علوم في التوفيقية الثانوية ، عقلية علمية عبقرية . وكما ترى من الاسم عائلته ترزية بلدي افرنجي ، من أيام العثمانيين ربما .. معذام أهله سافروا الآن ، وذهبوا بعد الحرب مباشرة عندما فتح باب الهجرة إلى أرمينيا السوفيتية ، ذهب لزيارتهم أخيرا ، ولكنه صمم على البقاء هنا . ابن بلد حقيقي أيضا .

كانت قد ردت مزلاج الباب ، وتخففا من ملابسهما ، وهو يتحدثان ، وكان لصنع

الحب ، بعد ذلك ، طعم خاص .

وحدث أن آخر النهار كان يوشك أن ينجاب ، وهواء الصحراء ، رخيا ، صافيا ، مرخاً للصدر بما لا يُتصوّر ، . بعد الحر ، كان يأتي إليه من نافذة الاستراحة المفتوحة في ماريوبوليس ، وأمامه فنجان القهوة التركي المضبوط ، عمله لنفسه ، والماء المثلج ، والسيجارة الهادئة ممتعة بعد التدخين العصبي الطويل طول النهار أثناء العمل . وكأنه كان قد اتخذ نوعاً من القرار السلبي فلم يكن يريد أن ينهض ليضغط على زر النور . كانت هيئة الآثار قد مدت الأسلاك إلى الموقع ، وكان عنده الثلاجة والراديو والتليفون ، أما المياه فكانت سيارات الصحاري تأتي بها كل صباح ، من معسكر الجيش القريب ، باتفاق خاص . ولكنه كأنما كان يُؤثر أن يزعم لنفسه أنه في الصحراء . كأن نوعاً من حصار المدينة يقترب منه فيصده دون جهد . وكان يحس قلقاً غير متحدد المعالم ليس إلا الهواء الصحراوي يخففه .

كان الرئيس محمد ، وعماله ، قد عادوا إلى خيامهم الحكومية غير المحكمة ، وفرشوا أمامها ، وأوقدوا نيرانهم الصغيرة التي تهتز ألسنتها الدقيقة المدخنة تحت كيزان الشاي المتخذة من علب المرني واللبن المجفف ، أمام براميل الماء المستديرة المضطعة مغطاة بألواح من الخشب . ولغظهم وحديثهم يأتي إليه عبر الهواء النقي المخلخل مخففاً وفيه فجوات يطير بها الهواء .

سمع صوت عجلات سيارة على الطريق ، من بعيد ، من وراء مبنى الاستراحة . خطر له : من الذي يأتي في آخر النهار ؟ عربة التموين ؟ ليس هذا موعدها الأسبوعي .. أم لعله المفتش الذي هو بالتأكيد ليس مفتش آثار ؟ مرة أخرى ؟ ما اسمه ؟ نسي .. ذكره بوكيل النيابة القديم في الاسكندرية . كان الرجل مهذباً جداً في زيارته الأولى ، فالمفروض أن ميخائيل يعلوه في السلم الوظيفي درجات ودرجات . ولكنه تقريبا ، لم يكذب يخفي عنه مهمته الحقيقية . احتفظ ، فقط ، بأقل المظاهر إنقاذاً . لواء وجه التنكر الذي ليس فيه حرص كبير ، في الحقيقة ، على التنكر .

كان مازال يرشف آخر قهوته ، ومازال هادئاً ومتعباً بنوع من التعب القَدري ، عندما ظهرت السيارة الفولكس البيضاء العتيدة . لم يكن ليخطئها . كأنه يشق الآن رائحة البنزين وما يشبهه اللبن المتخثر في جوفها الحميم القديم . فنهض ، بلهفة . ماذا حدث ؟ لماذا تأتيه حتى هنا ؟ وفي آخر النهار ؟ وكان عم شعبان قد انفصل عن الصعايدة البعيدين الذين ابتدأت جماعاتهم الصغيرة المتقاربة المتمزقة ، من بين فجوات الخيام ، أن تظلم وتزول حدودها ، وجاء

ينجري ، بحركة ثقيلة ، حاملاً بندقيته الحكومية العتيقة الطراز على كتفه ، إلى ناحية العربة التي ألقت أنوارها الأمامية الكاشفة قوية ومحددة ، فجأة ، في نور الغروب الذي يختفي سريعاً ، فيشُبُّ رملاً الصحراء ، والطريق الحجري ، وحواف الحفر البعيدة ، إلى التور في حُزْم هذا الضوء غير الساطع الذي يفرش على المشهد كله بعداً جديداً

وقفت السيارة أمام الباب . وراها من النافذة ، تدير مفتاح الكونتاكِت بحركة كفاء حاسمة ، فصمت المحرك ، وأحس هدوء الموقع يعود من جديد ، بعد الطنين وجرش العجلات للحصى الدقيق على الطريق . يهبط عليه ، حسياً ، مطلوباً .

نزلت من السيارة ، رأى جسمها المليء المتزّي المتحرك بقوة وحيوية داخلية ، وفستانها الخفيف واسع يطير به الهواء فيلتف حول ساقها بانسياب ، ورأى أحمد ينزل من جانبها ، ينحوله ، وملابسه الأنيقة المحبوكة عليه ، وشعره الأبيض المصفف بعناية ، ولم يستطع أن يرى تفاصيل وجهيهما وهما يتجهان إلى الباب ، صغيرين فجأة في سعة الصحراء ، كان آخر نور النهار الخافت الذي يكاد ينطفئ يأتي من خلفهما ، فيجعل منهما قائمتين قائمتين ، من وراء السور ، ليس فيهما وضوح . فقط أحمد كان يحمل حقيبة يد مما يتخذ للسفر ، متوسطة ، منبعجة قليلاً من جانبيها ، وكأنها ثقيلة في يده ، ويسير ، بحرص ، بخطوات ليست بطيئة بل دقيقة الحساب .

ولحق بهما عم شعبان ، لم يكن يهيج من الجرى ، كأن في جسمه القضيف الجاف قوة خاصة .

كانت هتفات الترحيب وأهلاً وسهلاً ونورم الموقع تختلط بالأسئلة عن كيف هو ؟ وكيف يسير العمل ؟ وهل تقدم الحفر ؟ وما أخبار الطريق التحتي المثير للاهتمام ذلك الذي يقع تحت أنصاف الأعمدة المكسورة ، أنت حدثتنا عنه ؟ وياعم شعبان أعمل ثلاثة شاي ، أم تأخذوا سفن أب ، كوكا ؟ مثلجة والله ، وترد الروح ، كما تقولين . لا . . شاي كفاية ، وأنه ليس ثم جديد حتى الآن في الحفر ، فريق الأثرين ورئيسهم الذي يدرّس في الجامعة يسافرون كل يوم بعد الظهر إلى الاسكندرية ، قالت وأنت الذي تهوى الشقا والغلب في الشغل ؟ قال وأهوى الصحراء أيضا ، وحياتها الغامضة ، ثم أن السرداب خطر وعمل الترميم فيه دقيق ، ولكن الموسم مازال في

بدايته وأنا متأكد أنا سوف نجد أشياء مهمة ، يعني لا مهمة ولا حاجة ، هل هناك أشياء مهمة ؟ ولكن على الأقل جديدة . ولا ياشيخ لا تقل هذا ، مهمة طبعاً ، وهكذا وهكذا .

كان الشاى قد جاء في الأكواب الزجاجية الثلاثة على صينية صفيح يعرف أن عم شعبان قد استلفها من عم محمد رئيس العمال ، فليس في الاستراحة كلها صينية . وقام يضع تُحَرِّط السكر المكعبات الذي جاء في علبة صفيح من علب المرني الفارغة ، اثنين لها وخمسة لأحمد ، وقال لعم يا شعبان أن تفضل انت يا عم شعبان وتسلم إيديك وكتر خورك وأنه سيناديه إذا احتاج إليه . فمضى الرجل ببطء هذه المرة كأنه لا يريد أن يمشي . وسأل عن مصطفى فأجاب أحمد باقتضاب من لا يريد ، بوضوح ، أن يخوض في التفاصيل ، إنه بخير وإنهم على اتصال ، فقط .

في فجوة الصمت الوجيز الذي كان لا بد أن يحدث ، جاء الآن الوقت للإفصاح عما جاء بهما . كانت رامة ، بمفاجأة حضورها وبثقة هذا الحضور ، قد أتت وعيه . وكانت هي التي بدأت مباشرة . قالت : اسمع الآن . دون لف ولا دوران ، ودون أن نخبط حول الشجر كما يقال ، بل ننفذ إلى الموضوع مرة واحدة . نحن قد قررنا . اتخذنا القرار ، ووضعنا كل الترتيبات ، نحلاص . ولم يبق إلا تحديد اليوم . وهذا سيتحدد . وسيكون على أى حال خلال أسبوع واحد ، لا أكثر . لم يعد هناك الآن مجال للنقاش ولا للتفكير يامبخائل ، لا للنظريات ولا لدراسة الاحتمالات ، ولا للعودة إلى الأصول الفلسفية . هذا كله فعلناه ونخلصنا منه . وقررنا . طبعاً لا نريد ولا يريد أحد أن يدخلك أنت في الموضوع إلا بقدر ما تريد ، وعندما تريد . هناك فقط قدر من التوريط - التوريط بالمعنى الصّحّ ، الحلو - نطلبه منك . وأنا واثقة ، نحن كلنا على ثقة ، أنك لن ترفضه .

سكنت لحظة ، لتلتقط أنفاسها كما يقال ، ولتحكم بنظرة سريعة على استجابته . وكان أحمد صامتا ، مطرقاً برأسه ، لا ينظر إليه كأنه لا يريد أن يتدخل . ثم استأنفت :
- أن تحتفظ بهذه الحقيبة . فقط . عندك . حتى يأتي أحد منا لطلبها . ستعرف من الذي يأتي طبعاً في الوقت المناسب . هذا كل شيء .

قال بهدوء ، كأن الأمر كله لاصلة له به ، وكأنه يسأل سؤالاً نظرياً بحتاً :
- هذه إذن هي الهدية التي سألت عنها ؟ لم يأت بها أحد آخر . جئت بنفسك .

ولم يجد أنه من الممكن ، حتى ، أن يناقش ، أو أن يسأل عن شيء آخر . فقط حكى لهما عن المفتش الذي جاء يوم الأربعاء الماضي ، وقال إنه لم يستطع أن يقول لها عنه في التليفون ، ربما كان هذا قراراً منه غير سليم ولكنه كان يحس أنه يتكلم في التليفون ، على المَلَأ ، في العراء . وكان هذا على أى حال هو القرار الذي اتخذه ، هو ، وماعاد يمكن أن يناقش الآن ، هو أيضا . بل انهم أن نتصرف ، فقط ، على ضوءه . وَصَفَ شكله ، وسلوكه ، ولم يقل ، حتى ، ما يظنه بل ما يكاد يوقن به ، عنه . ولكنه ماكاد ينتهي من حكايته حتى أحس أن الموقف قد تغير على الفور . كانوا يواجهون ، هنا ، مأزقا . وساد صمت قصير آخر .

قال أحمد : نرجع الآن بالحقيبة إلى مصر ، إذن ، مهما كان ، ونتصرف من هناك .

وقالت رامة : صحيح . تصوّر أن حضرة المفتش - مفتش الآثار آخر موضة هذا - طَبَّ على الموقع الآن أو غدا ؟

وقال ميخائيل : أو تصوري لو أنه كان مازال هنا ، عندما شرفتم ...

فقالت إنها كانت ستكفل به ، وضحكوا جميعا بتوتر . ولم يسأل أحد كيف كانت ستكفل به .

وكان هو الذي تقدم بالحل البسيط العملي الذي أبرق في ذهنه فلم يناقشه مع نفسه ولا معهما ، ولم يفكر لحظة واحدة في صحته أو عطبه .

قال إنه مهما تكن الاعتبارات النظرية ، ومهما يكن موقفه المبدئي ، رفع يده مقاطعا ومعارضاً قبل أن يتكلم أحد ، لا .. لن أدخل الآن في مناقشة . فقط ، فلنعتبر المسألة منتهية . ولا يسألني أحد ماذا سأفعل . أحتفظ بها ، في الأمان ، حتى تُغيب مني . خلاص . هذا من الآن شغلي أنا وننقل الموضوع على هذا . لاتحملوا همّ الحقيقة .

ثم سأل أخيراً : وبالنسبة ، ماذا فيها ، هذه الحقيبة الضريفة الرثة الشكل ؟

قالت : حقلك . أن تسأل .

قال أحمد ، كأنه يستظهر ، بصوته الخفيض البارد : ١٩ طلقة مللي للرشاش التصير ، ٨١ طلقة ٧,٦٢ × ٣٩ مللي للبنادق الآلية ، ٤ قنابل يدوية صناعة روسية ، واحد رشاش قصير ، ٣ بنادق آلية ، مفكوكة ومزيتة وموضوعة في أكياس بلاستيك ، ٣ قنابل صوتية ودخان .. حبس نفسه عن أن يقول : ماشاء الله . ذخيرة حملة كاملة .

ولم يقل شيئا ، نهض ورفع الحقيبة بيده . كانت ثقيلة فعلا ، ولكنها محتملة ، وأحس أنها محكمة التعبئة ، ليس فيها أشياء متخلخلة . ووضعها ، ببساطة بجانب الثلاجة ، بالقرب من الجدار .

قالت رامة ببساطة وحسم : أحمد ، هيا بنا .

لم يعد هناك معنى لبقائهما . وكان عم شعبان مازال يقف غير بعيد من الباب ، بجانب السور الحجري المنخفض ، بين النباتات الصحراوية والصبّارات المبهمة في الليل ، بينما السيارة الفولكس تبعد ، أنوارها الخلفية ، فقط ، حمراء متقدة صغيرة في الظلام ، كأنها غير مهمة أبدا .

من زمان ، في آخر العمر الأول ، كان قد دعاها للغداء في مطعم الأونيون القديم ، قبل أن يتحول إلى وكالة لبيع السيارات . كان الجو كله ، في المطعم ثلاثينياً : المرايا أمامها زجاجات الخمر ، والمفارش الناصعة البيضاء السميقة القماش على موائد خشبية مربعة ثقيلة ، والنوافذ الكبيرة العالية ذات المصاريع الخشبية مسدلة عليها ستائر رقيقة تحجب القاهرة التي لم تكن قد انفجرت تماماً بكظة ناسها وضجة سياراتها .

وعلى الأكل قالت له إنها تحس نفسها كالشجرة الكبيرة الوارفة الظلال ، تفيء على من تحبهم بالوفرة والعطاء .

قال لها واجفا : وأين أنا من هذه الشجرة ؟

قالت ، بعد هُنَيْهَةٍ تأمل واحدة : كالولد الذي تسلق فرعا منها . ولم يعرف أن يصعد إلى
أبعد ، ولم يعرف أن ينزل .

لم يقل لها : عبء الوجود كله يهتز وهو يختزن الغصن الغضّ الدسم الذي يتأرجح له ،
في وسط دغل من ورقه المترب الغنى بخضرته ، تحت شبكة السماء البعيدة الزرقاء الثقوب ، هبوة
التراب الناعم الدقيق في الظهر تهبّ على وجه الطفل الصبي الكهل الذي لا يعرف حاجز
الزمن ، معلقا على الفرع القوي الذي يتأود ويهدد بأن يميد ثم تتجمع له لدونة التحدي والإطاقة
ويمس بحمله الهين وزنه عليه مضبوط ودقيق لو زاد شعرة ، فيما يخيل إليه ، لانقصف ، ولو كان
أقل بمقدار شعرة ماجاء هذا الحس النبوءة بالخطر والإنجاز والتحقق .

كنت قد أخذت الفأس الحادة المرهفة الشبابة ، أقطع آخر أطراف فروع شجرة الجميز ،
سوف تجف في الحر والشمس وتتخذ منها حدي حطب الكانون والفرن . وكان البيت تحتي
بعيدا ، وبيت عم أرساني يلاصقه وكأنما يستند إليه ، مسدوداً بسقيفته وعليها صفوف من حزم
خطب القطن الجاف تعلقت به ، مازالت ، ندف قليلة صفراء يابسة ، ورسات الجلة الرمادية
المدورة الهشة الشكل . الأرض تحت سفح الجميزة الهائلة عليها أكوام صغيرة من التراب ومن
هشيم أوراق الذرة تجري بينها الفراخ وتنق وتنقر بلهوجة ولطفة . وكنت أرى ، من فوق ، مبروكة ،
بجسمها المضلع الناقء المسود وضروعها العامرة لم تخرج للرعى اليوم وتضع خطمها عميقا في
كومة من الحشّ الأخضر وضعتها لها جدتي تحت الجميزة بعد أن فرغت من حليبها وربطتها بالجذع
العريض ، وجدتي في الحوش تحضّ اللبن في القرية المنفوخة ، لتصنع منه الزبدة التي أعرف أنها
سوف تعطيني صفوتها الطازجة اللذيذة على لقمة بتاو سخنة طرية خارجة من الفرن . المسامير
الغليظة الرؤوس قد غاصت في خشب الجذع المفتول الطيع عليها شرائط الخرق المشبعة بالدم
الشهري القاني طلباً للخصوبة واسترحاما ، وغوصا غائرا بعيدا عن قبضة الجذب الغليظ
الأصابع . وقد سعدتُ غُضِّلَ الجذع المتين الحنون في يسر ، وتجاوزت المهد الذي يصنعه
انشعاب فرعين قوين كأنه مُعدُّ لي ، أجلس عليه وأنام أحيانا ، ساعات متصلة ، بين حفيف
الورق الذي كأنه يسرّ لي بلُغِيَّةٍ لا أعرف شفرتها تماما ولكنني أفهمها وأسترخ إليها . وارتفعت على
الأغصان ، أقطع بالفأس الحادة ذؤابات الفروع وأقصف التوتوات التي جفت من غصن عتيق
مضروب يسهل كسرها وإسقاطها بأهون ضغط ، على مافي شكلها من شر .

السماء الإلاهة نوت القديمة الحية المتجددة تصبّ على جناحيّ الممدودين ماء الهمة
والعطية الأبيض من فوق الورق الأبيث ، ذراعها الممران تحملان شغل اللهب المتراقص على
الصينية النحاسية والإبريق الذي يميل على صدرها العاري . جدائل شعرها السبّط ساقطة على
كتفيها المدورتين . حديقة العالم . تسكر وتسكرني بالخمر التي تصنعها بيدها ، هدياتي وهلاوسى
بلحمها الأسمر الفضّ الوثير ، وجهى على بطنها ، أستاف سلافة الرحيق المتصبّب يلتطم وجهي
بموجاته الصغيرة الطرية .

وتغويني الغضارة الغضة البعيدة المنال ، عالية في الهواء ، فأتسلق إليها الفرع الأخير
الرقيق ، أعرف احتمال وقوته ومتانته وأخشأها في الوقت نفسه من لدونته ومطاوعته ، إغرائه
لايقاوم لا يمكن أن يرد .

ويأتيني صوت جدتي العجوز الثاقب ، مروعة ، وهى تدق صدرها الضاوي بيدها
النحيلة :

— يالهوى .. ! باسم الصليب وشارة الصليب .. ! انزل ياواد يامبخائيل ، انزل .
حاسب ياضناى إوع تقع . ماذا يفعل بي أبوك ، وأمك ، لو وقعت ياولد .

أضحك بمتعة التوتر . تعلقى به هو التثبث بالحياة في هذا العلو الشاهق المتشابك بوفرة
من الخضرة أستروح فيه أنفاس الصفاء الرخية على حُميا جسمي المتقد ، والفرح المستبد يجري
في دمي ، على حافة الانهيار الذي أعرف الآن أنه لن يجيء ، وأعرف أيضا أنه قد ينفجر فجأة ،
ويتركني إلى الهوى بين الأغصان والأوراق وخشونة التواءات التي تحك الجلد وتدق العظام في
انهمار جداول الدم الرفيعة على دسامة ثمرات الجميز الخضراء المتورمة بعد بعصيرها المكتوم لم
تنشق أرحامها بعد فتفتح لي عن عذوبتها السكرية المتوردة الجلد .

موج السماء في عينيها لآزوردي الخضرة من عمقه العميق العلوي . وشعرها ملموم
بعصابة لونها طوي محروق ، ونطاقها العريض من نفس اللون يدور ببطنها المقرب ، تتدلى منه
حاشيتان ناعمتان على إزارها الأبيض . الماء اللبن الخمر عرق البلح الكثيف القوام الشاهق
الرائحة ينصب على من إبريقها الخصر الدقيق القاعدة ، عبر ألسنة صغيرة من اللهب
الأخضر ، في حنوة الظهر ، شفتاى ترشفتان عذوبة ليست من هذه الأرض .

ولكني أنزل إلى الأرض . آكل من طعامي ، للبصارة على لثمة البتار السخنة التي ساحت عليها الزبدة نكهة خصبة ، وأشرب من ماء النيل المروق بنوى الشمس في الزير، في مكان نظيف مسوي تحت الشجرة التي تملكها سيدتي حتحور سيدة الجميزة القبلية ، هناك حيث كنت ألعب مع لده ، نجري من البيت وحول الشجرة وفي المداخل الواسعة ، حيث لحقت بها ، وأحطت خصرها بذراعي وكان حس ثديها لدناً ومتاسكا فوق ذراعي من وراء جلابيتها الصفراء المشجرة بأزهارها حمراء صغيرة ، التي تنتهي بكرائش ملففة على قدميها الحافيتين ، وهي تنهج متوهجة العينين ، متضرجة .

لم يقل لها إن رحلته بين الصعود والنزول ، لانتهي .

كان طعم النبيذ في الأونيون ، وأنا أرفعه اليها ، وهي تبسم ، جافاً يخف مع القلب في نشوة صاحية ، مثل الهواء في ذؤابة الجميزة العالية في السماء .

قال لها : مامن أحد يجعلني أشعر بقبطيتي ، مثلك . في العادة أنساها ، وأنسى أنني قبطي ، لا أكاد أحس بذلك حساً واعياً ، على الإطلاق . لكنني معك ، أعي فجأة أنني قبطي .

قالت ، تتأمله بشيء من الاستغراب والمفاجأة : لماذا ؟

قال : لأنك مصرية . لأنك أنت .

قال : المهم . أحس معك ، فجأة ، أنك أنت قبطيتي ، لأعرف كيف أقول هذا .

وحتى في أفسى الأيام الغريبة ، أيام التعريب ، والاستغراب ، أحس معك بهذا الانتماء الذي لا يكاد يكون له اسم . انتماء لا أحس شيئاً يقترب منه ولو من بعيد .

قال : هل قلتُ لها ذلك ؟

قال . ومع ذلك يظل السؤال معلقاً ..

قال : مامعنى هذا كله عندك ؟ وما أهميته ؟ قليل فيما أظن ، إن كان موجوداً ، أصلاً .

قال : هذا طبعاً مُوجع ، وربما غير صحيح تماماً . ولكن ماذا إذن ؟

صرخات الليل ، وحبّ الليل والنهار ، شهوتي ووجاي ، يقيني وعطشي ، توحيدي
وانشقاقي ، غُبر السنين التي لا عداد لها ، همّي وحياتي الخبيثة ، مامعناه أيضا ؟

قلبي لي إنك كنت موضع الحب والشهوة من كثيرين ، وأنتك عرفتِ السعادة والوفرة ،
في البيت والعمل ، في الرعاية والحنان ، في المغامرة والسياسة ، في الرفقة والأمومة ، وامتلأت
سنواتك بالخير .

ثم اكتفيت ، في الآخر ، بهذا ؟

بأنك تحبينني ؟

بأن هذا مستمر ؟

لا ، طبعاً .

قال : هذا أيضا موجه جدا ، ولا يُطاق ، لا يُطاق .

ولكن ماذا إذن ؟

هأنت ترين أن ميخائيل القديم مازال .

عندما تعيشين على بعد خطوات مني ، أو على بعد سحيق ، في واقعك الخاص ، عندئذ

يتم تمام البعد ، والافتراق .

هذا أعرفه ، سواء كنتِ هنا ، أو في آخر أطراف الحياة .

الجنة المفقودة ؟

لكنها وجدتْ ، أليس كذلك ؟

على رغم كل شيء وُجدتْ ، قامت ، أزهرت بنوار المجد ونوره الذي لا يوصف . هي

ما يبقى ، بعد انحسار كل شيء . حتى لا أكاد أصدق أنها حدثت لنا ، بل أزداد يقينا ، يوما

بعد يوم ، أنها من صنع قلمي وحده ، ولكنني أعرف ، مع ذلك ، أن هذا الذي حدث هو

يقين ، آخر ، أساسي . يقين أول ، وأولّي .

قالت له أنا الآن قد عرفت نفسي ، اشتغلت على نفسي كثيرا ، وعانيت كثيرا ،
ونخرجت سالمة . لذلك يمكنني أن أفهم . لذلك أمكنني أن أتغلب على نزوات غضبك ،
وأمكنني - لا أقول أن أقبل - بل أقول أن أفهم ، على الأقل ، شطط هذا الشك عندك . لا
يريم : أعرف ، أعرف . لا تقول لا . لا تقل قد برئت منه ، ميخائيل القديم مازال .

قالت : كان من الممكن جداً ألا يحدث هذا مني . لماذا أقبل منك ، لماذا أسمع إليك ؟
أليس كذلك ؟ ألا تعرف ماذا يعنيه هذا ؟ ميخائيل ، ميخائيل ، ماذا أصنع بك ؟

لم يقل : نوستالجيا - رجع الألم - غامضة ، نصف معتمة ، نصف مضيئة . لأن
الأشياء الواضحة المحددة لا أطيقتها ولا أحتمل الحلم بها . بل أدفنها ، دون أن تُحس ، لكي
أستطيع المواصلة ، والاستمرار .

قال : يعني .. ! ولماذا المواصلة والاستمرار ؟

وجه الجريمة جهم ، والجور البرجي ، ومجازر المحافل وجيوش الجباة المدججة ، متى
تنجاب ؟ وكيف تُجابه ؟ الدُّجَّة تُجرجر جناحها على جوانب الجنادل ولكن لا تجزع ولا تجثو
أمامها ولا أمام الجلادين وخناجرهم الجائفة . جنايات جناني محجوز عليها في جذر جحري
الداجي . أجالد هوج الهواجس وأجار من الوجع . تلج لي اللواعج جذوئها توج أجاً . هاجت
لي حشرجة الوهيج في جحيم الجفاف وجوع الجذب وجمجمة الجراحات . أتجرع جام الجوى .
تجالد جسمي التي كانت تموج بالشجن من جفوة الهجران يجترفها الآن العجيج الأجنس
الجائع ، جلاميد جاسية تترجرج تحت جنون أجراس البهجة والصنوج المجلجلة . أريج الجنار في
جثة وجنتها المضرجتين يجاوب شجوى ونجوى . أضج بجموح جوادي في غنج جماها وتبلج لي
ديباجة جيدها تجود لي بالجنى ، وفي دَعج محجربها أجمة غير مدجنة . أجوس وألج المجري
الزليج بين أحراج المساليج الجثلة إلى الجرف اللجبي الدجة الذي يخلج في جهشة جيشان
النضج ، ما أجد .. ! ما أجد هذا .. ! يا حلاج .. جاذ الوجد لي ، وأنا أحج معك إلى جوهر
الوجود .. ياسراجي أنت في الدُّجَّة . لهجت بك ، جبروت جنوني بك فجور . نسجت منك
أمشاجي . فلتجلي لي نهجي . وشجي لي هزجي وشجي ، وشجي لي .

ورقة الصبار ، مفلوحة ، عريضة الوجنة ، في أطرافها أشواك دقيقة مدببة صغيرة متتابعة ، عين عميقة الخضرة ، من غير حذقة ، أرتقها في شعر عشتروت إيزيس . عروسة المولد الحمراء السكرية الهشة . عروستي التي لم أستطع أبداً أن أعود عليها ولم أستطع أبداً أن أضعها في فمي وأن استطعم سكرها المصبوغ بالحمرة الياضعة ، احتفظت بها ، كاملة ، في غرفتي ، حاميت عنها من إخواني والأقربين إليّ والغرباء جميعاً ، لم يقترب منها أحد ، وهي تنظر إليّ بعينين مفتوحتين لاتطرفان أبداً . موج الخضرة العميقة ثابت لا يترقرق . إزارها الفضّي يُخشخش في نغم الورق الصفيح الحاد ، على الساقين العبلتين الداكنتين ، زهور فلّ مخنطة من بدء الزمن ، صعدت على الكرسي ، وكان الدولار عالياً جداً ، ووضعتها بحرص على طرف سطح الدولار جنب الألفه المطوية المربوطة ، وعاية الكراملة « نادلر » الصفيح المدوّرة البطن المزوقة بالأحمر والأخضر الناصع ، وتساقط عليها تراب الاسكندرية القليل ، وكنت أنظر إليها كل يوم ، وقبل أن أنام ، حتى صحت ذات يوم فوجدتها قد تهشمت فجأة ، وحدها ، وانقصفت منها شظايا حادة من السكر الأحمر المطبوخ الجاف ، مال التاج الفضّي أيضا على الحطام ، وقد صدىء وتغصن وتخيّفه عوّار من البقع الدقيقة السوداء ، وقد انكسر الخصر المش وتحات مع الزمن . ومازالت ناضرة ومحرقة الحلاوة .

عقد ياسمين مجفف مازال فيه عبق بائد ، أعطيته لي مرة في فجر يوم من رمضان ، وأنا أخرج من عندك قبل السحور ، إلى الشوارع المضيئة المزدحمة بالوحشة والوحاد والعراء ، ووضعتّه ، كالصبي الذي كنته ومازال ، بين دفتي « مختار الصباح » الذي رافقني منذ الطفولة وحتى هذه الطفولة العاطفية المتأخرة جداً التي لا تليق .

الصبار المعبود العنيد الذي يشق صخر الرمال العتيق ، ينبثق من بين غدائر الشعر الناعم الوحف الغزير المنسدل على صفحة خدك المسطح الأسيل ، أراه بجانبني ، وأنت نائمة ، قد عهدت بنفسك وآلامك إليّ ، وتركت لي عبثها ، ولم أستطع احتاله .

الباب العاشر

وجه الحنان الصارم

قالت له ، باسمه ، سنها الأمامية الصغيرة تبدو له بارزة قليلا جدا وهي تنحني عليه ، قم
البس شيئا . سنخرج نشترى وحشا .!

ابتسم ، وهو يطفىء سيجارته في المنفضة البلورية المنحوتة ، بدقة ، على شكل ورقة
شجر شفافة ، يعرف شطحات خيالها :

— وحش مرة واحدة ! وتأتين به إلى هذه الغابة الأنيقة وراء النيبان الماوكية ؟ ألا يكفينا
ماعندنا من وحوش ؟

قالت : والنبي دعك من اللعب بالكلام .. على الصبح .. ياالله قم البس ..

ولم تمسه ، ولم تقترب منه . كان يعرف حرصها على الابتعاد عنه ، وعن خطر الاشتعال
الفيزيقي السريع ، مادامت تهتم بالخروج من غابتها الداخلية .

التفت عليهما القاهرة القديمة الحية بألف ذراع غير مرئية ، وهما يمران من أمام المسجد ،
عبر الخيامية ، تحت النور المترب الذي يهيم ، ظلًا جافا وحريفا ، من السقف الخشبي العتيق
جسده مطعون بشقٍ طولي ومنعم الشعث تحت السماء ، بين دقات المطارق ونداءات الشغاليين
ولغظ الناس وحشد الجلاب والعمم والبنطلونات الجينز والملاءات اللف القليلة . في الأركان
الضيقة تُنسج الآيات والتمتات والتشكيلات النمطية والقالبية على الأقمشة الخشنة وعلى القصب
الهفاهف ، بالمسلات الطويلة ، وبالإبر الدقيقة التي تتعلق بها خيوط ذهبية ترمض في نصف
العتمة .

كانت ذراعها العبلية ، في الزحمة ، تأتي إلى جنبه فتتمسه وبحركة هينة تبتعد عنه .

قالت في تضاعيف الثثرة المتقطعة التي تعود فتلتثم : كان مفرش السرير القصب ، من
سين قليلة ، يكلف خمسمائة جنيه أو أكثر قليلا . من يعرف كم يكلف اليوم ؟

قال : ألف .. ألفين . ماذا يقولون ؟ باكو .. اثنين باكو ؟ فقط من يعرفون الشفرة ،
ويستخدمونها ، هم الذين يدفعون . ولكن حتى هؤلاء .. من يشتري الآن مفرش سرير
قصب ؟ الذين معهم الباكورات يذهبون ببساطة إلى لندن ، ليجهزوا بناتهم من ماركس وسينسر
غالبا .. أو هارودز حتى ..

كانت عجلة عربة الكارو مفصولة ، وحدها ، مسندة إلى حائط الجامع القديم ، مدورة
وعالية ، فيها قوة دائرية جائحة ولكن مكبوحة ، دوائر بثبات واستمرار ، مبتورة .

وكان الفرن الصغير يتقد بنار المازوت ، نفائة ورضائية الرائحة ، في داخل الجامع ،
يؤج من وراء الباب الحجري المنتهك ، تحت مستوى الشارع قليلا .

قال : هل لاحظت ؟ الرائحة .. لاحظت الرائحة ؟ حلوة جدا وعبقة ، من خلال
التراب ، ونفح المازوت ، وحرافة الاقمشة المفروشة ؟

قالت ، وقد تمهل خطوها قليلا ، واشرايت بوجهها الذي بدا له كله تطلع وفيه انفعال :
رائحة ؟ نعم .. انتظر .. نعم .. رائحة حلوة صحيح . ا

قال : رائحة المسك .. بعد أكثر من ثمانمائة سنة . ا

فنظرت إليه كعادتها ، دون أن تبدي أنها تستطلع شيئا كأنها تقول إنه من الصعب أن
يأتيها بخبر لاتعرفه . ولكنه كان قد تعلم أن يقبل منها هذه الكبرياء الخفيفة ، دون حرج فقال :

— الحكاية ياستي أن نصير الدين طلائع بن زريك — اسمه كذا .. ماذا أفعل ؟ — بن
زريك ، مرة ، دفع ، ٣٠ ألف دينار ، في رأس سيدنا الحسين ، ليأتي به من عسقلان ، خوفا
عليه من الصليبيين ..

وسأل ، دون أن يكون لسؤاله ضرورة ما : ترى كم تساوي ٣٠ ألف دينار الآن ؟ فلم
ترد ولم تنظر إليه .

قال : وغُسل الرأس ، رأس الشهيد ، بعد وصوله من الشام ، في الجامع ، ففاحت رائحة المسك منه . وظلت الحارة تعبق بها مدة عام كامل ، حتى نقل الرأس إلى قبته الشريفة ، عبر سرداب طويل محفور من تحت باب زويلة ، سرداب لم يعثر عليه أحد أبدا بعد ذلك . هل تحسبن العبق الذي يغلب الزمن ، ويغلب فُحَّة احتراق المازوت ويغلب روائح الناس ، مازال ، بعد ثمانمائة عام ؟

الأبواب الخشبية الضيقة ، مغروزة في التراب ، مفتوحة أبدا عن ممرات ضيقة معتمة تفضي إلى الأحواش الداخلية . والعيال تجري بمرايل المدرسة ، والبنات ، بشعرهن المنكوش المجعد ، والفساتين على بنطلونات بيجامات ، في لعبة خاصة لاتعرف إلا قواعدها وحدها ، لا شأن لها بالعالم . والغسيل ، جلابيب نوم بيضاء ، وملاءات سرير ليست نظيفة جدا ، وبيجامات صغيرة ، وسوتيانات كبيرة الكؤوس من قماش أصفر باهت ، وكالسونات عَبَك واسعة الساقين ، كلها مبلولة وتبدو ثقيلة بالماء منشورة على حبل مشدود على الأحجار العتيقة ، النبيلة التشكيل ، عليها كتابات كوفية ، بين عمودين رخامين لهما تيجان كورنثية ، تحت عقود شاهقة رقيقة الجمال . وهما يخطوان يحاذران سربا من كتاكت البط مازال أصفر الزغب بصفرته البهيجة الناصعة ، بمناقيرهم المحمرة العريضة ، يتدأدا بين الأقدام ويلقط رزقه من التراب وبرك الماء المسود الساكنة . وكانت تقف بعد الفرن بقليل سيارة ملاكي منوفية ، وتمر بجانبها امرأة بجلباب أسود مطرز ، حول تقوية الصدر المربعة ، وبخيط ذهبية اللون باهتة ، وعلى رأسها المرفوع بثبات وخيلاء بقعة كبيرة . قال ، كأنما يقتفي حوارا مع نفسه :

— أما البنادقة فقد سرقوا رأس مار مرقس الشهيد ، حتى أعاده البابا كيرلس على أيام عبد الناصر .

وقال :

— الأرض المخصَّبة المرشوقة برؤوس الشهداء ..

وقال :

— فهل يقوى العبق القديم على البقاء تحت الثقل الجديد ؟

وقال ، دون كبير اقتناع ، في وجه الإنكار العنيد :

— سيبقى .

— سيبقى ..

ثم قال ، أخيرا ، كأنما لينهى كل الأقوال :
— كل التقرير ، وإنكار التقرير ، عبث ومضحكة .
ولكنه قال أيضا :

— بالطبع لم يُنه هذا التقرير الجديد ، بدوره ، شيئا . وظل دائريا .

كانت سيارتها الفولكس العتيقة عطلانة ، ذهبا بالتاكسي إلى صيدناوي القديم .

كان النور يتقطر من القبة الزجاجية الواسعة القديمة المستندة إلى بؤرة متشعبة من قضبان الحديد الصدئ ، والسلام الخشبية العريضة تهتز تحت أقدامهما ، وهما ينظران ، من فوق ، إلى طوابير الكستور الممتدة ، متلوية ومضطربة ، في الدور الأرضي . الدلالات بالجلاليب السوداء الرسمية وعيونهن الحاسبة الجشعة ذات الخنكة ، والافندية المتعيين بكروشهم الصغيرة ووجوههم المتهدلة وبنطلوناتهم الفضفاضة ، وستات البيوت بالفساتين القديمة ومعهن أولادهن يتعلقون بأيديهن في الرحمة ، كلهم يمسكون بالبطاقات في يد ، والفلوس الجاهزة في يد ، في انتظار البونات المطلوبة العزيرة ، واللغظ والضجيج والتداءات ذات الصدئ ، وصوت المقص الجاف في القماش ، فجأة ، في وهدة من الصمت ، حادا ونهائيا ، ثم هتافات مختلطة بأرقام وأسماء وصراخ طفل يلعب بالصراخ في هذا العيد المضطرب من الأصوات .

في الغضب والضيق والوجع ، وهما يصعدان السلم ، رأى في الواجهة الزجاجية على الحائط الذي يرتفع معهم على السلم ، بين جرادل البحر الصغيرة الحمراء ، وجواريفها والكراسي القماش ، وشمسيات البحر الملونة ، وكل عينات حواشي الوعد بالحانات الشاطيء ، ماها وأمواجها المزدحمة ، رأى مايره يكيئي مختللاً جدا . فقال ، يعاكسها قليلا ويهرب من غضبه السخيف قليلا :

— أنظري .. مارأيك ؟ هايل .. أليس كذلك ؟

مقالت : أعجبك ؟ هو حلو صحيح .. خلاص سأشتري منه .. مادام قد أعجبك ..

قال : لأ .. رجعت في كلامي .. لاتنظري .. ليس هناك شيء ..

قالت : أبدا .. صحيح .. حلو .. ويليق لي جدا على البحر ..

قال : ياستي أنا رحمتي ، وغيور ، ورجعت في كلامي خلاص .. حرمت .. ! فضحكت ،
وضحك ..

كانت قد قالت له : أريد أن أصنع الحب معك على البحر . على الرمل الأبيض الناعم
الواسع الذي ليس فيه غيرنا ، تحت الشمس ، كما نحن ، من غير شيء ..

قال ، والحلم المستحيل يُخايله : نعم .

قالت : ثم آخذك إلى البحر بعد ذلك . وأغرقك .
فقال : أغرقيني .. كم مرة تغرقيني ؟

الغرق اختناق سلس عذب المذاق ، والتظام أمواجه لا يحس ، رقيق ومرحب ولا يقاوم
إغراؤه .

الآن أمواج تُبج ليلى لا تحمل لي إلا جسمك الذي يطفو ويغوص أمام عيني الغارقتين
وفمي الذي يملؤه عباب الرغبة المِلح والاشواق المنهكة . أشهق بندائي . ومهما جالدت الموج
أسعى إلى شمس عينيك الخضراء فليس هناك حولي إلا ظلام المياه المرتطمة التي لا قرار فيها ولا
راحة . هل الشمس غابت إلى الأبد ؟ ألن يشرق عليّ نهداك ، ساطعين بمجدهما وأمجادي ،
أبدا ؟ وفروح القرابة والفهم والفرح بك ؟ هل غاب ، ولن يعود ؟
كان قد قال : الشمس لا تشرق مرتين .

وكانت قد قالت له : أحس إنني أتوهج من السعادة ، هذه الأيام . كل الناس قالوا لي
اليوم إنني أتوهج ، وأضئ .. سلوى اليوم قالت لي : « ماذا حدث يارامة ؟ هل هو حب
جديد ؟ أنت تحبين .. ! تلمعين ، وعيناك جديدتان .. » يا حبيبي ، فضحتني .. !

كانت تتألق من البشر والسعادة ونوع خفيف من الخجل .

قال لنفسه : هذا ، على الأقل ، كان صادقا ..

ثم قال : ما أقساك .. يا أخي إرحم نفسك !

عندما وصلا إلى الطابق العلوي كان جهاز الستريو الضخم ، بأجزائه الثلاثة ، يترصد .

قالت له : أخي أرسل لي ، من السعودية ، المكبرات . رأيها ، يمكن ، في الردهة الصغيرة قبل باب المطبخ ، في الصناديق الورق .. نعم .. ألا تذكر ؟ سألتني عنها وقلت لك : سر .. !

انتهت كتابة الفاتورة ، على ورق هش ، من ثلاث صور بألوان مختلفة ، وعدت النقود ، وقال البائع ، بلا مبالاة ، إن الموجود هنا نموذج للعرض ، فقط ، وإن عليهما احضار البضاعة من المخزن ، في المعادي . وأعطاهما النسختين الزرقاء والحمراء ، واحدة للمخزن للاستلام بها ، وواحدة لها وكتب لها العنوان على ظهر النسخة الزرقاء .

على الباب ، في فسحة الميدان الضيقة المترية ، كانت سيارة الأجرة ترجع ، وتقدم ، وترحف دائرة ببطء ، تريد أن تخرج ، كأنها من مأزق من بين سيارات النقل الضخمة العالية والسيارات الملاكي المتزاحمة النافذة الصبر ، والمارة يمرون من غير اهتمام أمامها ، ويتسللون بهدوء من بينها ، على أقل من مهلهم ، وينوع من التحدي غير المكتوم . أشار للسيارة الأجرة وهي تدور ببطء ، وترحف ، فاكتشف أن السائق سيدة في منتصف العمر ، قوية اليدين وواثقة ، وشعرها نحش وقصير ، وحركت ذراعها بسرعة تدعوها للركوب دون أن تتوقف ، فأسرعا يخترقان حصار السيارات والناس المتراكب الوثيق ، وينفذان من بين سكة الضيقة المتغيرة الملتوية باستمرار ، حتى نفذا إليها . فتتح لها الباب الذي مازال يتحرك ، وارتميا في الأمان المؤقت ، وقال : « المعادي يا أسطى من فضلك » هس لها ، بالانجليزية : « الاسطى ، تعود لمعناها القديم . ! أظن أن المظ كانت تسمى الأسطى ا » واستمر : « هذه إذن سائقة التاكسي الشهيرة في القاهرة ، كان في الأهرام تحقيق صحفي عنها ، ورأى زملائها بين محبذ ومعترض ، أظن أيضا إنها عضو في إدارة النقابة أيضا » .

وحدثت السائقة أنهما يتكلمان عنها ، فالتفت إليهما التفاتة خاطفة وهي تبسم .

كان إلى جانبها ، في مقدمة السيارة ، كلب وولف ضخم ، وديع العينين جدا ، ينظر إلى الزحام والناس والسيارات من غير اهتمام .

قالت السائقة : على فين في المعادي ؟

فشرح لها العنوان ، كما يفهماه . لم يكونا يعرفان أين بالضبط .

ركاب السيارات الملاصقة ، والأوتوبيسات المطلة عليهما ، والمارة المتزاحمون حولهما يشورون أحيانا ، ويستغربون ويعلقون أو يحدقون ، عساكر المرور يرفعون أيديهم بالتحية والمعرفة القديمة ، الكلب الوولف يسند رأسه الكبير على حافة نافذة التاكسي ، بجانب العداد الذي يطن بصوت تروس صغيرة شغالة ويشير إلى رقم يتجاوز الآلاف ، يتحرك بسرعة خاطفة ، مجرد إبراء العقب . أجراس مزلقان تصلصل وأنواره الحمراء تومض بإنذار كأنه يائس من الاستجابة ، وتنطفئ . عجالات التاكسي تصطدم بقضبان المترو وتهتز السيارة فتأتي بيده على فخذهما المستريحة التي يحسها عارية تحت النسيج الخفيف . ثم النيل المصقول المياه تحت الشمس بلون الصلب الداكن ، وأعمدة دخان ثابتة وطويلة في الهواء لاتتحرك ، من بعيد ، على الضفة الأخرى . الخرابات المعشوشبة تحت ناطحات مربعة تربض عليها أوناش برجية صفراء أكالة الأنياب . الست السواقة تحكي لهما عن « وولف » وكيف إنه يكلفها خمسة كيلو لحمة في اليوم وخمسة لتر لبن . قالت إنه عطشان وأوقفت التاكسي عند شجرة عريضة قديمة تحتها زير ، وأخذت معها طاسة عميقة ملأتها من الزير وعادت بها . صوت الكلب يلحق الماء ، لسانه الطويل يرتطم بالماء بانتظام ، هواء الظهر النيلي الرخو يندفع إلى حيز السيارة المليء بحرارة جسدية وفوج عضوي متعدد الطبقات ، فيخفف وطأته .

تَرَجَّت رامة الست السائقة أن تنتظر ، فردت عليها : عيني .. بس لاجل عيونك

الحلوة !

كان المخزن على النيل ، بعد الفناء الواسع المترب الذي تناثرت فيه صناديق ضخمة خشبية ومعدنية ومن الورق المقوى ، بأحجام مختلفة ، وعليها أرقام وأسماء الشركات والماركات ومدن التصدير بحروف انجليزية كبيرة . وكان الوحش يرقد في صناديقه الثلاثة ، واحد كبير واثنان أصغر منه ، في العنبر الرطب الواسع المظلل بسقف من الصاج المعروج ، بين رفقائه وأقرانه ، وفتح لهما المخزني الصناديق لإلقاء نظرة . كان الستريو الضخم ، بأجهزته الثلاثة الفضية اللون والأزرار والعدادات والعقارب الكثيرة ، وخزائنه الخشبية الموجتى الثقيلة وأرففها الزجاجية ، مفكوكة ومتراصة في صناديقها الكرتون ، فأغلقها المخزني وربطها بحبل أبيض مضمور ونقلها على عربة

صغيرة بعجلات كمربات المطارات ، يساعده عامل عجوز سمح الوحه على رص الصناديق في حقيبة السيارة ، وبقيت كرتونة صغيرة نسبيا وضعها على المقعد الخلفي فكادت تشغل نصف حيزه . وكانت رحلة العودة الطويلة تتقلب بهما ، في الشوارع الغاصة ، تحت ظل الكرتونة المُحايدة الرقيقة التي تحجب عنهما وقدة الشمس المنصبّة من نافذة السيارة ، وتميل عليهما قليلا في توازن حرج ولكن مستقر . وهو لا يكاد يحس للشوارع والناس وحرارة القاهرة القديمة بينها الـوولف بأنفاسه الهادئة ولسانه المتدلي يبعث في داخل السيارة حضورا حيوانيا وديعا ومحكوما لا يأتي منه فقط ، والست السواعة تحكي عن أسعار البنزين التي زادت ، ونظام المرور الذي لا إصلاح له ، وأخلاق الناس التي راحت ، وقسوة الحياة ، بصوتٍ مليء بالثقة والاستبشار والإقبال على الحياة .

وقف التاكسي ينتظر وراء صف طويل من السيارات من كل الأصناف ، في الشارع الضيق ، تحت سور حديدي عليه نباتات كثيفة ومتربة ، أمام دكان فيه آلات موسيقية نجاسية ضخمة البطون ، وعود واحد في الواجهة الزجاجية ، نحيل وقديم ومطعم بالعاج المصفر ، كأنه يكتم في بطنه الرشيقي موسيقى لن يقوها أبدا ، وتتدلى من سقف الدكان في العتمة الداخلية حزم من شعر الخيل . على الدكة الخشبية الممدودة بجانب الحائط الحجري ، وقد توقف التاكسي أمامها طويلا ، وعبر دمدمة المحركات المتربصة وهات أنفاس الكلب الحارة المنتظمة ونفث دخان العادم ينبض ويقف وينبض ، كان الصوت العجوز الفاني يصل إليه ، خشنا مبحوحا من الخشيش والسهر والنشوات الجافة المنقضية ، يتغنى خفيفا : « كل السيوف قواطع إذا جُرِدت .. جردت .. جردت .. وحسام لحظك قاطع في غمّده .. ده .. ده .. ده .. كل السيوف .. كل السيوف .. » كان جسدها الممتلئ بجانبه ، يغلف ، بدسامته الراضية ، توتراً فيه ، متصليا ، متطلبا ، يثر منه حساً فاصلاً بينه وبين كل العالم المحتشد بوجود آخر محطوم .

ومضى التاكسي ، بطيئا ثم سريعا ثم بطيئا ، حتى وقف في قبضة زحمة جديدة أمام جمعية استهلاكية أخرى ، السيارة النقل الضخمة قد ركنت أمام كومة صغيرة مفروشة من الزبالاة الجافة والطرية ، والتباع يُنزل منها أقفاص الطماطم والخيار والجزر وكراتين الجبنة الهولندي والفراخ المحمّدة البرازيلي والمجري يتناولها الناس منه ويحملونها إلى باب الجمعية ، والدلالات الدائمات ، والستات ، والرجال بالقمصان والبنطلونات ، والبوابون النوبيون والصعايدة بجلالهم البيضاء ، وفي أيديهم

الأكياس والحلل والسلال البلاستيك ، في طابورهم القلق الملىء بالحركة والكلام والخناق والضحك والتلقيح والغمز السريع طيب القلب ، صابر وناغد الصبر ، مستوفز ومستسلم ، صامت حيناً وصاخب أحياناً ، ومر من جانب ولد ، بجلاية وطاقية ، يدفع عربة فارغة مربعة مصنوعة من خشب الصناديق وهو محصور بين الذراعين الطويلتين الخشبيتين للعربة ، وعجلاتها الصغيرة مغلقة بالمطاط المأخوذ من إطارات السيارات . والتاكسي يزحف تحت الحيطان الضخمة القديمة المنقورة عن فتحات معتمة تشتعل فيها قضبان الفلورسنت ، وبين حديد التسليح الممدد جنب الأرصفة الضيقة المزدهمة ، والسيارات المفتوحة الأحشاء يرقد تحتها صبيان الميكانيكية بأقدامهم الخافية السوداء البارزة في الشارع ، وأمام مطاعم الفول ودكاكين النحاسين والمنجدين والمقالي ودكاكين رجوع الصحف والمجلات القديمة والورق الدشت ومحلات الصاغة والجواهرجية ، والواجهات الزجاجية المتربة المنقطة بنقط دقيقة من ونيم الذباب الأسود والمزحومة بالأحذية والملابس الداخلية الحریمی ، ودكاكين البقالة الضيقة المقفلة بمنصة رخامية قديمة تسد الباب ، والعميان القاعدين على ورق الصحف على الرصيف يتغنون بآيات القرآن لا يسمعون أحد .

حتى وصلوا إلى البيت .

صعدا السلالم الحجرية يحملان الوحش المحبوس في صناديقه ، بحرص ، يصعد بظهره إلى أعلى يمسك بطرف الصندوق وهي تصعد إليه ممسكة بالطرف الآخر ، مرتين . واشتغلا طويلاً ، معا ، بعد الظهر ، في فك الصناديق ، وتركيب الجهاز ، بالاستعانة بالكتالوج ، وسمعا ، بالليل أرغن باخ القوطي العميق العدوية ، وتقديسا به .

إذا استطعت أن أتهر الذاكرة ، فكيف أفعل بذاكرة الجسم ؟ شفتاي وحدها ، لا أملك لهما ردا ، تتذكران جانب عنقها الخفي النعومة ، ويداي وحدهما ، تتذكران دوران النهد وثقله الهين المطواع ، وانحدار جسمها إلى الخصر الملىء الذي يضيق ، بإحكام ، ويتهضم ، لكي يزدهر ويفتح ببذخ الردفين اليانعين . فوضى الذاكرة الفيزيقية ، وحدها ، حاضرة أبدا ، تستعصي على التناول وعلى التحكم وعلى الإرجاع إلى الوراء ، وفيها تمرد وصالف لا يستدل .

أشواك الصبار تخترق سياج الجسم النابض المرهق ونحز في خطأ وراء خط ، تتقطر بالدم الصعب . ولكن السور الحى يلتف ويلتوي ، يتحوط على زهرة الصبار الحمراء اليانعة ، ولا يريد

أن يتخلى . ثقب شوك الصبار موجعة لاتلتئم ثلمتها في سور البستان الأشعث يتفطر عوسج الحسك وتمهدل عليه أغصانه اليائسة المسننة الورق . والسور مضروب حول كل العالم ، ليس للثنين الراقد وراء السور ، صاحبي العينين ، إلا جسم واحد يغص به كل العالم ، من غير شمس .

في نصف النوم ، بين أعمدة الليل التي يتوجها سعف النخيل الجرائتي ، في بيت السلام الصاعدة إلى القبة المفتوحة على الورقة الحريرية العمق ، تأخذه بين يديها الناعمتين ، برفق ، وهي تبتسم . وهو هادىء مرتاح ، وتصب عليه ، بجنو ، من أنبوية وردية البلاستيك ، طيباً منعشاً منسالا ، المسك السائل المثلج ينثال ، وذوب العنبر المطهر ينسكب عليه من يديها ، وهي تفرشه بارداً ، ومفاجئاً ، ولدن القوام عليه ، فيتكهرب فجأة ، ويرتعد بالتوتر ، قال : « ماذا تفعلين ؟ » قالت : « إنتظر ، سوف ترى » . قال : « ياساحرة » . قالت : « أسلم نفسك لي ، تجد نفسك ، وتجديني » . حاب يرفع نفسه إلى السماء في عبق البخور والطيب وحرارة الأنفاس عن الشفتين المفتوحتين والتعاويد القديمة لايجيب سحرها على طول أبد الآباد وقد لفظ الحوت ما التقمه من بين مياه النيل ووقف الدليل يشير إلى تقاطع الطرق نحو العالم الجهول أبدأ وبعد بالخلاص من ربة الامواج اللجئية ، فضحكت العابدة وكان لضحكاتها النادرة جرس رقيق قبل أن تحتمد الرقية وقبل أن تلتف اليدان بالطلب واقتضاء القربان وقالت : « هانحن قد عرفنا كيف يأتي الغائب وكيف يعمل السحر » . كم تعرفين كيف تُسدين التمجيد إلى السر المحتشد بمحبتك فيصير مجداً .

في عودتهما من ميدان الحسين ، وتحت مسلات المآذن البيزنطية الدقيقة ، قررا معا أن يأخذا معهما للبيت سندوتشات الشاورمة ، وطحينة ، وسلطة بلدي . وبينما النسكين العريضة تشق الشرائح الرفيعة البنية المحمرة التي تكاد تكون شفافة ، من على جسم اللحم الدوار تلعقه ألسنة النيران الطرية الخجول وتتكوم على الورقة الكرتون رقائق الخيار الطازجة والطماطم والفلقل الأخضر والبصل التي تكاد تكون كلها ، لفرط دقتها ، مهروسة ، قال لها البائع ابن البلد ، بجلايته الواسعة الخفيفة الزرقة والخفيفة النسيج ، ولاسته الصغيرة الأنيقة ، وهو يبتسم ويغمز في إيماءة هينة كلها كياسة وتلطف : « بالهنا والشفاف إن شاء الله . على مهلك ياسلطانة .. ! » وهو إذ يشير إلى الأكل بلباقة ، واضح جدا من يعنيه فضحكا معا . ردّ عليه : الله . اصبح باريس .. قدما وقدود بإذن المولى .. إن شاء الله .. تسلم إيدك .. !

كانت سعيدة بالليل ، وهي تردد كأنما لنفسها : على مهلك يا سلطانة ! الآن صممت الأحلام والذكريات معا ، والوقائع ، وإن لم تنحن قاماتها ، ظلت شاحخة العيون ، بلبغة النظرة ، ولكنها مطبقة الفم ، لا تجد لها صوتا .

وما زال الحب بنفس عرام حب المراهقة ، مطلوبيا ، عزيزا ، لاينال . فوق كل شيء ، ويتقطع له القلب الشيخ الذي لايشيخ ، ولا يريد أن يستقيم .

قالت له : لن أغيب أكثر من ساعتين ، بالكثير . أذهب إلى بيت مصطفى في شبرا ، كنا قد حددنا الميعاد من أسبوعين ، قبل أن تجيء وتقلب على الدنيا . سيكون عنده أحمد أيضا ، وعبد المنعم ، وأرجو أن تنتهي من موضوع سأقول لك عليه فيما بعد . هل أضع لك متسارت على الستريو قبل أن أنزل ؟ والمطبخ عندك ، وفيه بيرة ، تعمل ماتريد . لن أغيب .

وقبلته ، ونزلت

كان يسمع متسارت ، ويقلب في طبعها لأغاني حب مصرية قديمة مزدوجة اللغة ، بالهيروغليفية على صفحة ومقابلها ترجمة إزرا باوند بالإنجليزية ، وكان على النسخة إهداء كبير الخط ، بالإنجليزية ، : « لك دائما .. ريتشارد » وهو يتأمل رموز الطير والورز والصقور والريش والرجال والأمواج والشعابين والعيون والسمك التي تصنع رقعة قلب ، وصراحة شهوانية معا ، وجوى نيليا متفرقا . ويتذكر ، دون أى انفعال تقريبا ، قصتها القديمة التي روتها له ، قبل أن يعرف إنه يحبها وإنما تحبه ، عندما كانا صديقين جدا ، وحبهما كامن فعّال في خفائه ، عن هذا الأثرى من ماساشوستس الذي خطبها للزواج بينما كانت متزوجة فعلا ، في الخمسينات ، وقالت إنها قضت معه ستة أيام لم يغادرا الفراش ، ثم طرده عبد الناصر من مصر ، وكان يكتب لها كل يوم خطابا ثم انقطع . وقد عاد الآن يدرس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة . وقد ناقش معها بعد ذلك ، الدلالة الإشارية للأيام الستة ، ولم ينتهيا إلى رأى قاطع . وقام يصنع لنفسه فنجان قهوة تركي . محوج ، ومضبوط . ولما انتهى متسارت لم يبالي أن يغيره أو يضع شيئا آخر ، فقد كان يخاف أن يفسد أجهزة الستريو الدقيقة ، والوحش الموسيقى يظل ينظر إليه بعينه السوداء الضخمة الاستدارة ، وقال لنفسه إنه كان دائما يخاف الأشياء الميكانيكية ، ودائما يخاف ، فقط . وقال إنه يظلم نفسه دائما ، وإن الخوف عنده قائم ، صحيح ، ولكنه طرف آخر لشيء يقبل أن

يسميه الصدق مع النفس ، مثلا ، أو شيئا من هذا القبيل ، مهما كلف هذا من تضحية ،
يعنى ، إذا لزم الأمر ، وكانت قد قالت له إن أوهامه عن نفسه كثيرة ، وإنه يجب أن يسمح
لنفسه بأن يعترف إنه لاتعوزه ، عند الحاجة ، مقدرة الشجاعة ، والنزاهة ، والتصدي ، وإنها
لاتغازله في هذا ، ولا ضرورة لأن تخدعه فيه . وكان الليل قد دخل وأوغل ، ودكنت خروم الخشب
المعشق واسود لون الفراغات المنمنمة الدقيقة فيها ، وسئم النظر إلى ساعته ومازال ينظر إليها
وكأنها لاتتحرك ، وشجرة الظل الوارفة قد جمدت أوراقها العريضة عليه متهددة وخبيثة المقصد .

دار المفتاح في الباب الثقيل ، ودخلت تنهج قليلا من طلوع السلام جريا ، وغمرته على
الفور ، حتى قبل أن ينظر إلى ساعته ، بحكايات كثيرة عن المواصلات والناس الذين رأتهم عند
مصطفى وكيف أنها اضطرت أن تأكل معهم لقمة ، وكيف حاولت أن تخلص منهم ، عدة
مرات ، فلم تستطع ، وشقت بإصبعها حافتي حقيبة يدها الجلدية السمينة المفتوحة دائما ،
لكى تسقط فيها مفتاحها ، وضحكت وهي تُخرج ، بين إصبعيها ، من الحقيبة ، الكولان البيج
الشفاف المتلوي بفضه على بعض بنسيجه الهفهاف وقالت له إن الدنيا حر جدا وإنها ذهبت
للحمام في بيت مصطفى ونخلت الكولان وكومته ورمته في حقيبتها ، ونسيته ، ونظرت إليه
بسرعة نظرتها التي فيها تحد وطلب للفهم معا ، ولم يتكلم ، وقبلته في فمه قبلتها الخاصة
السريعة ، مبلولة بخفة ومتطلبة دون إلحاح ، ثم قامت بسرعة وقالت له : تعال معي نعد شيئا لك
تأكله ، لابد إنك جعت ..

كانت تتأمله ، ثم قالت فجأة وكأنها تحدث نفسها : أريد أن أصورك هكذا ، من غير
شيء ، وأحتفظ بالصورة .

وقالت له : أنا لك . في أى وقت . في أى مكان .. هذا يبقى لنا .

كان على الستريو ، عندئذ ، مغن لم يكن يعرف اسمه ، صوته شجي وأجش وفيه نعومة
شاكية ستمنتالية في الوقت نفسه ، ولكنته متوسطة ، فقال : من هذا ؟ قالت : اسمه خوليو .
إسباني . ظهر حديثا جدا . خوليو ايجلسياس .. ونسى الاسم بسرعة ولم يتذكره إلا بعد سنين ،
وقال عندئذ : ماهذه الأغنية التي يقوها ؟ قالت ، باختصار : دون كيشوت .

دون كيشوت مازال .

ويقول : أريد أن أموت . أفى هذا رثاء للذات لا يُحتمل ، ولا يصح ؟ واستداراً للناسي ،
وسخف ، وضعف نفس ؟

في الخفاء ينزف وجهك ، يا قديسة ، بالدم وزيت الزيتون ، قسماته الندية ملتصقة بالألم
السرى الثابت ، وأنت تنظرين إلّى ، بلا اتهام ، لم تعودى تنتظرين شيئاً .

قال لها : هؤلاء الأولاد الذين رأيت وجوههم النحيلة الملتحجة المطبقة الفم ، صارمة
الحنان ، بلا اسم ، هذه الوجوه المقطوعة ، وراء لومومبا ، وجيفارا ، وراء كابرال ، وباسر
عرفات ، أبكار السلاح القاسي ، المقضى عليهم لفرط طفولتهم بالشهادة المهذرة بلا معنى ولا
أهمية ، القتلة القتل ، جنود سبارتاكوس ، جنود الحسين ، حاملي الحراب حاملي الأوهام حاملي
الكلاشينكوف ، عجلة العالم الباردة تدور في سياق آخر . أحبائي الذين أمقتهم وأبكي لأنهم
موجودون ، مجرد بقائي حياً خيانة لهم وعهد منكوث . وما تنتفسه ، يارامة ، في كل لحظة ، هو
الهواء العبق بموتهم الذي لا جدوى فيه . الهواء المضرج بلوثة حياتنا ، بنشواتها المدانة أمام
وجوههم المسحوبة .

قال لنفسه : الجسم الذي يُبتدل الآن للشهوة ، يُبتدل أيضاً للقتل .

وقال لها ، في غمار مناقشة طويلة : أليست هناك علاقة وثيقة ما ، بين هذا الشيوع
الجنسي المتفشى هذه الأيام ، هذا الاستخدام للجنس بضاعة وسلعة مزجاة ، حيث يصبح
الجسم مجرد أداة ومجرد شيء ، وبين التعذيب السياسي والقتل السياسي المستشري ؟ هل فقد
الجسم حرمة ما ، كانت تحتاطه وتمنعه ، وأصبح نهبا ، ومباحا ، للذة المصنوعة صنعا أو للتشويه
المصنوع صنعا ، سواء ؟

وقال : أفى الثقافات التي يصبح فيها الجسم آلة ، أو مطية ، أو يلقي طعمة للأسود في
الاستاديوم على الملأ ، أو تستباح شهواته حتى تصبح المتعة الجنسية ألما وواجبا مفروضا وعبئا
مملا ، في الوقت نفسه ، أعندئذ ، تصبح تصفية الجسم أيضا مجرد تكرار يومي مقنن ؟

فقلت : أو على العكس ، عندما يصبح الجسم حراما ، وعورة ، وقذارة دنيوية ، فأى فقر ، وأى جفاف كامل في الروح .. وأى قسوة للعقل وصرامة للقتل باسم الطهارة الشكلية ، باسم نسك مزعوم إنه مقدس .. !

قال : أما الوسط الذهبي ، والاعتدال المتزن المتسق فهو تجريد ، وخرافة ..

وقال لنفسه : أسير روعة هذا الجسد ، ولوعته معا ، أن حبه يُعطى ولايكتسب ، ليس فيه جهد مبذول ولا صناعة ، بل يأتيك مجانا ، موهوبا ، عطية بلا مقابل ولائمن ولا انتظار . ولايتغير ، حتى عندما يتغير الحبيب ، ذلك أن الحبيب ، دائما ، لايمكن أن يتغير . وعندما يدخل فيه الحساب يناله العطب . عندما تتألق اللحظة ، فهذه هي . نعمة غير محسوبة ولا مطلوبة . فوق الزمن . وعندما تسود الشمس فكل الحسابات باطلة وليس لليأس قرار .

قال لها : هل تعرفين أن بعثة الآثار الإيطالية كشفت عن منزل لأحد الكهنة بالبر الغربي في الأقصر ، يبدو أنه يرجع إلى عصر تحتمس الرابع ، يعني كما تعرفين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . منذ أربعة وثلاثين قرنا يعني .. والبيت يبدو تماما أنه مثل بيت جدى في أخميم ، فيه أفران للطبخ والخبز ، وزريبة للمواشي طبعاً ، وأربع حجرات .

وقال : كتب أحمد شفيق أبو عوف رئيس معهد الموسيقى العربية ورئيس اللجنة الموسيقية العليا ، للأهرام ، اليوم ٩ يوليو ١٩٨٠ : « أكداس من التبن وقشر البطيخ والشمام وسائر الخضروات والفاكهة الفاسدة تغطي أرض سوق الخضار بروض الفرج ، وتغوص فيها الأقدام .. الرائحة العفنة تفوح من كل فج .. ولا يوجد عسكري مرور واحد ينظم سير العربات الملاكى واللوارى والعربات الكارو والبغال والحمير والشياطين والشياطات .. قطع الفئران يسير جنبا إلى جنب مع القطط والكلاب فإن الألفة جمعت بينها جميعا في السوق التي يأكل منها كل انسان يعيش في القاهرة . أما أكداس وتلال الزبالة فتدعو إلى النفور والغثيان .. »

وحكت له حكاية عن موظفة كانت تنتظر الأوتوبيس ، فلما جاء وجدت الباب الخلفي مزدحما غاصا بالناس . جرت الموظفة وطلبت من السائق ، وهى في الشارع ، أن يفتح لها الباب الأمامي المخصص للنزول ، أخذت تشور له ، وترجاه . نظر إليها ، وانفتح الباب ، بجانبه ، عن

هذه الشهقة الكهربائية التي تفتق بها الأبواب في الأوتوبيسات . صعدت الموظفة ، تنهج ،
وتبتسم للسائق فقد أنقذها من عذاب الانتظار . ولكنه مد يده فجأة ، وجذبها من ذراعها ،
وشدها إلى جواره خلف عجلة القيادة . فنترت نفسها مندهشة ، مفاجأة ، وقالت له ، مثلاً :
اختش ، عيب .. هو انت ليس عندك أخوات ، أو شيئاً من هذا القبيل . وظل الركاب ساكتين
وهو يرد عليها بما يحبه قلبه ، ينال عليها بالسباب والشتائم البذيئة ، بالكلمات المنتقاة ،
الفصيحة .. بهتت البنت ، وأرتج عليها ، لم تستطع أن تفعل أو تقول شيئاً . يبدو أنها كانت ،
مسكينة ، بنت ناس . حتى جاءت محطتها .. تصور .. صبرت وسكنت حتى جاءت
محطتها ، ولكن السائق رفض أن يفتح لها الباب ، لا لها ولا للركاب النازلين .. حتى تدخل أولاد
الحلال يترجونه ويقعون في عرضه ، وتنازل أخيراً وفتح الباب ..

قال لها : تصوري الغلب الذي نحن فيه .. !

قالت : طبعا الحكاية ليست حكاية أخلاق . ليس فقط على الأقل . بل حكاية القيمة
السائدة ، قيمة الهبش والنهش والجشع ، لكل شيء ، للنقود ، للجنس ، للقوة .. ليس هناك
شيء آخر .

فصمت . لم يقبل ، ولم يستطع أن يرفض .

لن يكون في هذا شيء جديد ، عندما أقول أنني قضيت الساعات الأخيرة الطويلة أفكر
فيك .. وأن الشوق إليك كان يختلط بالغضب ، واليقين بالحيرة ، والحب بالاضطراب وتوزع
القلب . ليس فيه جديد . ربما كان الجديد هو أن اختلاط الكشوف بالهواجس ، وأن ثبات
الإيمان في عمق لا أملك فيه شيئاً - وكأنه هو الوحيد الذي أملكه وملكني - أمام إحباطات
الإنكار ، والإخفاق ، والتردد - كانت كلها من القوة بحيث لم أعد أعرف ماذا أقول ، في
الوقت الذي أريد أن أقول لك فيه شيئاً ما . أريد في الحقيقة أن أوجد - من جديد - هذا
النوع من الوصل الذي يتأتى وأنا أقول ، أقول لكي تسمعني ، ثم يخال إلي - بحماسة طبعا -
أنك لاتسمعين ، لاتريدين أن تقولي إنك تسمعين . بل تقولين ، بالفعل ، إنك لاتسمعين .

من الأشياء التي تذكرتها الآن فجأة - وهل أنسيتها في الواقع أبدا ؟ - أنك قلت لي

مرة ، تسألين : هل أنت تحبني ؟ أم إنك تحب في الحب نفسه ؟ أنت مخلوق لهذا الحب ، وليس لأنك تحبني .. أم أن هناك شيئاً آخر : هل تعوض في شبابا ضاع منك ، لم تعيشه ، بملكه ، كما ينبغي أن يعاش الشباب ؟ وهذا ، كله ، استدراك لما فوتته على نفسك ، أو فات منك ؟

ثم أنك قلت لي مرة ، بغضبٍ ما من إلحاح هذا الحب عليك : أنت عشت من غيري خمسين سنة .. تستطيع أن تعيش من غيري البقية الباقية .. !

وأنت قلت لي : أنت لا تحبني حقا .. أو ربما كنت تحبني ، بطريقة ما ، بطريقةك .. وفي الوقت نفسه ، في اللحظة نفسها ، معا ، تذكرت أنك قلت لي : أنت تراني هكذا ، يا حبيبي ، فقط لأنك تحبني .. ! بصوتك العذب الحنون الناعم الذي يحتاط عليه قلبي إذ يحتاط على سر حياته .

أجفا لاتعتقدين أنني أحبك ؟ هذا مالا يمكن أن أفهمه ، لايمكن أن أقبله .

أم أنه سبباً لك ، لأنك تعبت . قلت لي أنك تعبت ، بعد أن حشدت مايملاً عشر حيوات ممتلئة حافلة في أقل من ثلثي حياة واحدة .. وقلت أنك لاتريدين أن أكون منهما - جدا - في حياتك .. لاتريدين مني ، بكل هذا الحب والتطلب الذي لابد أن يستدعي نظيراً وإجابة ، أن أفسد حياتك ..

هذا ممكن أن أفهمه .. ولكن هل يمكن أن أقبله ؟ لا أظن .. لا أعتقد .

المحبون ، كما هو ذائع ومستطار - لاتعوزهم الأنانية .

فإذا حاولت أنا ، من جانب آخر ، أن أجعل من شيء معقد جدا ، وكثيف جدا ، شيئاً يمكن اختزاله بأي قدر من الاختزال ، فأسائل نفسي : لماذا أنا ، هذه المرة ، لأصدق حبك ، في الوقت الذي فيه لكل جارحة من جوارحي - على المستوى الفيزيقي وعلى مستوى كل الوجود - يقينٌ أوليٌ بملك القرين بيننا ، الحميمة التي لامثيل لها ، يقينٌ يجاوز كل الأسئلة ، ولا صلة له بكل الوسوس والمهجسات والإخفاقات والاختناقات .. تقولين أحيانا ، وتفعلين ، كما لو

كنت تريدني ألا أصدق حبك .. في الوقت الذي أعيش حقا ، ويرف قلبي ، ويرتفع لي موج طام من سعادة ما أعمق غورها وما أعظمها ، بكلمات حبك ، بأفعال حبك ، بنظرة حبك ، من هاتين العينين اللتين تملآن عليّ كل شيء .

قالت له : لم تكن هذه الرسالة لي .

قال : ألم تكن - حتى - عنك ، أيضا ؟ ألست أنت هذه الرسالة ؟

فلم تقل شيئا ، وعيناها واضحتان .

قال : أهي إذن أنا ؟ فقط ؟

فظلت عيناها واضحتين ، لا تُقرآن

سأل نفسه : هل كنا ، طول الوقت ، ندفع أنفسنا ، عمدا ، بعيدا عن أحدهنا الآخر ؟ بينما كنا نندفع ، بشكل لايقاوم ، نحو أحدهنا الآخر ، وفي هذا التوتر المستمر من التناظر القسري والتجاذب القسري كانت الحكاية كلها ؟

كانت مستندة إلى وسادة الصوف الطرية ، وضعت ساقها تحتها ، وجانب سخي من فخذها مكشوف لعينه اللتين لا تشبعان ، وجهها مشرب بخمر هادئة من الرضى والنوستالجيا ، عندما قالت :

— أليس من الخيف أن يكون ساح ، ليلتها ، فهم أنني أحبك ، أنك أنت الذي أحبك ، وأنت لم تفهم ؟

كان في صوتها ، بالمفارقة ، حنان صغير قديم .

واستمرت : كانت قسوة مني عليه ، لم يفهمها في الأول . لم يعرف ما الحكاية . ولكنه عرف تماما أنه كان موضوعا في شيء يدور من حوله .

قال لنفسه : أهذا ممكن ؟ .. لماذا سمحت لي ، أولاً ، أن أدخل عليهما ، أن أراهما بعيني ؟ كان من الممكن جدا ، بالطبع ، ألا تفتح لي بابها ، في الأوبرج ، فلا أعرف أبدا ماذا حدث .. كأنها فتحت لي لأنها كانت تريد ذلك . كانت تعرف أنني سأطلبها في التليفون الداخلي وانتظرت ، وكأنها كانت تريد أن تقول لي : أنظر ماذا أفعل ! ليس بهذه العمدية ولا

بهذا التدبير الواعي طبعاً ، وإن كان فيه قدر منه ، نصفه مقصود ونصفه غير واع ، ربما . ثم لماذا تأتي إليّ ، بعد أن سقطت في غرفتي ، تأتي إليّ في الفجر ، لم أحس دخولها وأنا في غيبوبة الرحمة الأخيرة ، ثم تبعث لي بمحمود ، تقول له إنني مريض ، ثم تأتيني في هذا الفجر الغامض الغريب - المفروض أنها كانت قد قضت ليلة حب ، فماذا تفعل في غرفتي ، ولم تكذ تمر ساعاتان أو أقل ، وتجلس في آخر عتمة الليل ، والنور المعتم يأتي من البحيرة عبر النافذة المغلقة ، تجلس في صمت ، طويلاً ، وتودعني بكلمات لم أعد أذكرها وإنما أذكر فقط نعمتها التي لانهاية لحزنها وحنوها ؟ ماهذا كله الذي حدث ؟

قالت : وأنت ، ألم تفهم حتى الآن ؟

قال : هذا احتمال ، غريب جداً على أي حال .. وهناك احتمالات كثيرة .

في موجة الحب والتصافي ، قالت له ، كأنما أرجو ، كأنما تتوسل ، من غير أن يكون في نبرة صوتها أدنى اعتذار : قل لي إنك فهمت ، قل لي إنك عرفت ، أنت الذي أحبك ، عدني ألاً- يرجع ميخائيل القديم ، أبداً .

ابتسم لها ، وأوماً برأسه ، في قلبه فرح ساطع . كان لا يريد أن يرى النواة المظلمة في عمق بؤرة الفرع المتوهجة .

قالت : صافي يالبن ؟

قال : نعم . نعم . نعم .

بعد ذلك ، عرف أن ميخائيل القديم مازال .

قال لنفسه : هي دائماً تُوقف كل حوار ليست على ثقة أنها ستكسبه . لا تجيب على أسئلة بعينها ، لا تواصل حجةً بعينها ، إذا استشعرت أنها خطيرة . يجب ، عندها ، أن تكسب الجدل ، أن تظفر بالحجة .

وأجاب على نفسه : غير صحيح . عندما يحدث الحوار ، يصبح عظيمًا . ليس هناك في العالم كله من يعرفني ، ويفهمني خيراً منها .. هذا قد حدث ، قد حدث ..

وقال : والحوار الفيزيقي أنقى وأصدق . أولي ليس فيه جدال ولا حجج ، لا مكسب ولا
خسران ، لا أخذ ولا رد ، عطاء كامل من الطرفين وفوري ، ومتبادل حتى لا يدرك أنه عطاء .

كان صوتها قادماً إليه من القاهرة في التليفون ، وهو في استراحة ماريوبوليس ، كله
نعومة ، أنوثة ، ورغبة . كان هواء الصحراء الجاف يأتيه ، معها ، على وجهه الحار ، وبرج
الكنيسة الصغيرة القديمة يطعن سماء الغرب الصافية ، والهدوء الخارق لا تقطعه إلا غممة عمال
الآثار ، من بعيد ، يصنعون الشاي ويثرثرون بنغمة رتيبة غير واضحة الكلمات ..

قال لها : ماذا تلبسين الآن ؟

قالت : القميص الساتان الذي تحبه .

قال : أحبك .

قالت : وأنا أحبك ، أموت فيك . أذوب فيك . صوتك يأتي إلى في التليفون فأذوب ،
التليفون أداة ظلمة ، محبطة ، أحضني . خذني اليك ..

سمع تهديج أنفاسها في التليفون ، وكان توتره جذبا ومؤلماً معاً ، ورأى عينها تسيلان له ،
بهذا الخضوع والتسليم والاستنجاد الذي يعرفه ، وأحس ، على البعد ، بكل جسمها المطواع
المتفوح . وجاهد نفسه حتى لا يأتي اندفاع قذيفة الاستجابة المحتومة .

قالت : حبيبي .. أنت هناك ؟

قال ، بصوت سمعه أجش مكتوماً : نعم .. نعم .

قالت : أنا آتي معك .

قال : وأنا .. نعم .. نعم .

قالت وهي تنهد : هذا غير معقول .

وفي لحظة من لحظات العتمة المتكررة الكثيرة التي كانت تجيئها ، قالت له :

— هذا كله غير معقول . هذه الحكاية كلها مستحيلة .. غير صحية وغير سليمة .

مقفلة على نفسها ، غير حقيقية .

كانت تتحرك بسرعة ، بين المكتب الصغير والاس تريو ، تحت شجرة الظل ، لاتعرف كيف تتوقف .

قال ، وهو مثبت بمقعده المنخفض الوحيد : لا ، هذا حقيقي ، ببساطة . كل شيء آخر ليس حقيقيا .
قالت : ليس هذا ما أعنى .

قال : أرفض ما يسمى بالواقع ، لانه أولاً غير حقيقي ، وثانيا غير محتمل .
قالت : ترفضه هنا ، معي . لأنك تعبر للواقع في كل حياتك ، حياتك الحقيقية النهارية ، هي حياة حقيقية فعلاً ، لا إنكار لهذا ابدا . اهتمامك الأخرى كلها حقيقية ، في وضع النهار ، أما هذا ؟ ألا ترى كيف أنه يدور في الظلام ، في السر ، مغلق عليه ، خفى .. ؟ هذا غير صحيح ..

قال لنفسه : لا أسلم بالواقع .. ولا أسلم له .. لم أكن أظن نفسي مراهقا — حتى في الشيخوخة ، حتى إلى حافة الموت — إلى هذا الحد .. واقع الأشياء هو الحلم الرديء ، الواقع اليومي ، العملي ، الوظيفي ، السياسي ، الاجتماعي . ما الواقع ، وما الحلم ؟ كلاهما غير مقبول ، وغير سائغ في روحي . حلم أمجاد السياسة والثورة والعدالة واعتناق المستضعفين والمستذلين ؟ قد شاه ، واعتورته الثلمات والجراحات الصدمة ، أما زال قائما برأسه ؟ واقع الضجر ، والتقاعس ، والسكوت في الميض ، أهذا ما عليّ أن أسلم به ؟ هناك ، سوف تقول لي ، واقع المجابهة ، والمعرفة ، والعمل الإيجابي السليم ، بين الناس ، في النور .. واقع الشجاعة ، والأمل ، وإعلاء الحقيقة ..

نعم ، هذا هناك ، سوف أقول لها .

مازال فعل الحياة ، مع ذلك ، مجرد فعل العيش ، والتنفس ، توقلاً صعباً لأكمّة عثوت ، يجيل إلى إنها قاحلة ، مع كل انفجارها بالورد الحبيس . ومضروب عليّ أن أصعدها ، أخوض في رمل الجفاف ، بعناد .

قال.: أخوض في دم الحجر .

لأريد ، مع ذلك ، أي لبس . كل شيء ملتبس في هذا الحب ، صحيح ، كما هو ملتبس في كل شيء . ولكن هذا الحب نفسه — أريدك أن تعرفي — غير ملتبس . أريد له نعمة الوضوح والرشاقة ، ولكني أجد كل شيء فيه بدائيا غيفا مضطربا ووحشيا أيضا . هو داخلي جدا ، هذا صحيح ، ومغلق عليه ، ولكنه يتخلل كل شيء ويغمره . أعرف أنك تمقتين هذا النوع من الكلام ، وهذا النوع من الحس ، وأنا أيضا أمقته ولكن هذا هو . كل شيء يخونني . وأنا أخون كل شيء أيضا . لأن الالتباس خيانة لا مفر من اقترافها ، مادنا نفترف أنفاس الحياة . فأين النطع والسيف لرأسي ؟ من هو الجلاد ؟ ومن هو الضحية ؟

قال : يالكبير .. متى — وهل — تعرف التواضع أبدا ؟ وعقل القبول ؟ وأن تتسامح مع نفسك ، معها ، مع الناس ، والأشياء ؟

قال : مللت . مللت كل شيء .
ليس هذا ممكنا ، ولا هو يحدث .
ولاشيء .. لاشيء .

في غبشة صبح سفره الأخير ، عائداً إلى الاسكندرية ، ووجد أنه قد تيقظ مبكرا ، فتركها نائمة . وخطر له أنها ربما لم تكن نائمة تماما مع ذلك . نهض من جانبها بهدوء ، ومشى ، خفيف الخطو جدا ، محاذرا ، صامتا ، في البيت الذي أصبح جزءاً من لحمه الحي . وفي حركات بطيئة ، شديدة الحرص ، حزم حقييته ، وذهب إلى الحمام ، فتح الحنفية ، وحلق ذقنه ، وغسل وجهه ولبس ملابس ، كأنه في غير زمن ، وفي غير واقع ، وعندما خرج من الحمام وجدها أمامه ، على الباب ، شعرها القصير مهوش ، وعيناها متفختان قليلا ، وفي جسمها بقايا النوم المضطرب غير المستريح . كانت تلك الليلة الأخيرة كلها إخفاقا ولجاجة وخصاما وصلحا غير مستقيم . وكان نومه ، هو ، كأنه يقظة سيئة بالتهويم . قال لها : صباح الخير ، قالت بنبرة اتهام لاتكاد تلاحظ ، دون أن ترد التحية : مبكر جدا ، أليس كذلك ، مستعجل جدا .. وخلصت كل شيء ؟ تركت له خدها ، لقبلة خفيفة غير مرفوضة تماما .

أعدت له إفطاره ، ولم تأخذ إلا قهوتها السوداء باللبن ، وهو يأكل البيض المقلّى بالجبن ، وتوست الزبدة والمرى ، ونفسه مفتوحة . قال لنفسه ، بضيق ، ومن غير سخرية : « من آيات الستمتالية عندي أنني لا آكل الجبن المقلّى بالبيض أبدا ، إلا من يديها » . وهى تنظر إليه ، كما تفعل دائما عندما يفطر وحده ، معها ، نظرة زوجية ولكن فيها استغرابا قليلا وحنوا قليلا . وكانت آخر كلماتها له ، تقريبا ، ذلك الصباح ، قبل أن ينزل يبحث عن تاكسى :

— لاتفعل شيئا غير معقول . مثلت من إلقاء الأشياء على كاهلى ، ووضعى أمام الأمر الواقع .

ثم قالت ، برصانة ، كأنما بعد تفكير : حاول ألا تكون غير سعيد جدا .

كانت قد قالت ، في لحظة من لحظات الصفاء الغريب الهادىء ، بعد اندلاع الحب وارضائه إلى حين ، والأوبة إلى حنان الصمت :

— لي عندك رجاء واحد ، عندما تجيء اللحظة ، لاتفعلها أثت . لاتقلها أنت . دعنى أنا الذي أقطع .

نهض مروعا ، وقبل أن تنطلق منه هتفة الاحتجاج ، والاستنكار ، والرفض ، بادرتة :

— لا . لاتقل شيئا . لاتقل أى شيء . . . أعرف ماستقول . فقط اسمعنى . . من غير غضب . . اتركنى أنا أقطع . فليكن عندك هذا الحنان الأخير . هل تعدنى ؟ عدنى . أريد وعدك .

صمت . لم يجد مايقول . وأوما برأسه ، دون أن يتكلم .

قالت ، بإصرار هادىء : عدنى .

خرج صوته خفيفا جدا ، كأنه لا يسلم أبدا بمجرد الإمكانية : أعد .

فابتسمت ، وقبلته في فمه بسرعة ، ووضعت رأسها على كتفه ، حتى لا يراها .

الباب الحادي عشر

ورقة اللوتس المحبوسة

قالت له : نحل بالك يامخائيل . هذا كل ما أصررت على الاحتفاظ به من ميراث جدى ، جدى لأمى الحاج سليمان . إوع يقع منك .

كانا يرفعان معا ، بحرص ، القرص الخشبي الثمين ، مدورا واسعا ، يعبران به ردهة الممر الصغيرة ، من الباب الداخلي إلى غرفة الجلوس . وضعاه على البساط ، وهو يفلت أصابع يديه بسرعة ، لحظة واحدة قبل أن يرتطم القرص ، بنعومة ، مقلوبا على ظهره ، بالبساط ، ارتطاما هينا رقيقا ، ويرقد أمامهما ، بكل إتقان جماله . لونه داكن ولامع ، زنجي ، نضر وعريق ، وحافته الناعمة التقويس ، كأنها أنثوية متماسكة اللحم ، مشغولة بزخرفة خافتة ودقيقة ، يحددها حز رقيق كامل الرقة ، ويمتد فوقها جسم القرص ، بشرته مصقولة وملساء في ذروة إيناعها وغضوضتها ، لن ينالها عطب أبدا . وهو مقلوب ، بطنه في الهواء تفتحت فيه الفجوات الصغيرة المربعة المدورة التي سوف تدخل فيها رؤوس سيقان المائدة .

ذهبا يأتيان بالسيقان المفكوكة ، قصيرة ، مدملجة ، بسمانة محتشدة هيئة التكوير ، دفيئة الخشب ، تنتهي إلى أقدام مكتنزة راسخة التكوين . حمل إلى صدره ، بين ذراعيه ، السيقان الأربعة يحتملنها حتى لا تتدحرج وتسقط منه على أرضية الممر المصنوعة من الرخام الخردة ، خشية أن تنكسر أو تتخدش ، فتقع الكارثة .

وهي تقول له إن هذه المائدة قطعة نادرة الآن ، وهي التي بقيت لها ، كان جدها الحاج سليمان قد أتى بها من إنجلترا في زمانه ، وإنما لاتعرف أين ذهبت بقية الغرفة التي عرفتها في بيت أمها في الشرقية ، عندما كانت تلعب تحت هذه المائدة بالذات وبين المقاعد التي تكمل الطقم . قالت : لا والله .. مازال عندي أيضا بضع ملاعق وشوك وسكاكين ، مشغولة وثقيلة الوزن من السيرفيس الفضة الذي تذكر ثقله في يديها جدا ، وهي تأكل عند جدها ولاتكاد تعرف كيف ترفع الملعقة لتشرب الشورية لا من ثقلها وكبرها في يدها الصغيرة ، فقط ، بل من رهبتها أيضا . وقالت إنها كانت تحب أن تقعد على الأرض تحت ساق جدها ، بقفطانها الشاهي وحذائه العالي المحمر الجلد تفوح منه رائحة رجولية خاصة ، وقالت إنه كان قد درس في الأزهر ، وكان الناس يتبركون به ، وبكلامه ، وكان فيه شيء لله ، ولكنه كان مهابا وقويا ، وعلى كل طيبة قلبه طاغية أيضا ، قليلا . قالت متى كان ذلك ؟ وقالت ربما عندما كنت في الخامسة أو أقل ، حتى .

وقالت إنها صناعة فيكتورية ، ولكن ألا ترى كيف تتسق ، بشكل غير معقول ، مع بقية الخشب في الغرفة ، كله ، الكراسي ، والمشرية ، والمكتب وكل شيء ؟ نفس قيمة اللون ، مع تنوعاته وظلاله ، أليس كذلك ؟

ذهبت إلى المطبخ وجاءت بأنبويتين منبعتين من الصمغ القوي طلاؤهما أصفر معدني وعليه كتابات بالألمانية ، وملعقة خشبية طويلة اليد مسطحة الكأس تقريبا ، وفرشاة عريضة الشعر ، وكسرولة صغيرة من الألومنيوم ، قالت إنها ستمزج الآن محتويات الأنبويتين وتقلبهما في الكسرولة بالملعقة الخشبية ، وإنه يجب أن ينتهي العمل قبل مرور خمس دقائق على الأكثر من مزج السائل اللاصق وإلا جمد وتعقد وماعاد يصلح . وجلست القرفصاء على الأرض وكان جلد ركبتيها مشدودا في سمرة تضرع خطوط محمرة من احتكاكه بالبساط ، وانفتحت أمامه ساقاها المليئتان اللدنتان في عتمة تحت الفستان البيتي الخفيف الذي بلا أكمام يترجرج تحته ثدياها ، بحرية وتوفز ، وهي تقلب السائل اللاصق ، وررع هو بجانبها أمام قرص المائدة المقلوب ، وسيقانها الخشبية الأربعة جاهزة ، وهو في بنطلونه الجينز الأزرق ، ممتلىء عليه ، في ركعته ، ولكن من غير ضيق ، قالت له : لبست ملابس الشغل ا وهي منهمة في عملها ، ولكنها ابتسمت له عندما لاحظت امتلاء البنطلون عليه ، دون كلام ، واستمرت تقلب ، بسرعة وقوة ، عجينة السائل المتميع الضاربة إلى الصفرة الداكنة ، ولها رائحة كالبترين ، في الألومنيوم الذي تكونت على سطحه الداخلي حلقات متموجة تعقد وتنفلك وتنحل وتسقط ، مائية ولزجة ، على جسم السائل الذي تكونت فيه فقاعات صغيرة . وفكر ، خطفا ، وهو يركب السيقان في فجواتها فتلتصق بجسم القرص بصوت فيه طراوة كثيفة ، كصوت العجين الذي كان يرتطم بخشب طاولة الفرن عندما كانت أمه تصنع أقراص الملاك ميخائيل في طفولته ، أن المائدة ، عندما تقوم ، سوف تشغل بالضبط تلك البقعة التي كانت هي تجلس فيها ، تحت قدميه ، وتنظر إليه من تحت ، وتضم ساقيه إليها ، وعندما يهم بالنهوض تقول إنها تحب أن تجلس هكذا ، تحت قدمي حبيبي وسيدي وتاج رأسي ، فلا يستطيع أن ينزل إليها إلا بعد مجالدة رفيقة ، رغما عن احتجاجها الواهي الصوت ، لكي يعانقها على الأرض في صياحة حب كله عرفان وكله مجد ، عندئذ ترك المائدة ، وسيقانها وكل شيء ، وخطا من فوق طرف القرص الممدد ، وانحنى فقبل دوران كتفها العارية قبله سريعة أعطته مرة أخرى نعومة هذه الانحناء الكاملة ولدوتها المتينة في وقت معا ، وهتفت يا بنون .. ا حاسب .. ا ماذا تفعل ؟؟ إرجع . الحق أحسن الرجل تنفك .. ا ولكنها لحقت بيده الراجعة فأمسكت بها لحظة خاطفة من ثانية ، ووضعت عليها

فمها في أقل من خطفة ، ونهضت ، وكلها وهج الحيوية ومرسيتي الحفة والتوارن ، ووضعت الساق الأخيرة في فجوتها من قرص المائدة ، وضغطت عليها ، منحية عليها ، يديها كليهما ، وهي تنظر إليه ، صدرها قد انهمر إلى الأمام بتناسك ، بعينين فيهما وعود لانهائية لها .

النخلة الرشيقة المحصورة بين جدران البيوت الخلفية ، يراها من شرفة بيتهم القديم بالأسكندرية ، مستندة بسعفها النواس المتأود على الحائط المصمت المقابل ، بين عناقيد الثوم المتدلّية من الشرفات تجف في الشمس والهواء وبين سلاسل اللباب العميق الخضرة صفحات أوراقه تهتز بمائها الداكن على ضلف خشب النوافذ ومواسير الصرف تنساب على الطوب المقشور الطلاء وعلى أنابيب الحديد تتلوى ، ثابتة العظام ، وعلى ألواح الزجاج المترب الباهت العيون ، سعف النخل المخصوف والمضفور على شكل صلبان وعقود وحلقات بيضاوية متداخلة ومتشابكة ، غضة البشرة ، بخضرة فاتحة كأنها بيضاء ، مرشوشة بقطرات من الماء المبارك الذي صلى عليه القسيس ونثره على المصلين بين دقات الصناجات والنواقيس والترانيم ، هَلَلُويَا .. هَلَلُويَا ..

قال : ومع ذلك ، فإن الوحش المحبوس لم ينطلق حقا ، أبدا من قضبانه .

قال : هل هو يريد البقاء داخلها ، أهذا ما يريده ؟

قال : لا يرفع مخالبه ليكسرهما ، بل ليخمشها ، فقط .

ثم قال : ليست القضبان مفتوحة ، ولا سهلة الكسر ، هذا صحيح ، ولكنها ليست مستعصية كل الاستعصاء على الانقصاص ، لو كان قويا ، ومجنونا ، بما فيه الكفاية .

وقال : أريد أن أغوص في عُزّي الكون . حتى من داخل الحبس .

قال : من غير أن أسميه .

قال : لينة الحجر الملقى ، والمعطى ، والمصنوع ، والمرّم ، وهي تحتى بين يدي ، أدّمثها ، أمرّسها ، أدسرها ، أدكّها ، أصقلها وأنعّم حوافها ، وهي عصية ، ولا أستطيع ، إلا بالكاد ، تدليل عنانها الجَموح .

لماذا لا تكفيني ، وتفيض ، هذه المادة الأولية الدسمة ، خام الصخر ، وخام الحب ؟
فليتني أتعلم القبول الذي يأتي من سلام القلب ، كاتضاع الرهبان الذي يأتي من معرفة النعمة ،
عندما تنزل النعمة . هذه التي بين راحتي ، وملء حضني ، ما أندر ما عرفتها ، ما أندر
ما قبلتها .

لماذا الشماس ، والحزن ، والأشواك المرفوعة ؟
ولماذا أريد التشكيل ، والصياغة ، وبناء الرقة المرهفة ، وتثبيت الألم ، كلها لا تحتمل ،
حجراً هفهافاً فوق حجر ؟

كأنما لا أريد فقط المتعة بجسد المعمار ، والمتعة بجسد الحب ، بل لا بد لي أيضاً ، معها
وكأنما رغما عني ، من أن أعرفها ، أحدها ، أشيدها ، أجمدها في إسار صيفة . لماذا لا بد لي
من أن أسجن المتعة والألم ، وكلاهما بلا حد ، ولا قانون ؟ كأنما لا بد لي ، وأنا أغوص في حشد
اللحم الوثير ، أن أصل إلى منطقة منيرة الحدود ، قاطعة ، منطقة أعرف بالحتم أنها هناك ، في
غوص اللامتشكّل ، وهي على أطراف أنامل أصابعي المتوترة المتطلّبة ، ما أكاد أسس تخومها حتى
أتره على الفور في فيافها ، وقد اختفى الأفق الداخلى .

مساءً أن أسرب من سجن الاسماء كل الأسماء كل الأسماء وأن أسري في مساحة سماء
سرمدية شاسعة بلا أسوار لا يسبر سرّاً واحداً من أسرارها ولا تكسر بكارتها أسعى أن اكتسح
صَلَفَ التعريف والتعريف وأن أخلص من إسار التسمية التي أرست ، في صميمي ، سلسلها
تصلصل بسوّراتي وتصفدها .

قال : سراب الدوام ، سديم الثبات ، والخلود ، ليست كلها إلا خدعة من خدع الآلهة
التي تمكر بنا ومكرها غير حميد .

فكيف تطلب الدوام ، وتطمح إلى مقام الآلهة ؟
أليس القلب ، والانحسار ، والنكوص ، هو جوهر الباقي ؟
في وسط طيش القلب صخرة راسخة ما ، لا تطولها يده .

وأنت تعرف أن التكرار مستحيل ، وتنشد ما هو أكثر من رحمة رجع الصدى ، مرة ،
ومرة تنشد الصرح الذي لا يعرف البلى ولا الدثور بل يدوم ، ريان الجسد ، نضر الإهاب ،
يدوم ..

ليس شوقاً عضوياً ، حسياً ، ثقيلًا بالدم ذى العُقَد والتخثرات ، فقط .

ليس الخنين في أطراف الأصابع ، ونبوَّات العصب ، مشدوداً ، منكهرباً ، إلى ملاءة
الشدى ، وتوتر الحلمة المترعة ، واستدارة الساق الرابية ، فقط .

ليس طعم أنوثتك الحصب على جلد شفتي ، فقط .

ليس في مسامعي جرس هسهسة هُنسك من بين أسنانك المفتوحة بحبك وبرغبتك .
فقط .

وليس صراعا بين جسدين ، وراحة الروح في حضنك ، ولا قبلي على كتفك المستديرة
الناعمة ، فقط .

بل هو أيضا ، هو أساسا ، توق أسامي إلى أن تستحيل زهرة الجسم الزائلة عنقاء ألفية
تشتعل بلا انتهاء .

آخلود خدعة ؟ والديمومة حلم طفولة لا تريم ؟ همامي . بلا انتهاء .

هو أيضا مثل الصمت ، وسقوط الكلام ، والحيطان القديمة لانتهار .

وهو الانقطاع ، الانقطاع ، الانقطاع .

فما طريقنا إلى أحدنا الآخر ؟ بل كيف تنتفي الطريق ، فلا يصبح هناك أحدنا أو
الآخر ؟ بل أنا واحد وأنت هو الواحد نفسه ، وما زال هناك الآخر مِنَّا ، من كل واحد مِنَّا ،
وليس هناك ، في وقت معا .

دَرَسَتْ الطريق ، واندثرت معالمها .

قال : القسوة سخيفة ، وغير مبررة . فقط تأتي من الوجد . ولكن الدم الكثيف القوام يجب أن يتحملها ، ويتمثلها .

وقال : هل الحنان ، أيضا ، شيءٍ سخيف ، فات أوانه ، عفى عليه الزمن ؟

قال : بل وفخور ، وفي أطراف دماثته التي لا تُطاق مرارة مقبولة .

كان يجلس ، نصف مضطجع ، على الصوفا الوثيرة ، يرتفق المسند الصغير ، وقد ثنى ساقه تحته في راحة . كان في جسمه حرية ، ورضى ، واطمئنان عميق . أماهى فقد كانت قد تركت جسمها له ، ممدداً على الصوفاً بجانبه ، طوت ساقها إلى فخذيها أيضا ، وهدأت تماما . رأسها ، بشعره الجشن العبق الفواح ، على حجره ، يحس على جلده دغدغته الناعمة المستكنة ، ويحس وجنتها المضرجة سمرتها بدفق التحقق الساجي ، عيناها ترتفعان إليه بنظرة وامقة مليئة حتى الفيض بعمق الرضى ، والامتلاء ، ثم أدارت وجهها إليه ، مغمضة العينين ، وسمعها تهمس كأنما لنفسها ، بصوت نصف نائم ، متمدد ، ينتهي إلى خفوت بطيء :

— إم م — أنا الآن سعيدة .. سعيدة تماما ، الآن لا أريد شيئا أكثر .. أبدا .. لا شيء .. يمكنني أن أموت الآن ، في هذه اللحظة ، وأنا راضية تماما حتى الشبع .. ليس في العالم كله شيء آخر أريده .. خلاص .

ثم فتحت عينيها لحظة ، ومازال صوتها خفيضا ، كسولا : بنفسى أن أفعل الآن كالمقطط عندما تأكل ، وتشبع ، وتموء ، وتفرقر .

وهبط صوتها ، ووجهها ، باستسلام كله أمان : هل أنت سعيد يا حبيبي ؟

أحسن نفسها يهدأ تماما ، ثم ينتظم ، كل الحيوية المكونة فيه قد سكن جيشانها الآن ، ووجهها الثابت الصغير يترقرق ثم يسكن في إغفاءتها القصيرة على حجره .

كانت يده على أجمة شعرها الوخف ، فتركها ، لم يرفعها ولم يضغط بها ، ولم يرد . وكان التواصل كاملا ولا يحتاج إلى كلمة ، ولا إلى نفس .

وكان السكون كاملا .

فتحت عينيها بعد لحظة ، وابتسمت ، تعرفت عليه للفور ، وقالت :
— نحب.. ! ثم نحب وننام .. هذه هي النظرية .. ! ذياالكتيك الحب والنوم .. !

ودفنت وجهها فيه ، فقد كان قد بدأ يتيقظ ، حتى وهي نائمة في تلك اللحظة الأخيرة التي كانت بلا زمن .

الغوص ، والانفجار العذب يقذف لجة الاحشاء في العمق المتحرك المضموم حول عمود الندد القائم الملتهب ، ودفقة سعادته مليئة وكاملة ، صرخة يجأر بها جسمه المبدول الشرس الازدهار ، كأنما رغما عنه ، كأنها لاصلة له به .

قال : إنني كامل . إنني كامل . ليس هناك نقص . لم يعد يعوزني شيء .. لم يعد يعوزني شيء في هذه الحياة ولا في الأخرى .

قالت : لا تتحدّ .. يا حبيبي ، إنهم أقوياء .

هل سأعرف أبدا ، مرة أخرى ، تلك القيمة التي لاتوصف من السكينة والسلام ، وقد برئ الروحان وصفا الجسمان من كل لوثة ، صفاء كأنه من غير هذا العالم ؟ وأنا أنظر إلى عينيها الصفراوين الآن ، تتقدان بنار باهرة ، لاحرارة فيها ، بل نور ؟

قال لنفسه : عيناها الآن فيهما نور ذهبي دقء ! وفي غوره إبر خضر داكنة مشعة ، أحتمل جمالهما من غير أدنى جهد ، جمالهما لي .

قال لها : هذه النشوة ليست ترفا حسيا . هي أكبر من ذلك . هي حال . هذا التحرر من كل رصانة ، واطراح كل تحوط . وانتفاء لكل المعايير . هي جذور صفاء لاوصف له .

وقال : ليس صحيحا أن الوحدة أعمق ماتكون في الجنس ، هذه خرافة . أو قصور . قال : لم أعرف أبدا قهر الوحدة ، نهائيا ، وازدهار الروح على أفق شاسع وساطع في صميمي ، إلا في انصهار النشوة الجنسية التي هي مثل خمر القربان ، وصلاة . توحدُ بجسد المطلق .

كانت تحدّثه بالتليفون ، وهو في ماريوبوليس ، كان يطلبها يوما ، وتطلبه يوما ، وكان أحيانا يغالط ، فيطلبها في اليوم مرتين ، أو ثلاثا ، فتقول له هذا النوع من المغالطة ، هو النوع الوحيد المسموح به ، وكان قد تأخر يوما ، قالت له إنها ستستقبل أصدقاء في المساء ، وتأخر الوقت به ، وناوشته الهواجس ، وتأخر الوقت . ذق التليفون بصلصلة بهيجة ، وثب لها قلبه ، كان يعرف إنها هي . قالت له : لماذا لم تحدّثني ؟ قال : أبدا .. تصورت أنك مشغولة .. أنك ربما الليلة ، أعنى .. وسكت ، فقالت : يعني ماذا يا حبيبي ؟ قل ؟ .. قال : يعني .. أنت تعرفيني ، هذا جزء من ترائي النفسي ، والتركيبة التي في . صحيح أن تركة ميخائيل القديم قد تلاشت ، تقريبا .. ولكن بقي منها هذا الجزء الضئيل . قالت : هذا الجزء تمزقه ، تُقطّعه أجزاء صغيرة وترميه للعصافير التي تجيء أمام نافذتك . تتخلص منه نهائيا ، ويطير به الهواء عندك . قلبه نقي ، قال : قد أكلته العصافير ، وطار به الهواء .

قال : أنا عرفت معنى السعادة ..

عندما جاءها من الاسكندرية ، في رحلته الثانية ، وفتحت له الباب ، كانت عندها إيفيت طوسون ، جالسة على الكرسي الصغير أمام الصوفا . لم تكن المائدة قد أقيمت بعد . كان جسم ضيفتها النحيل ، غامضا في المقعد ، فستانها الحريري ينزل على بطنها المدور المكتوم وينسدل على الساقين السمراروين بعظامهما الحارة . وكانت عيناها ، بسوادها العميق الحالك ، مشحونتين بطاقة ملجئة ، محكمة .

وسلم ، وقال : كيف حال مصطفى ؟

فأجابت إيفيت ، دون احتجاج ، أنه بخير ويمكن يأتي بعد قليل .
كانت في يده هديته الصغيرة ، ملفوفة ، لا يدري ماذا يفعل بها . ولكنه قرر فجأة أن
يعطيها الهدية ولو كان ذلك أمام إيفيت .
فك الورقة الصفراء الملونة بأزهار حمراء صغيرة ، وقال لها : رامة ، هذا شيء صغير لك ،
وللبيت ، من اسكندرية .

كان الطبق النحاسي المشغول يومض في نور الشمس المهتز الداخل من خروم المشربية ،
على كتابات كوفية بلون داكن الصفرة مفروشة ودائرية على الطبق ، وفي قلبه تعاشيق رشيقة
ورصينة .

قالت ، بحماسة ، وهي تتأمل الطبق المنقوش : الله .. ا أشكرك يا ميخائيل . جميل
جدا

ونفضت على الفور ، كأنها ترقص ، وتطير فستانها الخفيف حول ساقها ، بموسيقى
جسدية ، فأتت ، بسرعة خاطفة ، من الدولاب الذي يقع أمام إدهة المطبخ ، بمسماز
وشاكوش ، وعلقت الطبق فورا على الحائط الغربي البارز تحت شجرة الظل التي كانت ماتزال
جديدة وصبيّة ، وأفنانها وأوراقها العريضة مازالت قليلة وشجاعة ويافعة .

قالت وهي تنظر إليه ، وقد نخطت إلى الخلف : كأن كل شيء ، الحائط ، والفراغ ،
الذي فيه ، والشجرة فوقه ، كلها ، كانت تنتظره .

كأنها رأت ، وصدقت ، الرأس الذي يدور في قرص الشمس . كأن قربانه كان
لانهايا .

قالت له ، فيما بعد : تعرف عندما أعطيتني الطبق ، ماذا قالت إيفيت ؟

قال : لا ، ماذا قالت ؟

قالت : كنت أنت قد نزلت . فقالت لي ، فجأة ، دون مقدمات : « هذا الرجل

يجبك .. خل بالك عليه .. ! »

قال : ياه .. كيف عَرَفْتِ ؟
ثم ضحك ، وقال : وماذا قلتِ ؟
نظرت اليه ، ولم تقل شيئا .

في جملة لاحقة من موسيقى زمانها المتقلبة الأدوار ، عندما استيقظت من نومها الكدير القصير في عباءتها السوداء السابقة المكومة عليها ، بعد مناقشة جاءت فيها ، حكاية أقباط مصر ، فجأة ، وقالت فيها إن البابا شنودة رجل عنيد ، لا يفهم الوضع ولا يقبل التنازلات الضرورية في بعض الأحيان حفاظا على هذه الوحدة الأزلية لشعب مصر ، وقال هو فيها إن الرجل بلا شك سوف يدخل السنكسار الحديث ، وإن إصراره إنما هو لأنه ينافح - كما يرى وكما يستطيع - عن كرامة مصر كلها ، وليس فقط عن كرامة شعبه ، وقبل أن تستنكر قال لها إن « الشعب » هنا تعبير كنسي وليس قوميا ، وقال إن القضية ليست قضية أقباط أو مسلمين ، بل هي في الأصل قيمة التاريخ كله في مصر ، وعندما تصورت أنه يحتقر ذكاءها ، أو معرفتها ، ونامت ، انزلت ، انفصلت ، كان هذا أكثر ما روَّعه ، وسمع صوتها النائم ، غائبا ، في حلم رديء وأساسي :

— كم أنا خائفة .. ووحيدة .. !

كان صوتها الآخر ، صوت الأخرى منها ، عميقا ، خفيضا ، طفليا ومحملا بتراث فادح منكور ، وليس فيه أدنى شكاة ، ولا استنجاد . وكان عجزه أمام هذا الصوت ، أمام هذا النوم ، مطبقا وكاملا .

نهضت جالسة ولملمت العباءة الداكنة عليها في الغرفة التي ليس فيها ضوء ، كان في صوتها الصاحي شحنة مرعبة من الطاقة والتفجر الشائك الخشن :

— أنت أناني . تقول الحب ؟ تقول إنك تحبني ؟ هذه خيالات ، وأوهام .. كيف تجرؤ ؟ نعم كيف تواتيك الجرأة ؟ تقول إنني التي في كلامها امتهان لك ؟ لك أنت ؟ أنا ؟ امتهان ؟ كل هذا الكرم وتقول هذا ؟ ليس هناك من هو أكرم لك مني .. وأنت .. أنت لاتقدر شيئا ولا تفهم شيئا .. أنت حتى لاتستحق .. نعم لاتستحق .. !

كانت عندئذ، في العتمة، حضورا مفاجئا ومنذرا لم يتوقعه أبدا . عرف هوة صامته لاقرار لها في داخله ، وعبر الغربة ، والغرابة الشاسعة الموحشة ، فهم أنها قريبة إليه جدا ، أقرب جدا مما كان يتصور في أى وقت .

قالت له : لا .. لاتلمسني . ابعد عني .. إنني أمقتك .. أمقتك ..
قال : أنت .. أنت تعرفيني .. تعرفين أنني ..
فقاطعته ، بصوت أخفض ، كأنما لنفسها : لا .. أخشى أنني لا أعرفك .

صمت . كانت الصدمة أكبر منه ، وأكبر حتى من فهمه الجديد الغض العود ، وكأنه يرى ماتقول وهو بعيد جدا ، محبوسا في كرة مغلقة عليه ، شفاقة ولكن لانفاذ من سطحها المحكم الدوران ، المصمت دون أى شرح .

وهجس بنفسه أن هذه الصلابة ، هذه القسوة ، هذا العنف في صوتها ليست كلها إلا حيلة دفاعية ضد الرقة العميقة التي فيها ، ضد الضعف العميق ، حاجزا يحول دونها والانهيار .

وقال ، فيما بعد : ليس بالضرورة . ليس هناك ما يجعلني أقبل هذا أو أرفضه . مادليلي على الإثبات ، أو النفي ؟

وقال : أما براهين القلب فليست ، بالضرورة ، بمنأى عن كل عطب .
قال : وكما قيل ، ويقال دائما ، براهين القلب وحدها هي البرهان .
ثم قال : والغربة بيننا ، هل هي التي تدفني ، ولعلها تدفعها أيضا ، تدفعنا معا إلى التخطي المستमित ، إلى التعدي الذي يحدث في قلب الإنكار ؟

المعرفة أن لحظة المجد ، لحظة سقوط الحاجز ، لحظة الانصهار المحترق العيشين بعد التوفز الحميم ، ليست - ولا يمكن أبدا إلا أن تكون - خاطفة ، كأنشعاب البرق ، وثابتة ، ثابتة وخالدة ودائمة كالقفل الذي يحمل ثقل كل الأجرام المضيفة أبدا بلا انطفاء .

قالت : حتى ما أسميه « خناقاتنا تقريبا » سوف تبقى لنا ..
« تقريبا » .. فهي ليست - ولا يمكن أن تكون ، أبدا - انشاقات ، أو انفصالات .

مجالدي حبك صراع مع الملاك الأسود المرفرف حول عيني بمنقاره الذهبي في الشمس ،
بجناحيه الفاتحين الهائلين يضربان جوانب وجهي ، ويدوبان كالشمع .

قالت له : أفقد لمستك الناعمة ، وحبك الرقيق .
والنشوة صارمة الحنان ؟ وعنق الحلم الصلب ؟
ألا تفتقدونها ؟

سيدي المحترم وولدي العزيز (ابن ستي المحبوبة) ميخائيل افندي
أهديك وحضرة السيدة المحترمة والدتكم وأشقاءكم كثير سلامي وأشواقي وأرجو من رب
القدرة والعظمة يحافظ عليكم وينجيكم من كل سوء ويوريني وجهكم بخير .
سيدي وصلني جوابك ، وكامل شرحكم غلم ، وتطمنا على غالي صحتكم ، وكان سبق
أرسل لكم جواب بداخله خمسون قرشا ليدكم بالسلامة .

عزيزي الليلة الماضية كنا بايتين بالاسكندرية لأننا تأخرنا على المواصلات للمحمودية ،
وضربت صفارة الانذار الساعة ١١,٤٠ وبعدها الأمان الساعة ١٢ طوالي ، غارة بسيطة وألقت
قنابلها بجوار العامود والقباري وهدمت بعض منازل والخسارة بسيطة ، وعند حدوث غارات نزل
في الجامع بجوار البيت أحسن من المخبأ والحمد لله والمنظور لم يحصل غارات ثاني . أمس توجهت
غيط العنب لمنزل عبد المسيح، ووجدته غسل الهدوم وكلفته بمكوة القفطان ومنتظري في الغروب
مع العلم بأني أدفع أجرة الغسيل والمكوة بزيادة قوى قوى والحمد لله . واستحميت وغيرت
الهدوم . أرجو أن ترسلوا لنا بطاقة صرف الجاز لكي بموجبها نتحصل على تذاكر سفر بالسكة
الحديد للحضور طرفكم في أخميم إنشاء الله في آخر الجاري ، وأرجو أن توافوني بما يلزمكم من
هنا لاستحضاره والدتكم تنظف البيت كويس وتحضر وتزغط ذكر بط وعسى يكون باقي من
الفراخ وختاماً دعواتي وأشواقي مبعوثين إليك من صميم الفؤاد .

والدك قلدس قلاده

الاسكندرية في ١٥/٨/١٩٤١ .

عندما دخلت عنبر الحوادث في المستشفى الأميري الجامعي في الاسكندرية وجدت موظفا يجلس أمام منضدة داخل العنبر ، كان يقزقز اللب بينما على المنضدة « السجل » يحتوي على أسماء المصابين .. أخذ ينادي في منتصف العنبر عن المصاب الذي يحمل اسم مسعد عبد السلام عمران ولما لم يجب أحد أخذ يوقف المرضى واحدا واحدا يسألهم عن أسمائهم حتى وصلنا إلى السرير رقم ٧ حيث اكتشفنا أخيرا المصاب يرقد عليه تغطيه أغطية قدرة متسخة تقزز النفس على الرغم من أنه أجريت له عملية جراحية يجب ألا تتلوث .. وكان يصل إلى مسمعي صوت راديو أقسم أنني لو كنت جالسا على مقهى بلدي ما كان المذياع سيرتفع فيه إلى هذا الحد . ثم هذا هو غلام صغير يرقد على سرير مجاور يصرخ من الآلام بينما الممرضة تنهره لكي يصمت بل تكاد تضربه .. ذلك كله حلاف ما يغطي أرض العنبر من قمامة تتمثل في قشر البرتقال مع قشر اليوسفي مع مصاصات القصب إلى غير ذلك من الخيرات .. ا

نقيب فتحي محمد حسن
الأهرام في ١٧ فبراير ١٩٧٦
ادارة البحث الجنائي اسكندرية

وقالت المساء في ١٤ يناير ١٩٧٧ إنها نشرت في عدد الجمعة السابق أن بوللى ، أشهر موظفى النظارة الخاصة للملك يطالب بزيادة معاشه ، وأن حسين محمد على الحلاق الخاص للملك السابق أرسل التماسا إلى العميد ن . أ عبد الحى هيمى مدير عام ديوان المظالم برباسة الجمهورية يطالب فيه بزيادة معاشه أيضا وقال : « كنت أعمل في خدمة الملك السابق كحلاق خاص له . وكنت أتقاضى مرتبا يكفى أسرتي كبيرة العدد ولما قامت الثورة المباركة انتهت خدمتى وقررت لي الحكومة معاشا بسيطا يبلغ ستة جنيهات ونصف جنيهه إلا أنها لا تكفى أسرتي التي تزيد على عشرة أبناء وبنات وفي مراحل التعليم المختلفة . فهل تأمرون بزيادة معاشي حتى أتمكن من مراجعة مطالب الحياة وخصوصا وأن السن تقدمت لي وأصبحت غير قادر على مزاوله المهنة »

قالت له : أنت مهندس جيد ، أنت ذلك . تعرف ذلك .

فلم يقل لها : ربنا يخليك ويطول عمرك .. المهندسون الجيدون ، بارك الله فيهم ، كثيرون ، والدسته منهم بنكلة ، مع كل الاحترام . لا ، لست مهندسا جيدا .. أتمنى لو أنني كنت مهندسا خارقا ، حتى لو كنت رديئا .

وم يس لنا إن القليلين من أصدقائه الذين يعرفون عمله قالوا عنه أشياء عظيمة ما ، لم يكن بصدقها تماما ، ولكنه كان يريد أن يقتنع بها ، قالوا له إن بعض أعماله في ترميم الأعمدة ستظل باقية ، حتى لو لم يعرفها أحد الآن ، باقية على الزمن ، قالوا .

ولم يقل لها : لماذا لم تقولي أنت شيئا كهذا ، لي ، وأنت الخبيرة بهذا العمل ؟
ولم يشأ أن يقول حتى لنفسه : كأنما كل قيمتي ، منها هي .

قالت له : هل تذكر يوم أن جئتني ، مرة واحدة ، في شقة المعجزة ؟

قال : أذكر ؟ وهل يمكنني أن أنسى شيئا عنك ، حتى لو أردت ؟

قالت : خلنا في المهم ، الآن .. كنت أيامها قد تركت حسن ، وتركت له كل شيء في البيت ، حاول كثيرا معي ، في الحق ، ولكنني رفضت ، خرجت بملابسي وملابس البنت . لم يكن من الممكن أن أدخل في تسويات ، ومن يأخذ ماذا ؟ كان الطلاق نظيفا ، وافترقتنا أصدقاء ، ومازلنا أصدقاء . الحكاية التي أريد أن أقولها لك الآن ليس هذا ، كنت أعمل كالزوجة ، كما يقال ، وأشقى صحيح ، فقط لكي أقيم أود منال . هل قلت لك هذا ؟ ترجمت إلى العربية فصولاً لانتهي في التاريخ المصري القديم وفي التاريخ اليوناني ، وصححت تجاربها ، وتنازلت عن كل حقوقي في الترجمة لكل يضيف الوزير السابق بضع كلمات ، ويحذف بضع جمل ، ويعيد ترتيب الفقرات ، ويضع اسمه عليها باعتباره المؤلف ولكن على الأقل كنت أقبض منه مرتبا شهريا . لا تتصور مدى غضبي لهذه الجريمة .. لا .. دعني أكمل .. جريمة بكل المقاييس ، ويجب أن تُفصح .. هأنذى أفعل ذلك .. ويجب أن أعاقب أنا ، أولاً ، والسيد الوزير السابق ، وكل من يعرف بوقوعها أيضا ، ويسكت .. هذا ليست مسألة أخلاق بورجوازية مثلا ، ولا شيء من هذا القبيل ، هناك نوع من الشرف ، في كل الأخلاقيات ، فوق كل الأخلاقيات ربما - وليس هناك أي تبرير ، أي عذر ، حتى لو كان في مقابل بقائنا أحياء والحصول على لقمة العيش بعيداً عن السرقة والتعريض - لا مؤاخذة - وكل شيء يغضب الله كما كان يقول الحاوي ، زمان ، الله يمسيه بالخير بقي ..

فكان نقاشه معها عن الخير الأسمى والخير الأقل غير مقنع تماما ، حتى عنده .

قالت : هل تذكر الغرفة الصغيرة في تلك الشقة ، في المعجزة ؟ طبعا تذكر ؟ قلت لك

إن عيسى أخى الله يرحمه كان يسكن معنا ؟

قال : طبعا .. النافذة كانت تطل على أرض فراغ بين العمارات ، وأكوام من الطوب والخيش وحديد التسليح وبراميل ، وباب خشبي على الأرض الفراغ ، مربوط بسلسلة حديد ..
قالت : اسم الله عليك !

قال : لم يكن في الغرفة سرير ، مرتبة فقط ، على الأرض ، والبطانية ودولاب صغير .
ورأيت على المشجب الكاب العسكري ..

قالت : لكنك لم تلاحظ الصورة الصغيرة ، في الحامل الخشبي ، على الكومودينو ؟
سأعترف لك ، وحدك ، هذه الصورة أعتر بها ، كما أعتر بصورة منال ، وعزة ، وأكثر ..

نظرت إليه قليلا ، وأكملت : حبيبتك ستمتالية أيضا ..

قال : هل . هل كان أخوك شقيقك ؟

قالت : لا ، ليس لي عندي أخوة أشقاء .. هو وعمر في السعودية فقط .

قال : أعرف أنه .. أنه استشهد في أكتوبر ؟

قالت : ولم يُشفَ الحزن الذي تركه ، ولن يشفى أبدا ، الآن على الأخص ، لن تنطفئ لي نار ، حتى آخذ بثأري ... ليس يبى وبينهم ، بينى وبينه هو على الأخص ، إلا الدم ..

كان جسمها عنيفا .

وقال لنفسه : طبعا . منطقتها هو الأقوى ، هو الوحيد ، برغم كل صحة أى منطق ،

آخر ..

وقال : عنف هذا المنطق هو صحته النهائية ، وتبريره . ولا يمكن أن يُناقش ، ولا أن

يدحض .

وقال : عنف هذا البغض ، لا انفصال له عن عنف هذا الحب . هو وجهه الآخر .

كان مصطفى قد قال له : أهذا يمكن أن يوجد ؟ أهذا العنف يمكن تصديقه ؟

قال : كم منا ، نعيش ، ونموت دون أن نعرفه ، ولا نعرف وجهه الآخر ؟

قال : كم من الناس عاشوا وماتوا ، أيضا ، دون أن يعرفوا نشوة هذا العنف ؟ جماح هذه

الخيول المنطلقة إلى عين الشمس ؟

أجاب : كثيرون ، وربما الكل .. لعلهم فقط لا يعرفون أن يقولوه ، أو لا يعرفون الوعى به ،

فقط ..

قال : مامن أحد يعرف أن يقوله . وهل أقول أنا شيئا ؟

قال : ولكنني اخترت . اخترت أن أضع عنف الحب في هذا الإطار . ضربت عليه الحصار . هذا اختيار جارح حتى آخر غور ، لا يطاق . ولكنني اخترته .

وسأل سؤاله القديم المراوغ الوجه : ماذا لو أصبح هذا الحب حياة يومية ؟ ماذا لو صنعت منه الحياة ، بعبارة صديقه القديم . لو أصبح شيئاً أعيشه في حدود كل يوم ؟ أكان يتغير ، أكان يصبح مللاً ومشاحنة ؟ أو على الأقل ألفة باهتة ؟ أكان يفقد سحره ، إذ يفقد خفاءه ، وصفاءه القاتل ؟ هل كان يطمىء الصداً وهججه ؟

كانت قد قالت له : هذا كله غير صحيح ، غير حقيقي ، حلمي وداخلي ..
وقالت : هذا غير صحيح .. هل لو قلت لك الآن ، مرة أخرى ، أترك كل شيء ،
وتعال ، ماذا تفعل ؟

قال بهدوء ، فجأة ، من غير تفكير لحظة واحدة ، كأنما عن قرار كامن لم يكن يعرفه أبدا :

— أقول نعم . فوراً .

كان الهدوء في الغرفة الخفيفة الضوء كاملاً .
كان يعرف أنه خطأ خطوة نهائية . كأنه قطع ، مرة واحدة ، كل السلاسل ، ووقف دون أدنى سند ، دون أدنى جهد ، فوق هاوية ساطعة الظلام .

القرار قد اتخذ .

أخذت ، بُهتت لحظة ، اتسعت عيناها من المفاجأة والدهشة والروع قليلاً .
قال لنفسه : لم تكن تنتظر أبداً ، هذه الإجابة .
قال : كل الأوراق قد قلبت ، مكشوفة الآن .
كان القرار قاطعاً . لم يشأ أن يؤكد حتى لا يتذلل ، حتى لا يوضع أبداً موضع سؤال أو مناقشة . كان تأكيده نهائياً . وكانت تعرف : فسكت .

سكت ، ولم تقل كلمة واحدة ، في نظرتها شيء لم يفهمه .

نظرة ناضجة ، مليئة بحكمة الدهور ، فاهمة ، لا وهم فيها ولا حلم ، يأسسة ، من الناس ، من الزمن ، وصاحبة ، مع ذلك ، نظرة غير أنثوية ، ومع ذلك ففيها المرأة كلها .

وكان هذا القرار بينهما ، حتى النهاية ، لم يعد يمكن أن ينال منه شيء .
لم تقبله أبدا ، هذا القرار ، لكنه كان موجودا ، ولم تنفه ، ما كان يمكن أن يُنقض .
قالت : لو كنا عرفنا أحدنا الآخر ، من زمان ، فإما كنا قد مزقنا أحدنا الآخر ،
تمزيقا ...

قال : أو ..

قالت : أو كنا وصلنا إلى ما لم يصل اليه أحد من قبل ، أبدا .
قال : الاختيار .. بين شيء وحشي ، مطلق ، وجسديّ معا ، ومن كثافته المحتشدة ،
شفاف حتى لا يكاد يُرى له قوام ، وكأنه لا يوجد ، من فرط ثقل وجودة ونصاعته ؛ وبين كل ما
يحيط به من حجر خشن معتم ، ويدفنه .

كان ثلاثهم في سيارتها الفولكس ، أحمد معهما ، والطريق الأسود غير المطروق يشق
الغيطان ، وإلى يسارهم حافة ترعة واسعة تنمو الحلفا والهيش على جدار جسرهما الرملي المرتفع
الذي تتابع عليه أكوام من الرمل الجاف الصلب القوام ، لونه داكن ، وموحش ، وأشجار التوت
والكافور مائلة عليها بجذوعها العريضة المتلوية وورقها الكثيف والخفيف بالتراوح ، وكان الماء في
الترعة العريضة رصاصي اللون ، وثقيلًا كأنه لا يتحرك .

كانت هي التي تقود السيارة ، بثقتها وتمكنها القديم ، وكان أزيز المحرك عاليا ، والهواء
يندفع إلى داخل السيارة من النوافذ المفتوحة ، جافا ، وقويا على وجهه ، وهو إلى جانبها .

وكان يواصل مناقشة عقيمة ، مسدودة الباب ..

قال ميخائيل : طبعا ليست المسألة كلها أنني أرفض هذا العمل . ليست المسألة أنني
موافق ، أو غير موافق ، لم يعد لهذا معنى الآن ، لست أوافق ، بالتأكيد ، نعم ، ولكن كما ترون
هأنذا الآن معكم ، بغض النظر . المسألة أنني متأكد مع ذلك أن هذا العمل الذي يبدو
الآن ، ونحن في هذا المأزق ، ضروريا ، بل ومحتوما حتى ، خاطيء . أكثر من خاطيء . ومناقض
في المدى البعيد لكل المعاني ، المبادئ ، القيم أو ماشئت ، التي باسمها نفسه يُعمل هذا
العمل .

لأريد الآن أن أذكركم ، في هذه الساعة المتأخرة جدا ، بكل ما اعتنقناه ، وتعلمناه ، على اختلاف آرائنا وتفسيراتنا ، من سنين طويلة ، أن يأس العنف الفردي ليس فقط غير مجد بل هو - ضروري - ينقلب على القائمين به ، يعمل ضدهم . ولكن لابد أن أذكركم به . ألم نناضل جميعا ضد الإرهاب الفردي ؟ وقلنا - كم قلنا - إن العمل بين الجماهير - هكذا كنا نسميه ، أليس كذلك ؟ والتنظيم الصبور لطاقت الشعب ، كشف الحقائق والوقائع الصغيرة ، واحدة بعد واحدة ، بإصرار ، وتحليلها ، بإصرار ، حتى يتم التغيير الكيفي في وعي الطبقة وحلفائها ، في وعي الجماهير يعني .. أهذا كله بعيد طرحه من جديد ؟ أهذا ممكن ؟

قال أحمد : هذا صحيح . كل هذا صحيح . لكن الواقع تغير ..

قال ميخائيل : المبادئ لم تتغير .

قال أحمد : لم تتغير ، تطورت .. الجماهير ليست فقط مكبلة ، ومغللة ، بل مضللة أساسا . أجهزة القمع الأيدلوجي أصبحت الآن رهيبة ساخقة ، لم تكن أى شىء قريب من هذا في القرن التاسع عشر . لم تعد تجدي الآن إلا زلزلة .. اللحظة الآن هي المهمة ، وليس التاريخ ، حتى ، بمعنى من المعاني ، مادام الوعي قد أوقف ، فلا بد أن يُصنع التاريخ من لحظات . لحظات حاسمة .

قال ميخائيل : لن أقول لك إن هذه ، بالضبط ، هي عقيدة الآخرين ، إن هذا إنكار لطاقة الشعب الخلاقة ، الجماعية ، التي وحدها هي القادرة على الاختيار ..

قالت رامة : الشعب صامت .. مكتوف اليد . ومادما قد حرمنا ، رغما عنا ، من بهجة العمل بين الجماهير ، في النور ، مادما نعمل في السر ، في الخفاء ، في الوحدة والوحشة ..

نظر إليها ، كانت عيناها معلقتين بالطريق ، قال لنفسه ، بسرعة : عمّ تتكلم ؟ وقال : - ولكن أى نوع من العمل .. ؟ هذا هو المعيار . وليس العلنية أو السرية ..

قال أحمد : لهذا يجب ، يجب أن نعمل ..

قال ميخائيل : نعمل ؟ من أنتم ؟ من نحن ؟ كنا ، ومازلنا ، حفنة من المثقفين كما تقول أنت ، نضرب صخر الناس الهادىء الثابت ، من غير جدوى ، بأفكار تبدو لنا واقعية علمية إلى آخره ، ولكنها لا تمس أحدا ولا تمز أحدا ولا تثير أحدا .. ولكن ..

قاطعته أحمد : بالضبط ، ولذلك نكسر قيد الصمت . نحن ؟ ، نحن ، أنت تسأل ؟
نحن ، ياسيدي ، إذا شئت ، أبناء الذين وقفوا أمام السلاطين وباعوهم في السوق ، أبناء الذين
صنعوا الميثاق الشعبي الأول مع محمد علي ، أبناء كل الذين ماتوا ويموتون من أجل أشياء كالحرية
والكرامة والعدل بين الناس ، نحن ياسيدي ، أبناء الفلاحين ، مادة مصر الغنية المتجددة ،
الذين قاتلوا من على أبواب اسطنبول إلى درافور ، ومن المورة إلى نجد ، والذين ماتوا في القتال ،
وفي القرم ، وفي المكسيك ، وفي فردان ، وفي فلسطين ، ثم قطعوا السكة الحديد ورفعوا علم
الجمهورية في وجه امبراطورية لم تكن تغيب عنها الشمس ، والذين ضربهم الرصاص في شوارع
قاهرة آخر السلاطين وآخر الباشوات . ماذا تريد أيضا ، قائمة آباءنا طويلة ، وقائمة زملائنا
أطول ، الذين شربوا السل من غبار محالج القطن ، والذين جاعوا في حقول القمح الوافرة ، زملاء
خميس والبقرى وشهدى وحداد والمثاق الدين امتهنوا والآلاف الذين لم يسقطوا .. هذا نحن ..

قالت رامة : نحن الذين نعرف حركة التاريخ ، ونفهم سره ، ونصنعه . نحن الذين نصنع
التاريخ عندما نتسق مع قوايينه ، وندفع بحركته ، نطاوعها ، ونطوعها في اتجاهها الأصيل نفسه ضد
الطفيلان ، ضد القهر ، مع الأطفال الذين يموتون بلا سبب ، مع الذين يكدحون ويعانون طول
عمرهم ، ويموتون صامتين .

قال ميخائيل : لن تنتهي معاناتهم ، مهما كانت النسب الحسابية . مهما صغر العدد أو
كبر ، المعاناة قائمة . وستظل الحياة .. حتى في الجنة الأرضية لو تحققت - مادامت
أرضية - ستظل معناها الألم . طفل واحد يموت بلا سبب يعدل كل الاطفال الذين يسعدون
ويزدهرون ويحيون ويشيخون ويموتون ميتة رهم . وسيظل هناك دائما طفل واحد يموت بلا سبب ،
على الأقل . الألم يستحيل أن ينتفي . وفي أعند الطوباويات الأرضية هناك قطرة ظلم . وقطرة
دم واحدة تجعل كل محيطات العالم آتمة ملوثة مهما بلغ من نقاء ملحها الشفاف .

قالت رامة : ما هذا ؟ هذا عظيم ، جدا . ولكنك تتكلم عن عدلي كوني ، مطلق ،
إلهي ، نحن أكثر تواضعا . نريد عدلاً اجتماعيا ، نسبيا . أكثر ما يمكن منه ، ودائما . هذا كل
شيء ..

قال ميخائيل : العدالة ليست شيئا إنسانيا . وليس الحب إنسانيا ، وليس الجمال

إنسانيا . هذه أشياء نقية بطبيعتها ، صافية و طاهرة ، مطلقة إذا أحببتِ مادمت قد ذكرت هذه الكلمة . أما كل ما هو إنساني فهو ملتبس ، وملوث ، المشكلة أنني لأعرف ولا يمكن أن أعرف للمطلق وجودا إلا بما هو إنساني ، إلا بما هو داخل الإنسان . ولكن شهداء العالم الذين بلا اسم سوف يظلون يسقطون ، عن رضى وطواعية ، والجلادون سوف يظلون يسقطونهم ، عن متعة أرضية أو باسم مطلقٍ ما ، أيضا ، مطلق يروونه أعلى من كل الآثام والجرائم .

قالت رامة : أعرف ، أعرف أيضا أن الفرد ليس هو صانع التاريخ . تعلمنا ، من زمان ، كما قلت ، أن عمل الناس ، العمل الجماعي هو الرد الوحيد . هل تأتي الآن لتعيد لنا هذه الأجديات . ولكنني أعرف أيضا أن الوضع يتغير ، أنظر .. أنت الذي تمجد الفرد ..

فقاطعها ميخائيل : لا أمجده ، بل أعرف فقط أنه ..
فقاطعته بدورها : بل تمجده ، نعم ، ولا ترى غيره في نهاية التحليل ، ومع ذلك فما هو ذا الفرد الآن مطالب بالعمل ، مادامت الجماعة صامتة ، أو مخربسة ، غائبة أو مُغَيِّبة عن الحل .
ليست النظريات القديمة صحيحة إلا بقدر ما نغيرها ، حسب الظروف الجديدة ..
قال ميخائيل : ما أصح هذا .. نعم ، على مستوى ما . ولكن نغيرها في أى اتجاه ؟ في أى اتجاه ؟

قال أحمد : الرجل هنا هو الرمز .

قال ميخائيل : الرمز تجريد . الرمز فكرة . لا يمكن أن تقضي على رمز وعلى فكرة . ماتقتله ليس الرمز بل الرجل ، مهما قلت .

قال أحمد : أنت الذي تتكلم عن المطلق ، تنكره . أما أنا فلا أعرفه . المطلق عندي شيء غيبى ، وغير علمي على الأقل . في مقابل هذا المطلق العلوي الذي به القانون العلوي ، والذي يرجع - ويرجع بنا - إلى غيبيات وسيطية عفى عليها الزمن ، فليس عندي إلا الإنسان الذي صنع مصر ، الكادح الذي صنع هذه الأرض وأسلس للإله النهر مجراه ، هو الذي صنعه . وهو الذي صنع المطلق ، وليس العكس ، أول ما صنع . هذا الإنسان اذن هو المطلق الوحيد الذي تُسدى إليه العبادة - إذا صح هذا - لأنه هو الذي يصنع ويغير الأرض والمستقبل ، نفسه ، بحرية ، ووفقا لقانون التاريخ . والتاريخ إنساني ، ليس علويا ، كما يفهم منك . لا .

حتمية التاريخ ، حتمية القانون العلمي ليست مطلقة ، طبعاً . المستقبل لنا ، ولن نسمح لأحد ، لأى أحد ، أن ينتهك المستقبل أو حتى أن يعوقه . هذا العمل إنما هو من أجل تحرير المستقبل ، من أجل تحرير الإنسان ، من أجل العدل الإنساني . المطبق عندي ، هو فقط العقل الإنساني . المطبق يجد سياقه في التاريخ ، ليس خارج التاريخ ، في هذه الأرض وليس فيما قبلها ولا فيما بعدها .

قال ميخائيل : صحيح ، صحيح . معك أنا في هذه الجملة الأخيرة . ولكن ألا ترى ، ألا ترون ؟ كلامك عن حتمية التاريخ ، حتمية القانون العلمي ، أليس هذا مطلقاً جديداً ، يتسرب إليك تحت أردية أخرى ، وممزقة جداً لو سمحت لي . مطبق أرضي وقاصر ، وله وجه مظلم قائم أيضاً .

قالت رامة : وهل تتصور أن ثم سعادة وبهجة في أننا نقوم بدور الجلادين ؟ ولكن الجلاد هنا له وجه البراءة الكاملة ، الجلاد هنا هو الضحية . وهو الذي قبل الموت . الموت للقاتل وللبريء معا .

قال ميخائيل : باسم أى براءة يُرتكب العنف .. !

قالت رامة : العنف سائد . يتفشى في كل شيء . في كل مسام حياتنا . ليس العنف غريباً ، ولسنا نحن الذين نصنعه . أنت قلت مرة أن كل نفس تتنفسه يتضمن العنف والقتل . أى انكار لهذا هو مرة أخرى تواطؤ معه . العنف من أجل القضاء على العنف ، حتى هذا ، على ضرورته ، ليس كافياً . لكن العنف من أجل الحب ، من أجل الإخاء ، من أجل الحرية والعدل ، هذه ديناميكية ضرورية . لم أصنعها . لم نصنعها نحن . فرضت علينا .

قال ميخائيل : ما أشد عذاب هذا . هذا صحيح مرة أخرى ، صحيح . ولكن كيف .. كيف تفصل بين العنف الذي هو نفسه من قانون الحياة ، وهو بهذا المعنى خير ، والعنف الذي هو من صنع أيدينا نحن ، بلا ضرورة .. هذه هي حاجتكم أنتم . العنف الكوني والعنف الإنساني شيان مختلفان . كيف نفرق بين العنف من الناس ، على الناس ، وبين العنف الواقع على الناس من خارجهم ؟ لأن الناس مولودون من أجل الموت ، والألم ، والمرض ، مهما استخدمنا المبيدات الحيوية ، والجراحة بالليزر والذرة ، مهما أنفذنا العدالة والإنصاف ؟ ولكن أن نقتل ، نحن ، بأيدينا ؟ كيف يكون العنف هو صرخة كل مافي داخل الإنسان ضد الظلم ،

كيف يمكن أن يكون سلاح العدالة ، سلاح الحرية ؟ ألا ترين التناقض الأساسي ؟ كيف يمكن أن يكون العنف أداة للقهر ، باسم عدالة وهمية ؟ العنف الإنساني معناه القهر ، مهما كانت التبريرات .

قال أحمد : نحن نقبل أن نكون مقضياً علينا ، من البداية . نحن نرفض الارتباط بأية عاطفة شخصية ، نحن نفصل بين الحب الشخصي والكراهة الشخصي من ناحية ، وبين الحب العام ، الإنساني ، الذي هو نفسه قانون التاريخ .

قال ميخائيل : وهذا هو الذي يؤدي إلى تيجته الحتمية ، أن الدولة ، الجهاز ، اللجنة المركزية ، المكتب السياسي ، تم الرعي الذي تتجسد فيه قوانين التاريخ ، يغتصبون لأنفسهم الألوهية . من قتلهم الفرعون الإله ، والكاهن الإله ، والعرفان الإله ، والكنيسة التي هي جسد الله السرى ، والكرادلة ، والطاوعة ، كلهم ، ماداموا هم السلطة ، فهم قد اغتصبوا الألوهية . لكن الألوهية لا يمكن أن تُغتصب . وباغتصابها يصبحون أقل من الإنسان ، أو أكثر من الإنسان ، كما نشاء ، ولكنهم يدعون الخروج عن السياق الإنساني وهم في قبضته . ألا ترى ؟ إذا كان العدل مطلقاً - وإذا كانوا هم الذين يرونه وينفذونه وحدهم ، وفقاً للقانون المطلق ، أى قانون ، فإن الحرية تنتفي . الحرية تُسوى بالقهر المطلق تحت اسم العدل المطلق . كيف نعرف أنفسنا إلا إذا عرفنا أن العدل ، والحرية على هذه الأرض ، ظلال . وأنها لذلك وحده حديرة بأن نعمل من أجلها ، في تراوح النور والظلمة . النور التام هو العمى التام . والحقيقة الحكر ليست حقيقة .

قالت رامة : يعني أن نياس ؟ أن ننفذ اليد ؟ أن نخون ، مادام كل شيء نسبياً ، مادام المطلق مستحيلاً ؟

قال ميخائيل : بل يعني أن نعرف - وأن نعمل من أجل ألا يكون هناك جهاز أو تنظيم أو عقيدة مطلقة الصحة ، مطلقة العدل وبالتالي مطلقة القهر ، ساحقة ، وكاذبة . يعني أن نقاتل بالأسلحة الوحيدة الحققة ، أسلحة الإقناع وقبول الحدود من أجل تجاوزها وتوسيعها ، في نور اليأس المعارف الضاحي الذي له وحده وجه الأمل الممكن الوحيد . يعني أن العمل السياسي ليس عملاً عقيدياً ولا يمكن أن يكون . بمعنى العقيدة التي تملك وحدها سر الحقيقة وسر القانون .

قالت رامة : نحن هنا لسنا بإزاء سياسة، ولا بإزاء فلسفة أو عقيدة ، مؤقتا . هذه اللحظة من حياتنا حاسمة . وتتطلب العمل الفذ الذي يتجاوز النسبية ، الذي يضع كل شيء في الميزان .

قال ميخائيل : ليس في هذا المجال عمل بهذا المعنى . عمل مطلق . ليس هناك عمل مطلق من الأصل . كل عمل ، باعتباره عملاً ، هو نسبي وزمني . المطلقات لا تجد صورتها في العمل ، أبدا . هذه هي مفارقة الاستشهاد ، التي لاحل لها .

قال أحمد : هذه مجرد طوباوية . هذه مثالية تلعب في أيدي أعداء الإنسانية أنفسهم ، وتخدم ، موضوعيا ، كل ما تزعم أنها ضده .

قالت رامة : الثورة ليست عاطفية بل علمية . ليست من باب الرحمة ولا الأخوة المجردة ، بل من باب الضرورة ، والمشاركة في إنفاذ القوانين التاريخية حتى تتحقق . ومع ذلك فإنها هي القيمة الوحيدة ، لأنها تتضمن كل القيم ، لا لأنها تنفي كل القيم . قيمتها كلية .. العنف مبرر ، بل ضروري ، لأنه الوجه الآخر للرحمة والأخوة والانحياز للمستضعفين والمحبة ، كما تقول . القتل الضروري هو نفسه الحب الضروري ، مادام على استعداد لأن يكون قيمة مندمجة في القيمة الكلية ، مادام على استعداد للتضحية بنفسه . الثوري عندما يضع ذلك في داخل القيمة الكلية التي تحتوي كل شيء فهو يحقق ذاته في الوقت نفسه الذي يحقق فيه حركة التاريخ ، والإنسانية كلها .

قال ميخائيل : هذه القيمة الكلية تنهي في الواقع ، عمليا ، إلى أن يصبح الثوري نفسه ، وطبقته ، وشعبه والإنسانية كلها مجرد أدوات ، مجرد عناصر في تركيبة تجريدية . ليس هنا إلا ما هو عناصر في معادلة حسابية ، حدود نظرية في فكرة مجردة ، ولكنها أقطع ، وأرهب ، لأننا هنا بإزاء ناس ، حيوات ، حقائق أساسية عينية ، حيوات متحققة ، وليس أدوات ولاعناصر ولا كميات . هذه القيمة الكلية تتحول بالضرورة إلى سلطة .. والسلطة لا توجد إلا في أيدي أفراد، أجهزة مكونة من أفراد، قوة مطلقة مخيفة وقاهرة لا يمكن أن توجد إلا بأن يملكها أشخاص بذواتهم ، أو شخص بعينه ، أو جهاز هو ليس إلا أفرادا ، واحداً واحداً ، يملكون القهر لأنهم يملكون القيمة ويملكون الحقيقة . ألا ترين هذا ؟ ألا نرى هذا من حولنا ؟ السلطة هنا بالذات تردُّ مروع إلى تمجيد بل تأليه الفردية باسم نكران الفردية ونكران الألوهية .

قال أحمد : إذا كانت الثورة هي القيمة الكلية ، وضمانها هو قوانين التاريخ الثابتة والمحقة بالطريقة الوحيدة التي نعرفها ، بالعقل وكل أدواته وترسانته ، فليس هناك إلا واجب واحد ، واجب الولاء لها . واجبتنا الآن أن نظهر أرض الوطن ، أن نظهر الشعب من غير كبرياء ، بل بهبة متواضعة. هذا هو فعلاً إنفاذ للقيمة العليا التي تجب كل القيم . هذا ، باللغة التي تحب أن نستخدمها ، هو المطلق .

قال ميخائيل : ولكن المطلق ، كما تقول أنت ، في داخلي أنا ، ليس خارجياً عني . و« أنا » ، هذه معناها أنت ، وهو ، وهي ، كلنا . نحن لسنا مجموعاً حسابياً ، صحيح ، وكل « أنا » تظل وحدها في النهاية ، المجموع هو المصالح والتصالات ، هو التصارع أيضاً والتوافقات ، هو تناقضات الأهداف وحل التناقضات ، أما أنا - « أنا » بهذا المعنى - فلا أعرف إلا نور اليأس المطلق ، ولكني أعرفه ، في داخلي ، ليس غائباً عني ، أعرف هذا التور من داخل الظلام ، يعني ، ليس ثم شمس كلية . تسمى ، شمسا كلنا ، ملتبسة ومحاصرة ولكنها ليست من جرائ ذلك بأقل سطوعاً ونفاذاً . سطوعها هو الوحيد الذي أعرفه .

قالت رامة : في مقابل القهر الجماعي لانفعل إلا أن نزيل مصدر القهر ، وليس التعلل بأفكار سامية عن الإخاء الانساني ، والحرية الانسانية . لا : الحق الوحيد في مقابل هذا البطلان هو أن نضع نحن قانون العدالة - قانون الحق - موضع التنفيذ ، وأن نرسي ، بعمل واحد ، مدو ، مهما كان غير نهائي ، قانوناً جديداً ، أعدل ، وأحق : الموت مقابل الموت ، ببساطة . بل الموت من أجل الحياة . هذه هي قوانين الحق .

قال ميخائيل : بدأ النقاش يدور حول نفسه . ما تسمينه قوانين الحق هو في الواقع نواة قوانين الجهاز ، قوانين السلطة . لا أحد ينوب عن الشعب . لا أحد يملك الكلام والفعل باسم الشعب . أليس هذا هو أول البديهيات ؟ ما تسمينه قوانين الحق هي القوانين التي لا تعرف الإنسان ، ولا الشعب ولا الطبقة حتى ، بل تعرف تجريدات ، ومعادلات ، وحسابات . القوانين التي اعتنقها قديسوها ، من روبسبير إلى ديجيرزينسكي ، وجعلوا منها لا قوانين عدالة بل قوانين إيمان . القوانين التي باسم عدالة الثورة ، اجهضت الثورة ، وباسم الملايين قتلت الملايين . كل هذه الشجاعة ، كل هذا الاحتراق من أجل العدل ، ليست إلا صلف القديسين ، ولا بد أن تسقط في أيدي رجال يطبقون نفس المبدأ ، ويُنفذون نفس القانون ، ضد الأخوة وضد الناس .

من ذا الذي يحكم حكماً نهائياً بأن هذا عدالة وهذا جور ، هذا من الشعب ، وهذا عدو الشعب ؟ مَنْ عنده الميزان الذي لا يخطيء ، بأن هذا حق وذاك إثم ؟ من يعرف الحقيقة ، ومن يفسر العقيدة ؟ العنف دائماً هو سلاح المطلق ، أيا كان المطلق . أما التسامح ، والاحتكام إلى قوانين وضعية ، إنسانية ، متغيرة وقابلة للتغيير ، بمجرد الاحتكام إلى الأغلبية والديمقراطية - وقوة الديمقراطية أنها ليست مطلقاً ، بل هي نسبية العقل - فهو الملاذ الوحيد . السياسة ليست ديناً . للمطلق ميدان آخر وسياق آخر ، المطلق ، والكلّي ، والقيم العليا هي في النهاية أمر شخصي جداً وحميم جداً ، وليس سياسة .

قالت رامة : أنت تعطي السياسة هذا المعنى المبتذل الذي أعطته إياها أحزاب الباشوات في عصر الليبرالية المصرية . « لعن الله ساس ويسوس .. » إلى آخره . نفس المعنى الذي يريده لنا أن نفهمه الاستعمار وأجهزته الأيديولوجية . السياسة يا حبيبي هي الحياة كلها ، هي العمل الوطني إذا شئت ، والعمل الطبقي أساساً ، بل هي أنفاس الحياة نفسها ، من لقمة العيش حتى ممارسة الحب ، السياسة تدخل بل تتحكم في كل شيء ، من قبل أن نولد حتى نموت .

كان أحمد قد سكت ، من زمن ، وخرج من النقاش . كان ينظر إلى الغيطان ، صامتاً ، جامداً حول قرار داخلي لا يهتز ، وإيمان داخلي لا يهتز .

قال ميخائيل : نعم .. لن أختلف ، بمعنى ما . ولذلك بالضبط فهي ليست عقيدة . وليست هي ما يتناول المطلقات أو يتعامل معها . وليست الحقيقة مجالها . ليست القوانين الكلية المتعدية هي التي تحكمها . هي صعبة تسيير الحياة . مجرد صنعة ، مهما كانت تؤثر على كل مجريات الحياة ، هي فنّ النسبية ، وضرورة الاحتكام إلى النسبية . الديمقراطية هي النسبية أليس كذلك ؟ وليست . فرض القانون الكلي ، باسم الحقيقة الكلية .

قالت : نحن نفعل هذا ، إذا شئت ، من أجل الديمقراطية ، والبلد التي أحبها كثيراً . كثيراً . من أجل الحب القادم ، إذا كنا نفتقد الحب الآن ، إذا شئت .

قال : أنا أعرف أن كل هذه المجادلة ليست طبيعية .. وليس طبيعياً أن تحدث ، حتى ، ونظريّة جداً . مامن غنى عن النظر مع ذلك ، ما من غنى . ولكن ألا ترين معي أننا ننسى ذلك

الجانب الآخر من واقعنا . نفس هذه الحجج ، نفس هذا الموقف ، نفس هذه الشجاعة ، نفس هذا الاستعداد للاستشهاد ، نفس هذه البراءة الكلية ، هي التي تحرك تلك الجماعات التي تتحرك الآن بالفعل ، العنف والقتل هو الشكل الوحيد لإيمانها الكلي . الرفض ، والإنكار لما يطلقونه مطلقاً غيبياً ، يسمونه الجاهلية . الثورة عندهم هي هذا ، هي العمل الفردي ، المستند فقط إلى قانون علوي ، مسطور منذ الأزل وإلى الأبد ، لا يلحقه ولا يمكن أن يلحقه البطلان . الثورة عندهم كما هي عندهم هي هذا ، فقط مع اختلاف نوع المطلقات . المطلق عندهم هو الماضي وعندهم هو المستقبل . كلاهما حلم مستحيل .

قالت : بل أنت الذي تحكي عن حلم مستحيل ، فيه شريان عقلائي وشريان مسيحي ، ملتبان ، كما تقول . بل أكاد أقول - لولا أنني أعرفك - إنه حلم التواطؤ مع القتلة . أنت تحكي عن حلم مستحيل بقدسية ما وحرمة ما ، لا يمكن أن تُنتهك ، للجسم البشري ، مهما كان ، وأيا كان . أنت تقول ، باختصار ، إن القتل ، والعنف ، أي عنف ، لا مبرر له ، وجريمة . هذا مستحيل ، أنت الذي ذكرتي بحكاية من ألف ليلة وليلة ، الرجل الذي قعد يأكل تمراً تحت نخلة ، وهناك فعل أشد براءة من هذا ؟ أن تأكل تمراً ، في الخلاء ، لأنك جائع ؟ ولكنه عندما رمى نواة التمرة وقعت على طفل الجنى ، غير المرئى ، فقتله . قتله بمجرد أن لفظ نواة التمرة . وعوقب . كان لابد أن يعاقب .

قال : دعك من هذه الحكاية . الوعي ، القصد ، هو المعيار . . .
قالت : أنت تقول هذا ؟ أنت الذي تعاقب على اللاوعي ، وتدين آثام القلب نفسها ، ولا تعرف عنها تكفيراً ، أبداً ؟

وكان هذا هو الباب المسدود .

ليس مسدوداً على أنا ، ولا علينا نحن الاثنين ، بل علينا كلنا ، نحن المحاصرين بصحرائنا ، متشبثين بقشرة أرضنا الناعمة ، محتشدين نلتصق ونصطدم ونرتطم ونتعلق بأحدنا الآخر ، كالذباب ، بجذولنا العريض المريض المدجج الداكن الخضرة الآن ، فقد سطوته وذكورته ، يعصّ بنا ويكاد ينهار الجرف الذي طالما وشّيناه بالتعاشيق والمعاشق وشطحننا منه إلى الشط الغربي

وأقمنا على حرفه الصروح بينما صخرة يمد ويتحلى ، أرضه الآن بلا رحمة ، نطرد منها الهداهد كما طردنا الإبيس القديم نطفىء أفرانها الصغيرة الوديعه لنشتري الخبز الأجنبي المبت ، ونتركها للباشق والقتلة لكي تبوء بالبوار والمبيدات التي تنتشر بينها الأسلاك والبطاريات ومكّنات صناعة النقيق .

يا إيزيس هل جف نهدك يا إيزيس ؟ أحقا نضبت حلمته ؟
بل قوتك وخصوتك وحنانك ، لا تفيض .

حطام حجارة الحيف ، والبواشق صفيقة المناقير تنقض على الأحلام المذبوحة ، واحتكاك محركات المرسيديس والبيجاسوس - في جرّانٍ وحميمٍ آن - بالحديد والأسفلت المحروق ، زحام الهموم والهدوم والأطراف المنهوكه بين عواء الأبواق وبصاق السباب الحجابي وتدافع الأجرام والأجسام تحت اندياح الجرائد المدماه بحرم قايل الذي يقصف بالبازوكا والنكلاشينكوف. مقابل القنابل العنقودية وحرق النابالم المدفون في العمق وانطلاق الصواريخ كالبروق المنعقة الثقيلة من منعنيق القلق المشقوق ، وعجيج الأوناش والبلدوزرات تقيم الصروح بينما يصطلي على الفحم الشجيج صعايدة أسيوط وسوهاج المحرومون من سوق النخاسة في ليبيا والكويت ، حيتان الانفتاح تتدحرج إلى أفواهها المفتوحة محاصيل الوادي الحزين وحصاد التراث وحضارة المواويل وطحن الجسوم والعقول ضمائر رؤساء التحرير ، وفي الحرم الجامعي ، محطة فسيحة ، وحيطان الحرمات تتحطم ، وأجساد النساء والرجال تشري وتباع في مسارب الشقق المفروشة ذات زرع المليون . ووطء الحصون الأحشاء وسحق جرّزها الحريز لتحسين نسل كميوتّر الصناعات والمخبرات الحاذق الحصيف ، واستثمار تروس الروبوت كاستغلال حدقة قلب الانسان سواء بسواء في سعار السماسرة وفحش الوسطاء والكومبرادور . ليس نوستالجيا لمصر وهمية بل استيحاء للبذرة المخصبة أصل الاشياء . لقد سقطت ست غريم أوزيريس ألم يسقط ؟ وصعد مار جرجس إلى صهوة حصانه وانحسرت مجازر البيزنطيين واستحصد إيمان الرهبان الأورثوذكس القديم في صحراء سقيط وانقصم العجبة الأميون والعباسيون ، أعمدة بن طولون السامقة الوثيقة قائمة ، وبروج الممالك . وانجاب جذبُ العثمانيين . شهداء دقلديانوس باسم المسيح وتحت شارة الصليب في صلصلة النواقيس ، والتجريس بتحميلهم شعاراً بوزن حمسة أرطال وتوجيه وجوههم صوب كفل البغال والحمير وهم في المسوح السوداء والعمم السوداء . ونصوع الجدل السفسطى وشرح الشروح

والحفاظ على الكنوز عند الشافعي والقلقشندي وابن منظور على العرصات المطهرة المفروشة
بالحصير ، أمجادك ، يا إيزيس تستعصي على الاحصاء . الدم المسفوح من أجل التنوير
والتحديث على السهول والسهوب ، من براري القوقاز إلى أحراش المكسيك ، ومن صحاري نجد
إلى ضفاف النيل في السودان ، أول وآخر أوبرا وأول وآخر دستور في الشرق ، حممة جحافل
الذاهبة أنفسهم ، والذاهبة أنفسهم حسرات ، تحت سنابل ديلسيس وسعيد وإسماعيل ،
والمحتضرون يتحيفهم الحمام في سخرة القطن وسخرة التربة . وبوارج الانجليز صقور متجردة
الأنياب والأظفار . وتجمد نوار الضلوع المزجاة أمام الحاج والمغازل والمناسج وفي أقبية المصارف
المصقولة الرخام . العيون الجافة والصدور الجافة تنسرب إلى مدن الصحاري الجديدة وتستبد بها
سورات سرد الأساطير المصطنعة سيئة النوايا تتراقص في سفاهة المسلسلات على الشاشات
الممسوحة وعجيج الغناء الاليكتروني البديء في كل حوش على كل مصطبة في كل قاعة على
طول الوادي المسحوق ، حماة المنى الشحيح الممتزج بوهيج الغلّ الحبوس ، ينفث في الحشيش
ونفث الدخان المعسل الأجنس والسعال الذي يأتي بالدم من الطحال المهروس بالبلهارسيا والكبد
المقرحة من سمادير الحذر والكدح والتطوح في مطارح الطموح المحبوط . لكنك يا إيزيس ، كما
كنت في القديم ، صارمة وحنون ، تدوسين العقارب بقدميك الطاهرتين العاريتين وابنتك زوجك
أبوك حور محلق بجناحيه عليك إلى أبد الأبدين .

الباب الثاني عشر

أشواق الصبار الوحشية ، فات أوانها

كانت الساحة مزدحمة وبهيجة ، تحت المذنتين الناحلتين برشاقةٍ فيها نفس بيزنطى، وكل الدكاكين مفتوحة ومنيرة ، الكتب الجديدة والقديمة في الواجهات الزجاجية ، مفروشة على موائد على الرصيف ، والجلاليب البلدي الرجالي المخططة والسادة ، والقمصان الحريري الملونة والمشغولة بالسلك والترتر المهتر ، معلقة من خطاطيف كأنها لحم مفرغ ، والجموع تزحف ببطء ، متلاحقة ومتلاصقة بين عربات السندوتشات ودكاكين الفول والطعمية وباعة البخور والسبج ، والمقلّى الفواحة برائحة اللب والحمص المجروش الذي تنزلق حباته على الصينيّة السوداء الساخنة المائلة على الفرن ، ومحلات النحاسين والجوهرجية والورق الدشت . وكانت تسبقه ، أحيانا ، في الزحمة ، ويكاد يفقدها ، فيدافع الناس بصعوبة وهو يضغط نفسه بين الأكتاف والأجسام حتى يلمح ظهرها القوي المليء فيلحق بها ، ويمسك بيدها الرخصة المليئة ، والميكروفونات تدوي بالتراتيل . القفاطين الناحلة والعمم السوداء والرايات الخضر تخفق وترفرف في هواء الليل المنير وقرع الأجراس وضرب المصنّاج والمدائح بأصوات نسائية مبسوطة ومليئة بأنوثة خشنة ، في هذه الساحة وفي قلبي تراكب أجساد كل الأعياد المقدسة والمجدفة عبر كل الأزمان ، والأهازيج بألمّ النور على إيقاع أجشّ ، والنداء من صدور غضة ، كيريا ليسون كيريا ليسون ، تتضرع إلى سيّد شباب الجنة وسلطان الشهداء ، والمرأة الشابة بجلباب بلديّ رجاليّ تظهر من ياقته حمّالات القميص البمبي الرقيقة وهي تحمل فصوص اللبان المصفّرة الهشة الحَجَر في يديها العاريتين وتنادي اللبان بصاغ ، على المدّاع ، في ايجاء واضح ، وطسوت الفتة وهبّر اللحم الضأن بالخل والثوم ، وتمايل الصواج المشعة بالأقواس المفضضة بينا الزجاج المدور يلمع ويومض فوق الوجه المُحِبّ الحزين المكّلل بتاج الشوك ، والمسوح السوداء ، ونخبطة الطبل العريض تُردّد اسم الله ، وتحقّق الرؤوس الثملة ثابتة الاهتزاز ، والطيالس البيضاء المطرزة بصلبان الذهب ، والرقص بأجسام سمراء محروقة واهتزاز النهود الضيقة العارية والضفائر الجعّدة المجدولة تحت قدم الإله الضخمة الأصابع وبدنه الجرانيتي سامق في أعالي الأعمدة المدورة المعتمة الجرم ، والشفاة الجافة تنسحق على الشبّاك وتهمس حارة بالأشواق والحسرات والمظالم التي لاتنقضي ، والأيدي تمسح الوجوه باستفغار وتوسل ، وارتطمت فخذها اللينة به وأحس دورانها الباذخ لصق ذراعه ورفع يده يحيط بخصرها المستدق المليء يوجّه خطواتها ويحميها ، والإبحار في الفلك الصغير حتى الرسو في البركة المرّعة ، والغطس بعد الوسم بالزيت المقدس في الجرن الرخامي ، والمياه والتمتات تطسّ الوجوه والأيدي والأقدام وتمسح ما وراء الأذنين ، ونقطة النيذ الأحمر حلوة على طرف اللسان بعد اللقمة الطيبة الرائحة من القرص الخبوز المنتفخ بخميرته كلوا واشربوا هذا لحمي المطعون وهذا دمي المهراق ، وبخور النّد والصندل والجاوي تتلوى بعبق حريف في رائحة الشمع والدهن المصفّى

الخفيف ، أبواق السيارات وجلجلة أجراس العربات وصلصلة اليرماح بصطدم بالدروع ، ونظرت إليه بعينين مزدحمتين بالبهجة والطلب وقلق التشوف في نظرتها صرخة النفير النحاسي ، الأحزمة الخضراء العريضة والمفاتيح الرصاصية الضخمة والأطواق وسلاسل الرقي الطينية اليابسة والاحجبة المكتوبة بماء البصل والجمارين المنتفخه البطون .

كانا يزحفان الآن معا ، وسط الجموع التي لامنقذ منها ، ساقه تحبس ساقها العبلة الدافئة تحت الجيب المنسدلة عليها من غير إحكام ولكن من غير سعة وهي تقف فجأة ، في غمار الزحام ، أمام عربة البطاطا ، الفرن الأسطواني بحديده السخن إغراؤه واضح ومباشر ومدخنته القصيرة يصعد منها دخان أبيض رقيق ، وهمست له : الله ، البطاطا السخنة . منذ كم لم أذقها .. تعال ، تعال ، وهي تَلْقُطُ حبة البطاطا المنبجعة الرقيقة الجلد وقد حمشت النار طرفها وتقطر الرحيق الداكن ، ونبت ، على القشرة التي تكشف جانباً من اللحم الكهرماني الفاتح والبائع يقول : غسل ، والنبي غسل . وهي تبسم له في امتنان التواطؤ الصريح .

السرادق المنسوج قماشه من خيوط اليأس العريضة ونقوش الخيامية الملونة بالتحدي الزاهر ، مضروباً على الحصر وبلاط الرخام في الصحن الواسع تحت القبة الشاخنة ، والخفافيش التي تصأى بصوتها الثاقب القصير في مسقط المنار الحجري الشاهق المربع الحيطان ، ونجوم نوت العتيقة أم الأرياب تومض على الشرفة الخشبية الضيقة التي تستدير حول أضلاع القبة تطل ، من مياجها النحيل الأعمدة على الهيكل وصوره المتراخمة بوجوه مسلوبة في فنّ الملكوت ورهبة الجلجثة والمجد المتجمد أبداً في داخل إطار مفضض عريض والبشارة المعلقة أبداً في الزمن لاتتحقق ولاتنحسر ، وتمائل الرأس المعصوب بشعره الخشن والبطن المكور الأملس والأرداف الغنية تحت القمطة المحبوكة مع دقات الصاجات وقرقرة الماء في بطن الجوزة المقورة الصغيرة تقبض على الأنفاس وتطلقها براحة النسيان وامتلاء الدماغ بهدنة الليل الحبيس ، والهداهد الرشيق الخطى بتيجانها المفرودة تنقر ، في الليل المشع ، حَبّاً لا يُرى من فوق أحجار الأسوار العريضة ذات الأبواب الحديدية المنقوشة المغلقة ، والإبر المضمخة تنقر على الأذرع الصلدة وجوانب الجباه الصخرية والصدور المحوفة البارزة الاضلاع أسوداً تُشهر سيوفها القصيرة التي تشق صفحة العالم ، وصلباناً لها أغصان مورقة خضراء ، واسم الله بماأذنه الصغيرة تطعن الجلد ولا تمحي والصقر الذي يحمل السماء على جناحيه .

كانت قد قالت له : أنا لك ، في أى وقت ، في أى مكان .
وكانت قد قالت له : لا تلتقِ بالأى إلى ما أقول ، بل إلى ما أفعل .
ولم يقل ، عندئذ ، إن الكلمات عندها ليست مطلقة ولا مطلقة الصحة ولا تعني عندها
شيئا إلا في سياق الفعل .

أما هو فقد كانت الكلمة عنده - وماتزال - هي الفعل ، أو على الأقل لها قوة الفعل .

لم يقل إن الصيغة الحق عندها ليست كاملة لأنها فعل ، متحرك ، متغير ، وليست
كلمات ، لذلك ناقصة دائماً بالضرورة .

أما هو فعنده كانت - وماتزال - الحلم ، والإيماء ونبرة الصوت ، كلها ، فعل لا
نقصان له .

وفي أعمال الترميم الأثري للأعمدة والجدران ، وفي إقامته لها ، كان حرصه على الكلمة
المنقوشة والحرف البارز أو المنحوت ، بقدر حرصه على سلامة المعمار .

ولم يقل : « أنا لك ، في أى وقت ، في أى مكان » ليست صيغة للمستقبل ، ولا تعبدُ
بشيء ولا تتضمن التزاماً في الزمن ، بل هي صيغة اللحظة التي قيلت فيها فقط ، تؤكد معنى
اللحظة التي صيغت فيها فقط ، لا معنى ما هو قادم . هي تقول « أنا لك الآن ، لذلك يمكنني
أن أقول لك : « أنا لك في قادم الا زمان » فقط .

لم يقل .

بل قال : الماضي والمستقبل عندها ليسا إلا بُعدين وصيغتين ، وخصيصتين من الحاضر
فقط ، لا وجود للماضي ولا المستقبل عندها خارج اللحظة الحاضرة ، وهذه المعنى هي حقاً
واقعية وعلمانية .

أما أنا فأومن ، كأنما رغما عني ، بالبعث والتكرار الأبدي .

ومسيحي أيضا ، كأنما رغماً عني ، لأنني أوّمن بأن ملكوت السماوات - مهما كنت أحماء في دخيلتي - فهو مايزال بَعْد ، على بُعد متناول الذراع ، قريب جداً من ناصية الشارع القادم ، عند مطلع الصبح غدا ، حتى ولو كان هو الكائن قبل الدهور والباقي دائماً ، ملكوت أرضي وليس من الأرض يحدث مرة واحدة ، ويتكرر بلا انتهاء .

وقال : إلا أنني وضعت حياتي كلها ، فيما أظن ، في نقوش ورسوم . لأملك ، حقاً ، إلا الورق والمساطر والصياغات ، معادلات وتخطيطات ، مساقط رأسية وأفقية وكلية ، لا أمسك بيدي عجيب الأسمت ولا أنحت بأصابعي حَجَر الحياة ، بل أنقش فقط الرموز .

قال : هذا تبسيط مخلّ .

وقال : أنتِ نقشت صورتك ، ومعمارك في داخلي ، أنا لم أخط شيئاً .

قال : هذا أيضاً مجرد ثمرة .

كانت قد قالت له : كل شيء عندك يدور هنا ، في الرأس .

قال ، بتسليم : لا رأس لي ولا قدم على الأرض .

قالت : غير صحيح . ألا تريد ، أبدأ ، أن تصحح أوهامك عن نفسك ؟

قال : أهذا تقديس للجسد ، لا مبرر له ؟ لأن الحكاية لا تساوي ؟

قال : الحب الذي مازلت أحلمه ، وأخطّ نقوشه ، لا وجود له ، والمعرفة مستحيلة .

حلم أنشب مخالفه مع ذلك ، ومهما جاهدته ، لا يُنتزع .

قال : التوحد معها بالجسد مطلق .

قال : المطلق ليس جسدياً .

قال : يحترق قمرك في داخلي .

قال : وهو حيوان غريب لا أعرف قانونه .

قالت : ضمّني إليك ، فقط ، لا تقل شيئاً ، لا تفعل شيئاً أريد أن تضمّني إليك فقط .

عندئذ كان حنانه لا يُحتمل ولا يجد صوتاً .

وكانت الوردة الواحدة القانية ، وحيدة ، قائمة في القارة الطويلة الزرقاء ، تضرب حمرتها إلى

البنفسج الممتلئ وعليها قطرة طلّ صافية مدورة .

قال : هناك شيء ما ، في داخلي ، نديتقا ، لم يفتح ثماما بحبك لي ، ماذا يمكن أن أفعل ، وماذا يمكن أنت أن تفعلي ؟ أنت صنعت كل ما يمكن أن يقنعني وزيادة . برهان جسدك وحنوك لا يدحض ، لا يمكن أن تفعلي أكثر . فلماذا لم أفتح - ثماما ؟ متى أنا هذه الشوثة التي لا تريد أن تُخضد ؟ أم أشواك هذب عينيك اللتين لا سبر لغورهما ؟

الطنان الذي يغمرني منها ، حينما تحيطني بذراعيها ، يوقيني في حباله لا يخرج منها .

قال ، وهو يمسك نفسه : ذل نصيبي نصف سرير وجرعة ويسكي ، قتلعة موسيقى وفنجان قهوة ، وقطعة حب ؟

وقال على الفور : ما أظلم هذا وما أشد ظلمته .
ثمرات الصبار الوحشية المتفجرة بالعنفوان .

السجستان الفوار الذي لا يمكن أن أحبسه لأنني لا يمكن أن أطيعه ، دقق تحت الأرض متقلب يمور بالطين والأغصان الساقطة ولقات الأحرش الحيوانية مغلق عليه بطبقات السدود الثقيلة يهزها ويهدد باكتساحها في أية لحظة ويكتسحها ، فعلاً ، لحظة ، فيتحطم العالم وينقض حوائى ويتلاطم الحطام ثم يعود إطباق السدود .

أما جمال الشجر والسحاب الأبيض القليل في سماء القاهرة الشتوية ، والنخل ينوس بسعفه الرشيق في نور الصباح ، فهي لحظة أريد لها أن تمخد ، وأن أكون خالداً من أجلها . هذا هو حنان الجمال الذي في وجهك . هو أيضا توقى عندي لأن أكون خالداً فيه .

قالت له : أحب أن أسمعك تضحك . أحب ضحكك .

قال : أنت الفرح الذي لي في هذه الحياة .

قالت : الله يخليك ويطول عمرك .

كانا عندما ينزلان من فندق زيزينيا يقطعان الشارع الجانبى الطويل الهادىء بيوته الحجرية العريقة ، حتى ينتهيا إلى حلواني ستافروس العريق . كان المحل دائماً خالياً تقريبا ، وفيه سكون

قديم ، وستائر خفيفة مسدلة على نوافذه الزجاجية . كانت صاحبة المحل اليونانية العجوز قد آثرت البقاء في اسكندرية رغم كل الأحداث والتقلبات . نالت تأتي إليهما ، بذطواتها القصيرة النشطة تُخدمهما بنفسها ، وقد عرفت طلباتهما ، بنوع من الود الذي ليس تجارياً بحتاً ، تنبئ لهما بالذهاب الفرنسية السوداء واللبن والجاتوه ، وتتركهما لتتخذ مكانها على منصة « الكيس » تنظر إلى الخارج ، جهلوه ، مسنفرقة ربما في ماضي لا يعرفه أحد سواها . وكان سقف المحل عالياً ، وتحتة ، على ارتفاع كبير ، رف يدور حول الجدران الثلاثة الداخلية ، عليه أباريق نحاسية قديمة للقهوة والشاي وأطباق صيني دائرية منقوشة بالأزرق ، ومفاتيح حديدية كبيرة صدئة ، معلقة بمسامير ضخمة ، وفازات زجاجية بيضاء عليها تطاير خضمر مورقة ، موضوعة ، كلها في حثانٍ مستسلم قد قبل الهزيمة وجعل منها جمالاً خاصاً ، مخادعا ، ولكنه صادق ولا يطلب شيئاً .

وفي ستافروس كانت رامة تستعيد دورها . شهر زان القديمة ، وتحكي حكايات، كان قد اشتاق جداً إلى حكاياتها ، يعرف إنه شهريار الذي يصدق ولا يصدق ولكنه نزل عن السيف والنطع ، من زمان . قال لنفسه إن أخلاقيات شهريار ، يازاء امرأته الغريبة ، كانت ملتبسة ، بينما كانت واضحة وقاطعة قبل أن تأتي إليه .

حكى له أن جدها فوزي باشا ، عم أمها يعني ، كان على النقيض تماماً من أخيه الحاج سليمان . كان نَمَطاً للباشوات في أيامه ، تذكّر وجهه الأسمر الصلب الحدود الذي يخفي طيبة قلب نادرة ، وشاربه ، تماماً كما يقول المثل ، يقف عليه الصقر ، والطربوش الأنيق ، قالت إن الوزراء والأمراء والأعيان كانوا يحتشدون في صالون بيته في الحلمية ، تحت القلعة ، بحديقته ذات أشجار التوت والمنجة وأيضاً التين البنغالي ، والنخل الملوكي ، قالت إنه أبداً لم يذهب لزيارة إنجليزي واحد ولم يدخل بيته إنجليزي واحد لذلك لم يدخل الوزارة أبداً ولا سعى إليها ، قالت إنها تذكر أنها ركبت معه العربة الكوبية ، والحصانان الرشيقان يدقان بسنابكهما شوارع الحلمية المشجرة الهادئة المضاءة بالفوانيس المربعة الزجاج بالغاز ، ناعمة الضوء ، تلقى بظلال ورق الشجر بين الأنوار على أرض الشارع ، وكانت الشوارع رائحتها نفاذة من روث الخيل على الحجر البازلت المضلع مختلطة بعبق أشجار الجنة والياسمين البلدي ، قالت لا أذكر هل أنا الذي كنت في العربة الكوبية أم أمي هي التي حكى لي عن طفولتها ، وقالت إن فوزي باشا ، بعد أن شبع من النسوان في آخر عمره ، كانت عنده عشيقه واحدة يذهب إليها عصر كل يوم ، ويقضي سهرته معها ويعود لبيت الحلمية في آخر الليل ، وكان قد كتب لها خمسين فدانا من أرضهم في

المشرقية لكي تترك الرقص ، وكانت ترقص له وحده ، وبقي معها من أيام الحفظ والفرن طبال نوبلي وعواد اسكندراني ، شاحنا واستقرا في بيها الذي اشتراه لها فوزى باشا ، مع قنطرها البيضاء وخادمتها السمينة الثقيلة الجسم . وكان البيت في حارة من حواري شارع محمد علي ، بدور واحد وله حوش صغير جدا وراء سور حديدي ، وفي الحوش نخلة واحدة . وقالت إنها رأت هذا البيت قبل أن يُهدم بعد أن ماتت الأوسطى منيرة من غير وريث ، وراح البيت الصغير لبيت المال .

قالت إن زوجته الحاجة التركية البيضاء الوجه الرقيقة الجلد الرقيقة العظم الرقيقة الصوت ، كانت قد قبلت هذا ، لم يعد أحد يتكلم أبداً عن سهرات الباشا وإن كان الجميع يعلمون أين يذهب كل ليلة تقريبا ، وكان الباشا حصبفا إذ لم يتزوج الأوسطى منيرة وكانت المرأة تحبه حقيقة ، فيما يبدو ، فرضيت بما ارتضاه ، قالت : أترك لك أن تتصور كيف كانت ترقص الأوسطى منيرة للباشا ، وحده ، في آخر عمرها . وراها لنفسه ، الغاية المُحَنِّكة بالحب والشهوات وقد امتلأ جسمها الآن ، ترقص في تموج الجسد الشبعان تحت الكليبات البلنورية المشتعلة بالغاز ، مُزخرفة بالحديد الرقيق المشغول حول الزجاج ، والنافذة الكبيرة الطويلة المفتوحة على النخلة الواحدة ، وهناك فقط دقائق الطلبة وحنين العود ، وهي تمسك بين أصابعها بالرق الصغير ذي الصاجات ، بإيقاعاته السريعة ، وقد ربطت على بطنها الكامل الاستدارة قُمطتها الحريرية ذات الشرائيب ، وبين الحين والحين ترتفع سنابك خيل عربة تمر بالحارة ، تعلو في خبطاتها الجافة الرشيقية ثم تحبو في الظلام ، والباشا يقرر بالترجيلة الطويلة الياي ، المذشبة الفم ، وقد خلع طربوشه واستراح إلى موسيقى الجسد الذي يعرف كل حناياه ولا يشبع منها . دوران هذا الجسم ، بكنوزه الأنثوية الراسخة ، حوله ، ليس فيه إغراء بل بذل وعطاء لايرجى له مقابل ، والعينان الممتلئتان بعجين أسود خمران ، والفم المكثز بلحمه الغاص بشهوات منقضية ولا تنطفئ .

قالت له : الباشا مات عندها فجأة ، وهو يدخن نرجيلته ، أحنى رأسه وأسندته إلى وسادة الكنبه الاسطمبولي ، وتنهَّد براحة ، ميتة الأبرار ، ونقله العرجي والطبال ، بينهما ، إلى العربة الكوبية ، أجلساه فيها كأنه متعب ، يستريح ، وذهبت به العربة إلى بيت الحلمية ، وتلقته الحاجة صافيناز بلا كلمة ولا صوت وأرقدته في السرير ، ونامت جنبه طول الليل ، وفي الفجر أيقظت أهل البيت بهدوء وقالت إنه مات جنبها على السرير . قالت إن جنازته خرجت من بيت الحلمية ، ولم تمش فيها منيرة . قالت إن منيرة لم تفتح بابها لأحد ، ونسيها الجميع ، ولا يعرف أحد ماذا حدث لها وظلت مستورة ، حتى ماتت بهدوء ، عجوزاً جداً لا يعرفها أحد ولا يذكرها أحد .

وكانت، هي التي قالت : هذه الحكاية جميلة جدا .

نخرجنا من عند ستافروس ، وركبنا ترام الرمل ، وسارا قليلا حتى المتحف اليوناني

الروماني .

في رحلته الثالثة إليها ، كانا يجلسان على البساط الكثيف على الأرض في غرفة النوم ، أمامها كأسان ، يأكلان من صينية عليها طبقان ، موضوعة مباشرة على البساط .

كانت قد قالت له إنها ستعمل له بامية خضراء سوف يأكل أصابعه وراءها ، وكان اللحم لم ينضج تماما وهو يمتزج بقوة ومثابرة ، ولكنها قالت له إنها كانت جائعة جدا لم تصبر عليه حتى يستوي تماما وينعم ، وقالت إنها على كل حال من قبيلة آكلي اللحم . وهما يرقبان معا ، بغياب قليل ، الصور المتعاقبة في إحدى حلقات مسلسل فرنسي تاريخي ، في التليفزيون ، كانا يستندان بظهريهما إلى السرير وقد مد ساقيه أمامه وصينية الأكل بينهما ، وجلت هي على فخذيها المليئين وكان قميصها الخفيف مفتوحا عن ثرتيه الناضجتين ، متجاورين ، وإلى جنبها خشب المدرسوار الصقيل الذي تنعكس على لونه البني العميق ، كأنه مرآة داكنة ، تحطفات النور المشع اللون من شاشة التليفزيون تتموج وتحبو وتلمع ، وكان يعلق ، وهو يضع كأسه على الأرض ويتناول ملعقة المحملة بالأرز الأبيض السخن ، عن براعة التصوير وانفساح المشاهد الريفية في الشاشة ، وكانت مستغرقة تماما في تتبع ماترى ، أخلصت للأحداث وللحوار الذكي المحكوم كل نفسها كعادتها عندما تعكف على شيء ، أي شيء ، فلا يكون أدنى ما يشغلها عما أعطته نفسها .

وليس في الغرفة الحجرية العريقة إلا ضوء الليل من النافذة الواسعة ، تتخيل المئذنة السامقة من إطارها المفتوح على هضبة المقطم التي تومض فيها الأنوار كنجوم أرضية ، وإشعاع التليفزيون ، ودفء السرير المرطب خلفهما .

فجأة دون أن تكون عنده فكرة واضحة مسبقة فيما يخيل إليه ، دون أى إعداد ، وكأنه منذ لحظة واحدة قبل أن يتكلم لم يكن عنده أدنى معرفة بما سيقول ، قال بصوت هادئ تماما محايد تماما :

— رامة ، فلتنزوج .

هكذا ، في لحظة عادية ، هادئة حتى الركود .

نظرت إليه بغموض ، وقد خرجت تماما ، مرة واحدة ، عن استغراقها ، ودون أن تتردد ،
كأنما كانت — هي — تعرف مسبقا ، ومستعدة تماما . قالت :

— أشكرك يا حبيبي — ولكن لا ، أشكرك .

قالت دون غضب ، دون اهتزاز ، ورفق .

— أشكرك لأنك طلبت . هذا غير ممكن .

كانت كأسه نصف مليئة بالويسكي الأصهب يهتز في الزجاج بقطعة ثلج بيضاء قد
شفت حوافها تدوب على مهل ، السائل السحري أسير ولكنه يعيد بخفة الانطلاق ولا يفني
بوعده .

ثم قالت : لا تتصور كيف هزني هذا . لن أنساه أبدا .

لم يتكلم ، وعاد ينظر إلى التليفزيون ، لا يرى شيئا وليس في ذهنه شيء .

قالت : هذا كريم جداً منك .

وعادت تنظر إلى التليفزيون ورفعت كأسها إلى شفيتها ببطء .

كانت فوق السرير ، على جنب ، لوحة من القماش الكثيف الوبر ، فيها ديك أحمر على
أرضية صفراء كابية غنية اللّمس ، وعُرفه منشور ، ومنقاره مفتوح بصيحة لا صوت لها . وتذكر
في تلك اللحظة ديك جمال سلطان المنحوت ، المتزّي كعصفور ممتلىء بمشوق الكفل ، يُتلع
عنقه الممدود في صيحة مفتوحة لن تسكت أبدا .

كان القرار ونقض القرار ، قد تم ، كله ، في الغيبة .

في تلك الليلة كانت شطحات التوله الجسدي بينهما جموحا ، لايسلس قيادها .

فيما بعد ، قالت له : لاتفعل شيئا غير معقول ، مللت الكوارث التي تُصنع بي دون أن

أعلم وتسقط على كفتي .

قالت : هل توجد في الحب - وفي علاقة الحب هذه على الأخص - قيم خلقية ؟ هل توجد هنا أو تعني شيئاً - قيم خلقية ؟

قال : ما معنى هذا ، فعلاً ؟ أهذا هو السياق الصحيح ؟
قال : تقييمات ما ، مثل أن هذا الأمر أو ذلك ، ربما ، له قيمة الصدق ، مثلاً ، أو الولاء ، لها مكانٌ بيننا ؟

قال : في قلب هذا التلاحم العضوي الذي يفوق كل شيء عضوي ؟
قالت : هل الوحش ينكر نفسه حقاً لأنه قاتل ؟ هل القطط حقاً خوّانة ؟
قال : أحقاً أن هذا النوع من الاندماج - في وسط الغربة والغرابة - هذا الذوبان الذي يؤكد الذات نفسها مع ذلك ، أحقاً لا يزول ؟

قال : الزائل هو الجوهر ، اللحظة هي البقاء .
قالت : بل أخشى الزمن .
قال : أنت ، كلك ، في كل أحوالك ، قائمة في مهب الزعازع الهوج ، وستبقين .

قالت : والزمن ؟ ألا يضرب الزمن كل شيء ؟ أخاف على حبنا من الزمن .
قال : لن يتغير نسيجه ولا قوامه . الحِدَّة ، التوهج ، والتعذيب والسطوع ، لعلها :
ربما ، قد تتخذ تعقيداً جديداً أو كثافة مختلفة ولكنه يظل .

قالت : أنت أنت ، لا شفاء لك .
قال : عقيدة الجسد ليست جسدية .
وقال : وإذا صحت هذه العقيدة فليس فيها ، ولا يمكن أن يكون ، تقييم .
وقال : التراكم والاكتظاظ في خمسين عاماً من العمر ، تكوُّم من الأفكار والأثاث ، وتراكب من المشاعر والأوهام وجحافل الأحلام المغلولة والتراب يسقط على مهل عبر السنوات .
على آلام العمر المزدحمة الجافة واحتشاد الذكريات وسقطت المتاع ونفاضات القلب الموجع .

ولم يقل : كهلٌ آخر مُصاب من كهولك المضروبين ، والمكسحين ، الذين تجمعينهم وتُشحنين عليهم ، يذوى ويشتعل ويخبو من أجل معاشق وشهوات الروح التي لا تحقيق لها أبداً .

قالت : هناك دائما مخرج من الحصار ، في قلب كل حصار .
قال : رُح دون كيشوت المثلوم ، في يد دون جوان وَاِحدى العشق .
قالت : الأهم أن تفقد ، لا أن تفتني . أن تخسر . ما أهمية الكسب ؟ أى معنى لأن
تأخذ ؟ أنت ، وأنا .

وقالت : ليس المهم - هو مهم - ولكنه أيضاً ليس صعباً ، أن تُعطي .
أقال : المهم والصعب معاً هو أن يعرف الذئ - ويستطيع - أن يقبل العطيّة .

وقال : الا محدود في كل أحد .
وقال : أنتِ قد وقفت - معي - نعاد ، في وجه حبي لك ، لم تعاديه ، وقيلته ،
ولكنك وقفتِ ضد هزيمته لنفسه .
قالت : أنتِ قد اخترتِ بالفعل . وأنتِ تعرف .
قال : وأنتِ عرفتِ - دون أن أعرف أنا - أين أنا . وتضحيتك بي من أكبر عطاياك .

وقال : هل أنتِ حقاً لستِ بحاجة إلى هذا الحب ، وأنتِ الذي بحاجة اليه ؟
قالت : احتياجٌ يدعو احتياجاً . ليس هناك أول ولا ثاني . أهذا يحتاج إلى تأكيد ؟ هذا
هو القانون . وأنتِ تعرف القانون .
قال : لا أعرفه ولا أقبله حتى إذا عرفت .
وقال : هذا كله لم يُقل .

كانت عارية الصدر تحت قميص واسع من قماش حريري خفيف ، مفتوح ، ونظلون
لئن ممتلىء ، امرأة مملوءة مجدا ، تقدّم له القهوة السوداء في فنجان كبير عليه علامة الخوت ،
فانحأ فاه ، محتشد البطن ، عن خطوط الموج المرسومة وتوارىخ برج الزودياك بالإنجليزية ٢١
فبراير ، ٢٠ مارس ، وذكر كيف وجدها بعد لأيِ البحث واليأس ، أول مرة في فندق زيزينيا
وصعدت معه السلام الخطأ ، وهي تحمل عنه حقيته بنفس البنطلون ويلوقر محبوبك على الصدر
الغنى الوفير المتحرر الآن ، يطل عليه بثقة ، فخوراً بنفسه ، معابث ، جرىء ، ليدن ، مهترز
وقائم باعتزاز ، مشكاة مدوّرة مضيئة بلحم نورها الخاص أطرز على جسد زجاجها المكور الدفء
بخيوط قبلاقي وأنسج عليها بشفتي المضمومتين أسلاك الفيروز المذهب الساخنة كأنها مسحوبة من

القرن لتوَّها ، على وهج رأس الشمعة البارزة الداكنة المشدقة بخيوط دقيقة صغيرة .

وتذكر أيضا شوارع زرينيا ويوكلي الهادئة النظيفة المطوية وهو يخرج إليها في أول الفجر .
مصاييح الشوارع مازالت مشتعلة بلا جاذبي في النور الغامض بصوت موج البحر واضح في
صمت الشوارع والأشجار ملتفة أوراقها الأثثة يسقط منها عليه بلل خفيف وهو يذهب إلى
مكتب التليفون ، ويطلب الرقم مرة ومرة من موظف الدورية الليلية المنتخ العيين المنتخ الو-ينه ،
شعره سنكوش قليلا ، ويظل الرنين يصل في نحاء الليل الموحش بلا إجابة .

— مرة ثانية وحياتك يمكن الرقم غلط .

— الرقم مضبوط والله — حاضر ياسيدي مرة ثانية ، حاضر .

والمضض المعتاد واللهف ، والترقب ، والإصغاء إلى الرنين المتصل الملح من غير رد ، في
الشوارع الخالية الصامتة في أول الفجر ، كان يحس الدموع تسيل على وجهه من غير صوت ،
من غير قهر ، من غير ضرورة .

قال : مزدحم بالحلب أكثر بكثير مما ينبغي ، على أي مقياس .

قال : وليس ثم مقياس .

قال : لماذا لا أستطيع أن أنسى ، وأتعزى وأقبل الواقع ، كما يفعل كل الناس ؟ ألا يمضون
في حياتهم ؟ ألا ينسون ، ويتعزون ؟ لماذا هذا الحاجز الشفاف المحرق النور ؟
قال : أريد أن أعرف ، فعلاً ، لماذا ؟

نباتات الظل الوارقة اليانعة النهمة وقد متعت واستطالت وتهدلت أوراقها العريضة تحت
الخشب السخن المخروط بخرومه الناعمة ، لا تريد ، ولا تحتمل ، ضوء الشمس ، شرسة ومخبوءة
وضارية وغضيرة ، وكأنما هي نفسها شجرة المعرفة التي بسقت ، عفية وساطية مقضياً عليها بالأ
تثمر أبدا ، من الطينة الأولية ، الردغة الغميقة التي صنع الله منها ليليت وأختها نعمة الأولى المشاة
المغوية التي يحتنق بين ذراعيها العشاق .

وعندما رفضت نعمة النوم تحت آدم لأنها نذ له ومساوية له في الجوهر ، مخلوقة مثله من

الدين والحياة ، حكم الله عليها بأن يموت مائة كل يوم من أبنائها الشياطين الذين أنجبهم على مهاد المرجان الفيري المتعرج من اقترانها بالبحر الأحمر اللجى الدفىء التبيج ، وكان الموت قبلها لا يعرف طريقه إلى العالم ، فجاءت إليه بالموت ، حواء الأولى ، كاملة وباهرة ، لم تكن حواء التفاحية والثعبان ، حواء المعصية ، بل كانت هى الوجه الآخر الواحد المثنى لآدم الأول ، كائن واحد مزدوج ظهراً لبطن ، ملتحمين . الجسد الموحد غضّ مازال ، أشواقه واحدة ومتكلمة في القلب الواحد الآخذ المعطي معا ، لم يجمد بعد ولم يتصلّب ولم يشدخه الجرح المتقطر بالدم الداخلى - متى حدث الانفصال ؟ لماذا جاءت خطيئة الانشقاق ؟ ومتى الغفران عنها ؟ متى يجيء ذلك الذي يحمل الصليب فأنا أنوء تحت ثقله الموحى المميت ؟ ولماذا يارب لم تنح عنى هذه الكأس نصف المملوءة بخمردمى ؟

وكما تشتعل مصابيح كثيرة من مصباح واحد ويبقى النور الواحد دون أن يتناقص المصباح كذلك تنائر الحب في كل المخلوقات ولم يتناقص ، وكما ظهر الحب في نقطة المنتصف بين النور والظلمة وتمّ تمام الجماع بين الملائكة والبشر كذلك بزغت أولى اللذائذ الحسية على الأرض ، ولم تكن من قبل ، وبعد الحب بزغت الكرمة من قطرة الدم المسكوبة على الأرض ، ومن يشرب منها يعرف الشهوة ، وبعد الكرمة بزغت من الأرض شجرة الجميز ، وشجرة الرمان وسائر الأشجار .

الروح الأولى أحبت الحب الذي كان معها ، وسكبت دمها عليه ، وعلى الأرض . وبعدئذ ، من هذا الدم ، بزغت من حرجة الشوك ، الوردة الأولى على الأرض ، من أجل بهجة النور الذي سوف يظهر ساطعاً في العليقة ، في آخر الزمان .

وكان على حواء الأولى أن تبعث الحياة في آدم الأول الذي لم تكن فيه روح ، حتى تُسنى ذريته التي سوف تولد له « آنية النور » . ومن ثم فعندما رأته ، شبيها ورصيفها ، أخذتها به الرحمة ، وقالت : « فلتحىي . قم ، وانفض فوق الأرض . » ولساعتها استحالت الكلمة إلى فعل ، ذلك أنه عندما نهض آدم من سباته ، فتح عينيه في الحال . وعندما رآها قال لها : « أم كل الأحياء سوف تُدعّين لأنك أنت التي أعطيتني الحياة » .

وجاءت رؤساء الملائكة السبعة إلى آدم وعندما رأوا حواء تتكلم معه ، قالوا لأحدهم الآخر : « مَنْ هذا الكائن النوراني الأنثى ؟ ، لأنها حقاً على شبه الشبه الذي ظهر لنا في

النور ، تعالوا الآن فلنُمسكُ بها ونلقِي بذورنا فيها ، حتى أنها عندما تتلوث ببذورنا لن تستطيع أن تصعد إلى النور » . ولكن حواء التي كانت هي نفسها قوةً أولى ضحكت على نيتهم الرديئة وألقت بالظلام على عيونهم وتركتُ شبيبتها ، خلسة ، بجانب آدم . أما هي فقد دخلت إلى شجرة المعرفة ، وبقيت هناك ، وكانت هي نفسها شجرة المعرفة ، وأولئك العميان راحوا في الخديعة ، ولوثوا جسمهم فقط .

كان آدم الأول النوراني هو العقل .

أما آدم الثاني فقد كانت له هبة الروح ، وظهر في اليوم السادس . وكان آدم الثالث أرضياً ، وظهر في اليوم التاسع والأخير وتكاثرت ذريته ، واكتملت الأرض .

في يوم الجمعة ذلك ، ٢٩ سبتمبر ، كان قد تأخر في النوم . كان يحلم حلماً مضطرباً متشابك الأحداث والصُّور ، يتوه فيه بين قضبان السكة الحديدية في محطة غامضة على جانبها ربوة رملية عالية تسير فوقها أخته لوزة التي كان يعرف مع ذلك أنها ماتت محروقة في المستشفى الفرنسي من سنين طويلة ، لكنها كانت عندئذ تخطو بخطوة خفية على طريق غير مرصوف فوق الربوة الصاعدة والهواء يلعب بشعرها الناعم الفاتح اللون الذي تختلف به عنهم جميعاً ، كما تختلف عنهم ببياض وجهها البضاوي الرقيق ، وبنوع من بطاء الروح ، لكنها كانت عندئذ تسير كأنها ترقص ، أو تطير ، ووراءها السماء الزرقاء الصافية ، بينما هو يجري تحت ، يبحث في لهف ومضغض بين الأرصفة ، والمفتشين الواقفين بتربُّص ، والقضبان المتلوية بتفريعاتها الخبيثة الشكل ، والحمالين الذين يجرون أمامه ووراءه ، والحواجز الحديدية التي يراها أمامه فجأة ، والكمسارية يطلون عليه من نواقد القطارات الخالية تماماً من الناس ، يتلمس طريقاً يصعد عليه من وهدته المتشابكة الخطوط تحت سقف المحطة الزجاجي العالي ، إلى الجسر الرملي الطرقي الكتلة الذي يعرف مع ذلك من مجرد رؤيته أن رمله سوف ينهار تحت قدميه حتى لو استطاع أن يجد السكة إليه وأن يضع قدميه عليه ، وكانت القطارات تصل وتصفر وترجع وهو ما يزال يدور وتهبط به مصاعد كبيرة ليس لها أبواب ، ويجري على سلام ويدخل في أنفاق يقطعها فتمتد أمامه منيرةً وخاوية ولا نهاية لها ولا مخرج منها ، ويجد نفسه فجأة تحت الربوة ، والسماء خالية ليس فيها أحد ، ويسمع اسمه ويتلفت ويتساءل من الذي يناديه وعندما فتح عينيه وجد رامة تقف على رأس سريره المفرد الضيق ، واكتشف ، بعد لحظة كان كل شيء فيها محوياً ، أبيض ، وليس فيها

مرجع ، أنه في استراحة ماريوبوليس ، وأن الوجه الذي يتسم له هو وجه رامة يقول له شيئاً لا يسمعه ، وأن أحمد يقف غير بعيد ينظر من النافذة المفتوحة على عمليات الحفر المتوقفة اليوم وُرج الكنيسة الأثرية البعيد وخيام الملاحظين والعمال من وراء السور .

قالت له : نوم العوافي . صحَّ النوم . بقي نأتي بالسيارة ، والخفير يفتح لنا ، وندخل عليك ، ونظل ننادي ، ولا انت هنا ؟ هذا نوم الأبرار حقاً ، يا الله اصحَّ اصحَّ ياسيدي ، قم ، خلاص أنا قلت لعم شعبان يعمل لنا الشاي ، قم تفضل اغسل وجهك وخذ حمامك وتعال افطر .

كان كلامها ، كالمعتاد ، سهلاً ومرحاً وعفويًا ولكنه لم يخطيء نبرةً من التوتر ، والترقب ، خلف الدفق والانسباب ، وأدرك على الفور ، من مجرد مجيئهما معاً ، أن اليوم المرتقب قد جاء ، أو اقترب جداً على الأقل .

لَمْ جلابية نومه حوله وقام فذهب للحمام ، وحلق ذقنه ، واستحم بالكوز يدلق به الماء من البرميل الكبير المملوء فينصب عليه بارداً جداً ، من وراء ستارة من قماش الخيام ، ودعاها للإفطار فقالوا إنهم أفطروا ، وأكل هو بيضة مسلوقة من الأمس ، ومرّبي من علبه «قها» ورغيفاً مصنوعاً من الدقيق ومخبوزاً على الحَجَر الساخن كان قد صنعه له عم شعبان ، وشربوا الشاي .

قال لهما إن الحقيبة في مكان أمين عند حالته في بيتهم بالطرانة ، وقال رداً على نظرة سؤال غير مقبول ، إنهم في الفلاحين لا يسألون ، وعندهم شهامة وما زالوا يعرفون كيف يحفظون السر ، وإنهم على كل حال ليسوا غرباء على السلاح .

كان أحمد قد جاء له بالأهرام فقرأ أن زيارة المتحف عليهم في أحداث الفتنة الطائفية ستقتصر على الأقارب فقط ، من الثانية صباحاً إلى الثالثة بعد الظهر ، وأن مصر ستلعب مع المكسيك في كرة القدم للناشئين غداً ، في كانبيرا في استراليا ، وأن ملهى فيكتوريا الليلي يقدم مفاجآت الرقص الشرقي والغناء البدوي وأنغام الديسكو من سهير الشاعر وعائدة زكي وكتكوت مصطفى وسوسو عمر وبرنتي صابرين وأوركسترا سوبرباورز ، وأنه في سينما راموبيس فلمين « الحب وحده لا يكفي » و« اللص المحترف » وأن اليابان لاتنوي أن تعترف بمنظمة التحرير

الفلسطينية ، وأن البطانية اليوناني المستوردة تباع في القطاع العام على أساس ١٤ جنيهها و ٨٥ قرشا وأن البوليس الفرنسي عثر على حمامة زاجلة بمقتولة بالرصاص في أحد منازل باريس تحمل رسالة مكتوبة بالعبرية وأن الجنيه الذهب يساوي عشرة آلاف قرش بمحلات عبد العزيز مصطفى باسكندرية ويساوي تسعة آلاف وتسعمائة قرش بمحلات الفونس حنا يوسف بشارع الثورة بالمنصورة ، وأن الحزب الراديكالي الفرنسي يؤكد تأييده لكاتب ديفيد وأن بابا وماما يوقدان شمعة واحدة وألف مبروك لدينا ألكسان فهمي بالنيا وأن ١٢٩ من أعضاء منظمة مجاهدي خلق اليسارية في إيران قد أُعدموا وأن الجو مائل للحرارة في القاهرة ، وأن ملك أفغانستان السابق يؤكد تأييده - أيضا - لثوار أفغانستان ضد الاحتلال السوفيتي ، وأن هناك للبيع كلاب جريفون فرنساوي بيضاء من سلالة جيدة وذكور، وهناك علاج للتخسيس للسيدة عشرة كيلو جرام في عشرة أيام .

وفي الطريق بين الغيطان ، وجدوا أنفسهم ، ثلاثهم ، في السيارة الفولكس ، يخوضون على غير توقع ، غمار نقاش مسدود الباب . وكان أحمد قد صمت أخيرا ، ينظر بعناد إلى ماء التربة العريضة الثقيلة ، راكداً لا يجري ، إلى جانب السيارة ، والهواء الجاف يسفع وجوههم .

قال لها : دعي القلب ، وآثامه ، في حالها الآن .

وقال ، مشاكسا قليلا ، لكي يخفف من وطأة التوتر الذي يرتفع كلما اقتربت السيارة من القرية ولكنه وجد نفسه ، وكأثما رغما عنه أسيراً في أسطورة الرجل الذي تتجه إليه نواياهم :

— هل تذكرين. صورة النيوزويك الشهيرة ، في نوفمبر أظن ، ٧٥ ، نعم بالضبط ، المطرب الزنجي الذي يشبهه يضرب على الجيتار ، مبتسما ، وزوجته ترقص في ذراعى فورد ، ترفع إليه نظرة مرسومة وابتسامة مرسومة ، أما بيرل بيلي ، صاحبة الملابس ، دفاقة الوجه ، بشعرها الجعد وزنجيتها المليئة نفسها التي يحتشد بها غناؤها ، فترقص معه ، وقد وضعت وجهه بين يديها ، تربت عليه بحنان مدرّب ومحنك ، وهو يتسم .

قال : هو مولع بهؤلاء الناس من إنريكو ماسياس ابن المستعمر الجزائري العتيد إلى اليزابيث تايلور التي يقال عنها بنت صهيون ، فنان ، يحب الفنانين .

أشاحت بوجهها بصمتٍ وألمٍ حقيقي فأحسّ أنه كان سخيفاً جداً .

وكانوا يقتربون من بويللو الذي طالما لعب على شقافته وزجاجة الأزرق السميك في أول صباه ، قال لها : طبعاً قرأتِ عن تيرانيوس ؟ وكيف كانت مركزاً لعبادة أبوللو ، لم أكن أعرف وأنا أتسلق هذا الجبل الوعر بالحطام والانقاض أنني كنت أفتحم معبده .. أما ديونيزيوس ، وضحك لنفسه ، فقالت : آه هذه إذن هي الطرانة ، طبعاً ، صحيح ..

قال : انتظري حتى ترى السراية التي انعكست ذات ليلة فرأيتها مقلوبةً في قاع الماء ، وبيت الشيخ عيسى الله يرحمه ، والكنيسة التي كانت لنده تذهب إليها يوم الأحد ، وتبكي ، وبرج الحمام القديم . معالم آخر الطفولة وأول الصبا ، وشجرة الجميز التي كنت أنام فوق أغصانها العريضة وأقطع فروعها الصغيرة للحطب ، وألعب تحتها مع لنده ورحمة ، والجسر الحجريّ الداخل إلى النيل الذي كنت أطلع عليه في ليالي القمر ، في عز الفيضان ، وأنادي الجيئة ، لم تطلع لي أبداً ، ونظر إليها ثم قال : إلا بعد ذلك بكثير .

كأنما كانوا في نزهة ، أو رحلة خلوية ، فقط .

عندما دخلوا القرية قبيل الظهر ركنوا السيارة في أول الجرن ، وخطر له بسرعة ، مرة أخرى ، كيف ازدحمت بالعيال والشباب الجالس على الأبواب بضجر ، وكيف قامت أعمدة النور الكهربائي وامتدت أسلاكها على أسطح البيوت التي ظهر عليها إيريال التليفزيون ، وكيف قامت بيوت حجرية من ثلاثة أدوار ، أعلى من السراية القديمة التي في طرف القرية ، ورأى على الطرف الآخر ، حيث كانت الساقية القديمة على البئر الجافة ، سور مزرعة الدواجن وسقفها المنخفض الممتد ، والمصرف الضيق تحت السور قد غص بالحلفاء والهيش وورد النيل والنفايات .

وهم يسيرون على التراب الكثيف وهشيم أعواد الذرة ومزقٍ من ورق الصحف الخاف ويحاذرون من البقع العريضة الملبدة بالماء حول برك صغيرة آسنة ، والعيال تجري بصمتٍ وفضولٍ من ورائهم بقليل حتى يجروا أشطهم وأشقايم فيجري بسرعة وقد رفع طرف جلايته ، ليمرق بجانبهم خطفاً وهو يقول بصوت مرتفع ليُسمع زملاءه : « هاللو يا أهل مصر » فتضحك له

ببساطة وهى ترد عليه أيضا بصوت عال جرىء ومريح كأنما تلعب معه : « يا هاللو يا أهل الطرانة » . فيتسم الكبار الواقفون برصانة على الأبواب وهم يقولون « أهلا وسهلا يا ست شرفتوا يا بهوات إمش ياواد أنت وهو ، إمش العب بعيد » .

ولاحظ أنهم يمسون بالترانستور ، بقلق ، ويتحلقون حوله ويتكلمون فيما بينهم بهمس ، وأن التليفزيونات مضيئة يتخايل نورها الأبيض داخل الغرف المعتمة ، وأحس في القرية جواً من الانتظار والتوجس .

مروا من تحت جميزته العتيقة ، مازالت عريضة جداً وكثيفة ولكنها عجوز ومترية ومهملة ظلها رطيب وبارد قليلا في الرحبة الصغيرة التي تقع أمام بيت جدته القديم وقد بيع الآن إلى أغراب وتغيرت معالم حيطانه ولكنه مازال يرى من وراء الحيطان النخلة العجوز التي قال له جده إنه زرعها عندما كان صبيا .

دخلوا الحارة الضيقة ، في أولها بيت الشيخ عيسى ولكن كل بيوتها الأخرى من بيوت النصارى في البلد ، لم تغير من أربعين سنة . كان بيت خالته وديدة قد ارتفع الآن بطابق جديد بناه لها ابنها المهندس الذي سافر إلى ليبيا ، ورحب بهم فانوس افندي زوج خالته ، مازال صلب العود ، لاشك أنه الآن قد جاوز السبعين من عمره ويذكره تماما بأبيه عم أرساني الصراف في جلبابه الأبيض الناصع النظافة وطاقيته المدورة بحائط من نفس القماش وفي يده منشفة وحذاءه الأستيك لامع السواد ، وجهه مربع ومورد وبشوش وعيناه غائرتان وذكيتان . وجاءت خالته وقد أصبحت الآن فلاحه حقا ، بملابسها السوداء التي عليها تراب خفيف وقد ربطت شعرها المضطرب بمنديل لا لون له وسلّمت عليهم بلهجة نصفها اسكندراني ونصفها فلاحى وجلسوا على الكنية الاسطمبولي في القاعة التحتانية وحلّف عليهم زوج خالته أن يتغدوا معا وجاء الشاي ، عنبرى اللون ومسكرأ جدا ، في فناجين زجاجية صغيرة مُخْتَصِرَة عليها حزام رفيع ذهبي اللون وكان التليفزيون مفتوحا ولاحظوا فجأة بعد انحسار موجة الترحيب أنه ليس فيه إلا موسيقى وأغان وطنية فقط .

وكانت رامة قد استجابت على الفور لترحيب الرجل الشيخ الذي كان وجهه قد ازداد تضرجا ، وازدادت عيناه لمعانا ، ودخلت على الفور في طقوس التكريم وتلقى التكريم وتبادل

الحديث والمجاملات وكأنهما يعرفان أحدهما الآخر من زمن ، بينما ظل أحمد صموتاً تقريباً وخبجولاً تقريباً ، فقالت متسائلة بقلق ، وهى تشير إلى التليفزيون : خير .. ما الحكاية ؟ فقال فانوس افندي بهدوء ، وبشئء من الفخر المكتوم إذ أحس أنه هو يعرف مالا يعرفون بعد : الحكاية ؟ حكاية إيه ياست هائم ؟ يعنى انتم لم تعرفوا بعد ؟ قالت ، وقالوا معها دون أن يحسوا : نعرف ؟ نعرف ماذا ؟ ماذا حدث ؟ قال أخيراً : ضربه وهو في القطار بينما كان يطل على الناس في محطة ستورس قبل الفيوم وقال المذيع « خونة .. خونة .. » واحتبس صوته ، وانقطع الإرسال وظلوا يذيعون موسيقى حتى قالوا إن طلقات طائشة قد جاءت من بين الجماهير التي ازدحمت على رصيف المحطة للترحيب وقالوا إنه يُرجح إنها كانت قد أطلقت علامة على فرح الناس وترحيبهم وإنه جرح جرحاً بسيطاً ، وعادت الموسيقى حتى قالوا إنه نُقل باهليكوبتر إلى مستشفى أنشاص وإنه سيتمثل للشفاء لكن إذاعة مونت كارلو قالت إن إصابته خطيرة واضطربت أخبار لندن وصوت أمريكا بين هذا وذاك .

سقط الصمم فجأة والوجوم ، وانفجرت الهواجس الداخلية فيه لكنها ظلت مكتومة ، ثم تلاحت الأسئلة والتعليقات والرجم بالظنون والتخمينات ، ونهض أحمد فجأة وانطلق إلى باب القاعة كأنه لا يعرف طريقه ، ثم استدرك في آخر لحظة وقال : « عن إذنتكم لحظة وراجع » وهم ميخائيل بالنهوض ورائه فنظرت إليه وقالت بهمس مِلح : « دعه ، دعه الآن سيرجع » ، وأخذت الترانزستور من بين أصابع فانوس افندي دون تكليف ، وراحت تقلب بين المحطات .

لم يتغدوا عند خالته في النهاية ، وإن كانوا قد شربوا ثلاثة أدوار متتابعة من الشاي وعادوا للقاهرة في أول بعد الظهر ومعهم الحقيبة لم يعد لها جدوى . لم يعرف ميخائيل مصيرها ، ولم يسأل ولم يهتم .

قال : هل انتهت يوليو ؟ هل اليوم فقط ، مات عبد الناصر فعلاً ؟ وقال : لا ..

قال ، صممت البلد كلها وانزوت . كانت أخبار أسبوط مهما خُففت ، خيفة . وحثت الشوارع . كان هذا الفراغ يذكّرني بيوم ٩ يونيو مع كل الفوارق ، حينما يتحصن الناس بالسكوت وتجد نفسك فجأة ترى ما كنت لاتراه أبداً ، هبات التراب على أسفلت الشوارع الخاوية تطير بورق الصحف ، والأتوبيسات تجري بسرعة ، غير مزدحمة ، وقال إن صديقاً له قال

إن الجنازة كانت محاصرة تسير بين هذا الصمت والترصد من ناحية وبين العربات المصفحة مدافعها مشرعة موجهة إلى الصفوف التي تسير ببطء وفيها الرؤساء والوزراء والكبار من الغرب والشرق ، الغرب على الأخص ، وكان رجال البوليس بملابسهم البيضاء المصفرة يعطلون ظهرهم للجنازة ، ثم صفان متجاوران من الحرس العسكري إلى اليمين وبعدهم على طرف الجنازة نفسها ، صف من المظليين بخوذاتهم وأسلحتهم ، وقال إنه قال إن ضباط السي آتى إليه كانوا متناثرين يوجهون الجنازة ويصدرون التعليمات والأوامر ويطاعون ، وقال إنه لم يصدقه فأكد لها ، وإن أعضاء مجلس الشعب كانوا يلبسون الكرافات الملونة مخططة ومنقطة ويثرون بأمر الحياة كأية جنازة مصرية تقليدية وإن البنات في السرايق بملابسهن السوداء الأنيقة ونظارات الشمس الغالية والماكياج المتقن كن يتلفتن باهتمام للضباط الشبان والدبلوماسيين الشبان ، وحكى إن الخيالة كانت تسبق الجنازة وإن حصانا جرى فجأة وشب بساقيه الأماميتين ، وارتفع بصدرة في الهواء وإنه لم يسمع صهيله ، واضطربت الصفوف ووجد الناس أنفسهم في قبضة الفرع يجرون القهقري إلى الخلف بأسرع ما يستطيعون كأن فهماً غير مقصح عنه قد سرى بالرعب في السيقان. بأن ثم شيئاً آخر قد حدث ، وقال إن ثلاثة من الرؤساء السابقين جروا القهقري مائة متر على الأقل في وسط الاضطراب والمفاجأة حتى هدأت النفوس واستأنفت الجنازة سيرها الوجيز كأن ثم اتفاقاً مضراً ولكنه معروف جيداً بأنه يجب الفراغ من كل شيء بأسرع ما يكون ، قال إنه عندما انطبقت آخر بلاطة على فتحة القبر ، تماماً ، وتأكد انطباقها ، أحسن أن البلد كلها صنعدت نفساً واحداً عميقاً ، ثم انفجر طوفان النكت كما لم يحدث قط من قبل . وقال : ما أبعد الشقة وأوسع الفرق بين جنازتين .

وقال لها ، بعد ذلك : أليس مُخجلاً ، ومرّوعاً ، أن يقوموا هم ، أكثر القوى السياسية تخلفاً ، وغيبية ومحدودية وخطراً ، بما تسمينه عمل الخلاص الوطني ؟ وأن ذلك وجد كل هذا الترحيب الصامت أولاً ، ثم المعلن عنه بعد ذلك على استحياء ، ثم صراحة وجهاً ؟ أليست هذه البلد أغرب البلاد ؟ أم أن كل أفكارنا يجب أن توضع موضع السؤال من جديد ؟ وأن مصر لا تطبق عليها المعايير ؟ نسيج وحدها فعلاً كما لا نفتأ نقول ولكننا عندما نصطدم بهذا الواقع الغريب يُفحمننا الواقع وتسقط من أيدينا كل الموازين الجاهزة ؟ ثم انظري إلى ما حدث في أسيوط ، هذه الانفجارات المتأخرة على كل حال بعد الانفجارات القديمة ؟

قالت : أنت الذي كنت تقول إن هذا كله مصطنع ومدبر وإن هؤلاء الأولاد على كل مثاليهم الخارقة وإخلاصهم النهائي وشجاعتهم ، هم في النهاية مجرد أدوات ، أليس كذلك ؟

قال : نعم بلا شك . ولكن الأمر يذهب إلى أعمق من هذا . بلا شك .

قال : وما يزال يذهب إلى أعمق بكثير .

ثم قال : ولكن مصر ألفية .

وقال : وهذا أيضا كان باباً مفتوحاً على العراء ، وهمياً ، وانتهت كل هذه الحكاية .

بالنسبة لي على الأقل ، كانت ثقيلة الوقع حقاً ومحمّلة بالفاجعة والجنون ، لكن هل انتهت حقاً ؟ فنظرت إليه وسكتت .

نزلاً مع مساعد أمين المتحف الشاب إلى البدروم . كان السقف منخفضاً والمصابيح الكهربائية الأسطوانية العنيفة الشكل محاطة بأسلاك دائرية يتصّبّب نورها المصفّر ، حُزماً مستقيمة تسبح فيها حبيبات التراب المعلقة ، على ثلاث موميאות مازالت فيها رائحة النظرون القديم والكثبان الحائل ، في توابيت من فخار ، وعلى مائدة صغيرة قطع ذهبية مسحوة النقش ، قال لهما المساعد : « وجدناها لحسن الحظ بعد أن انسحبوا من القنطرة شرق ، وإلا كانوا سرقوها كما سرقوا غيرها » . وكان وجهها قد أخذ يَحْتَقِن بزرقة خفيفة محمرة وأنفاسها تتسارع فخرجنا بسرعة إلى الهواء الطلق .

قال لنفسه إن الخيرة لم تقلل من انبهاره وعجبه بالأعمدة المكسورة والتوابيت الحجرية ، ولا من هيبتة لها ، ولا عينه كلّت من اكتشاف هذا الخيط ، هذا الرحيق المصري الخاص في عمق الرخام المصنوع على قوالب غريبة عنه : كان يعرف - دون أن يستطيع أن يضع يده تماماً عليه - ذلك الاحتلال الخفي في المقاييس بحيث يخرج الإنسان إلى ما يجاوزه ، وتتخذ الهجنة والاضطراب شكل احتجاج كامن وثابت أبداً ، على الصيغة العادية ، وتُقَسَّر الكتلّة أن تقول غير ما قصد بها أن تقول . وكان يخيل إليه أن هناك انتصاراً حقاً في التشويه وأن فساد المعايير الأجنبية فيه مرارة شموخ عريق غير منكسر ، مصر اليونانية الرومانية ، قال ، هي مصر المصرية ، هي هذا دائماً في كل الصياغات .

في أول بعد الظهر ، كان في الشارع الضيق الظليل تحت شرفاته وبيوته العالية الشبايك نفحة من هواء البحر المبلول ، وصمّت بدء القيلولة ، وكانت دكاكين النجارين الذين يصنعون نسحا من طرز الأثاثات القديمة ويأبئ الفحيم البلدي الهش ، والمقاهي البلدية الصغيرة قد هدأت كلها . وقد خلا الميدان الصغير الذي تحيط به أسوار ضخمة حول ورش وكالات

السيارات ، تطل عليه من الناحية الأخرى شرفات لها أعمدة حجرية صغيرة متتارية كالسيقان السمينة من غير أقدام . ومرا بجانب جدار سينا مترو المصمّت بأبوابه الحديدية المغلقة ، واختاراً مائدة صغيرة في ساحة مقهى إيليت المكشوفة ، وأمامهما على الرصيف الآخر محطة البنزين ومحلّ لورانتوس وباب سانتا لوتشيا الرشيق وتوافذه الزجاجية المستكنّة بأرستقراطية خلف الأستار المسدلة .

قال لها : إيليت هذا كان مجرد كشك لبيع الجيلاتني ، حينما كنت في الثقافة العامة سنة ١٩٤١ ، قبل التوجيهية . وكنا نخرج من العباسية الثانوية أنا وشفيق صاحبي في طريقنا لمحطة الرمل ، أو إلى البحر ، في أول الشتاء ، في شمس اسكندرية الناعمة الدفء ، ونقف هنا ونأكل جيلاتني . وعندما تمر امرأة ممتلئة بالرشاقة والأنوثة معاً - كان معظمهن عندئذ يونانيات أو ليثانتيّات - كنا نقول ببساطة وبمرح بصوت عال : « يا هاللو » ونأخذ جيلاتني فيما يشبه الطقوس ونضحك وكان الخواجا بنفسه صاحب المحل هو الذي يصوغ الكأس المنعشة الباردة باللبن والشيكولاته أو إلفسك وكانت كؤوس الجيلاتني مدورة وصغيرة ومصنوعة من ألومنيوم مفضّض رشيق .

فنظرت إليه وفي وجهها شبه ابتسامة لم تتكون بعد ، ولن تتكون ، وفي عينيها لا مبالاة .

طلب من الجرسون اليوناني صديقه القديم والضئيل القدّ ، المحكوم في جاكته السوداء الضيقة بإحكام أدبٍ بائدٍ ودماثة غابرة ، بوجهه النحيل المثلث وعينه القلقتين الصغيرتين . وجاء طبق الجبنة المتنوعة : الشرائح الصفراء الشفافة والأصابع الكثيفة المحمّرة والمكعبات البيضاء المشققة الجلد ، والسلطة المرتفعه بكومة منسقة من أوراق الخس العريضة الفاتحة الخضرة وأرباع الطماطم مقطوعة اللحم نضرة ومتضرجة بدمها الصافي البهيج ، وأمشاق الجزر الطويلة المستدقة الأطراف بلونها الرّماني الفاتح وفي قلبها استطالات لبها الهش الناعم بلونه الخشبي الأبيض قليلاً ، وعليها كلها ندى الزيت النقي ، ومعها زجاجة الكيانتني المنتفخة البطن ، زجاجها الرفيع تحتضنه برفق حصيرة رقيقة من القش الجدول الطريّ النسيج .

كانت شمس بعد الظهر رطبية بنسيم البحر ، وكانت صفوف التلميذات والطلبة والموظفين والموظفات تمر من أمامهما في اتجاه محطة الرمل ، وعربة حنطور تنطلق فجأة بسرعة والعربي قد

وقف نصف وقفة على مقعده ، يتحكم في الخيطان الأصهب الثقيل الذي يجري في مرح وقد وجد لنفسه حرية مؤقتة في قلب شارع صفية زغلول ، وكان تحت أقدامهما على الرصيف جُزر خشبية مرفوعة مدهونة بالأصفر وعليها أصص نباتات الصبار العظيمة ، قائمة ومنتفخة وشائكة ، داكنة الخضرة ، تتفجر أجسادها بحشوها المزدهم بالمصارة المكبوتة ومع ذلك فقد كان شوكتها رقيقا ليس فيه شر وكان على فمه دون غرابة حس الشوك الناعم لا يחדش شفثيه بل يهددهما .

وهما يأكلان بهدوء ، ناعمين بحس وجودهما معاً في الهواء الطلق ، تحت سماء حانية ، جاءت فجلست إلى المائدة المجاورة سيده واضحة أنها يونانية أو أرمنية أو شيء من هذا القبيل ، بعد منتصف العمر بكثير ، نحيلة عظيمة ، ولكن أنيقة في جيبتها السوداء وبلوزتها الخضراء المنقطعة بقطرات سود متناثرة الشكل ، ولها كشاكيش على الرقبة المجددة نازلة على مثلث منفوش بالقماش الملفوف إلى البطن الهضم المضلع حاد الشكل ، جلست وهي تنظر بولج كامل إلى زميلها الأسمر ، شابا يتفجر بالجنس القوى ، عريض الصدر ومتكثل الساقين وواضح أنه اسكندراني من أصحاب الصنایع أو البوتيكات ، وتقرب بوجهها الصافي الرقيق الفضون من وجهه الشبعان كل الشبع بذاته تكاد تأكله بعينها وفمها المزموم الشفتين معا .

قالت له وهي تقضم شريحة صغيرة من الجبنة الرومي على شوكتها ، أنا لا أستطيع أبداً أن أفهم سر هذا النوع من العلاقات . يكاد يكون هذا شيئاً يناقض قوانين الطبيعة نفسها ، كيف تسمح لنفسها وهي بالتأكيد في سن أمه أن يجرفها هذا النوع من الرغبة ، والتهالك ، هي مثل أمه ؟ :

قال ، لمجرد أن يُزجى الحديث تقريبا : بالضبط لهذا السبب . لأنها أمه ، أليس كذلك ، لأنه أيضا بلا شك يريد أمّاً وليس إلا طفلاً محروماً . كان هذا الرجل فرويد يعرف هذا ، وهو صحيح ، برغم كل شيء ، وقبل فرويد بزمان ، طول الوقت ، من أيام سوفوكليس والبدائيين القدامي ونازل .

قالت : دعك والنبى من فرويد وسوفوكليس والبدائيين . هذا يجعل جلدي يقشعّر .
قال لها : فليكن . هذا ليس حياً فقط ، هو يأس . اليأس أمام فعل الحياة نفسه . هي

لا تريد أن تُسلم . تحديها هو هذا اليأس هذا الحب هذا الحق . أريد أن أقول ، يعنى ، إن ما هو إنسانى فقط ليس حياً . ما تعدّه الأبعاد الانسانية ، بما فيها من عطف وودّ واحتمال وتسامح إلى آخره ، بما فيها من تنازلات وأنصاف الحلول والتأقلم والرضا بالحال على كل حال ، هذا ليس حياً بل مُصالحه . أى شىء غير إنسانى ، كهذا ، هو الحب الحق ، بما فيه مما يتجاوز الآن ، ويتجاوز هنا ، بما يضرب في قلبه من نخطب أساسى ، الأجنحة الهائلة الداخلية المحبوسة . اليأس شريان فاسد ولكنه يحتوي على السماء في داخله ، والأرض ، ويفوق طاقة البشر ، يُخرج من الحيز الانسانى ، هذا شىء يتصل بالله . ضروري . ملاك الظلمة . الآخر الذي هو الوجه الآخر بلا انفصال . الحب لا يتصل بموضوعه بالضرورة . هو نفسه موضوعه . هى لاتبه ، هذه المرأة التي تموت مكحولة العينين لا تدبل ، لقد حلّ فيها الله بالصدفة . هى إلهية . نعمتها مقلوبة تنزى في حميا احتضار لن ينتهى أبدا . هذا هو اليأس .

قالت له .. هوه .. هوه .. جيلك . أنت تتكلم عن هذه السيدة ؟ متأكد ؟ هذا النظرية نظرية من ؟

فارتد إلى نفسه وأحس فجأة شياً شريراً في نفسه فسأل بنبرة أراد لها أن تكون خفيفة . ولكنها جاءت مثقلة : على فكرة لديك أخبار عن عيسى العطار ؟

كانت عيناها وهى تستديران اليه لادغتين بهما جرح وغضب حاد السنّ لأنه بالضبط جريح وقالت : غريب أن تذكره . هذا بالضبط ما أتوقعه منك . هذا أنت . إذا كنت أنا قد نسيته ، لماذا تسأل ؟

قال ، وقد أحس بخطئه غير المبرر ، وبأن الطعنة غير مشروعة :
— أبداً لا شىء .

قالت : لا ليس عندى أخبار .

وقد فسد بعد الظهر كله في أثر ذلك ، ولولا رفقتها به ودمائها ومقدرتها على الغفران والقبول ما استطاع أن يصفى تلك الغمامة الثقيلة التي انبحست من جرحها وأطبقت عليهما

بفعله هو بجو من التوتر والغضب والتنافر .

كانت ، من زمن ، في الدفقة الأولى من نشوة التعرف من جديد والمصارحات المتبادلة بما تنطوي عليه من حكايات الآلام القديمة والأفراح القديمة وابتعاعات الشخص المائلة في ساحة الذكريات ، قالت له : ليس في حياتي إلا حُبَّان اثنان ، حقيقيان . واجد مع خواجه ، ريشارد ، أنت تعرف الحكاية ، قلت لك عنها . قال : والثاني ؟ قالت : مع واحد مصري . قال : مَنْ ؟ قالت : عيسى العطار ، تعرّفت عليه بعد طلاقي من حسن بستين . كان أصغر مني بكثير ، في الثلاثين تقريبا ، كان رقيقا وحنونا في الوقت الذي كنت أحتاج فيه للحنان حاجتي للحياة نفسها ، كان كل شيء صعبا وخاليا من حولي ، وكنت قد حاولتُ حكاية الانتحار التي قلت لك عنها وفشلت . أنت ؟ أنت كنت قد ألفتك تماما ، كما قلتُ لك ، كنت قد اختفيت تماما أنت ونسيتك فعلا ، ما كان يمكن أن أذكرك وإلا ما كان يمكن أن أعيش ، حتى . ماذا كنت تريد ؟ هذا كان هو المخرج الوحيد . كنت صامتاً ، وبعيداً ، وتقاطعتني عن عمد ، أليس كذلك ؟ أنا لا أعتذر ، بل أقرر حقيقة . كان عيسى هو النسمة الوحيدة في هذا الصمت ، وكنا نرى أحدهما الآخر كثيرا ، وطلب مني الزواج ورفضت ، ليس لأنني لم أكن أحبه بل لأنه كان أصغر مني ، وكانت حياته تسير في طريق آخر ولا بد أن تمضي في طريقها وكنت أعرف خطر هذا النوع من العلاقات . صدّمته هو أيضا .

وتذكّر ، بعد ذلك بكثير ، أنها قد أشارت إليه بسرعة ، من قبل ، وقالت إنها لم تكن تشعر نحوه إلا بالود والتقدير ، فقط ، وإنه طلبها للزواج ولم تستطع ، لأنها لم تكن تحبه وكان أصغر منها سنا ، تذكر أنها قالت إنها لم تكن تحبه . ثم نسي هذه الحكاية كلها . وعاد فتذكرها الآن وقال : متى تقول لكى تحمص على وتخشى إيدائي ؟ ومتى تقول لكى تفعل العكس تماما ؟

وقال لنفسه فيما بعد : الغريب أنني لم أحس بأدنى غيرة منه كأنه لم يوجد قط ، لا هو ولا ريشارد ، ولا حسن ، لم أحاول قط أن أتبع أخبارهم ، ولا حتى أن أرى شكلهم ولا من بعيد . وكانت غيرتي أسكالة وجنونية من آخرين .

وسأل نفسه : لماذا إذن طلبت منها أخباره في إيليت ؟

وقال : هذا كله غير صحيح . كأنما كنت أريد أن أقول لنفسي إنهم غير موجودين أصلاً . قال لها مرة : لا يمكن بالطبع أنني أريد أن أضع عليك أقفال العفة الحديدية تلك التي كانت تحملها نساء القرون الوسطى ، في أوروبا وفي ألف ليلة على السواء . كيف كن يحملنها ، على أي حال ، ويتحملنها ؟ كيف كان الحديد الصلب هذا يجبس النبض الخلو الناعم الحار ويخبطه بالمزلاج الموثق المسدود ؟ لا يمكن أنني أريد هذا ، هذا غير معقول .

قالت : يا سلام ! كلكم يارجال تضعونها علينا ، في خيالكم ، في رؤوسكم في حسكم العميق ، مهما زعمتم إنكم متحررون وتقدميون وعقلانيون وما لست أدري ، ما زلت رجال ألف ليلة ، وما زلت تصورون أن كيد النساء يغلب كيد الرجال .

قال : ألا يغلبه ؟

فضحكت .

قال لنفسه : هل هي تجعلني أذفع ثمن كل الاحتياجات غير المتحققة ، وكل شهوة الأمن

المحبوطة والمرفوضة ؟

قال : ثمن التخلي فادح .

قال : الفقدان الوجه الآخر والضروري للوجدان . الفقدان هو الجوهر الوحيد ، وليس

هناك غيره ، في هذه الحكاية كلها .

الباب الثالث عشر

ملح البهجة الأبيض

قالت : أخاف على حيننا من الزمن ، الزمن يغير كل شيء .
قال : لا أخاف عليك من الزمن . لا .. لسبب أنت ، أنت خارج الزمن .
قالت : فليباركك الله يا حبيبي ، أنا لست العنقاء . متى تراني ، أنا ؟
وقالت : الزمن من جنس القتل ، جنس غريب ، أجنبي ، ليس القتل الذي في سورة
القتل إنسانيون جدا ، بل الجنس الآخر ، غير الإنساني ، القتل بلا غضب .

قال : ليس في هذا الحب زمن ، عندما أمسك بيدك ، عندما تمسك بي نظرتك ، عندما
تنضم شفثاك عليّ ، يسقط الزمن ، لا ، لا يسقط لأنه ، عندئذ ، لم يكن موجوداً قط .

وسأل نفسه : أتخشى الزمن ؟ أم هي لا تطمئن على نفسها من الزمن ، وتخشى أن تتغير ، هي ؟

نظرت إليه متأملة ، تريد أن تصدقه ، ولا تريد أن تقول شيئا .

عندما رجعا معا ، يحملان الحقايب الشبكية القماش المصنوعة من ضفائر مجدولة رفيعة
من النايلون ، مثقلة بعلب الزبادي الورقية البيضاء ، وكيلو كباب وكفته ، وحمامتين مشويتين ، ينز
الورق بسمتها السخن الذي انداح في بقعة واسعة بنية اللون ، وكيلو الفزاولة بحبوبها المنبعجة التي
تبيض بالأحمر المحبب ، وزجاجتي المياه المعدنية بلونهما الشفاف الضارب إلى زرقة وضاحية ،
قالت له إن المياه مقطوعة من الصبح وقال إنه يعطش معها بسرعة وقال إن الحب مسألة عطش ،
فابتسمت .

وقفت أمام دكان الميكانيكي الداخل في قبوة تحت عقد عال مقوّر في جدار الخان
القديم ، وقالت له إن سيارتها لم تقم بالأمس ، وإن هذا الميكانيكي الذي اكتشفته بالصدفة
البحثة ، لقطعة ، وغريب جدا ، ولم تر مثله أمانة ومهارة معا ، قالت له هل تصدق إنه ليسانس
في الفلسفة بامتياز ؟ وإنه درس الماركسية ، ودخل المعتقل ، وإنه الآن بعد أن خرج من
المعتقل ، يترجم هيجل عن الألمانية ، وإنه رفض العمل في الجامعة ورفض التحضير للدكتوراه ،
وفتح هذا الدكان وإن عنده مقدرة سحرية على الأشياء الميكانيكية ، عشق لها ؟ وإنه يختار زبائنه
ويرفض الكثيرين ، ويتهاون جدا ، أيضا ، في الأجرة . بُهت من الحكاية وقال : خرافى . هل
هناك في مصر شيء كهذا ؟ قالت : أهو ... أمامك .

كانت أنبوبة الفلورسنت الوحيدة تُشيع ضوءاً خاصاً في عتمة العقد العالي ، النهارية ،
وتحتها مباشرة ملصق كبير لـجيفارا بالأبيض والأسود ، وصورة فوتوغرافية لعبد الناصر وهو يخرج
من السيارة بملابسة العسكرية ، عندما كان ذاهباً بخطب في الأزهر في سنة ١٩٥٦ ، فوق رف
خشبي عريض وثقيل عليه العدد الحديدية السوداء ، والمفاتيح الإنجليزي بمقاييسها المختلفة مرتبة
حسب حجمها معلقةً بمسامير مدقوقة في أعلى حجر الحائط العاري الخشن ، وعلى الأرض أوعية
وبراميل وصفائح زيت قديمة ، وعربة حديدية صغيرة للنقل ، مسطحة الأرضية لها قائم طويل
وعليها مسدس صهر كهربائي بلاستيك ضخمة الفوهة ، لونه برتقالي .

كانت سيارتها الفولكس على الرصيف ، أمام الدكان ، مفتوحة على الموتور من الخلف .

نهض الأسطى خريج الفلسفة من على كرسي صغير بدون ظهر من وراء الرف . كان
وجهه عريضاً مربعاً تقريباً ، بنظارات ، وله لحية سوداء كبيرة ، لكنها لا توحى ، بشكل غريب
ومباشر ، بأنه من الجماعات الإسلامية ، هناك في الوجه شيء عقليّ وقلبيّ ينفي هذا الاحتمال
على الفور . وقميصه الأسود ، على اللحم ، مفتوح على صدره . مسح يديه بفوطة باهتة قبل أن
يصافحها ، وهو يقول بدون تكليف ، وببساطة : أهلاً رامة ، العربة جاهزة بعد الظهر الساعة
سنة تماماً . قالت له : شد حيلك يا حسنى ، أحتاج العربة الليلة ، ضروري ، وحياتك .

كانت في تصافح اليدين صراحة جسميّة كأنها ودّ طبيعيّ عفوى ، منقول على مستوى
مباشر ، ولا يعني شيئاً أكثر من ذاته ، عرفتهما أحدهما بالآخر : حسنى ، ميخائيل ، رئيسي في
الشغل من زمان وأستاذي ، ونظر إليه الميكانيكي الفيلسوف نظرة لم يفهم مغزاها ، وإن كانت
محكومة ومهذبة جداً ، محمّلة بمعرفة ما ، حدسية .

قال لنفسه إنه في طفولته كان يعرف ، ويحس ببصيرة ما طفليّة مبكرة النضج هذا الوداد
الجسدي الذي لا يتجاوز أبداً ذاته ، ولا يكاد يعي بداته ، عند السيدات البلديات ، والجارات
والصديقات والحبايب اللاتي كن يترددن على بيتهن في غيط العنب بينهن بعضهن البعض ، بينهن
وباعة اللبن والخضار والجزارين ، بينهن وبينه هو الولد الخجول المتيقظ الجنس الصغير الجسم ،
تدق الواحدة منهن بيدها على صدرها المفتوح في الجلالية البيتي الخفيفة تحت الملاءة السوداء ،
أو تضرب على فخذهما ، بنفس الحركة الطبيعية التي تأتيها رامة عندما تفعل في حوار ما ، أو

تمصص بشفتيها وهي تحكي حكاية وتندمج . وعرفه أيضا في أول مراهقته عند البنات من قريباته في الطرانة ، وكن يكبرنه بقليل ، وكانت صراحة الجسم الأنثوي مثيرة تحت الجلابية الفلاحي المشجرة التي ترسم البطن والفخذين وتسقط على الأقدام الحافية ، وكن يتحركن ويقمن ويجلسن وهنّ على ألفة كاملة مع أجسامهن ، وينظرن إليه ، عارفات كأنهن لا يعرفن . قال إن صراحة الجسم ، وقبوله والاعتزاز به ، ببساطة ، من غير أدنى تواطؤ بالحياء المصطنع ، هو حقيقة أولية ؛ طيبة ، لاتطلب شيئا وليس فيها أدنى غواية ، لم يرها إلا في بنات البلد ، وبنات الفلاحين ، ثم فيها ، هي ، أيضا ، بشكل مُكتسح غير واع بنفسه في معظم الأحيان ، وله ذكائه الخاص في بعض الأحيان .

الشوق إليك ، فقط ، هو الذي يُكيني .

لاشهادة أخرى وراء هذه الدموع التي مازالت تُخجلني .

قالت : حاول ألا تكون شقيا جدا .

قالت : يجب أن تكون فخورا ، وأن تسير في الشارع مرفوع-القامة ، كالطاووس ، لأن

رامة ناجي تحبك .

وقالت : أنا لم أحب طرزان ، مثلا . لماذا يجب أن تُخجل من دموعك ؟

قال : أما الروح المكسورة ، فمن يحملها ؟

وقال : حبيبك ، الذي ليس طرزان ، مثلا ، لا يكاد يمر عليه يوم دون دموع مسكوبة

أو محبوسة .

وقال : ولكن المحبة تستر كل الذنوب .

قال : لو طاوحت نفسي لأمسكت عقد الفل الجاف المصفر الذي أحتفظ به بين

صفحات قاموس ضخم للغة القبطية ، أغرقه قبلاّت ودموعا ، من فرط شوقي إليها ، إلى راثحتها

إلى جسدها وصوتها وكلامها وحنانها وبديها .

قال : هذا يصلح موضوعا لأغنية .

وقال : هذا لا يصلح في أي شيء .

أكان ضروريا إذن أن تقول : سريري أخضر ، عطّرت فراشي بمرّ وعودٍ وقرفة ، وحبك ثمرة

حلوة في حلقي ؟

أُضْرُورِيّ الكَلَام ، أَصْلًا ؟

وهي نائمة ، عيناها المدورتان المنتفختان قليلا ، مغمضتان ، وسمرة وجنتها الصافية متضرجة باحمرار خفيف ، جسمها الممتلئ بمجده الداخلي مكشوف له ، ومطمئن ، قد أسلمته له ، كأنما هو ليس لها ، شبعان في استرخاء العطاء الكامل المنقضي . يقترب ببطء ورفق من وجهها ويضع شفتيه على شفتيها نصف المفتوحتين لا يكاد يمسهما ، بخفة ، لا يحتمل أن يرد نفسه عنها ، لا يريد أن يصنع الحب لأن الحب قائم ولا يمكن أن يُمس ، يريد أن يقبلها لأنها هي نائمة ، حقيقة ، بجانبه ولأنه فقط ، يحبها .

سر الوجه الأنثوي النائم المطوي على أسراره القديمة ، ومذاجحه القديمة ، معاشيقه وإحباطاته ، اشتعالات شبقة وكآبات وحشته وعزلته ، إراداته القوية واستسلامات ضعفه ، معاركه الضارية الوحشية وتنازلاته الآتية عن رحمة قلب عطوف . الحياة الأخرى ، حافلة ومحتشدة بكل عذاباتها ، وكل جنّاتها ، هادئة الآن ومستكنة في نور الوجه ، وخفائه ، وجماله الذي لا يُفسّر . الخد الأسيل الذي اكتسب من راحة النوم نعومةً خارقة كأنها مستحيلة ، والعينان المسدلّتان ، والشفتان المفتوحتان قليلاً في براءة طفلية نسوية معا ، والاستسلام الكامل والسلام الكامل ، هذه هي الهبة التي لا تُقدّر التي أعطيت له ، له . سر عطائها نفسها له ، في النوم ، بين ذراعيه ، أخفى وأعظم بما لا يقاس ، من سر عطائها نفسها له في الحب . هي هنا تسليم كامل وثقة كاملة ، بلا أدنى شرح ، كأنها تهبه حياتها نفسها .

ريشها الأسود الناعم الملمس مفروش عليها ، مضموم على ثديها ، يخفيها تحت سحر نومها ، الرُّقِيّة نافذة الأثر ، عميقة ، فعالة في هدوء .

نادته باسمه ، بصوت آخر ، خاضع ومتمنّ وبعيد ، من نومها ، هذا الصوت من نومها يعذّبه من الحنان المحبوس المكتفي بذاته ، يجعل صدره يدرّ ويهمي من غير مناعة ، من غير حاجز ، في الصمت والسكون الكامل ، كأنما يريد أن يهبها نفسه وكل حياته وقد أحيط به فهو لا يدري كيف .

قال : نعم .
فأثت أنين ارتياح ، واستسلام .

لم يقل لها: لا أحد، لا أحد على الإطلاق، لا نسوق الواحدات المتعدّات، ولا أصدقائي
على تنوعهم ، لا الصحاب ولا الغرباء ، لا أحد يمكن أن يعرف أو أن يفهم هذا الجيشان
المتقلب في الداخل ، هذا الخليط المرتطم من الشوق الباطل الجارح للحبّ وللفهم وللحرية
وللعادلة ، هذا الطين اللين المتختر الخائن السطح من بقايا آثام عريقة وبقايا التخلّيات والتنازلات
اليومية التي لا تريد أن تموت والرغبة المسفوحة تحت أقدام العابرين ، في المعرفة والرفق ، أن نفهم
الوحشات العميقة المدى التي تحفر نفسها في داخلنا ، وبمجرد فهمها تُرقق من خشونة خوافيها ،
لا أحد ولا أعز الناس ولا أقربهم ، على الأخص أعز الناس ، على الأخص أعز الناس وأقربهم ،
ولماذا يجب أن نفهم العيون المبتلة ؟

لا أنتِ ولا أنا أيضا . لا أعرف ولا أفهم ، فقط أريد .

قال : هذا كله غير صحيح .

قالت : أنت صلب العينين جداً ، وستعيش مائة عام .

قالت له : أنت عوّضتني ، بجبك الرقيق ، عن التلوّث الذي عرفته في أول شبابي .
تعبت ، حياتي كانت مزدحمة ، كنت موضع الحب كما كنت موضع الشبق من الكثيرين

كانت قد قالت له : كان الأول وحشا ، وسادياً ، لا ، لاتسألني ، لا أريد أن أتذكر .
عشروت التي كان رجالها ستة .

أما الأول فقد مضى في البرية متخبطاً وحده ذبيحاً ، في يده سكين قابيل الأبدى اللعنة وقد
انفرست في صدره ، أما الثاني فقد استحال طائراً مكسور الجناح يتطوح عبر الغابات ،
بين عمائر الأسمنت والحديد المسلح ، يلتقط حبات الرمان الصغيرة ويُسقطها . والحبات هي
التي أثارت الرّبة عليه ، فأسقطته من بين مخالبا الحنون ، ولكنها مازالت تحنو عليه ، وتحفظ حق
العشرة القديمة .

أما الثالث الذي قالت عنه : « كان رجلاً كاملاً . وكنت طفلةً رغم كل التلوّثات التي

وقعت عليّ . ولا أعرف ، في عمق جسمي ، ما الحب ، مع أن الطائر المكسور الجناح كان قد وقع عليّ . لكنه هو الذي أيقظني بعد أن كنت ميتة وباردة ، وعلمني الحب في نار الثورة والشبق معا ، فقد استحال أسداً مطارداً ، يلاحقه الحب والثورة .

الرابع هو الحب الأول حقا وإن كان ليس الشبق الأول ، جاء من بعيد ينقّب بين أطلال آمون ومقدسات زوجته موت ، ويصنع المجد ستة أيام أولى . جواد جامع تسقط عليه السياط وهو يتغنى بترانيم حب مصرية ، وبعد الانقطاع الطويل في البراري الشاسعة قال لها : « أفتقدك » .

الخامس ذئب شاب مطرود جاء يحمل حنان الذئب الوحيد المستوحش للذئبة الوحيدة المستوحشة .

أما السادس فهو البستاني الذي يسقي وردتها بدمائه المشتبحة المسكوبة ، هو الآن الصقر الجراح الذي ينقضّ على الأرض المنتهكة البريئة معا ، حور الذي يحلّق في السماء وفي منقاره الحاد أشلاء لا اكتمال لها أبداً مزقّ من أوصال الطائر المكسور والأسد والذئب والحصان التي مازالت جامحة كلها في ساحاتها الخلفية ومازال يصعد فوق بركة الدم التي جفت تحت تموز الذبيح .

وسوف تضحك وتقول له : هذه التعاشيق والتراكيب كلها تصفية مصنوعة صنعا من أوهامك ، ومن أوهامك عن نفسك

يقترّب منتصف الليل من يوم آخر غريب بقدر ما أيامه غريبة ، ومألوف كأنه مرّ به مرات بلا عدد .

في الثالثة من فجر ذلك اليوم كان مازال يواصل هذا الوجود الخاص به ، معها ، ومتوتراً شديد اليقظة ، يحيا بها ، يتحدث إليها كأنما بصوت متحدد وواضح التبرات ، ويسمع منها ، كأنها معه ، وفي الوقت نفسه يعرف أنه إنما يحلم ويتذكر وتشط به الخيالات والهجسات القلقة الحادة . لم يكن عنده تفسير قريب لهذا كله ، لم يحدث ما هو غير مألوف في مسار اليوم الخارجيّ ، ولكنه كان يحس كل عصب فيه مشدودا ومتوفزا ، وفي قلبه غليان لا قرار له .

قال : في هذه الساعات دَفَقَ وجودك يصاحبني على الدوام ، طاعياً ، يحتشد به الليل الذي يحيط بي والفجر الذي تتردد فيه ، خارج غرفتي ، نداءات الأذان ، وصوت البحر البعيد نحافت وموحش. ولكن الوحشة تمتد مترامية وتتجسد كياناً له قوام كثيف يغطي العالم كله إلى مالا حدود له ويضغط عليه.

قال : هل تصورين مدى الحب والحنين ونُطُوح القلب الذي يتفجر به العالم ، تحت هذا الضغط ، في تلك الساعات الأولى من الصباح الذي يتشقق به الليل ؟ هل تصورين الحس بالفقدان ووطأة الصمت ؟

كان يقلب - كما يحدث - زر الراديو الصغير ، ويسمع غمغمة اللغات وبلبله الإذاعات واختلاط الأحداث والموسيقى ، التقط إذاعة اسرائيل بعريبتها الصلفة الوقحة تدعو المقاتلين - تسميهم المسلحين - للاستسلام لجيش الدفاع الاسرائيلي وكان يمر من جديد بما عرفه في الأيام السوداء من عام ١٩٦٧ ، الضربات التي نشلّ النفس ويثور لها الغضب المكتوم العاجز الذي لا يطاق ، وهناك أيضاً حسي بالحب المهدر وبالدمار .

قال : ولن يكون هناك أبداً استسلام ، هذا صحيح .

وقال : لم يرتد عليّ في يوم من الأيام ذلك الباب المغلق ، سجن الذات المقطوعة ، هذا أيضاً صحيح . ولكن أين الخلاص ؟ لأن الشيء الغريب أن لم يعد هناك نداء . أنت أيضاً لم أعد أناديك .

وجاءت أغنية من إحدى الإذاعات ، قديمة مترهلة بما تحمل من زمن وشجن ، ستمنتالية ، من الأربعينيات. عادت إليه بأيام الاسكندرية البائدة ، وليالي الإظلام ، وتقطع الغارات ، انهدام بضعة بيوت قديمة في البيضاء أو السبع بنات كانت عندئذ تهد القلب وتبدو اليوم بدائية وساذجة كأنها الرمي بالسهم أو الرماح . أشعار على محمود طه الرومانتيكية الغريبة ، وصوت الغناء المهدل ، كليوباترا أي حلم من لياليك الحسان ، في شارع راغب باشا الذي خلا بالليل من المارة تمر به قلقة آخر ترام في الساعة الحادية عشرة ثم دقائق «فيردي» بالسلام

الملكي والصمت القلق ، يأتي معها نوعٌ من الروع ورائحة احتراق أحلام الشباب وأوراقه وأشواقه
الملتبسة المدفونة تتحرك من جديد .

سأل نفسه : أين كنتِ أنتِ ، في هذه الأيام ؟ أية طفلةٍ كنتِ ؟

وهزّه توقُّ لا يعرف كيف يقاومه إلى أن يعرف تلك الطفلة ، تلك الصبية وتلك الفتاة
الخفيفة الجمال الهضيمة الجسد التي رأى في عينيها المتقدتين حتماً لم يتحقق بعد ، فهل تحقق
بعد ؟

في سبحة من سبحات تلك الأحلام الرؤيات التي لا عداد لها ، يقظة مليئة بكل
التفاصيل ، كان بجوارها على الصوفا وفرشها يعوص بها قليلاً ، النور من المسرحة المطرزة النحاس ،
والمائدة الفيكتورية الدسمة اللمعان ، خاوية تقريباً لم تزدحم بعد فقد أقيمت منذ أيام ، وشجرة
الظل هناك مازال جديدة غير وارفة جداً ، والعتمة الخفيفة من وراء نقوش المشربية العتيقة
المخرمة ، وهو يحس أنه ، هنا ، في وطنه ، في هذا العالم الحميم الذي قالت له إنه ليس حقيقياً ،
وقال ما أعمق مثل حقيقته . وطلب منها ، ببساطة وشوق ، أن يرى صورها القديمة مرة
أخرى ، أن تقوم فتأتي إليه بها من الخزانة الصغيرة جنب السرير ، وهو عندما يقول لها بهذا
الرجاء ، يرى قصاصات الصحيفة وصورة التخرج من الجامعة ، والبنت التي في عينيها
المعبودتين ذلك الحلم وذلك التمرد العميق وكأنه ذلك اليأس أيضاً ، ومدت إليه يدها ، وأمسكت
بها وجهه ، وقالت : « يا حبيبي » وكانت الكلمة بصوتها العذب ما أرق عذوبته ، صوتها
الحنون ، فيها معرفة .

قال : معرفة بحبنا .

وكانت عيناه غير جافتين .

كان يتيقظ في الليل فجأة وينهض ، من الوحشة ، وسط مياه الليل الوثيقة الضيقة
المزدحمة بأخبار الانتهاك . ومازالت أخبار بيروت الحصار والمذبحة تسقط من إذاعات العالم

المستيقظة النهمة ، بنعيم رتيب الآن ، وكان يعرف أن الفجر ، والالم ، في الخارج ، ينتظرانه حتى يأتي الصباح الغائم الخاوي . وكان العالم موحشا ، واليقظة فيه موجعة ، وغاضبة .

وفي غرفته في ماريوبوليس المطلّة على ليل صاچ ، ومنير ، وفيه هواء البحر ، ياتيه صوتها في التليفون :

« لماذا لا تأتي ؟ ولك في القاهرة امرأة ، وبيت ؟ » . كان الشوق في هذا الصوت الناعم لا يكاد يُحتمل ، وأحس نفسه يموت ، وجاءته الغربة من جديد والحس بالنفى والغضب الذي تطامن من حدّته دُعاباتٌ مستدعاةٌ بمجرد الإرادة ، وهو ينحني عليها ، يقبلها ، بسبيله إلى أن يمضي عنها لآخر مرة ، كل شيء حوله فيما يحس ركامٌ يتهاوي في زلزالٍ سقوطٍ لا نهاية له ، حبه فقط هو الذي ينقذه ، وحبا . ويقول لها : « أحبيني » وتقول له « أحبك » .

أنياب الغضب تُسقط . تُطلى السقوط من عدن تحلق به من جديد عبر النجوم . الرؤى الصور الذكريات الأحلام تتزاحم حوله ، جوارح ، أما شقشقة العصافير خارج حائط غرفته فهي طفليّة وحمقاء . وكان يحس نفسه في غير مكان ، في أول هذا اليوم .

يدخل الآن على انحسار ذلك اليوم فكيف سيكون اليوم الجديد ؟

قال : كانت بدايات الأيام تأتي وتمضي وتعود ، لا نحس مرورها ولا أنها جاءت أو انقضت ، تلك المنطقة الباهرة التي لا أستطيع أن أقرب منها الآن بأى جرأة على التذكّر على الإطلاق ، أعرف أنها كامنة فيّ تحمل شحنة لا يمكن أن ألمسها ، أعرف أنها موجودة بطاقة متفجرة ، أعرف أنها مجدي وكنزي المشتعل لن تُفلقه أصابعي المحترقة .

صبايات القلب وصبوات الجسد التي لا مثيل لنشوتها ، ما ودّعك ربك وماقلى . ويقظته حارة في أول الفجر الرطب الأنفاس .

قال : حبي لك - كاليأس - لا ينكسر ، كلاهما ، هل قلت لك ذلك من قبل ؟ هل

تعرفين الآن لماذا لا أناديك ؟ فماذا يكون إذن هذا الشوق ؟ كيف يمكن أن يكون النداء بلا صوت ؟ لأنه أعمق ، بجالا يقاس ؟ وسطوته نهائية ؟

يوم جديد يقترب ، وبعده يوم جديد ، ويوم جديد ، وآخر ، وآخر ، كيف تأتي كلها ؟

وكيف تمضي ؟ .

قال : حبيبتني ، احرصي على نفسك ، وأحبيني .

قال : أنا أحبك .

الصرخة التي تبقى مسموعة ، ماثلة بعد أن يغوص الغريق في الماء لآخر مرة .

حواء التي راودتها نفسها بالخلود والألوهية . لحظة ، فسقته خمراً حتى أسكرته وأطعمته من شجرة الخلود ، فسقط عن عينيها وعن عورتيهما الغشاء وعرفا أن ما ضرب عليها حقاً هو الهلاك . ولكن لحظة الحلم بالخلود هي عين الخلود .

قال لها ، كأنه يهذي ، هل قال ؟

— الحب خالد ، صنع الحب خالد ، القتل خالد ، العطاء النهائي خالد ، النداء خالد ، الجرم خالد ، ما من شيء سوف يمسح الدم عن أيدي الجلادين ولا عن أفواه الضحايا المفتوحة ، شهداء الاسكندرية وبرية سقيط ، هذا خالد ؛ قتلى صبرا وشاتيلا ، هذا خالد ؛ الساقطون من كوبري عباس وفي محطة الرمل وفي باب الشعرية ، تحت الهلال والصليب ، هذا خالد ؛ والمعلقون من الخطاطيف تنهش لحمهم كلاب السجن الحربي ، من سنج سنج إلى سومطرة ومن وارسو إلى بيونس إيرس ، من سيبيريا إلى فلسطين ، في القلعة وفي كل القلاع ، هذا خالد ، لا يزول على طول الأرضين وعرضها ، على طول الأزمان وعرضها ، على طول السماوات وعرضها ، خالد خالد خالد .. وكل أيدينا ، كلنا ، نئنظف دماً على المسامير المدقوقة في الخشبات القائمة إلى أبد الأبد ، لا ننزل من عليها أبداً ، والخل ينز من طعنة الريح المهتز المرشوق بين ضلوعنا ، لا يُنضى عنها أبداً ، أبداً . جغرافياً القتل والاستشهاد خريطتها خالدة

وليس لها حدود ، كل قتيل نخالد وكل قاتل نخالد ، كلهم ، واحداً واحداً ، لا يحل واحداً منهم
على واحد أبداً . ليسوا أعداداً وليسوا تاريخاً وهم نسيج التاريخ الحى لِحمته وسداه .

قالت : لا أفهم هذا الحس بالإثم الفظيع . دعك من الأسباب الفرويدية والشخصية ،
وما إلى ذلك . هذا كله ، كما تقول أنت ، سهل جدا ، لكن هذا الحس بالإثم ليس قبطيا ،
حتى .

قال : القبطى فيه أنه ليس فقط حسا بالإثم بل بما يتجاوزه ويتحداه .

قالت : ولكن هناك قتل وقتل . لا يتساويان . هذا واضح جدا .
قال : أبداً . أبداً . واحد . وبقى دائما . بلا أدنى تبرير . بلا أدنى مغفرة .
قالت له : لماذا ترفرف دائما . أنت لست بطائر .
قال : ولماذا أنتِ المبدأ المصحح ، دائما ؟ أنا .. أنا لا أستطيع أن أرفع قدمى عن
الأرض .

قال : هذه الكارثة التي حلت بالقلب ، لا تريد أن تنقضي ، متى تزول ؟ لن يحدث
بالطبع . وأنا أعرف أنها لن تنقضي . فلماذا هذا السؤال ، وهذا اللجج ، وهذا العبث كله ؟
أما تستطيع أن تتحمل ، كما يحتمل الرجال ؟ وأنت تتحمل ، أيضا ، وهو أمر غير مهم جدا ،
على أية حال .

قال لها ، سوف أحكي لك عن واهور الدقيق الذي كان بعد كوبري راغب باشا وواهور
الدقيق الثاني الذي كان أمام بيتنا القديم في غيط العنب ، ومدرسة البنات التي كانت إلى
جانبه ، وفيها تعريشة عنب ، وكيف كنت واقفاً في الشرفة المطلة عليها وأنا ربما في السادسة ، لأبد
أن ذلك كان في سنة ١٩٣٢ إذن ، وعندما رأيتُ كيف سقطت بنتٌ رمت نفسها من الدور
الثالث ، كانت قد سقطت في الامتحان . وسمعتُ صوت ارتطام جسمها بتكعيبه العنب
الخشبية المورقة والمحملة بالعناقيد . مازلتُ أسمع هذا الصوت بعد خمسين سنة ، وكيف نام الولد
الصغير بعد أن جاءت عربة الإسعاف ومضت ، نام على حجرٍ إستر امرأة نخاله التي كانت
تسكن معهم وكانت صورتك الأولى ، أنتِ ، وضع وجهه على فخذهما ونام في حنانها .

دق الباب ، فنظرت إلى ساعتها بسرعة وقالت له هامة قبل أن تتحرك لتفتح :
— هذه سنية منصور ، ولأزم معها السيد وكيل الوزارة . ميعادهما . منقولة ياسيدي إلى
العريش مسؤولة عن منطقة شمال شرق . يا بخت من كان النقيب خاله .

كانت قد نهضت بخفة تجرى إلى الباب .

دخلت المرأة بانبعاجاتها المقتحمة ، صدرها المهول ، تحت البلوزة الحريرية ، يرفعه سويتان
لايد قوئاً جداً ، وعجيزتها ترفع الجيبة الباريسية الغالية التي تبدو مع ذلك كأنها من شغل خياطة
بلدي ، وهي تبتسم ابتسامة ثابتة كأنها منصوفة بوجهها . وظهر وراءها قدري عبد الفتاح وكيل
الوزارة ، بجمره الضخم ، ينهج قليلاً ، وفي يده علبة ورقية بيضاء مربوطة بخيط مفصض مذهب
مضفور ، ومعقوص ، وعليها اسم حلواني (لايس) . وانحنى الوكيل يقبل مضيفته فظهر التماح
الصلع بالعرق الخفيف ، تحت شعره الطفيف المرجل بعناية لكي يخفيه ، وقبل خدها قبلة رمزية
بجذته المتهدل وهو يُصدر أصواتاً غامضة يقصد بها التعبير عن فرط السعادة لأنه جاء ، فتخرج
الأصوات كأنها غمغمة بلهاء ، وجلس على الصوفاً بثقل ، بطنه الكبير يتدلّق على نفسه ،
أمامه . ولكنه كان حسن الاحتمال لهذا الثقل . بينما تبادل الجميع القبلات التقليدية وعبارات
الترحيب التقليدية وبدأت الثثرة المعتادة حول أخبار الهيئة والسفريات والبدلات والتنقلات
والترقيات وحكايات السياسيين والصحفيين والأثريين والأثريات والنوادر عن العلاقات
والاصطدامات والحفريات والمهمات وحكايات أخرى عن إشاعات تقول إنه أقيمت في صحراء
الشرقية مزارع ضخمة لتربية الفراخ التي تذهب لتغذية مزارع ضخمة لتربية الثعالب ثم تصدير
فرائها للخارج وبيعها أو إهدائها ، للحكام والانفتاحيين والمقاولين الكبار ، ومزارع أخرى
شاسعة لتربية النعام في الفيوم . وقال قدري عبد الفتاح إن هذا ، يمكن ، غير مهم لكن بعض
هذه المزارع تقام على أراضي أثرية محظورة على الاستغلال ، وعندما سئل لماذا لم تفعل الهيئة
شيئاً ، سكت وهز يديه بحركة فصيحة عن العجز والتسليم ، وكان يشرب الشاي بصوت شفط
مرتفع ، فقالت له سنيه بمعاتبه جريئة وبلا حياء : « سيدى ياسيدى على أولاد الباشوات » فنظرت
إليها وقد تلقى صفة التهزيء الذي ليس خفيفاً جداً بامتنان كأنه تلقى عبارة إعزاز . كانت رامة
قد قالت له مرة : يبدو كأن عنده تخلفاً عقلياً فقال لها : على العكس ، ذكاؤه حاد ، ومن النوع
النفاذ إلى مواطن المصالح والذي يتشمم على الفور اتجاهات الريح ويتبعها بإصرار ، متسلحاً بعدة
كبيرة من المقدرة كان يمكن أن تفعل الكثير في الاتجاه الصحيح ، خسارة . وتذكر ميخائيل
كيف كان يشهده في الندوات والاجتماعات متحدثاً لبقاً ، وناوراً حصيفاً مهاجماً أو مدافعاً ،

يسوق الحجج أو يهتد عن طريق خفي أو فصيح ، أو يستفز ويستنفر ويصالح ويتنازل حتى يتحقق له ما يريد .

وبعد أن شربوا الشاي وأكلوا الجاتوه الثمين وأوشك معين الثرثرة على النضوب ، انصرف الوكيل وصديقتة ، وردت مضيفتهما عليهما الباب وعادت إليه وهي تثب وثبات خفيفة من مجرد الفرح بالخلاص منهما . كان يعرف أنهما جاءا في نوع من حملة لتعبئة التأييد المضمر لحركة الترقية الجديدة للسيدة صاحبة الوكيل ، أو على الأقل لتحجيد ردود فعل قد تثير زوبعة في الهيئة ، وكان ميخائيل يعرف عن هذه السيدة كفاءة معينة وقدرة ، بغض النظر عن الجانب الشخصي المظلل في الحكاية ، فوقف موقف الحياد ، أما رامة فقد كانت أعلى بكثير منها في السلم الوظيفي ، وكانت منطقة شمال شرق بعيدة عن أى اهتمام لها ، على أى حال ، وكانت أيضا منصفة وقادرة على التسليم بأن الاستثناء له مبررات موضوعية أيضا ، وعلى أن تخفي إلى حد ما احتقارها الهين غير العنيف للمسألة كلها ، وحكت له ، وهي تلخع الفستان الهاديء الجمال ، وتأخذ راحتها على الصوف ، بجلستها الأثيرة ، تضع ساقيها تحت فخذها ، ويدها تلمس أعلى صدرها بجانب الإبط ، بحركة بطيئة لا واعية ، حكاية يعرف منها جزءا وتخفى عليه أجزاء ، قالت له : « هل تعرف أنه كان في شبابه عضوا في « حدّو » ؟ نعم ياسيدي كان ، ولم يُعتقل قط مع ذلك ، أرسله أبوه الباشا الذي كان لواءً في الجيش ليدرس في لندن » . فقال إنه يعرف أنه حصل على الماجستير من جامعة إقليمية غير معروفة تقريبا ، نسي ما هي ، في إنجلترا وليس في لندن . فقالت : « تماما عليك نور ، أنت على حق ، ورجع بعد عدة سنين والتحق بالمصلحة ، ولم يكن اسمها هيئة عندئذ طبعاً ، وعرف كيف يسلك طريقه إلى أعلى بكل الوسائل المعروفة » . قال : « ألم أقل لك ؟ ذكائه هذا العملي الخارق فعّال ، لأنه أساساً لا يعرف معنى الأخلاق وإن كان يُحسن استخدام هذا المعنى ، ولكن سنيّة هذه كيف حصلت عليه ؟ . قالت : « أنداً يا حبيبي ألا تعرف يعني ؟ بالطريقة التي تحصل بها المرأة على الرجل ، ببساطة . كان الرجل قد طلق زوجته — القصة تقليدية — هي التي صعدته في الحكومة وتزوجها لأنها قريبة أحد الضباط الأحرار الذين أصبحوا موظفين كباراً ، وتخلّى عنها بمجرد أن سقط قريبها في حكاية من حكايات الاختلاس ، وأصيب صاحبنا بنوبة قلبية فظهرت هذه ، كأنها كانت تترصد بالفرصة ، وأنقذته ، بمزيج من شهامة بنت البلد وحذقها معاً ، ويبدو والله أعلم أنها عرفت كيف ترعاه وكيف تُسليه أيضا بعد أن طلق امرأته ، فقط ، خلاص . الحكاية خلصت » . قال : « ولكن زوحها ، وأولادهما ؟ » قالت : « الرجل كما تعرف ، أو لاتعرف ، يمكن ، يعمل

طبيباً في الكويت فتح الله عليه ففتح عيادة خاصة تحولت إلى مستشفى خاص . مليونير عُقبى لك . قال : « بعد الشر . فال الله ولا فالك » . قالت : « وذيل الحكاية ، الضروري ، أن السيد الوكيل اشترى شقة بالشيء الفلاني في عمارة جديدة بالنادي ، وأن سنية منصور ، بالصدفة البحتة يعنى ، لها شقة باسمها في نفس العمارة وفي نفس الدور أيضا ، عيني يا عيني على الصدفة البحتة وما يجيء منها » . قال ، متذكرا : « وكان هناك كلام عن ضياع عصا ذهبية أثرية في أثناء نقلها من المعرض الذي أقيم في دسلدورف ، أليس كذلك ؟ وكان قدرى عبد الفتاح سافر مع المعرض » . قالت : « بالضبط . ولم يسفر التحقيق عن شيء اللهم إلا مسؤولية شركة الطيران وشركة التأمين . كل شيء تمام عند السفر وعند الشحن ، الأوراق والتوقعات مضبوطة مائة في المائة ، ودفعت « لويديز » للحكومة . ولم يوجه لأحد لا إنذار ولا لوم ولا تكدير باللغة المصلحية القديمة ، حتى ، وطبعا مسئول الشؤون الإدارية والمالية بعد ذلك بسنين بنى عمارة واشترى « خنزيرة » وقال إنه ورث عن عمه في الصعيد » . قال : « منطقة شمال شرق هذه ليست إلا خطوة طبعا ، عتبة ثانية في السلم ، سترين ، وستعود بعد سنة مثلا نصفها سفريات ومهمات وإجازات ، إلى مدير عام في الهيئة » . قالت : « وهل في هذا كلام ؟ يمضغوها ياسيدي ، هنيا لهم » . قال : « ظلمنا الرجل والله . وظلمناها .. في الرجل أيضا نوع من الصفاء والمودة . يعنى ماذا أقول ؟ كأنه مجرى عميق في قلب جرمه الضخم هذا ، وفيه أيضا جوانب طفولية شديدة العذوبة . وهى في الآخر بنت بلد . صحيح أفسدتها الحقبة التي نعيشها ، كما أفسدت الكثيرين . ولكن التربة الأساسية فيها كان يمكن أن تكون طيبة . لا أنسى كيف أنهما أوقفا العمل في معبد الواحات بعد أن سقط على ، وكان الرجل شهما وفعل كل ما يمكن » . قالت : « لاتنس أيضا أن هذا كان من زمان » . قال : « وكم فينا كلنا من عيوب ، ومعاطب . ومن منا الذي سوف يربحها أولاً بحجر ؟ إلى آخره » . قالت : « يمكن . أنت والله ما زلت طيب القلب . والله أعلم ياسيدي بما تخفى الصدور . دعنا منهم ، هل عرفت أيضا أن إيفيت طوسون مسافرة إلى استراليا ؟ » قال : « الجماعه تتفكك يعنى ، وينفلت عيارها . استراليا ، مرة واحدة ؟ مهاجرة يعنى ؟ » قالت : « تلحق بصديقها هذا الذي تموت فيه ولا يعرفه أحد » . قال : « يا بختهم .. ا على خيرة الله » . نظرت اليه وقالت : « أنت سوف تسافر معي ، بعد ، إلى جزيرتنا في اليونان » .

قال : « نعم ، نعم ، حتى لو لم يحدث ، نعم » .

وكتبت الأنسه رضا عبد السلام النعناعي في ١٢ مارس سنة ١٩٨٠ إلى « الأهرام » :
« انهار المنزل الذي كنا نساكنه في شارع مختار الجندي رقم ٢٢ ، برأس التين في يوم
١٩٧٤/١٢/٣٠ . أخذنا غرفة بالمأوى بشارع البيطاس غرفة رقم ١٠ . إنني أعيش مع أختي
الكبيرة المطلقة ومع أولادها ويعيش معي أخي .. ثلاثة أسر في حجرة صغيرة لاتسع أكثر من
ثلاثة أفراد ، مما ترتب عليه وفاة والدتي متأثرة بالأم الروماتيزم نتيحة الرطوبة الشديدة بالغرفة » .

وفي ١٩٧٦/٥/٣ نشرت « الأهرام » أن تاجر قطع غيار وهو لبناني هرب من جحيم
الحرب في بيروت دفع ٢٢٠٠ جنيه إيجاراً شهرياً في شقة مفروشة في الدور رقم ٢٤ من عمارة على
النيل في الجيزة ، كما استأجر شقيق هذا التاجر شقة في العمارة نفسها لكنه يدفع إيجاراً زهيدا هو
٨٠٠ جنيها فقط في الشهر ، وأن التاجر اللبناني افتتح متجرين لبيع قطع الغيار في القاهرة كما
اشترى سيارتين يقودهما سائقان خصوصيان غير ثلاث خدام وطباخ على خدمته » . وقال إن
هذا حدث في سنة ١٩٧٦ وكانت الدنيا مازالت بخير ، وقبل ذلك بشهور قلائل كتبت صُدف
عبد العزيز بالابراهيمية ، الاسكندرية ، في ١٩٧٥/١١/٢٨ ، إلى « الأهرام » : « عندما
طلقتني زوحى منذ ٤ سنوات وقذف بي وبأطفالي الخمسة منه إلى عرض الطريق بلا مال تنفق منه
ولا قوت يمسك رمقنا تجمدت الدموع في عيني : أليس هو الرجل ؟ ألسنت مجرد أنثى يراها أحد
الرجال متعة له حتى إذا زهد منها ألقى بها بعيدا كما لو كان يتخلص من نفاية ؟ إلى أن حصلت
بعد عناء على حكم نفقة شهرية من أجل أطفالي لا تكاد تكفي سد أفواههم أسبوعا واحداً . لم
أستطع إلى الآن تنفيذ هذا الحكم حيث إجراءات تنفيذ الأحكام باللغة التعقيد كما أن الدولة لم
تضع إلى الآن نظاما يؤدي إلى تيسير تنفيذ أحكام النفقة دون تلك العقبات التي لاحصر لها ،
ولقد سارعت إلى العمل كخادمة أقصد باللغة التي يتداولها السادة المهذبون (شغالة) نظير أجر
يومي يقتضيني أن أعمل يوميا بلا توقف حتى أني لا أعرف مذاق الراحة لكي لا أحرم أطفالي
من أجر اليوم الذي قد أتغيبه عن العمل ... ثم - وكل الفضل لله - توفر معي ثمن بضعة أمتار
من الكستور تكفي لتفصيل ثوب لكل من أطفالي قبل حلول برد الشتاء القارس حيث توجهت
إلى المتجر الشعبي في حي كامب شيزار كي أشتري القماش لكنني فوجئت عند دفع الثمن أني
مجبرة على شراء زجاجة حبر .. ذهلت .. قلت لست في حاجة اليها ، أن اطفالي يستعملون في
كتابة دروسهم أقلام الحبر الجاف .. لكن السادة العاملين في المتجر أصروا على أن ادفع ثمن
زجاجة الحبر وإلا امتنعوا عن تسليمي القماش ؟ دفعت مرغمة حتى أتجنب ما يؤدي شعوري ،

لكنني بكيت غيظا وكمدا كما لم أبك من قبل . إن ثمن هذه الزجاجاة قد لا يكون كبيرا عندكم أيها السادة لكنه يعتبر عندي ثمن وجبة طعام كاملة من أجل أطفالى جميعا هذا إلى جانب اننى فى غنى عنها كما أن أحدا لن يقبل شرائها منى ، إنكم تقولون : إن القشة تقصم أحيانا ظهر البعير .. لكننى أقول إن هذه الزجاجاة قصمت ظهرى » .

قال : هذه السيدة تكتب بفصاحة .. ترى من ترجم لها رسالتها إلى الفصحى ؟

أما فى ٢٥ مايو سنة ١٩٨٠ فقد تعطل ركاب القطار القادم من منوف إلى القاهرة الساعة ٦,١٥ صباحا ، ومنهم طلاب يقصدون لجان امتحاناتهم وموظفون وعمال ، لمدة ثلث ساعة تقريبا .. لماذا ؟ بسبب حذاء الكمسارى الذى وقع منه بين عربات القطار ، فأسرع بإبلاغ السائق الذى أوقف القطار بمنتهى المروءة لزميله ، التوقف كان عند محطة شلقان وسط الطريق » . قالت : خلاص ، خلصت الحكاية .

قالت له ، هل تذكر تلك الليلة عندما سقطت مريضا فى الكاتاراكت القديم ؟ عندما كان بيننا موعد ، ولم يتحقق ؟ وجئتُ اليك فى أول الفجر ، تذكر ، وعندما خرجت من عندك اكتشفت أنك تركت علىّ نقطة دم ؟

لم يجب . كانت الليلة أقى عليه من أن ينساها وأقى من أن يعترف بأنه لا ينساها ، معا .

فأكملت : بينما ذهبت أنت إلى الكاتاراكت الجديد ، كنت أنا فى انتظارك فى البار ، فى الكاتاراكت القديم — هذا كل شيء ، بهذه البساطة . الآن فقط أستطيع أن أقول لك . ليلتها لم يكن ممكناً أن أقول فيبدو أننى كنت أعذر . وكنت أعرف أنك لن تصدقنى على كل حال . لم أشأ أن أقول شيئا ، ألم يكن يجئى اليك ، فى حد ذاته ، فيه الكفاية ؟ لكنك أيضا لم تصدق ، لم تصدق معنى أننى جئت إليك ، هل تتذكر ؟

كيف كان يتذكر ..! كان جسمه هو الذى رفض أن يصدقها ، ورفضها ، ورفض

نفسه .

هل سافروا بعدها ، بيوم ، إلى الواحات ؟ هذا مضطرب في ذاكرته .
ولماذا لا تشير أبداً إلى سقوط المعبد عليه ؟ إلى تلك الساعات الستة والثلاثين التي
قضاها في ظلمة غريبة عرف بعدها كيف يكون نور الشمس جديداً ، وكيف تكون عيناه
نفسهما ، جديديتين .

أكانت لا تريد أم لا تهتم بأن تذكر ؟ وأن تذكره ؟ هل كانت تترك له — كما يشاء — أن
يعود أو لا يعود إلى هذه التجربة غير العادية بأي المقاييس ؟ وهل حكى لها ، أم لم يحك ، عنها ؟
أكان تورعها عن هذه الحكاية كلها نوعاً من الخنو عليه والرعاية له ؟ الأذلك لأنها كانت
تعرف ، هي أيضاً ، تجارب معينة لا تُطاق ، ولا يُطاق استرجاعها ؟ .

في العربة الستيشن واجون العائدة من الواحات ، عبر غيطان الصعيد المظلمة الممتدة ،
مهملة ومكبوحة ، في ركود الليل ، كانت قد تبهت فجأة ونادت : « ميخائيل ؟ أين
ميخائيل ؟ » وكان عندئذ في آخر السيارة ، مهدوماً وصامتاً جداً . وكانت هي بجانب محمود
الذي يقود ونور السيارة الخارجي ينعكس على وجهه من الخارج ، كأنه دوريان جرى بعد
انكسار الصورة ، مخدّد الملامح غائر العينين ، نتوءات عظامه حادة ، كان ليبتها يبدو واثقا
ومتعمكنا في چاكتته الجلد السوداء التي تعطيه حضوراً حيوانياً كثيف الملمس ، وكانت تُسند
رأسها إلى كتفه ، وشعرها الذي كان طويلاً متموجاً ، عندئذ ، يرتقي عليه ، لماذا سبألت عنه ،
في تلك اللحظة ، بتلك اللهفة والروع ؟ أكانت تفتقده ؟ أكان ذلك بإحساس من الذنب
ومداركة الاثم حتى لو كان الاثم منوياً فقط ؟ أم — يا لقسوته عليها وعلى نفسه — كانت تنادي
حتى تجعله يتنبه — إن لم يكن قد فعل — إليه وإليها معا ؟ حتى يتيقظ إن كان غافلاً ، ويرى ؟
كأنما تقول له : « أنظر ، لايفئك النظر » . قال : « وحتى عندئذ لا يكون ذلك شراً ولا مجرد
استمتاع بأن تُدير السكين في الجرح وتورث الألم . بل لكى تثبت له شيئاً . ماذا ؟ » أكانت
تستفزه وتستثيره لكي يخرج إليها يطلبها ، ينافح عنها ، يردّ عنها اقتحاماً هي التي استدعته بل
تكاد تكون صنعته صنعا ؟ . فيما بعد عرف أن محمود كان يبكي ، علناً وعلى رؤوس الأشهاد ،
من حبه . لماذا كان يبكي ؟ ترك هيئة الآثار بعد ذلك واشتغل بالتصدير والاستيراد وتجارة
العاديات ، ومات وحيداً ، بأزمة قلبية ، في غرفة فندقٍ بأثينا . لم يكن يحس في أي وقت من
الأوقات أنه يكرهه ، كان يحس فقط أنه يمقتها هي . الآن يحبها فقط ، وكأنه نسي ، وإن لم يكن
قد غفر شيئاً .

قال : ربما لم يكن هناك ، أصلاً ، ما يُغتفر ، ربما لم يكن هناك ، أصلاً ، إثم . بل

براءة .

في أحضان النوم في جوف الحوت في نور الحلم مسافاتها ممتدة شاسعة والسفر فيها مطمئن ، مريح ، جسمها الهائل الناعم . وجهي في الظلمة بين ثديها ، رائحة العجين الطازج كُشِفَ عنه الغطاء الآن فقط ، منذ لحظة واحدة . اللدونة الطيبة تختم على عيني بقوامها المموج ، وشفَتاي تنضمان على الحبة الصلبة المطواعة النافرة في كل من الروضتين المونقتين أستطعم حلاوة الثمرة الوحيدة الغضة والغار المكنون يلتف على باب حرشته البوص الغض الصغير تتمايل عيدانه تحت هبات النفس الحار وتكتنّ فيه الحمامة المضرجة بدمائها . تتأودين بين ذراعي من ألم الشبق الذي يُرغى بالزبد إعصار الجيء عصف الرياح نزول الرفرفة الصائتة على بحيرة المعمدان .

قد بحثت في سيرتي ونقبت في داخلي ، اعترفت علنا وأبحثت دمي فتجددت أحشائي . رفضت سطوة الظلمة، والشيطان قد جُحد وقيد بسلاسل في الهوة العميقة لألف عام ، أدركت وجهي عن عتات الغرب ، وحدقنا معاً في عين الشمس وبرزعت تحت أقدامنا الزيتون الدسمة الثمار وكرمة العنب المصفى ، انهمر الماء وغاص الجسدان ثلاث مرات في صيغ العباب الأبيض المقدس المطيب بزيت الحنوط القديم وخرجنا مبعوثين إلى الهواء على سيف البحر ، انفك الأسر وتحللنا من رباطات الأوزار وشربنا بفرح من ينابيع الخلاص وكان لنا نور نُختم علينا بختم لايمحى ولا ينكسر وجمحت بنا مركبتنا ذات الخيول إلى قلب السماء ، وعرفت أننا أطهار ، أطهار ، أطهار .

في لحظة التحقق الكامل يجيء القنوط الكامل ، قد عرفت المجد فليس هناك بعد إلا السقوط . وأعشت عيني المعرفة ، وكان لي الخلود . لم يعد بين يدي إلا الحب الرجيم والياس الرجيم ، والظلمة الخارجية ، لحظة مرادة الألوهية . الخمر التي لا تتكرر ، غير إنسانية ، وطعم الشجرة من شجرة الخلود . سقط الغشاء ، وعرفت أن ما ضرب عليّ هو الهلاك ، وإنما لحظة الحلم بالخلود هي عين الخلود .

نزل معها ليذهب إلى حفلة عند أحد أصدقائها القدامى . قالت : « نقضي نصف ساعة أو شيئاً من هذا القبيل ، وأخلص موضوع البيت بالمرّة » . كان من أعز أصدقائها ، قالت : « تعرفه ؟ » . قال : « بالاسم فقط ، ظريف أن أتعرّف عليه » . قالت : « ما أغرب

ما يتحول الناس ، المناضل والثوري القديم يشتغل الآن بالمقاولات وعنده شركة للهندسة والاستيراد والتصدير ، ومليونير ، يطلب مني الآن ، من أجل الزمالة القديمة فقط ، خمسة عشر ألف جنيه ، من أجل خاطري فقط ، لكي يعيد تبليط الشقة بالبلاط المعصراني ويعيد تركيب أنابيب المياه ، وقال أي واحد غريب كان سيطلب منه عشرين ألفاً ، على الأقل . ويكرر أيضاً . قالت : « كنت أريد أن أضع فسقية صغيرة في الصالة ، تحت المشربية . الأحلام لها الآن ثمن بالآلاف » .

دخلنا القبلا الصغيرة في المهندسين وقالت له : « اشتراها بتراب الفلوس وكما ترى صنع منها تحفة ، انظر إلى هذه الجنية الخرافية » .

فتح لهما الباب الداخلي شاب بالاسموكنج والقميص المنشي ، يتحرك كأنه مشدود بخيوط خفية ، كالأفلام ، وكانت البارقي في عز حُموتها ، وهناك عرب في بدل آتية مباشرة من « هارودز » ، ولحى مديبة مخروطة تحت أنوف معقوفة صقرية ، والعيون ضيقة صلبة السواد ، الموديلات التي تلبسها السيدات والبنات كلها ماركات أصليّة ، والديكور الحديث المصقول العقيم السطوح كأنه لن يدفاً أبداً ، والبوفيه مفتوح بالفعل ، أقراص الفلافل الذهبية الصغيرة فقط من باب الطرافة ، كأنها لآلىء ، لا تؤكل ، تلتف تحت جسد الديك الرومي الضخم ، المُضْمَخُ بخضرة يانعة مدروسة ، والجمبري واللانجوست بقشره الرقيق ولحمه الأبيض المشقوق ، وأطباق البفتيك التقليدية ، والفراخ والطبيخ والسلطات ، وكانت الموسيقى هادئة ، ولم يكونوا يرقصون بل يقفون مشى وثلاثاً وفي أيديهم الكؤوس أو يجلسون في جماعات صغيرة حول الموائد الأنيقة المتناثرة ، يأكلون على مهل ويتحدثون بأصوات جادة ولكن غير متزمتة . على أحد الموائد صحفي يساري ممنوع من الكتابة ، وجهه محتقن قليلاً ولكنه يتكلم بإصرار وطلاقة وفي فمه سيجار هاغانا ضخمة . قال لها : « كنت أظن حمدي الدمرداش مازال في الجزائر » . قالت : « لا ، يعمل الآن مع العراق » . كانت الحفلة تشبه حفلات السفارات ولكن على المستوى المضبوط تماماً من الأناقة وارتفاع المكانة مع التخفف من القيود في الوقت نفسه . وكان الزبائن كلهم نقاوة ، من الحزب الوطني إلى التجمع والعمل ، من الرابطة الأفريقية إلى سيدات الهلال الأحمر ، من رجال يوليو إلى نساء مايو ، من كهول الأربعينات إلى المستثمرين الانفتاحيين بضحكاتهم المرتفعة والشتائم على أفواههم علامات المودة والتصافي ، ومحاميات ومقاولون وطبيبات

يوكيل وزارة واحد على الأقل وسيدات أعمال ومشتغلات بالسياحة نصفهن شراميط مثقفات — يعني — وكلهن بشهادات عالية ، وخواجات محترمون جدا أو مشبهون جدا لا تعرف لهم أصلاً ولا ملة . والكلام نصفه عربي ونصفه أمريكي وفرنساوي في لفظ الموسيقى المُترامي عبر الصالة والغرف المفتوحة على بعضها بعضاً والحديث في السياسة والأعمال والضجك الخفيف وحرارة الشرب والمغازلات . وكانت المساومات تجري ببساطة وبالإنجليزي وعلى المفتوح . كان صاحب الحفلة قد رحب بهما ، وذهبت هي معه خطوات قليلة تناقش معه بخفة . كان يعطي ظهره لجماعة صغيرة ، في يده كأس ، وسمع سيدة فهم أنها دكتورة ، تناقش أحد الصقور ، على كأس الويسكي ، بطريقة عملية جدا ، ولم تكن تناقش في الحقيقة بل تضع التسعيرة ، ببساطة ، قال لها بلغة أمريكية : « سوف يسعدني هذا جدا يا دكتورة ولكن » فقاطعته بالإنجليزية بطريقة عملية جدا : « بالتأكيد . ولكن الثمن معروف . النومة بمائه دولار ، والليلة بخسمائة ، خذها أو اتركها » . فقال لها بصوت عاقل جدا : « في غاية الإنصاف ، حقا » .

وفي طريقهما إلى الخروج ، كان هناك شاب في غاية الوسامة ، جالس على الأرض مضطجع نصف اضطجاعة على البساط ، مسنوداً إلى فوتي يجلس عليه رجل نحيل جاف الوجه . قالت له : « انظر ، هذا مهيب ، ابن البرنس طلعت » . كان الولد ممدداً ساقيه على الأرض ، في بنطلون تيركواز لامع وضيق على الآخر ، ويده شفافة وهي تمسك بالكأس ، وعلى الأظافر لمعة باللون الطبيعي ، قالت له : « انظر ، وجهه كالبقر . اسم الله عليه ، يخرب بيته هو حلو بهذا الشكل لماذا ؟ » . وضحكا ، وعندما خرجا كان هواء الليل فيه نجدة .

قال لها : لابد أن آتي اليك بصورة غريبة وقعت عليها منذ قليل . جزء من وجه قديم ، وناظر بشكل لا يصدق . وجدته بعثة متحف مينوسوتا في أخيم . هل هي كاهنة أم أميرة ؟ ساحرة أم راقصة مقدسة ؟ البحث العلمي سوف يكشف لنا من هي ، ربما . كل ما بقى من التمثال جزء من الذقن والفم ، فقط ، من الحجر الجيري الملون . صدمني ، سحرني ، غير معقول . الشفتان هما شفتاك . قلت لا يمكن هذا غير صحيح ، غير ممكن . ولكن هذه الانفراجه التي توحى ببداية ابتسامه ، بل بمجرد نية الابتسامه ، والشفتان ، بنفس الامتلاء الخفيف ، بنفس التدوير ، كأنهما فرغتا الآن فقط من هذه الارتجافة التي لا تكاد تُلحظ ، عندما تكون الابتسامه فكرة في العينين فقط ، أو عندما تكون متعة الحب قد بدأت أو لما تكد ، في منتهى الجمال .

كانت تنظر إليه باستطلاع ، قالت : الله يخليك يا حبيبي . هذا فقط لأنك تحبني .

كانت الخضرة الحية النظرة في عينيها متوقدة ، فيها بُرْحاء استشراف البهجة . وكانت شفثاها ترتعشان ، منذ الآن ، موجة هينة مترققة ، بأقل رجفة ممكنة . وكان ذلك يكفي لأن يثيره . ويسأل نفسه مسحورا : أتلک رعشة مصنوعة ، مقصودة ، مشغولة ؛ للإغواء ودغدغة الحس الحميم ، وكأنها تمنمة في خط جسمها الذي تعرف كيف تصونه ؟ أم أنها رعشة تلقائية تصدر من اهتزاز الحب في داخلها ، لا تملك أن تردّها ، بل لا تعرف أنها هناك ؟ وهي تسدّد عينيها إليه ، ترتنه بل تستلبه في لحظتها الخاصة هي .

كانت ساقها السمراء الذهبية الباهتة الذهب ناعمة تحت ملمسه ، وباردة . وقالت له : يدك دافئة جدا . فقال : وعلى عكس المثل ليس قلبي باردا ، وهي تتحول كلها إلى عجينة متماسكة وطريّة في الوقت نفسه ، ملفوفة ودائرية تغلفه وتلتئم حوله ، لها هسيس كأنه انفلات الهواء المحبوس من الخمير الممتلئ ، وكان جسمها يسيل ويتعرج بين ذراعيه ، في حضنه ، ورأى بدهشة أن خصرها المحكم الضيق ينسدل إلى الردفين الغنيين من غير أية طيّة من طيات اللحم ، من غير أية ثنية ، مسبوكا وصافيا . حفيف النسيج اللين وهي تنضوه عنها يمّس حنايا الجسد بصوت حميم . تسقط فوق عينيها المغلقتين على الطوايا المليئة أضغاث همسها الحار ، تلاطم أصوات الجسدين المتصاعدة المكتومة له وقع داخلي دفين من غير كلمات له لغته الخاصة تمسكه بألف ذراع . والموجتان اللدنتان تطبقان على عمود السفينة الذي يحجز موجاً ثابت القوام ، نسيّ الشاطيء ، ولم يكن وطني أبداً إلا العباب . لماذا أظن أنني أستطيع عبور العباب على قشرة طافية من الخشب ؟

كان قد حكى لها أنه في طفولته كان يستيقظ فجأة في الليل ، على السرير العريض ذي الأعمدة السوداء المتوجة بعساكر من النحاس الأصفر ، ويزيح اللحاف القطن الحائل اللون برائحته التي عطنت حدتها ، ويحرص ، وهو يُنزل جلايته على ساقه ، ألا يعرّي أختيه الصغيرتين النائمتين ناحية الحائط . لماذا كان هذا القلق الذي يدفعه للتيقظ ، يسترق النظر بخوف خفيف إلى الأعمدة السوداء الغامضة التي تحاصره من الجهات الأربعة بأكاليلها الباهتة اللّمعان ؟

ويجري عبر الصالة الليلة الهادئة العتمة ، من أمام باب الغرفة الكبيرة التي يعرف أن أباه نائم فيها ، فالبيت إذن فيه أمان وثقة حتى في الليل المُبهم ، وينفذ إلى الشرفة العريضة العالية التي تطل على الشارع التراخي العريض في غيط العنب ، أمامها بيت منخفض مربع وجنيئة فيها نخل عال ينوس سعفه في السماء الحريية الزرقة ذات السحب البيضاء الخفيفة الطائرة بسرعة . وأمة متربعة أمام قصعة العجين الفخارية الواسعة الموضوعة على حصيرة قديمة لكي تحمي قعرها المحذب قليلا من برودة البلاط ، وعلى القصعة بطاطين وملايات نظيفة . كانت أمه في فستانها البيتي القصير ، والمدورة المجددة تلف شعرها القصير الخشن ورجلاها قويتان بيضاوان في ليل الشرفة الباهت الذي يوشك أن ينجاب ، وفي الهواء رائحة الفجر ، والديوك تصيح وتبادل الزفء من على سطوح البيوت ، واحداً بعد الآخر ، بداءات ملحة لا تنتهي ، بصوت شكاة مشروخة ولكن مصممة . قالت له أمه : ميخائيل ؟ باسم الصليب ، ما الذي أوقظك ؟ قال : أريد أن أرى العجين . فلم تبسم وكشفت البطاطين والملاءات مرة واحدة عن الكتلة المدسمة المقبة البيضاء ، بقوامها المتناسك ، ورائحة الخمير الخصبه ملء صدره ، وأمه تصنع أقراصا مدورة ، تلتقم بيديها العازفتين قطعة من صلب المادة الطيبة اللدنة التي فيها مقاومة خفيفة أيضا ، وتديرها بسرعة بين أصابعها وتُحكّم استدارتها ، وتركها تسقط على اللوح الخشبي المستطيل ، بدقة ، بصوت ارتطام طري ، لكي ينداح القرص قليلا ، وتمهيط قته الخفيفة إلى دائرة مضبوطة مستريحة . هل كانت أمه تعمل الخبز العادي لكي ترسله في أول الصباح إلى الفرن ، يأتي صبي الفرن في الخامسة صباحا ويحمل الطاولات الخشبية واحدة فوق الأخرى ، تسندها الحواية القماشية على رأسه ؟ أم كانت تعمل له أقراص الملاك ميخائيل ، في عيده ، وفاء للنذر القديم حتى يحفظه الملاك ولا يموت كما مات أخوه الذي سبقه وراح وهو رضيع ؟ وهل كانت ، بعد أن تقرص العجين ، تخبثه بالخاتم الخشبي المدهون بطبقة خفيفة من زيت السيرج والنقوش بالكلمات القبطية والصليب القبطي المورق الاطراف ؟ رائحة العجين الخمران لها لذة خاصة ، ينشقها الآن من بين نهديها .

كان ينهض من النوم ، في الليل ، فجأة ، كما في القديم ، فيجدها إلى جانبه ، وينزل من السرير بحرص ورفق ، ولا يكاد يصل إلى الباب حتى يسمع صوتها النائم بشكاة طفلة تخشى الوحدة في النوم : ميخائيل .. أين تذهب ؟ فيقول بصوت خفيض حان : لا شيء .. راجع حالا ، ونحس أنفاسها تنتظم من جديد ، ويذهب إلى المطبخ في نور الليل الخافت المتقطر من النافذة الرجالية العالية وحصيرتها مرفوعة ونفحة من هواء الليل تدخل من فتحتها العرضية

الصغيرة ، ويفتح الثلاثية فتسقط شريحة الضوء الكهربائي منها على الأرض وعلى ساقيه يحسهما فجأة متحررتين وفيهما اكتمال واعتزاز ، ويلتقط ما يجده في الثلاثية : حبة مانجو ، برتقالة ، وأحيانا نخوخة دمنة الجلد ناعمة الوبرة ، يشقها بالسكين ويأكل ويشرب الماء المثلج ، ويعود فيجدها نائمة نوما عميقا ولأنفاسها صوت يتردد ، فيه شهيق وزفير ، ومحسوساً ، ولكن في نومها توترا كأنها ماتزال تخوض معركة خفية لا تعرف فيها من الذي تحاربه ، وما الذي تحاربه ، وعندما يضع يده ، برفق ، على كتفها العارية ، تُطمئنها يده وتريحها ، فتهدأ الأنفاس المتلاحقة في النوم وكأنها ، أخيراً ، تنام حقا .

وعندما عاد إلى بيته بالاسكندرية كان قبل أن ينام يمر على الأبواب والنوافذ فيتحقق منها ، يعيد في الواقع طقوس بيتها ، حين كان يتأكد أن الباب الكبير الخشبي مغلق بالارلاج ، وأن نافذة المطبخ فيها فرجة مفتوحة وأن الستارة مسدلة على نافذة القاعة الكبيرة وأن الزجاج وراء المشربية محكم ولكن النافذة الأخرى مواربة قليلا للتهوية وأنه ليس هناك إلا نور واحد صغير في المر ، وتكون هي نائمة أو تنتظره ؟ قال لنفسه : هل للسنتمنتالية أيضا طقوس ؟ وقال : طبعاً .

قالت له : عندما تنام إلى جانبي فكأنما صنع جسمانا كل منهما للآخر . وقالت : كأنني لم أستيقظ يوماً إلا في حضنك ، وحنايا جسمي ملتصقة بجسمك . كانا في الراحة من تعب الحب أو الغضب ، معاً ، بعد أن يغلبهما النوم في الآخر ، وهما مازالا يتحدثان بصوت تغيب عنه اليقظة شيئاً فشيئاً ، وقد جاء الاستسلام . يُسلمان أنفسهما لهذا النوم الغريب ، ساعات قليلة ، في عتمته نورٌ بقظية خافتة جدا . تندمج الأطراف الهادئة فلا يعود بينها أدنى انفصال ، في هذه الوحدة الغامضة الساكنة ، جسماً واحداً فيه قبول كامل لذاته ، لا يعود ثم من هو ومن هي .

كانت تستدير على جنبها ، رأسهما على وسادة واحدة ، وذراعه تلتف حولها ، بين عنقها وكتفها ، ويده تستقر من الناحية الأخرى على صدرها تمتلئ به ، هادئة ومستريحة ، وصدره يجد في المنحاة ظهرها تجاوبا لصيقاً محكما ، كأن الجسمين مصبوبان لأحدهما الآخر ، وربوة الردفين العالية المستكنة تجد مكانها تحت ذراعه الأخرى ، يده مفتوحة على الدوران الناعم المتحدر ، والسيقان متجاورة تتلامس وتتضام في بطاء دون عمد ، حتى لا يكاد يعرف أين ساقها من ساقيه ، عندئذ كان يهبط السكون والسلام عليهما معاً ، أنفاسها تنتظم ولها صوت خفيف

منتظم الترداد ، وقد تركت روحها النائمة له كما تركت جسمها النائم ، يحيطها بذارعيه ، بكلمه ، ويغادر هو أيضا روحه وجسمه ، راحة الغياب تغلق هذا الجسم الواحد المثنى الذي كمل واختفى ، ولم تبق إلا عتمة نور خافت جدا ، وحيد .

مازال اسمك هو الماء المالح في عيني . لماذا لا تجف عيناى حتى الآن ؟ لكن القدرة أيضا غير جافة وغير يابسة ، هي نظرة ، وصلبة العود .

حبيبات ألن النجوم تومض وتنطفئ وتتقد من جديد وخزائب دقيقة على سطح مياه عينيك الساجية طوفان الجسد مياه الفيضان في عنفوانها تملأ أرض الجرن ، حارة ومتموجة ، في أغسطس القديم ، قد نزلت نقطة الملاك ميخائيل ففاض النيل وأغرق قلبي المشقق من جفاف التحاريق . رفث ربحانة الروح وأبعت وردة أحلامي ، يداى تسيل عيونهما المبقورة على منحني بطنها العميق تهتز حوله عساليح البردى الغض الصغير . كالسماوات المقلوبة على دثارها أتمرغ ، ولا ينتهي قلبي على الطوايا المتفتحة بنعومة دسمة مقاومة ومطواعة معا ، عظام وجهي غارقة في الامتدادات الوثيرة من الجسد البراح الفسيح الذي لا يصل إلى أفق بل ترتفع أمواجه وتهبط بسفينتى التي تمخر سطح العباب المكسو بضوء من ملح البهجة الأبيض تشق فيه مسارات الشمس الضيقة التي تتقد وتنطفئ بلا توقف بانفجارات صغيرة متتالية من المتعة الحادة . مجد التاسعة الكورالية السامق يصطفق وترنم به أجواز الأفلاك ، صعودا إلى أعالي لم تخلق فيها قشاعيم النور ولا الملائكة ذات الألف جناح . الموسيقى التي تقمص بها القلب والجسد جبال من نور وثبح البحار نشوات متج التحقق لم يعرفها أحد في كل الأزمان إلى آخر الآباد نصابعد في أطباق سماوات لا ينتهي لها صعود ما تزال ترتفع ترتفع حتى تتجاوز عروش الملكوت ، ورأسي أمام الآلهة ، نداء بند ، وعيناى تحدقان بعيونهم ، لا تطرفان . أعمدة الألف طن الألف قرن من الزمان تتوقل بجلاها البهيج إلى أعلى ليس لها انتهاء ، كأنها ، وهى شاهقة ، في خفة السهام المرشوقة في جسم السماء ، جسيمة وناعمة الكتل ومدورة ، متفرقة ومتجاورة في غير شعث بل في انسياب حر لا يحكمه إلا قانون التمل . سعة السماوات الشاسعة تعدو فيها جيادي التي تحمل الأعمدة الساطعة كأنها بلا وزن جامحة تطير الرياح بأعرافها ، أيتها الآلهة الصلفة ، هذا أنا هذا مجدي الذي لن ينثل إلى الأبد ، وصرخة المجد تنقوض لها الأرض والسماوات بانهبان سدود الطوفان ، دفق الانهمار الصافي على وجهها الأسمر وذقنها ، على الصدر والبطن

العميق ، من نافورة المعمدان . اصطفاق رفرقة الأجنحة على رأسينا في آخر هتفات الكورالية على آخر موجات نهر الأردن ، اكتمال البشارة وأول خطوة نحو الجلجثة .

قالت له : سعيد أنت يا حبيبي ؟

كانت مستندة إلى صدره ووجهها مرفوع إليه ، غصّ وناعم بوهج عميق .
كان يحيط كتفها بذراعه ويده الأخرى في يدها على حجرها ، في مسكة رفيقة ، دون ضغط .

قال بهدوء دون أن يتحرك : ليس هناك كلمات تصف هذا .
كانا مستنفدين ، منهكين بعد تحقق كامل ، كلاهما . وقد وجدنا نفسيهما على النشاط ، أنفاسهما منتظمة ، وكانت نظرتها إليه غائبة وتحتويه معا .

قالت كأنها تحدث نفسها : ليتنا تموت الآن ، في حضن أحدنا الآخر . أريد أن أموت بين ذراعيك ، الآن . لا أريد شيئاً ، أى شيء ، بعد هذه اللحظة . تحقق لي كل شيء . ليست هناك سعادة أعظم من هذه ، أبداً ، في أي وقت .

تلك كلمات ، تلك لحظة ، لم يجرؤ أبداً أن يحلم بها . اختنق من السعادة والكمال .
اختناقاً ساطعاً فسيحاً . لم يشدد ذراعه حولها ، لم تختلج فيه جارحة . تجمّد . وكل شيء توقف ،
ثبت ، وصل إلى الحد الأخير الذي ليس بعده ما يوجد ولا ما يتصور .

لم يجد كلمة واحدة يقولها .

تململت فجأة ونهضت قليلاً ، وابتعدت عنه قليلاً ، وقالت بصوت متغير ، مرة واحدة : أنت لا تُصدّقني .

كان سقوطه بعد ذلك إلى هدهدة اتهامها ، إلى التهذئة من روع شكّها ، إلى محاولة نقل اليقين الذي لا يمكن أن يُنقل بكلمات ، سقوطاً غير مُجدٍ . وأحس أنه غير مقنع ، غير كاف ، لم يكن هناك شيء كاف ، أبداً ، مهما قال ، ومهما فعل ، أحس فقط أنها تستمع إليه .

قال لنفسه : على الرغم من كل قوتها ، وبملاكها أمر نفسها وأمر الآخرين ، فما يُوثقني بها حقا هو هذا الضعف الأساسي فيها .

قال : يا طفاتي ، كم أحبك .

وهي ، هذه المرة ، لم تُجِبْ .

قال لها : حبيبك عجوز .

قالت مبتسمة : أنا ، شخصيا ، في يدي برهان فيزيقي على عكس ذلك .

قال : الفراق صعب .

قالت ، بابتسامة خجول مستطلعة كأنها تطلب الموافقة والقبول ولا تريدهما : أليس هو

الاختيار الوحيد ؟

وعندما صمت ، لم ينف ولم يُثبِتْ ، قالت : سأعدّ لك قهوة ، ولي أيضا . تعال معي

للمطبخ ، ساعدني .

قال لنفسه : هنا ، في بيتها ، في بيتنا ، وحده ، أعرف حرية نادرة لا أعرفها في أي مكان

آخر من العالم . أين الاختيار ؟

قضى النهار كله في البلد ، وكانت القاهرة مزدحمة وبحسها خاوية على اكتظاظها ، فتح

الباب بالمفاتيح التي أسلمتها له ، فوجدها قد عادت من الوزارة بعد يوم طويل ، وجلسا على

الصوفا ، جنباً إلى جنب ، متربّعين ، متحررين من العالم أخيرا .

قالت له : أنظر ، مازلت أحتفظ بما تركته عليّ ، طول اليوم . خرجت وعدت به ،

كأنني أريد أن أحتفظ بك أنت ، على جلدي ، فلا تُمحي أبدا .

ماذا كان يمكن أن يقول ؟ كان هذا ، على عدوته وسذاجته ، موجعاً له ، جدا . كان

اعترافا ، بكل براءته ، يتفتت له ، هو ، بلا حول . قال لنفسه : ألا تعرفين أنني معك ، أبدا ؟

هل أنت بحاجة إلى دليل محسوس ؟ أم أنّ حدسها أقوى وصدق ؟ أنّ الخيالات والأوهام والنجوي

والحلم ، والألم ، مادامت كلها خفاءً ، ليست حقيقية ، ولا توجد ، وأن الشيء الحقيقي الوحيد

ليس عندها ، ليس فيها ، ليس لها ؟

وقالت له : الولد الذي كان سيجيء لنا ، لو أنه جاء ، كان سيجمع كل ما بيننا نحن
الاثنيين . وكل ما في بلدنا ويكون باهرا .

قال : لم يأت .

وقال لها : هل تعرفين أن باسكال كان يعلّق ورقة في ياقة سترته لكي تذكّره بما حدث له
مرة واحدة لم تتكرر ، مكتوبٌ فيها كلمتان فقط « البهجة — النار » ، يضعها على ملبسه
كالحجاب الذي كانت أمي تعلقه بحيط حول عنقي ، تحت ملبسي ، كتّبه لها راهب شاب
نحيل ، أسود اللون وجاف . وكان يأتي لنا من دير في وادي النظرون ، مرة كل سنة ، ويرورنا في
بيتنا في غيط العنب ، يصنّي ويتغدى ويرش الماء المقدس من رجاجة صغيرة في جيب جيبته
السوداء . ذهب هذا الحجاب ، ضاع مني لا أدري أين . ولكن البهجة النار لا أنساها ، تحرقني
بمائها المُحبي ، معمودية متكررة متقدمة ، وكل مرة جديدة ، وأروع ، بلا مثيل ، بلا انتهاء .

كان يعرف جمال الوجود العاري ، يصعد ويتألق ويسطع ، لحظة بعد لحظة ، من غير

زمن .

الباب الرابع عشر

الخبز المحروق

عندما قالت له : الآن أريد أن أموت في حضنك . لم يبق لي شيء أريده بعد الآن ،
ولم يستطع أن يقول كلمة واحدة ، أحس نفسه يحدّق إليها ، فقط ، كأن ضربة من
السعادة المفاجئة قد أطاحت به ،

وقالت ، بغضب : أنت لا تصدّقني ؟

وبكت ،

وأخذها إليه ، وهي ماتزال تقاومه قليلا ، ومازالت الدموع تسقط من عينيها ، من غير
صوت ، صافية سلسالة ، ووجهها تحت الدموع كأنه قناع من الجمال والابتعاد ،
عندئذ كانت عيناه تفيضان بالدموع الصامتة ، لا يجسها وكأنه لا يملكها ولا يعرف أنها
هناك .

وعندما رفعت إليه صينيها المعروفتين الواسعتين ، من وراء شفافية البكاء الندية ، وأحست
أنه يبكي ، دون كلمة ، أخذت وجهه في حضنها وأخفت دموعه في صدرها ، فشدد حوالها
ذراعيه ، من غير أن يقول شيئا . وفي هذه الظلمة الحانية انجابت عنهما سحابة البكاء الغريب ،
وحل بينهما هذا الصفاء النادر الذي يأتي بعد أن خلصت الروح ، والجسد ، من اضطرابهما .

قام ، يتسّم ابتسامة صغيرة ، قائلا : سأعدّ لك شيئا لتشربه .

وعندما عاد ، يحمل الصينية الفضية الأسيوية الصغيرة ذات نقوش الباجودات والميموزا ،
وعليها كأسان ، وسطل الثلج المدور فيه المكعبات نصفها شفاف رائق ونصفها ينشعب فيه
الجمد الأبيض ، وزجاجة الماء ، قال لها : أغرقه لك ؟ كالمعتاد ؟ وكانت شفثاه توجعانه قليلا
وهو يتسّم ، فأومأت برأسها ، وهي متربّعة على الصوف ، تدخن ، في راحة هذا الإنهاك البروحي
الأخير ، وتتوهج في الوقت نفسه بأنوثته يانعة خمرية الجسد . كانت رباعيات بيتوفن بعيدة
وكاملة ، وقريبة جداً إليهما كأنها تصدر عن شجرٍ داخليّ ، وبهاء ، فيهما ، يحسانه ويوجدان
معه . وكان في يدها كتابٌ مجموعة ت . س . إليوت ، الذي يعرفه ، كبيراً بفلافه الداكن
القوي ، مفتوحاً على فخذيها . وقالت له : أقرأ لك شيئا من إليوت ؟ فأومأ برأسه ، وهو يجلس
إلى جانبها ، مستنفداً ، وملء صدره سعادة ساجية ويحتمة ، وقد مُسِح عنه كل سوء .

كانت تقرأ الشعر بشجنه الصافي المثلث بالدلالات ، إيقاعاته مفاجئة وفيها تمام الكمال ،
وإيقاعاته شاسعة المرّمى ومكثفة جدا في آيٍ معا . وكان لاكتشاف الشعر من جديد متعة

جديدة ، وكان صوتها عذبا ، وقادرا ، متمكّن التنغيم ، وجرس السينات من بين أسنانها سلس خفيف اللثغة جدا ، ولهجتها بالإنجليزية كاملة الحسن ، وكان الشعر هي التي صنعتها بل هي التي تحياها ، وكأنه يتخلّق إذ يقال ، الآن فقط ، ويتخذ كياناً له جسم ، لأول مرة . وقرأت الشعر طويلا ، ونهض بحرص وهدوء ، وأشار إليها فاستمرت تقرأ ، وأضاء لها الأياچورة الصغيرة إلى جانبها ، وهي مازالت تقرأ ، حتى أغلقت الكتاب وأسندت رأسها إلى ظهر الصوفاء . وأغمضت عينيها ، صامتا ، وانسالت الدموع من عينيها المغمضتين بنعومة ، وكان هو أيضا ممتلئ العينين بدموع كأنها موسيقى مثالة من غير ألم ولا صعوبة ، من حنان الشعر ، والحب ، والقسوة الخفية فيهما ، لم يكن في هذه الدموع حزن ولا ضعف . وكانت الكؤوس قد فرغت ، والموسيقى قد فرغت ، فقام يعيدهما من جديد ، وقال لها : أقرأ أنا قليلا . وقرأ لها قصائد الحب المصرية من ترجمة إزرا پاوند ، وكان قد حفظها تقريبا ، فلم يكن يقرأ بل كان يتلو لها من آى حبه ، وكان صوته الحار الخافت يرتعش ، وكانت تعرف ، وكانت تبكي من جديد .

كانت سيجارته تشتعل وحدها على المنفضة ، نسيها .

قالت له : هذا يوم غريب ، نشرب ونقرأ الشعر ونبكي ، ونقرأ الشعر ونشرب ونبكي من

جديد !

قال : ولن يفرغ هذا أبدا ، لن ينتهي . تعالي .

كان الليل قد أوغل ، لم يحسّاه . تناول يدها ، ذراعاه حول خصرها ، وذهب .

وكانت طقوس الحب صامتا وممتلئة حتى الكمال .

وقبل أن يغلبها النوم ، قالت له بصوت خفيض : هل بقيت لك أية فانتازيات لم تحققها ؟

أية خيالات جسدية لم تحدث ؟

قال ، وجوارحه كلها راضية : لا .

كان يعرف أنه قد تجسدت له أحلامه الخفية كما لم يحلم قط أن تتشكل ، ولكنه كان

يعرف أنّ له فانتازيات دفينّة أعمن ، وأبعد شططا وجموحا ، وأنها لعلها مستحيلة .

قالت له ، وهي تستدير ، وتضع وجهها على الوسادة الوحيدة ، تحتم الدبة البنية المعلقة

بقدميها ويديها على قائم السرير الخشبي الصقيل ، وكأن صوتها يغيب : هل تعرف ماذا أتمنى ؟
فقط ، أن أمتّعك ، إلى آخر حدود المتعة . وأنا قادرة على هذا ، أنت تعرف .
قال بهمس ، كأنه لا يريد لها أن تسمع : أعرف . وليس للمتعة حدود .
في أول الصباح ، عندما عادت ، كانت تنهج ، وهي تدخل ، سريعة الخطى ، خفيفة
الجسم ، لا تكاد تمس الأرض ، وترد الباب الخشبي العريق ، صدرها يرتفع ويهبط من وراء الجلاية
السابعة الطرية النسيج ، وعيناها تلمعان بالانفعال والفرح ، وقد تشربت بشرة وجهها السمراء
الصفافية بقعة من الحمرة الخفيفة تسيل وتتسع قليلا قليلا . كانت قد قالت له : يجب أن ألحق
نبوية قبل أن تخرج ، أعطيتها هذه البرقية ترسلها للهيئة « في أجازة عارضة لظروف قهرية » .
وقالت له بعينين ثقيلتين بالمعنى : أنت الظروف القهرية ، ونزلت السلام الحجرية بسرعة . قالت
له ، ومازالت أنفاسها متلاحقة قليلا : لحقتها على الباب . من يختك أنت ، ويختي أيضا
يا حبيبي . وإلا كنت اضطررت للنزول . قال : أو كنت أذهب أنا . سكنت لحظة وقالت :
أبدا ، كنت طلبتهم بالتليفون وأخذت الإجازة بالتليفون ، وخلاص . نظرت إليه ، وكأنها قررت
شيئا ، ثم قالت : هل تعرف نزلت حافية وبالجلابية على اللحم . لم يحدث لي هذا أبدا من
قبل . معك أنت تحدث لي هذه الأشياء . أفعل ما لم أفعله قط من قبل .

وكانت مستشارة من عريها وهي تنزل بالجلابية اللدنة فقط ، على السلام ، وأمام باب
الشارع ، في الحوش الصغير تحت شجرة الجميز العجوز العفية ، فاستثاره ذلك أيضا .

كانت تعرف هاجسه الطفلي القديم بأن تجربتها وسعت كل شيء ، بشكل ما ، وكأنها
من آلاف السنين ، وكانت تريد منه أن يخلص من هواجسه القديمة كلها .

قالت له : هل انتهى ميخائيل السيء القديم ، تماما ؟ وراح لحاله ؟ لا ، ليس السيء ، بل
الذي لم يكن يعرف ، فقط . هل فهمت ، إذن ، أنني أحبك ، أحبك أنت ؟

قال ، وفي نفسه يقين كامل : تماما . أعرف الآن .

قال : كان اليقين . فعلا ، كاملا .

وفيما بعد اكتشف أن ميخائيل القديم السيء لم ينته تماما . كأنما رغما عنه .

وقال : التنيين ما يزال . الإيمان غير كامل .

قالت له : ولدنا الجميل الذي لم يأت . كان سيجمع بين كل عناصر مصر !
وقالت ، ساهمة ، متأملة ، في فانتازيا خاصة : فكرت أن أتوقف عن تناول الحبوب ، لولا
أنني أعرف متاعب الحمل والولادة في هذه السن .

قال : كانت توميء إلى شيء لم أكن أفهمه . ولا أفهمه .
وقال لنفسه : هل انهزمت ؟ حتى في قلب الهزيمة المحققة ، قال ، لست مهزوما ، قال ،
المجادلة لا تنتهي .

كانت قد قالت له : لا تسلّم يا حبيبي أبدا . أنت مقاتل .
وقالت : يتطلب الأمر ، مع ذلك ، قديسا ، قديسين ، كلينا ، حتى ننجح .
وقالت ، بمرارة : أنا أداة جنسية ممتازة .

فقال لنفسه : أليس هذا ، بالضبط ، هو ماتيني به ، هي ، أسطورتها الخاصة حول
نفسها ؟ كان ثم ما يهجس به ، أيضا ، أنها عندما تحكي عن إنجازاتها الجنسية ، وانتصاراتها التي
لاشك فيها - كما يبدو من ظاهر الأمور على الأقل ، فمن يعرف ؟ - فإنما تنسج فانتازيا لا
تفصل فيها عناصر الحقيقة ، بأي معنى من معاني الحقيقة ، عن أوهام الجسد وشطحاته

وقال إن جسدها الذي يعرفه - هو - ليس وهماً بأي معنى من الأوهام . فهل هو
وهما ؟

قال لها : أنت تعرفين كيف تُلغين المواقف ، والأشياء ، والأشخاص التي لا معنى لها
عندك . أو لا تدخلين ، لا تتورطين ، فيها ، من الأصل .

التجوى الحارة التي مهما بلغ من عنف صدقها فهي ، بالحثم ، مشوبة وملتبسة ، وزينغ ،
التليفون الذي يرن في بيتها - كما سوف تعرف ، وسوف تغضب - وهو في الاسكندرية ، قبيل
الفجر ، كل ربع ساعة ، حتى أول الصباح ، مرة بعد مرة بلا كلل كل ربع ساعة ، وهي ليست
بالبيت ، وهو في حُمى هذيان لا يملك فيه من أمره شيئا ، يتصورها ، من بين ما يتصور من
أضغاث الأوهام ، ترفض الرد ، لا تريد أن ترفع السماعة ، تصدّ اقتحاما لا قيمة ولا وزن له ،
ماذا يُجديها التليفون بعد منتصف الليل ، وحتى آخر الفجر ؟ ماذا تفعل به ؟ والخطابات التي

يرسلها واحداً بعد واحد ، كل يوم ، ثم ينقطع عن إرسالها تماماً ، فترات متطاولة ، وهي تعرف تماماً مع ذلك أنه لابد يكتب لها خطاباً أو أكثر كل يوم في ذهنه ذلك القلق الدؤوب المتحرك كقار قارض في جُحره المعتم ، ماذا يهمها من خطابات متصورة ولا يمكن أن تصل ؟ كل هذه الازتراءات والتخطفات والهجمات والارتدادات التي لا تأتي كلها بشيء ولا تذهب بشيء . أما هي ، فببساطة وعفوية ، وأصيلة ، لا تُلقي إلى ذلك كله بأدنى اهتمام . وتلغيه .

أما أنا - قال - فهذه العلاقة كلها مستحيلة عندي . ولا أرى أحاول المستحيل ، وأغرز أسناني في الثمرة الصخرية .

وقال لها : صحيح . يحتاج الأمر إلى قدس ، إلى قديسين كلينا معا . وقد انقضى زمن القديسين ، ألم ينقض ؟

وقال : عندما أنتظر من صوتك نعمة حنان وحرارة ، أجده فجأة جافاً ونقياً . وعندما أكون حاراً في داخلي وقياضاً ، يرن صوتي في مسامعي أنا ، بارداً لا مبالياً أو متحفظاً جداً ، فكيف بك وأنت التي تسمعيه ، لابد أنه يدفعك دفعا ، رغماً عنك حتى ، للغير ، أو للرفض والتجريح .

قالت له : أليس من حقني أن أدافع عن نفسي ؟
قال : المشكلة - التي هي طفلية في الأساس ، أسلم معك - أنني أصدر عن يقين ، غير مبرر ، بأنه ليس ثم بيننا ، ولا يمكن أن يكون ، دافع أو هجوم ، أن النعمة الصحيحة مُضمرة ومعروفة سلفاً ومسلم بها أساساً ، أنه مهما كان الشكل الخارجي فإن العمق - في هذا اليقين غير المبرر - مبنئ وراسخ .

ثم استدرك : وأنا أسلم معك بأن هذا كله يبدو سخفاً كاملاً ..
فقاطعته : لا طبعاً ، ليس سخفاً ولا شيئاً من هذا القبيل ، أنت على كل حساسيتك وذكائك ..

فقاطعها هذه المرة : ذكائي ؟ اعلمي معروفاً ، أنا ؟ أنا ليس عندي ذرة ذكاء .

فأكملت ، بتصميم : أقول إنك علي كل ذكائك ، وبالرغم منه ، بالرغم منك ، أنت لم تفهم المرأة قط .. ولم تفهمني ، لم تفهم شيئاً أبداً ، فماذا أفعل لك ؟
قال بهمس ، كأنما لنفسه : كيف «يفهم» المرء من يحبه ؟ ما أريد ، فقط ، هو أن أعرفك . أما الفهم ، فمع الحب مستحيل . القبول ، نعم ، هذا هو كل شيء .

وقال : عندك حق ، فماذا تفعلين بي ؟ وماذا نفعل ، كالانا ، في هذه التصادمات التي يبدو أنها لا مفر منها ، هذه التباينات في نعمة الاتصال وفي نعمة انقطاع الاتصال معا ؟

قالت له : لن نعرف كيف نحتمل البقاء معاً إلا إذا تعلمنا كيف يحترم أحدنا الآخر ، باعتبار كل منا فرداً مستقلاً ، له هويته ، له مزاجاته ، وتقلباته ، وحماقاته أحياناً . يجب أن يعرف كل منا قانون الآخر . أليس كذلك ؟
قال : وهُم الفردية ، والاستقلال ، باعتباره قيمة أساسية عندها . وهُم الاندماج ، والفناء في الآخر باعتباره القانون الأولي ، عندي .

ثم قال : ما أشد سذاجة مطلبي أن تتسقى البني حتى تعود واحدة ، وأن تتوافق النغمات في هارمونية واحدة ، وأن يتحقق الانصهار والذوبان والاستحالة إلى واحد . وأن تطلبه أيضاً ، في كل لحظة ، دائماً ، دائماً ؟ أليس هذا هو العبث بعينه ، وأشد أنواع الطفولة سذاجة ؟ وتطلب هذا وأنت كبير ، ومجرب ، ومضروب ؟ حمق ، بل غفلة ، ببساطة .

وقال : وهذا التجريح للنفس أيضاً حمق . ولو أنك ساذج وطفلي حقاً ، فلماذا لا تقبل سذاجتك وطفولتك ، ببساطة ؟

قالت : ومع ذلك ، حقاً ، قالت ، فأنت لست بكل هذه البراءة يا أخي . علي من ؟ لا أقول أنت تخدع نفسك ، لا ، هذا شيء آخر .

كانت قد سافرت إلى المنيا من صباح الأربعاء ، قالت له : علي عيني هذه السفرية ، ولكن لم أستطع أن أتخلص منها . الهيئة قررت افتتاح مقبرة اكتشفتها بعثة المتروبوليتان في تل العمارنة ، وهو كشف فريد ، وسيأتي الوزير يوم الخميس ، مع الصحفيين والتليفزيون والسفير الأمريكي أيضاً ياسيدي ، وبقية اللمة المعتادة ، وقالت إنها ستأتي يوم الجمعة ، لأن هناك حفلة

يوم الخميس بعد الظهر يقيمها المحافظ ، وستصل على الظهر ، يوم الجمعة .

خرج ، كان البيت موحشا جدا وخاويا من غيرها . قال : أنزل ، أشرب شيئا في الفيشاوي ، ثم أذهب لميدان الأزهر . كان يعرف أن المظاهرة ستخرج بعد صلاة الظهر ، وجاءه شعور غامض كأنه لم يستقر أنه يجب أن يذهب ، قال : على الأقل ، لكي أرى . وابتسم لنفسه من التشوف واللهفة .

كان الميدان قد ازدحم بالناس ، رأى الدرجات الرخامية المسوحة تحت الأبواب المفتوحة عن الأعمدة الداخلية الرشيقة ، والمآذن الألفية فيها كبرياء قديمة وحكمة حجرية ، والحائط العريق العريض فيه نقوش ملونة باهتة وعذبة ، يمتد ويدور إلى حارة رطبة ظليلة رائحها تراب مبلول وفوح البهارات والتوابل الحار . وكان الشبان بالبنطلونات والقمصان وبالخلابيب البيضاء والطواقي الصغيرة المخرمة ، يتماسكون بالأيدي ، وجوههم تنز بعرق خفيف ، ووجد نفسه في وسط دوامات ضيقة متلاحقة ، ورأى البنات يتجمعن معا ، البلوزات خرجت قليلا عن أحزمة الجيبات ، والفساتين تهدلت والأحذية المنخفضة الكعب عملية ومقصودة . وكانت الهتافات مازالت متفرقة ، ولكنها عميقة ولها صدى أجش ويجيش لها قلبه ، مصر الحرة مع فلسطين الحرة عائدون عائدون يسقط العدوان الإسرائيلي ارفعوا أيديكم عن بيروت الله أكبر الله أكبر النصر للإسلام يسقط الاستعمار تسقط الصهيونية لبنان لبنان بيروت بيروت ، بين أذرع رقيقة من الخشب ، تنخفض ، وتهايل ، وتعتدل وسط اللعظ والنداءات والهتافات التي تكتسب عمقا أكبر وقوة أكبر ، وأبواق السيارات ، والأوتوبيسات التي وقفت في الشارع . وفجأة اتحدت الهتافات وصعدت ، محتشدة وجماعية ومنمعة : عرفات عرفات .. يحيا عرفات تسقط إسرائيل عرفات عرفات . وكان الناس حوله ، متزاحمين ، متدققين ، وكانت في جسمه حيوية جديدة من أيام الشباب وترقب مشدود لم يعرفه منذ سنين طويلة ، ولم يكن يدرك تماما أن صوته قد وجد نفسه في الهتافات ، وأنه قد انضم إلى الناس ولم يعد يحس نفسه منفصلا ، بل ثم تحرر نادر وبهجة شاملة متغلغلة كأنها بهجة الحب ولكن لها قيمة أخرى ، الهدير العميق نفسه تحت سماء الاسكندرية التي يجري فيها سحاب أبيض خفيف ، وهو في شارع العطارين ، لا يسمع صوته الذي اكتسب راحة وعرضا وقوة مزلزلة من الصوت الجماعي الواحد . الجلاء الجلاء . يسقط الاستعمار . الجلاء بالدماء . وهو لا يعرف إن كان هذا الصوت الأجش الذي له سطوة أخيرة ملكاً له أم ملكا لهذا الدفق الدافق من الناس الذي له وحده سلطان على المدينة المشرقة

الأنفاس ، هذه الموجة الصافية المرتفعة الأمواج كمعمار جيش وثابت معا ، ومحتشد . الصفوف المترنحة تنتظم قليلا وتتابع وتتحرك ببطء وقد اكتسبت ثقة جديدة ، كانت السيارات المقفلة التي تحمل زعماء المعارضة قد انطلقت ، مرت من جانب عربة الأمن المركزي الضخمة السوداء ، من بين صفين من العساكر ، بخوذاتهم وعصيهم ودروعهم وأقنعتهم البلاستيك الشفافة القوية الجدران ، واقفين في جمودٍ وتحفز معا ، وضابط جسيم على كتفه نسر وعدة نجوم ، يتقدم إلى أول المظاهرة ، بوجه محتقن تحت الخوذة التي تبدو ضيقة وغير مستقرة على رأسه ، ويتحدث ، وهو يشور بيديه ، إلى الصف الأول من الجمع الذي توقف الآن واضطرب وترددت هتافاته تملو وتنخفض وتنشبت وتحتشد ، ثم تفيض إلى صيحات فردية مبحوحة لا تكاد تُسمع في الضجيج . ونداءات اثبت جمّع اثبت ولقّط المتجمعين . حرّ الظهر ، وصّفّ واحد نحيل من العساكر الأنجليز ، بالشورتات الكاكي ، والوجوه المحمرة المسحوبة تحت الخوذات المدورة ذات الشرائط تحت الذقون ، تنعكس الشمس الخفيفة الثقل على معدنها اللامع ، والصف ممتد خلف سيارة جيب مكشوفة جلس فيها جنديان أيديهما على التومي جنّ الوحيد الرفيع الفوهة ، مصوّباً إلى الشارع ، لا يكاد يبدو أن له تهديدا جادا . هبات هواء البحر البليلة على الجلابيب البيضاء والبدل غير المكوية والقفاطين والقمصان المفتوحة والطرايش . كانت قطعة التومي جنّ كأنها خافئة ورشيقة الإيقاع ، لا تأتي من مكان محدد ، وكان يجري بين الناس الذين يجرون ، ويصطدم بالظهور ويترنخ ويكاد يسقط ويستعيد توازنه ولا يحس أنه يشهق ، ورأى بجانبه صبياً قد ارتسم على صدره ، فوق جلابيته البيضاء ، خطّ منتظم مائل من بقع الدم المستديرة الصغيرة ، بينها مسافات متساوية ، والصبى يهتز مرة واحدة ، مندهش العينين ، غير مصدق ، ويرفع ذراعاً واحدة ، ولم يسمع صوت ارتطامه بقضبان الترام اللامعة ، وانحنى رجل متقدم السن ، يلبس بدلة داكنة ، عليه ، واجتمع حوله الناس بسرعة ، ورفعوا الصبي الميت المفتوح العينين مازال ، على الأكتاف ، يتقدمون ببطء من جديد ، والدم ينز على جلابيته البيضاء ، وعاد المدفع الرشاش يقطع واختلط الناس والصراخ والهتاف والسيقان التي تجري ومرة واحدة تراجع الناس يتسابقون إلى الوراء ، يتخبطون ويجرون إلى الخلف وإلى اليمين في موجات سريعة من السيقان والأذرع المتصادمة . وقد انفكّت صفوف العساكر ونزلوا من العربة الضخمة بملابسهم السوداء ودخلوا في وسط المظاهرة ، والعصى ترتفع وتنزل على الظهور والأكتاف والرؤوس ، دون صوت ، والشتائم ، والهتافات الفردية والصراخ النسائي والنداءات اثبت ، جمّع على اليمين ، جمّع في الشارع والمتظاهرون يجرون من بين العساكر ويتدافعون متماسكي الأيدي إلى نهر الشارع

الذي وقفت إلى جانبه عربات الأوتوبيس والملاكي والترام المزدهم بالناس الصامتين ، وفي غمرة الزحام رأى البنت التي كانت بلوزتها قد تهذلت قليلا من اهتاف والتشوير وقد سقطت على الأرض من غير أن تصرخ ، أفلتت منها خشبة اللافتة البيضاء التي سقطت عليها فغطتها ، وكان الدم ينز ببطء على وجهها وعلى صدر بلوزتها التي خرجت الآن تماما من الجيبة المنحسرة عن رجليها الرفيعتين . كانت عيناها قد تورمت وأخذت تزرُق بسرعة وتغمض تماما ، فأنحى ، دون أن يفكر ، ورفعها على رجليها ، ليس على وجهها أى تعبير ، وقفت ، ونفضت نفسها من يديه وانحنت من جديد تبحث يديها في الأرض ، وليست فردة حذائها المخلوع ، وجرت بين الأرجل المتلاحقة إلى الشارع ، وعبرت من فتحة الحاجز السلكي ، وغابت بين الناس . وكان آخر ما رآه استدارة العربة العالية السوداء وقد امتلأت مرة أخرى بعمولتها ، في الشارع ، متجهة ناحية العتبة ، خلف الصيحات والهتافات التي تتردد ، وحيدة موحشة في صمت الظهر المفاجيء ، وآخر المتظاهرين يجرون في حلقات صغيرة تتجه بسرعة ، وتصميم ، إلى الميدان . أحس بمن يجذبه من يده إلى القهوة الصغيرة في الحارة الضيقة الرطبة ، هل هذه العطارين أم الحسينية ؟ أحس بمن يسنده من ظهره ، ويجلسه إلى كرسي جنب النصة ، ويقول : اتفضل يافندي ، أقعد ، الله يجازيهم ، خد نفسك . استرح يافندي ، وكانت القهوة مزدهمة بالجالسين والواقفين ، ينظرون إليه ، وكان قلبه يجيش بحبهم ، وجاءه صبي القهوة الحافي القدمين بكوب من الماء أمسكه بيده ولم يستطع أن يشرب وهو مازال يجاهد لكي يتنفس ، يسمع صوت الشهيق الذي يتطلبه صدره بالحاح سريع متلاحق ، كأنه يرقب شخصا آخر .

على أول المساء قالت : اعطني ملبسك .

نظر إليها بدهشة قليلة .

قالت : أغسلها لك ، أنقعها في الماء والساخن حتى تزول الرائحة .

قال : رائحة المظاهرة .

قالت وهي تقرّبها قليلا من أنفها ، ببساطة وبشيء من التطلع أيضا :

— ليس فقط التراب والعرق ، رائحتي أيضا تعلق بملابسك .

قال : دعها إذن . لا أريدها أن تزول .

فابتسمت ابتسامة خفيفة لا يكاد يفتح لها فمها الصغير .

كانت قد قالت له : طعمك أرضي ، صريح ، فيه شبهة من مِلحٍ وحلاوة طفيفة معا ..

كان ، عندما يفتح دولابها ، تهجس اليه ملابسها بسرّ عطرها القديم الحوشىّ النفع الذي ينثقه في شعرها ، وقد تطاير الأرج الآن حول النسيج المخلوع الذي مازال يحتفظ بشكل طيات جسمها .

وهي تقبل يديه ببطء ، تمرر شفيتها ، بتماس وثيق ناعم ، على راحتي يديه قالت له :
— أصابعك فيها رائحتي .
رائحتها الحميمة . فأمسك بوجهها كله بين يديه ، كأنه يريد أن يحبسه ، وقبلها على شفيتها ، قبلة طويلة .

قال : بهجات الجسم الصغيرة ، النشوات الطائرة العابرة ، هي التي تصنع بهجة الخلود الذي لا يزول .

وقال : بالطبع ليس هناك أبداً هذه العرّضية العابرة التي أظنها قد انقضت . لم تنقض . وأظنها قد زالت ، ولكنها باقية ، بمعنى ما ، باقية . هذا أعرفه .

وقال : أيكون البقاء — في قلب العرّضية — هو ، ربما ، كل السر ، وكل الوضوح ؟

وعاد يرتد على نفسه : البقاء ؟ الخلود ؟ هذا أيضا لا شيء ، لأنه لا زمن . هو أيضا عدم ، لأنه انعدام الوجود .

قال : مامعنى هذا ؟ مامعنى أنني موجود ، وأنتى خلدت ؟ من يعرفني ؟ من يُبقيني ؟

وقال : حتى حبيبتي ، المرأة التي أنا خالد بها ، التي أنا خالد بحبها ، لا تعرف ، ولا تعرفني أنا ، هنا ، فكيف تُبقيني ؟ الخلود هو أيضا اللاوجود .

وقال : سُكّر الهوى ، وسُكّر الخلود . أتى لي بأن أفيق من السكرين ؟

قال لها : هل حقا كنتِ قد ألغيتني ؟ خلال سنوات طويلة لا نهاية لها ، لم يكن فيها

درع ولا تغطية ولا تبرير ، كنت أنت باقية . تقولين البرهان ؟ نعم ، قد ألغيتني بالفعل ، لكننا معا ، ألم تُلغِ الإلغاء ؟ فوراً ، معاً ، في لحظة واحدة ، في دموع الفرح الأولى التي لقيتني بها ، وأنت تضحكين ؟ وعندما قلت : ما أجد هذا ! مجده كما هو ، باق ، كما كان دائماً ؟ لماذا ؟ بقوة هذا البقاء . البقاء الذي كان في قلب الإلغاء . البقاء ، ما يزال .

قالت ، نصف راضية ، نصف منكورة : أنت يا حبيبي رومانتيكي بلا أمل . لا فائدة معك .

قال : أبغض الرومانتيكية .

قالت : وما لها الرومانتيكية ؟ رديئة الرومانتيكية يعني ؟ كُحَّة الرومانتيكية ؟ ياسيدي أعطني رومانتيكية ، بقدر ما تستطيع !
ثم إنها كانت قد قالت له : أنت الذي تتكلم عن لواعج الحب ، ولوعة الحب ، أنت قطعت السمكة وذيلها !
وعندئذ غضب ، وكرم غضبه ، فصالحته ، بطريقتها .

قال لها : عندي سؤال . أنا ليس في ما يستحق الحب . ماذا تحبين في ؟
قالت : أسئلتك كثيرة يا أخي . أحب فيك كل شيء بما في ذلك مكالماتك التليفونية الجنونية في الفجر وأنا لست في البيت .
ولم تزد ، كأنها قالت منذ الآن أكثر مما ينبغي .
قال : لم أكن أقرب إلى أي مخلوق مني اليك . هذا الحس الكامل بالقرب الوثيق الحميم الآمن غير المتسائل ، وسقوط الحواجز وانتهاء كل عزلة ، يومض ويسطع ويصبح هو الحقيقة الثابتة . ثم يختفي ، كأن لم يوجد قط . ومع ذلك فلن أكتمل إلا بك ، أنت . لن أكتمل . الكمال وهم لا أعرفه .
قالت له : لن تعرف أبداً كم أحبك .

وسأل نفسه : أكانت تريد أن تقول : « لن تعرف » أم « لن تكون لك القدرة أبداً » على أن « تفعل » بقدر ما « تعرف » ؟ أهذا ما كانت تعنيه ؟ أم أنك تُحبيني أكثر مما سوف أتبح لك أبداً أن تجعليني أعرف ؟ لأنني لن أدعك أبداً تُبئين لي كل حبك ؟ لن أدعك أبداً

تبعاني أعرف ، لأنني لا أريد أن أعرف ؟ أهذا ما كنت تقصدين ؟

قال : ما أشد إيجاع أن تقولي هذا ، لي أنا ، لأنك تعرفين بالضبط أن ما أطلبه قبل كل شيء هو المعرفة ، وأن الحب عندي هو المعرفة . لن أعرف أبدا . ولن تعرفي أبدا ، أنت . لأنك لا تعرفيني ، لن تعرفي أبدا حسي ، المعرفة التي هي ليست فقط الحب بل الإيمان أيضا . وماذا أعرف عنك ، أنت أقرب الناس إليّ وأعزهم عليّ ؟ أيمن أن تكون للحلم أنياب المعرفة ؟

وعاد يقول : لماذا لن أعرف ؟ لأنك لا تريد أن أعرف ، أم لأننا ، كلياً ، لن نحتمل ؟ هل نستطيع ، كلانا ، أن نحتمل هذه الحقيقة ، حقيقة حبنا ؟

ولماذا يجب أن نحتمل ، أحدهما أو الآخر ؟ هل الاحتمال ضربة لازب ؟ هناك احتمالات أخرى . أهذا هو ؟ أهذا ما تريد أن تقولي ؟

مهما حدث ، ومهما تطاول البعد وضربت الوحشة ، فلا تقولي أبدا مرة أخرى أنك تخشين النظر في عيني لأنك لا تعرفين ماذا ستجدين فيهما . ليس ، ولن يكون ، لا يمكن أن يكون ، ثم انقطاع ، أهذا لا تعرفينه حقاً في عمق قلبك ؟ ولا تقولي أبدا مرة أخرى أنني آتي كأنني قادم من جديد ، كأنني غريب . أهذا يقبل السؤال ؟ فكيف بهذا التوق المتقد دائماً ، هذا التذكر الجسدي اليقظ الحاد ؟ الحقيقة شائخة ومجيدة في قلب ، كل الزعازع والأنواء . فلماذا القسوة من جانب ومن آخر ؟ ألا تكفي قسوة العالم ؟ أم هي لأن العالم قاس ، ولأن الحقيقة يضرب فيها نخط شئ متلو من الحس بفوات الأوان ؟ أم لأن هذه الحقيقة نفسها ما كانت لتوجد ، بكل سموها ، لو لم يعثر قلبها هذا الشريان المشعب القاتل ؟

قال لنفسه : أبداً ، ببساطة ، كانت تريد أن تقول إنها تحبك كثيرا . هذا كل شيء . كانت قد قالت له : والنبي ، والنبي ، ارحم نفسك يا حبيبي وارحمني ، وارم بكل هذه الأسئلة والهواجس ، من النافذة .

وقالت : عندما أموت ، سوف تستريح .

قال : ليس هذا النوع من العذاب جديداً عليّ . الجديد هو وطأته . ولست أريده ، في نهاية الأمر . هذا النوع من الألم طبعاً مألوف وقديم ، سُمته تماماً . لماذا لا ينتهي ؟

وقال : ولست مولعاً به ولا شيء . بل أكثر ، هذا كله مبتذل ، ولا معنى له أبداً . وكان يجب ألا يوجد ، من الأصل .

قال : هو مجرد الشوق . ولكن الشوق إليها كان ينبغي أن يكون شيئاً مبهجاً ، برغم كل شيء . كانت السعادة والنشوة معها لا مثيل لها . وهي موجودة . قائمة . شيء قد تحقق فعلاً . ألا يكفيك هذا رصيماً لا يفنى ، لا يمكن أن يفنى ؟ ألم تقل لك إنه يجب أن يكون فخرك بها ، واعتزازك بجهها ، شيئاً مما لا يقاس عليه أى شيء ؟

قال : تلازميني ، في تحلدي أنت ، ليل نهار ، وتتجلين لي . فأنت كُلي . وعندما أحبك ، كُلي ، فلست أرد إلا حَقَّك ، أنت صاحبتَه وواهبته . يا قمر قلبي الضارب في سمائه المدفونة . عطيتي لك أنت التي وهبتي إياها . وعندما تسلييني نفسك أشهد بنفك ، ولكنني أنا الذي أنتفى . ولست بقادرة - وأنت معي كُلية القدرة - أن تسلييني إياك . هذا الهوى لم يعد ملكاً لك ، ولا ملكي . حبي إياك أقوى ، وأكثر ضرورة ، من عينيك المهاجمتين ، خضرتهما تضرب صخرة قلبي فيسيل موجاً من الغضب والحناك معا ، وتعود قامة الصخر فترتفع عن الزبد المصطفى ، أحجاره صلبة وحادة وناتئة في ثبج المياه الحُضر . حتى بُعدك لن يكون أبد الدهر بُعداً . هل هناك ألصق بالقلب من قُرباك ؟ وهواك ضجيج قلبي ، وحُلمه . ما أسطعك في ظلماتك ! وعندما تغيب طعناتك في هذا الحشا الذي يرمض ، ويضّ دماءه السود القديمة ، يجالد نفسه بدرعه الوحيدة ، ودِرعِهِ هِي حَبْك . لماذا أنت قاسية على نفسك ، وحشاني هو الذي ينبغي أن يكون درعك ؟ وحتى ضرباتي المسددة إليك كأنها في حلم مخنق ليست إلا وجيعة هذا الحنان . شئت يدي . « فلا بُعدك يبقى ، ولا قُربك ينفع ، ولا حربك تُفني ، ولا سلمك يؤمن » « وأسألك ألا ترديني إلى ، بعد ما اختطفيني مني ا » لا تُرديني إلى نفسي ، أبداً ، إلى وحدتي . وأعرف - من غير مسألة - أنه ما من ردة أبداً . كان اختطافك لي ، من نفسي ، إلى نفسي ، لُقياي ، وساعة ميغادي ، انتظرتها ، كالبشارة ، بإيمان كُلي . حتى جاءت في مركبة مجلجلة من سحب البهجة الأبيض الجامع . هي الساعة الباقية لا تنقضي أبد الدهر .

قال : وتقلَّب الهواجس هذا ، والاعتراف بالإيمان والخطيئة ، من أقصى النقيض إلى أقصى النقيض ، كل مرة ، بتكرار يكاد يكون آليا ، من الفرح الساطع إلى الانقباض الرازح الثقيل ، من اليأس المظلم العينين إلى نشوة الأمل والتذكر والتطلع معا لاتكاد يمكن أن يُنظر إليها ، من المقت والغضب إلى رحمة وحنان ، قال : لا ، ليس المقت ، الغضب ، نعم . قال : هذا يكاد يفقدك القدرة على محرد النفس . من قرارٍ أنتي لن أراها ، بعد ، أبدا ، وأنَّ كل شيء قد انقضى وزال ، إلى رغبةٍ لاعجة أن أراها الآن ، أن أقوم فوراً ، أن أغفل كل شيء ، كل شيء ، لكي أخرج إليها أخيراً ، في وضع النهار ، ولايتم شيء ، ولا يحدث شيء ، من الهدر والسقوط إلى التوفز والخفة والطيران بالفرح ، كل هذا قديم جدا ، كما قلت لك ، ومبتدل . وحتى لم يعد مثيراً لا للابتسام ولا للسخرية . إلام ينتهي هذا؟ إلام ينتهي هذا؟ ألا ينتهي؟

قال : هذا لا يملكني ، فقط ، أنا أيضا أملكه .
قال : لا أحبك لأنني أتألم . لا . ولا أتألم - حتى - لأنني أحبك . بل أحبك لأنني بكِ عرفتُ ما ينتهي به الألم . وعرفت أن الألم غير ضروري .

قال : أهذا هو السقوط؟

قال لها : أترين إذن مدى الاضطراب ، وتقلَّب الأشواق ، مجد التحليق بكل قوة الجناحين الضاربين الممتدين على سعة السماء ، وتخبُّط التردّي في الحفرة العميقة؟ وهل تغفرين لي ، أيضا ، كل هذه الفصاحة؟ أحاول فقط ، أن أقول ، أتمنى فقط أن أقول ، ببساطة جدا ، مدى حبي ، وغوره ، وأنه عميقٌ وأساسي ، وحنؤه لك لا ينتهي . وأعرف أن هذا التمني الذي لايجد تحقّقا سيستمر ، ويستمر ، من غير نهاية . ليس هناك إلا صمت حينا ، حولنا ، أنظرُ إليك ، في عينيك اللتين أحبهما ، وأنت تبسعين لي ، من على الرمال .

كان بعد الظهر قد تقدم . من الذي قال أولاً : كم الساعة الآن؟ ومن الذي أجاب : كم؟ نظر إلى ساعة معصمه وقال : غير معقول . الساعة الخامسة ، بعد الظهر . كنت أظنها الحادية عشرة بالكثير .

قالت : الساعة الحادية عشرة كنا نفطر ! كان الفجر ، وأول الصباح ، والظهر ، كلها ، غير موجودة . كان الحب ، والقهوة ، والإفطار ، والشرب ، والنوم في حضن أحدهما الآخر ،

والكلام ، والحب من جديد ، والحكايات ، وتكاشف الجسد ، وتماسّ القلبين ، وفيض الأحاديث والضحك ، التي لاتغيض ، كلّها ، لاتحدث في زمن . إيقاعها لازمن فيه .

فقاما ، وأعدت له جينا أصفر ، وزيتونا.أسود ، وفتحنا علبة أنشوجة ، وخيارتين وخصّة صغيرة ، في ثلاثة أطباق مستديرة بيضاء ، على مائدة المطبخ ، وحملها معا إلى المائدة النحاسية الصغيرة في القاعة الواسعة ، أمام الصوفا . لم تكن المائدة الكبيرة قد أقيمت بعد ، لم يكن يعرف وجودها حتى . واكتشفت أنه ليس لديها خبز طازج ، فأخرجت من الثلاجة شفتين جافتين أدخلتهما في الفرن وأدارت الزر ، وقالت : نسخنهما حتى يطري الخبز . وحمل هو الكأسين في يده ، وإناء الثلج بمكعباته البيضاء المنداة ، وأتت هي بزجاجة الماء المثلج ، وقالت : الحمد لله على الأقل فيه ثلج . شرب شفطة قبل الأكل ، وقالت : فذهب إلى الغرفة حتى يسخن العيش . وعلى الفور لم يكن هناك زمن ، من جديد ، جهما ملاً الخبز الذي يدور فيه الزمن ، ونفاه إلى الخارج . جلسا على الصوفا ، يتكشفاً من جديد ، كأنما لأول مرة ، جسداً الحب ، وغابا فيه .

قالت : ياخبر .. ! ماهذا ؟

رفعت رأسها فجأة من حضنه ، تتشمم الهواء في القاعة التي كان ضوء بعد الظهر يُشيع فيها ، من وراء المشربية ، تحت أشجار الظل ، هدوءاً وسكوناً عميقاً ، ووصلت إليهما ، مرة واحدة ، رائحة الاحتراق ، كأنها حلقات غير مرئية ، فوحها الحاد مازال خافتاً يتطاير لا يكاد يُمسك به . وثبتت من جانبه ، وانسدل عليها النسيج المفهف الذي كان قد انحسر عن فخذيها ، ووثبت في الوقت نفسه ، وهما يهتفان معا : العيش !

عندما دخلا باب المطبخ كان الدخان الأسود يصعد في شرائط رفيعة متموجة من حافة باب الفرن الكهربائي ، وقبل أن يفتحها باب الفرن كان الخبز يبدو من الزجاج المدخن وقد تقوس ، واسود ، تفتح تماماً ، وعلى أطرافه بقع حمراء متوهجة تشتعل .

ومن غير سبب واضح وَجَدَا أَنَّهُمَا يَضْحَكَانَ مَعَا ، يضحكان فجأة ، ضحكاً لا يُكبح ولا يُرد ، لا يملكان أن يوقفاه ، ورأى نفسه يدور حول نفسه ، ويصفق بيديه ، يكاد يرقص ، وهو لا يعرف أن ينطق كلمة واحدة ، من الضحك .

وضع ذراعه حول خصرها ، بعد أن هَوَّث المطبخ وفتحت نافذته ، وهو يوجهها إلى الغرفة ، وقال ومازالت بقايا الضحك تهزّه : حاف .. سنتغدى اليوم حاف .. من يريد الخبز ؟ من يريد الأكل ، حتى ؟

قالت له مرة ، في فجوةٍ من فجوات الغضب والمرارة الخفيفة : تموت حياً ، نعم تستطيع أن تموت حياً . ولكن من غير الممكن ، في كل وقت ، أن تعيش هذا الحب ، يوماً بعد يوم . لي صديقة زوجها يموت فيها حياً ، ولكنه أصيب في ٦٧ . لم يعد قادراً . وبعد علاج طويل في لندن عاد على مقعد متحرك . هذا مثال . كيف يمكن أن يستمر الحب ؟ كيف يمكن أن يعيش هذا الحب ؟ وهو مازال يموت فيها حياً . ليس الموت حياً هو المهم ، بل عمل الحياة في الحب .

في غمرة فنتته بها لم يدرك مدى الغضب الذي لا بد أنه اعتمل في داخله . كأنما دَفَع به إلى أسفل ، كتّمه ، فاختفى . ولكنه لم يكن قد قَضَى عليه .

كان قد عثر على التّين - التّين نفسه - على الرمل ، على شاطئ البحر . كأنه كان في أول شبابه ، هل كان عندئذ أم الآن ؟ قرر لنفسه ألا يذهب للكلية ، أو للمتحف ، لا يعرف ، وخرج تحت السماء الشتوية الثقيلةٍ بسحابٍ أسودٍ مُنذرٍ ، وهواء البحر حادّ وبارد يطير بجماكتته الزرقاء الطويلة ، وعلى ياقتها قرص معدني أسود صغير مكتوب عليه بالانجليزية « الجلاء » وفي جيبه نسخة ينجوين . من مختارات الشعر الانجليزي ، المطبوعة في القاهرة ، ذات الغلاف الأزرق الداكن من الورق الخفيف . ومرّ من أمام السلسلة ، والمدفع الضخم شيرير الفوهة مصوّب إلى البحر الغاضب الأمواج ، ومن أمام كشك خشبي مغلق كانت مجنّادات الإيه تي إس الانجليزيات تقدم فيه المشروبات للعساكر ، ومن أمام مبنى المستشفى الإيطالي الذي تحوّل إلى مستشفى للحلفاء ثم إلى كلية الآداب بعد ذلك بكثير ، وأمامه حرس من عساكر جنوب افريقيا السود ، ثم نزل من على السلام الحديدية المكشوفة إلى الرمل الأبيض العريض ، تحت دوران السلسلة في أول الشاطبي ، وعلى الشاطئ أكوام متموجة من الأعشاب البحرية والطحالب المبلولة اللامعة الخضرة ، فوق أكوام طبقة أخرى تحتها ، أخذت تصفرّ قليلاً وترقّ كنسيج شفاف . كان رمل صباح الأخير يغوص تحت حذائه ، فيه مقاومة خفيفة ، وهو يسير تحت سور الكورنيش الحجري العالي ، والموج المضطرب يقذف بنفسه على الرمال في كتلتيه المائية الجسيمة السوداء ، وأعراف الزبد الأبيض تفور وتنقلب وتنفضى ، في زيف بارد الغليان . ولكنه كان

يعرف أنه ليس في ذلك الزمن ، ويعرف أنه قد خاض معركة مع التنين من وقت طويل ، وأنه قد وجد بالفعل صورته الجميلة ، وعانقها ، وأن الصراع لم ينته ولن ينتهي ، وعندئذٍ عمر عليه ، كان صغير الجسم جدا ، راقداً بين الطحالب المبلولة الغضة الجلد ، يحدق إليه بعينين مفتوحتين لا تطرفان وعميقتين ، وكانت حراشيفه جافة ولكن غير جارحة ، وكأنه ، بين الأعشاب البحرية ، في قاع بحر مظلمة ، وكأنه كان يحرس كنزا قديما . ولكن الكثر مفقود ، أو غير موجود . وكأن التنين يحس بأنه في غير موطنه ، وأن العشب البحري الذي يرقد بين طياته ولفاته بارد ولزج ومبتل ، فانحنى عليه ، كانت عيناه لا ترفضانه ، وحمله بين ذراعيه ، وارتجف الذيل الطويل قليلا ، كأنه أحس الدفء في حضنه لكنه لم يغمض عينيه . وكانت عيناه جائعتين .

كيف عاد به من الشاطبي إلى غرفته ، عبر محطة الرمل التي كان الهواء يطير بسعف النخل الملوكي على جانبيها ، ودخل به إلى كشك المحطة الذي كان سقفه المحدث مغطى بالقرميد الأحمر ، وركب الترام الذهاب إلى راغب باشا ، وصعد به سلام البيت الضيقة المصنوعة من الاسمنت الرمادي المنقطة الذي اسودّ من التراب ، ومر من أمام باب المرأة السوداء العينين البضة النهدين في قميصها الأحمر الضيق المفتوح الصدر التي كانت تنتظر نزوله على السلم كل صباح ، وهو يحمل في حضنه الثقل الخفيف الحى الذي أخذ يذفا الآن ، وأطراف حراشيفه تضغط على صدره بنقاط مدببة ولكن ناعمة ليس فيها ألم ؟

فتح باب شفته ، ودخل بسرعة إلى غرفته ، ووضع على الكنبه البلدي التي تقع أمام مكتبه ، تحت صور اديستوفسكي وعمر الخيام وكيتس وألبير قصيري ، في إطارها البيضاوي الخشبي المشغول . ورفع إليه التنين رأسه الجاف ، مدّ فمه الطويل إليه ، مطبقا أسنانه في قبضة كأنها لن تفتح أبدا . وقال لنفسه : كيف أرحاه ؟ وماذا أطعمه ؟ كانت عيناه جائعتين . كان ينحني على شفيتها ، يقبلها ، بحنان لا يملك أن يرده ، فرفعت إصبعها برفق ، ومسحت عن جانب وجهه الدموع اللامعية الهادئة التي لم يكن يحس أنها تسيل ، بصمت كامل ، من عينيه المفتوحتين .

الوجد الذي لا ينتهي اضطراما ، والجوى ، انحسرت القسوة ، وانكسرت أسنان التنين . فهل جاءت قسوات جديدة ؟ إحب له لحم الرخام الأبيض الحى الغض الناظر ، لا يموت ، هل

تذكرين وردته السوداء الناعمة ؟ أضمت جسدك الوثير فأعرف حلم جمال العالم وأعرف جسد الحقيقة ، أقبلك فلا يعود ظمأ ، أقبلك بكل الحنن والرقّة والظمأ الذي أجد أنه لا ينهي . عَبَق شعرك بحرافته الدسمة يجعلني أحيا وأموت وأحيا وأموت في إيقاع نبض الدم الذي لا يتوقف عن أن يناديك .

كان أول لقاء بينهما ، وحدهما ، في القاهرة ، عندما عاد من الاسكندرية ، وكانا قد عرفا معا ليل مدينته ، وقال : هل كان حلما ؟ واشتركتنا فيه بالصدفة ؟ وقالت ، بصرامة : بل هو حقيقة . كان الميعاد في جروبي ثروت ، وجاءته بعد أن انتظر قليلا في الركن الداخلي الذي تطلّ نوافذه الزجاجية على الحديقة الشتوية ، في ميعادها بالضبط ، كان هو الذي جاء مبكرا قليلا . وكان جروبي بعد الظهر خاليا وموحشا ودافئا . وعندما أقبلت ، متمهلة ، تضع على فستانها الداكن القصير قليلا ، كوفية زرقاء ناصعة الزرقة ، طويلة جدا ، تلتف دون إحكام حول جيدها وتسقط من على كتفها ، إلى الأمام ، قالت له إنها محمومة وعندها 38,5 حرارة وإنها خرجت بإذن بالتليفون من زوجها ، فقد كان الطلاق لم يحدث بعد ولم تكن عليه ، عنده على الأقل ، دلالة ، فقال لها زوجها : ساعتين فقط ، مدامت المسألة عاجلة إلى هذه الدرجة ، لا تنسي أن عندك حرارة ، وكانت تحكي ذلك دون دراما ودون غواية ، ودون شكاة ، كأنما تقرر وقائع لها أهمية ولكنها مجرد وقائع . وقالت له ، فيما بعد إن زوجها كان يشير إليه : ميخائيل هذا ، صديقك هذا ، ماهو ؟ مهندس ترميم أثري أم شاعر أم ثوري مهزوم ؟

وقالت له : أنت غير مهزوم . خلّ بالك . إياك أن تظن هذا .

وكان مرة يتطلع إلى رفوف الكتب في مكتبة في شارع شريف ، متخصصة في الآثار ، والتاريخ وتُسَخّ لوحات النحت الفرعوني البارز والغائر ، وكان المساء قد دخل ، وفي المكتبة جو القلق الذي يسبق الإغلاق وترقب خروج البياعين بعد الشغل طول النهار ، عندما دخلت مع زوجها ، وسلما عليه ، بايماءة من الرأس ، دون أن يقتربا . كان ذلك في الفترة التي قالت له إنها ألغته فيها . وسمعتها تتحدث مع صاحب المكتبة ، وتطلب منه رواية تاريخية شهيرة من العصر الأوروبي الوسيط ، كانت على رأس قائمة الروايات الأروج بيعا عند ذلك . وأتى الرجل إليها بالرواية ، وكانت قد اقتربت منه ، مع زوجها ، ولمح ميخائيل على غلاف الرواية فرساناً مدرّعين تطير خيولهم المطهمة الكاسية بستائر ذات شرابيب نازلة على جنوبها ، في وسط غابات صنوبر مشتعلة تتطاير ألسنة النار في دواباتها ، فالتفت إليه وقالت له ، وزوجها ينظر إليه ببرود ، إنها لا تستطيع أن تنام إلا على قصص مثيرة وخفيفة من هذا النوع ، فأوما برأسه ، بابتسامة محتبسة ، وقال : صحيح ؟

قالت له : يا حبيبي ! هل تذكر هذا كله ؟ أنا نسيت . كانت أياما غريبة . لكننا افترقا بعدها بقليل ، أصدقاء ، بهدوء . خرجت من البيت بملابسي ، وممنال . لم أطلب منه مليما ولا شيئا . مع أنه كان يلح على أن نجلس ونقتسم . كان هذا ، ربما ، ردى الوحيد ، من غير كلام ، على مراهقته الثانية ، هو ، كان عندئذ يحب كل أسبوع بنتا جديدة ، ويظهر معها في كل مكان ، وكان لابد أن تكون ، يادوب ، سن ١٨ ، ولابد أن تكون ، لازم ، من عائلة أرستقراطية .. ١

ثم قالت له : قد لا تصدق . لكن ، معي ، كنت باردة . جاء بعد بشاعة زوجي الأول ، وخلفت منه ، ولكنني لم أعرف الذروة معه أبدا . كنت ساذجة جدا ، أنت لا تصدق ، أعرف ، ولكنني كنت أتصور أن هذا هو كل ما في الحب ، والزواج ، هذا العمل الآلي تقريبا ، الذي كان ، تقريبا ، لا يخصني ولا شأن لي به . حتى عرفت ، بعد ذلك بسنين . في مدينة ثورية ، مع الرجل الذي قلت لك إنه كان كاملا . هل كنت أحبه ؟ أم هو الذي كان يحبني ؟ وأنت تقول عني نيمفية يا حبيبي النيمفية لا تعرف الحب ، ولا صنع الحب ، ألا تعرف هذا ؟ أظن أن البرهان على عكس ذلك عندك أنت بالذات .

ثم قالت : الواحدة ، قد تنام مع الرجال ، نعم ، دون حب ، ممكن طبعاً ، ولكن لا بد أن يكون هناك قدرٌ ما من الفهم الإنساني ، والصدقة ، والود . لا أفهم أبدا ، كيف تنام الواحدة مع رجل دون عطف ودون نوع من المودة . أبدا .
قالت : أي فرق هذا يصنعه ؟

قالت له إن ريتشارد ، بعد صمت سنين طويلة ، أرسل لها بطاقة في رأس السنة ، من كلمتين « الشوق إليك » فقط . قالت ، بنوع من التأمل ، ورجع الحنين : أول مرة يكتب منذ عشرين سنة !

قال لنفسه : لماذا لم أحس لا غضبا ولا غيرة ولا شيئا ؟ كأنني أفهمها ، كلها ، وكأن حبي يراها كلها ، ويقبلها كلها . وفي هذا الحب ثقة كأنها لا شأن لي بها ، ثقة خاصة به وحده ، لا أعرفها تماما .

وقال : هذا يمتهنني ، كرجل ، أم يؤكدي ؟
قالت له : أنت الذي أحب .

وقال لها : أنا أحبك . أنت تعرفين .
قالت : نعم ، بطريقتك ، ربما ، بشكل ما .
كم مرة قالت له هذا ، ولم مرة أجابها نفس الاجابة ؟
أجاب : لا ، بل دون تحديد ، دون شرط .
قالت : الحب الذي ليس له حد ولا شرط ، غير موجود ، أو على الأقل أمر غريب .
أنحشني أنه شيء آخر .

كان قد قال لها ، بالتليفون : أوحشيتني .
فقالت : أنت أيضا . سوف نتكلم عندما نلتقي .

بصوت مصقول ، مدرب ، مُتَحَكِّم فيه ، حلو المقاطع ، معتنى بنبرته ، صوت البنات
التي تعلمت في مدارس سويسرا لصقل البنات .

قال : عندما يُقال الشوق والحب بلهجة الصالونات المكيفة الهواء ، المحسوبة ، المنتقاة ،
يدفعني هذا إلى الخرس ، ويُسقط كل مالدي ، فأجد ، وأنتفى .

قال : كلام العبادة قيل لك أكثر من مرة ، من أكثر من رجل . هذا أعرفه ، ولا أحتمل
أنه حدث . ولكنه قد حدث . لا يمكن محوه . ماذا أقول ، وماذا أفعل ، لكي يكون حبي
عندك هو الذي ليس له مثل ولا سابقة ، كما هو بالفعل ، عندي ؟

كان يبدو له أنها على غير اقتناع ، ولن يصل أبدا إلى إقناعها . الحياة يجب أن تكون هي
الرد . صنع الحياة .

قال : كأنما حياتي ليس من صناعي . ليست لي . وبالتالي ليست لها .
قال : ليس هذا صحيحا . بالطبع ، هي على حق . حياتي هي ما أصنعه ، طبعا ، هذا
لا يحتاج إلى كلام .
قال : ولا هذا أيضا . هذا أيضا غير صحيح . هناك - فقط - شيء غير ملتئم ، لن
يلتئم . وهي تعرف ذلك .

قالت له : في كل مرة أنا التي أناديك ، بالفعل . ولست أنت الذي تناديني . كنت تقول لي « ياساحرة » لماذا لم تعد تقوها ؟ كنت أنا التي أغويك ، أليس كذلك ؟ في المرة الأولى كنت أنا التي بكيت ، وأنا أطلبك ، لا تنس . وفي المرة الثانية ذهبت إليك ، في ندوة مينا هاوس ، ووقفت على الباب أنتظر ، وبعد ذلك ظللت أناديك وأنت ترفض الرد ، وكانت دموع الفرحة هي التي لقيتك بها ، في أول مرة أفتح لك باب بيتنا ، أليس كذلك ؟

قال لها : ندائي من غير صوت . ملح ولا يتوقف . الطلب الضارب في العمق الغائر مني ، من غير أن أتكلم ، هذا هو الأول ، هذا هو الأخير . هذا هو الذي يستدعي ، وكأنه يحتم ، الإجابة . ندائي وجدك ، بل طلبى أوجدك ، ووجدى بك هو وجودك ، بمعنى من المعاني .

قالت : بمعنى من المعاني ، يمكن .

قال : لم أعيش من غيرك ، ولا أعيش من غيرك ، لحظة . هذا فعلك بي ، أردت منهلك بالصدى والهيام فتردّيني إليك ، اضطراراً واختياراً ، في وقت معاً .

قالت بعفوية ، مندفعة ، كأنما من غير أن تنتبه : يانور عيني أنا |

كانت الشمس قد أوشكت على المغيب ، تنزل نحو الأفق الصحراوي البعيد ، وتزداد احمراراً في كل لحظة ، ولكنه كان يعرف أن أمامه على الأقل ساعتان من نور النهار ، وأن أنوار الموقع سوف تضاء بعد ذلك ، من المولد الكهربائي الخاص حتى العاشرة مساءً . كان عنده وقت كاف . كان قد ابتعد قليلاً عن أطلال مارينو پوليس القديمة ، ترك عمّ محمد يوجه آخر أعمال الترميم ، فقد كان للرجل من الخبرة ما لعله لا يقل عن خبرته .

كان ثم شيء ما يدعو إلى أن يوغل وحده في الصحراء في اتجاه الغرب . وكأنما يحس اضطراباً غامضاً لا بد له أن يرمي به على صفحة الرمل المتوجة ، اللدنة قليلاً ، لا تنهار حباتها بسهولة تحت قدميه وليست صلبة مع ذلك تحت حذائه القماش الطري . وكان يقع وهو يمشي

في جُزْرِ من الحصى الصغير بين موجات الرمل الناعمة ، ويقرّع الحصى ، بأشكاله المتعددة تحت قدميه ، ثم تنقطع فلا يعود يحس تحت حذائه إلا طراوة الرمل الأبيض المريح . وقد ابتعدت أصوات الموقع تماما ، وهبَّ به صمت الصحراء بهوائه الذي لا مثيل لنقائه وجفافه المنعش في الغروب ، وقد هانت الشمس جداً وأحسها عذبة الوقع على وجهه وصدره تحت القميص المفتوح .

ظهرت له على البُعد صخور الحجر الجيري المنخفضة المتراوحة الارتفاع ، وفيها مغارات منقورة في صلب الجبل ، تنفذ إليها آخر أشعة الغروب ، وأحسها عامرة .

وكان قد صعد الآن على مدقات رملية طبيعية تتسع حيناً وتضيق ، وتتعرج ، بين الارتفاعات القليلة في التلال الحجرية ، وكانت الصحراء تحته ، فجأة ، حية ، وعلى ما يرى من فراغها وصمتها ، مليئة بل غاصة بالمتعبدين القدامى ، مازلوا في فجر كنيستهم ، هارين بإيمانهم إلى الله ، ليسوا مجرد ظلال دارة على صفحة مطوية من السنكسار ، وإنما كان يحس صلواتهم وتهجدهم ووحدهم وخشونة قداستهم من أجل المسيح ، كل منهم في قلايته الخفية ، غير مرئيين ولكنهم هناك . وكأنه يرى ، من فوق ، جموع شياطين صغيرة تتواهب وتتزاحم ، وتتفرق حول فوهات المغاور الآمنة بحجة الرب ، تتخايل له ، أو لا تكاد ، بأذنانها الطويلة كأذنان الفيران وقرونها الصغيرة النابتة على رؤوس حلقة ، ووجوهها المسوحة بضحك داعر صامت ثابت القسمات ، والنيران الضيقة تومض وتنطفئ في عيونها الغائرة ، ثم تختفي ، لها قوام مرئي يتشكل كاللدخان ، وتُصب له حدود مهتزة ، وواضحة ، ثم تذوب ، نور الغروب الأخير يحوه فلا يعود شيء إلا حضورها الذي لم يتلاش حتى ولو كان نور الشمس قد اخترقه وأجلاه .

كانت تسير معه ، إلى جانبه ، تصعد على الرمل الهين ، لم تتكلم ولكنه كان أنيساً بها ، كأنه يعرفها من زمن لا أول له ، وقلبه مرتاح ، لم تكن من الشيطان بل كان يعرف أنها قديسة ، ومن جمال وجهها المدور المشع الذي صوحته الشمس تعرف أخيراً على اسمها ، مارية الاسكندرانية ، غانية راقودة القديمة ، تنزل معه على الصخور الآن ، مازالت تقضي أعوامها السبعة عشرة في الصحراء ، مارية المصرية ، الأولى والأخيرة ، تركت مجد الجسد البائد إلى مجد الجسد الحى ، وقد أخلصت نفسها للنقاء ، الإلهة القديمة التي نزلت إلى الأرض لتأخذ على

عاتقها كل خطايا كل البغايا عابدات. القمر والزهرة والعزى ، كل الشائعات ، كل المضروبوات وكل المساخيط من بنات جنسها . قال لها : العالم يرجعنى ، ليل نهار ، بالأحجار ، فلا تحصينى أنتِ بوردة . ألم تعرفي ؟ أن خفتها ، وغضوضتها ، ونعومتها لها وقع الزلزال ؟ كانت قد هجرت مدينة الأعمدة الرخامية البيضاء الملطخة بدماء الأبرار وخرم الفُجَّار الرديئة ، مدينة الحدائق اللِّفاء أشجارها متدلية بثمار الخطيئة الكثيفة العصير ، وجياد المركبات الفارهة الصاهلة على رخام الطرق الملوكية ، ولكنها كانت تحملها كلها ، خمر المدينة وثمارها ، عواميدها وخيولها ، في جسدها المشتعل بشمس الصحراء ، ومازال في حنايا هذا الجسم المعذب ، في البرية ، عارياً ، صوّحته الصحراء وشهرة القداسة ، لا يغطيه إلا شعرها الطويل الذي انسدل عليه يكسوه تماماً حتى أطراف قدميها الحافيتين ، ما زال فيه تَزَاحم العشاق البائدين ، أذرعهم وسيقانهم تحتضنها في نشوات الشبق الذي اندثر ، ما زال فيه رجع موسيقى الهارپِّ والصناجات والجيتار ، تحت كساء شعرها — ثوبها الوحيد السابغ من أمام ومن خلف ، محتشداً بأنوثة غضيرة محبوسة في ذاتها ، موهوبة لمعمودية جديدة ، وكان يحبها ، وكانت تنظر إليه وكأنها لا تراه ، ولكنها تعرفه ، أوجعته نظرُها ولكنه وجد أنه يستطيع أن يحتمل .

قال : أريد نظرتك إلى باقية ، فيما وراء الجسد ، فيما وراء الموت القريب ، وعيناي ، أريدهما دائماً معلقتين بك ، بكل ما فيهما من وجد وعشق لا موت له . وليس لنا موت ، كلانا ، هذا ما أريد . هذه النظرة ، كاصطدام صلب مائل ، وكلها حنان ، أريدها ، أريدها أن تظل بعد الموت ، إلى ما وراء الموت .

وكانت الأعشاب الصحراوية النادرة قد نبتت بين غدائر شعرها الطويل المُهتَدَل ، عبر السنوات الطوال في البرية ، وكانت الأعشاب يانعة وغضة العود ، وفيها زهور دقيقة النسيج مخملية ، صفراء وثيرة اللون ، وحمراء شاهقة الحمرة في تدويرها المنمنم الصغير ، تختلط بجداول الشعر العميقة السوداء ، في خشونته لدونة أثيثة ، ومهما لوحتته شمس الوحدة الطويلة فقد كان يحس هذا الشوك المنسدل الغزير الوحي ، لئن الملمس ، ولا يمكن أن يمسه .

المصلوبة الحية تسير بجانبه ، تنزل من على الصخور ، حافية ، ويحملها ، هو ، بكل ما يُثقلها ، في داخله ، وتخطوه معها لا وقع له ولا ثقل . وبين ذراعيها ثلاثة أرغفة من الخبز . هى كل زادها . ويوماً بعد يوم ، بعد إغفاءة أول الفجر ، حين تُجهدُها الصلاة ويُنهكها التسبيح ،

كانت تفتح عينيها الساطعتين بخضرة الملكوت ، فتجد على باب قلايتها المنقورة في الصحر ،
ثلاثة أرغفة . كل يوم . من أين تأتيها الأرغفة في يأس الصحراء الشاسعة الخاوية ؟ وهل كانت
ترى ، كل يوم ، ملائكة الله الثلاثة ؟

ولما جاء آخر نور النهار ، أحس بها تتركه ، وتنزل إلى ظل أسور الصخر الحجري المُصفرّ
الذي أخذت صبغته الحمراء البنفسجية ساقطةً عليه من الغروب تدكن الى قتامة تدريجية
الإظلام . وعلى باب مغارتها ، كانت اللبوة ترقد على جنبها ، جسيمة ، وهادئة ، بطنها يصعد
ويهبط بأنفاسها المليئة . ونامت القديمة في حضن اللبوة ، ورضعت من ثديها .

قال : دخلت مارية العذارى إلى الهيكل المقدس وهي بنت ثلاث سنوات . متى دخلت ،
أنت مارية الأخيرة ، هيكل الجسد ؟ مع رغيفك الثالث ؟ الذي أحرقت الشمس الحانية
القاسية ؟

ماريا ، ماريا ، يارؤوم ، يامن سقيت لبن الأجماد جميعا ، مرارة انهمار حبك المدرار مريئة
وسائغة السلسال ، هي المن والسلوى . أنت امرأة المرأتين ، الساطعة والسوداء ، كليهما .

كانت أنوار الموقع تومض له ، من بعيد . ولم يكن يريد الرجوع .

قال : كل المقاربات ، كل المقارنات ، خاطئة ، وغير حقيقية ، أما أنت فتظلين أنت .
فريدة وغير متكررة . وليس مثلك شيء ولا أحد .

قال : مهما حدث ، ومهما يحدث ، أريدك أن تعرفي ، أنت ، مرة واحدة وأخيرة ، أنني
أحبك . وأن حبك قائم مائل لا يريم ، وجياش عارم ومضطرم ، لا يهدم ، ولا تناله سنة ولا
شحوب . أكرر هذا ، المرة بعد المرة ، لأنني أريدك أن تضعيه في مكان ما ، ومكانة ما ، ولا
أريد أن أحدد مكانه ، ولا مكانته ، في نفسك . كأنني مدفوع إلى الشهادة ، أو بحس من
الإثم . لماذا الإثم ؟ وكأنني أريدك أن تطهريني من هذا الإثم الذي يلازمي ؟ طبيعياً ، ربما ، أنه
مطر كثيف ثقيل تحمله سحابات من الطفولة القائمة . لهذا ، فأنت ، في حبي ، لست أما ،

ولابديلة عنها . ولهذا ، فإنك عندما قلت لي مرة « أحببك كما أحب بنتي نفسها ، تقريبا » شعبنى القلق الذي ما يزال مرادا ، وإن كنت أظن إنك لم تقصدي نوع الحب ، بل تقصدين قيمته وعمقه . بهذا الحب الذي عندي لك يشتعل نسيج نفسي كما اشتعلت بالنار الشجرة العتيقة على الجبل . هذا كل ما أردتك أن تعرفي . قلت لي مرة « فلنسلم ، بأننا قد لا نلتقي أبدا . لا ، دون غضب ، ودون عاطفية ، فلنسلم بأن هذا ممكن ، وقد يحدث ، ووارد » ، حتى عندئذ ، وخاصة عندئذ ، فهذا ما أردتك أن تعرفيه .

وقال : معك أنت وحدك ، في الحب ، عرفت ما الحرية ، والترصف ، والندية ، والتكامل الكمال . لست معك ابناً ، ولا أبا . لم أكن طفلاً يريد سلافة الثدي الأموي ، ولا رباً يمتنع عطية الخلق ، ولا مجرد ذكر شقى بجسمه يريد أن يتخفف من لأوائه الحسية التي لا صلة له برفيقته ، بل كنت معك عاشقاً ، عاشقاً مع عاشقة ، الحب واحد ، وأكثر من واحد ، معاً ، على أرض واحدة سوية المهاد وغضة بالعشب والحشيش ، أكلنا معاً من ثمرة المعرفة ، لكنها لم تكن محرقة ولا مرة العقابيل ، وبقينا ، وكان لنا الحق أن نبقي ، مع الآلهة الغاضبين ، أنداداً ورضفاء ، في عذن المفتوحة الأبواب إلى مالا نهاية ، ليس هناك سقوط ، ولم نكن بحاجة إلى ورقة التين لأنه لم تكن لنا سوءة بل مجد . وهذه اللحظة الخاطفة ، ليس فيها زمن ، تحدث فريدة كل مرة ، لا تتكرر ، هي الباقية ، هي الأبد ، هي المطلق . وعن يمين وعن يسار هناك النقص ، والبحث ، والعنى ، والاستحالة ، والجفاف ، والذبول ، حولنا ، ولا يمسننا . نور المعرفة الحب في الأول وفي الآخر ، ساطعا ، يذيب شائبة الزمن .

قال : التأليه هو أيضا التجريد من الإنساني . ما الخلود ، في ومضة التحقق الخاطفة ؟

قال : هي واحدة ، اللحظة الأبد ، الجسدي والإلهي ، بلا انفصال .

وسأل نفسه : أهي تخشى ، حقا ، هذا الذي يسميه المطلق في حبه ، هذا الذي يسميه أنه بلا حد ولا شرط ؟ تخشاه لأنه عندئذ إما شيء غير حقيقي ، بالمره ، عندها . أو شيء مهتد ومروغ بتطلباته التي لا تطاق ولا يمكن أن تتحقق ، تطلباته منها ، ومنه ، مستحيله ، وبالتالي فهو أيضا ، مرة أخرى ، شيء غير حقيقي . شيء - كما قالت - آخر ؟ أم ، ببساطة ، لأنها تعرف أنه يجبه بأكثر مما تريد ، بأكثر مما تحتمل ، حتى لو كانت هي - كما قالت له يوماً ما ،

دون كلل - تحبه أكثر .. وأكثر .. ؟ هل ذلك لأنها واقعية ، صاحبة ، أم لأن صدقها من نوع آخر يختلف عن صدقه ؟ هل الحلم ، وشعر الحلم الخاص ، هنا ، مُدان ، ولا ضرورة ولا محل له ؟

قال : أريد أن ابتسم من هذا كله . ولا أستطيع - تماماً - أن أبتسم منه .

وعلى الرغم من دغلة الغضب المتوغلة في مغاوري وعلى الرغم من غابة الغيلان المراوغة فإن غنة غوايتك لا تغادرني مغممة بأغنيات غامضة المغزى ، غوائل الغلة قد غدت أضغاث لغو غابر ، وغاشية غبش الغمر قد غابت في غضون غرارة لها نعمات المِلاغة ، بغي طعمة مغانك يُغللني ، غرامي فيك غلواءً وطُفيانُ غريمٍ ليس غريباً ولا يغيب عني بل مُوغِلٌ في أغوازي .

أصغرو إلى غنج أغاريدك الغزلة وإلى دغدغة العيّد في غلالتك ، أفعمُّ ثغرك الرغد ، وفي مُناغاثك عُفرانٌ لكل التزغات والمغامز ، برّغ الغراس المغرورق في غيطابي ، غاضت الغيامات وغار الغي وتغضن العضا ، في غمضي غدائرُك المُعدّودة على غيظتك الغناء غصوناً غضيرةً سابعةً على غضوضيّة الرذغة الغميّة ألغ فيها وأوغل في غسق العُلمة ، العَدقُ يغمري فأغص برغرعة الغطاس في الغدير الفضّ العَمرات ، وهأنذا غائبٌ في المشول ، ومائلٌ في الغياب .

عندما خرج من عندها في آخر ليلة ، كان في حسه إنهاك عميق لم يكده يعرفه قط من قبل . كان الحوش الصغير المعتم خاويًا ، وفكر أن نبوية لا بد نائمة في غرفتها الصغيرة وراء الباب ، مع أولادها ، ربما مع زوجها . وهل تعيش مع زوج ؟ وفكر أنه لا يعرف عنها شيئاً .

وعندما ردّ الباب الخارجي الكثيف الثقل وراءه ، ومر من تحت الجميزة الليلية المليئة بحضور رازح ، فكر أنه ربما قد انقضت أعظم وأجمل خيالاته . وقال إنها لم تكن خيالات . ومرت فجأة من جنبه ، في الليل ، قطعة طويلة الجسم ، سوداء ، تمد عنقها إلى الأمام وتجري بسيقان صامته تماماً ، ومرقت من بين أجسام السيارات الواقفة أمام الحيطان العريقة ، واختفت وراء كومة من التراب وأنقاض أحجارٍ ناتئة ، تبدو صلبة وعنيدة تحت نور عمود الشارع .

وصلتُ إلى الكورنيش ، جئت إليه من الشارع الضيق المنحدر ، تحته ، من ناحية ، ربوة زيزينيا العالية بسورها الحجري الضخم الحائل الأصفرار ، وبيوت صغيرة منخفضة من

الناحية الأخرى ، شبائيكها مقفلة وصدئة اللون ، وكانت هناك سيارات قليلة تجري بسرعة كأنها تهرب ، على أسفلت الكورنيش العريض الذي يدور وينحني تحت البنايات الشاهقة الخاوية . وعندما نزلت السلالم الحجرية القديمة إلى الرمل المبلول ، كانت كتل الاسمنت الرمادية المفتتة الجوانب عليها طبقة من الطحلب الأخضر اللين ، يترقرق بينها ماء صافٍ فيه قواقع بيضاء دقيقة هشة . البحر أمواج عالية داكنة تصعد وتهبط ، عريضة ، رصاصية ، ثقيلة بالماء ، ليس فيها نقطة زبد واحدة ، ليس فيها رغوة بيضاء ، وصامتة . وكانت السماء ، من غير شمس ، منيرة بضوء مشاع هاديء ، وفسيح ، من غير برد ، ومن غير هواء ، وكنت أنظر ، وأنا في داخل البحر ، إلى الشاطئ الذي يبدو بعيدا جدا ، لكنني أراه بوضوح قاطع كأنما من خلال عدسة مقرية ناصعة ، والأمواج تذهب ، من عندي ، من حيث أقف ، إلى الشاطئ ، واحدة بعد الأخرى ، ولا تعود ، تذهب فقط ، بنفس القوة ونفس الارتفاع ونفس الاتساع العريض ، ليس لها آخر ، تغطي الشاطئ البعيد القريب ، تحت سور حجري لا تظهر من ورائه إلا السماء الرمادية الخافتة اللون . لا أعرف ، ولكنني أعرف أيضا بغموض ، أين ينتهي حد الشاطئ الفارق تحت الأمواج ، وأين العمق الذي لا قرار له ، وأنا واقف في البحر ، قدماى فقط مغمورتان بالماء . وأمامي ، في متناول يدي ، في وسط الموج ، جذع شجرة ، عريض وحى ودافء الخشب ، وليس له فروع وليس عليه ورق ، الجذع المدور العضلات فقط ، قائم وراسخ الجذور في الصخر التحتي في الماء ، تنساب حوله الأمواج الكبيرة المتحدرة القائمة الزرقة ، بسبب وامتلاء ، دون أن تترك حوله زبداً ولا دوامات ، كأنه لا يوجد ، وكانت على طرفه نورس كأنها بجمعة ، بيضاء ، مكشزة الجناحين ، غضة الريش ، أنثوية ، لها منقار طويل وحاد ومطبق ، تنظر إليّ وفي عينيها تأمل ، تعرفني ، وتنتظرنني ، أمدّ يدي نحو الجذع ، وأنا واقف ، ثابت القدمين ، في الماء الثقيل ، أريد أن أمسكه ، أن أتعلق به ، لا يكف نزوعي ولا لهفتي ، ويداي لا تصلان إليه .

وكان الموج ، يرتفع من حولي ، بالتدرج ، يرتفع ثابتاً وهادئاً ، يصعد إليّ ، دون قلق ، كأنني أريده .

الرواية

٥	دم العشق مباح	الباب الأول
٢٩	الخومان حول الدائرة	الباب الثاني
٥٩	أضغاث الورد القديم	الباب الثالث
٨١	وحدانيّة القلب	الباب الرابع
١٠٥	السقوط في قدس الأقداس	الباب الخامس
١٢٧	شمس العيون الدفينة	الباب السادس
١٥١	ظل الشمس المستحيل	الباب السابع
١٧٩	المنار الخفيّ على الطريق	الباب الثامن
٢٠٣	الأبواب المفتوحة على العراء	الباب التاسع
٢٢٩	وجه الحنان الصارم	الباب العاشر
٢٥٣	ورقة اللوتس المحبوسة	الباب الحادي عشر
٢٨٣	أشواق الصبار الوحشية فات أوانها	الباب الثاني عشر
٣١١	ملح البهجة الأبيض	الباب الثالث عشر
٣٤١	الخبز المحروق	الباب الرابع عشر

للمؤلف

أ - قصص

- ١ - حيطان عالية ، قصص ، على نفقة المؤلف ، القاهرة ١٩٥٩ (نقد)
- ٢ - ساعات الكبرياء ، قصص ، دار الآداب ، بيروت ١٩٧٢ (نقد)
- ٣ - راية والتنين ، ررية - طبعة محدودة ، القاهرة ١٩٧٩ (نقد)
- المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠
- ٤ - القصة القصيرة في السبعينيات
دراسة ومختارات ، مطبوعات القاهرة ، القاهرة ١٩٨٣
- ٥ - اختناقات العشق والصباح ، قصص ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ١٩٨٣
- ٦ - محطة السكة الحديد ، رواية ، مختارات فصول ، القاهرة ، ١٩٨٥
- ٧ - تراها زعفران ، نصوص اسكندرانية ، قصص (تحت الطبع)
- ٨ - أضلاع الصحراء ، رواية (تحت الطبع)

ب - ترجمة

- ١ - الخطاب المفقود ، إ . ل . كاراجيالي ، مسرحية ، الدار المصرية للكتب
القاهرة ١٩٥٧ (نقد) [المسرح القومي]
- ٢ - الحرب والسلام ج ١ و ٢ ، تولستوى ، رواية ، الدار المصرية للكتب
القاهرة ١٩٥٨ (نقد)
- ٣ - الغجرية والفارس ، قصص رومانية ، الشركة العربية للطباعة والنشر ،
القاهرة ١٩٥٨ (نقد)
- ٤ - شهر العسل المر ، قصص إيطالية ، كتب ثقافية ، القاهرة ١٩٥٩ (نقد)
- ٥ - فارالاكو ، إميل سيسيه ، رواية غينية ، الألف كتاب ، القاهرة ١٩٦٢ (نقد)
- ٦ - أنتيجون ، جان أنوي ، مسرحية ، الألف كتاب ، القاهرة ١٩٦٣ (نقد)
(بالاشتراك مع ألفريد فرج) [المسرح القومي]
- ٧ - مشروع الحياة - سيمون دي بوقوار ، فرانسيس چاسون ، دراسة ،
دار الآداب ، بيروت ١٩٦٧
- ٨ - ميديا ، جان أنوي ، مسرحية ، مجلة المسرح ، القاهرة ١٩٦٨ [المسرح القومي]

- ٩ — الوجة الآخر لأمريكا ، ميكائيل هارنجتون ، دراسة ، دار الآداب ، بيروت ١٩٦٨
 ١٠ — تشرح جثة الاستعمار ، جي دي بوشير ، دراسة ، دار الآداب ، بيروت ١٩٦٨
 ١١ — الشوارع العارية ، فاسكو پراتوليني ، رواية ، دار الآداب ، بيروت ١٩٦٩
 ١٢ — نحو التحرر ، هربت ماركوز ، دراسة ، دار الآداب ، بيروت ١٩٧٢
 ١٣ — حوريات البحر ، قصص أمريكية ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٧٩

ج — مسرحيات في البرنامج الثاني للاذاعة

- | | |
|------------------------|-------------------------------|
| ١ — النورس | انطون تشيكوف |
| ٢ — سوء التفاهم | البير كامى |
| ٣ — الحصار | البير كامى [المسرح الجامعي] |
| ٤ — المجانين | البير كامى |
| ٥ — مسافر بلا متاع | چان آنوي |
| ٦ — بيكيت | چان آنوي |
| ٧ — عنقاء كثيرة الظهور | كريستوفر فراى |
| ٨ — سوناتا الشبح | اوجست سترندبرج |
| ٩ — انتهت الحرب | ماكس فريش |
| ١٠ — السلام | ارستوفانيس |

دار شهدي للنشر

رقم الايداع ٣٧٢٤ / ١٩٨٥

وجه آخر لرواية الكاتب الأولى « رامة والتين » متوازنة وممتدة .
تجربة فريدة ، حبّ شبقى صوفى متوهج يسعى إلى الكمال المستحيل .
اللغة — بيت العالم — ثرية بمستوياتها الشعرية والعضوية والعقلية .
الفنّ الحق يطرح أسئلة لا تستنفد : ماهو الحب ؟ ماهى المعرفة ؟
ماهو العدل ؟ هل هى ممكنة ؟ وكيف ؟ هل المرأة ، فى ذروة تحقّقها ،
فوق الزمن ؟ وهل تصبح التجربة الجسدية وجدأ ، وخلودأ ، وجوهراً
الحقيقة ؟ وهل القتل طريق للعدالة ؟
الواقع الأرضى ، اليومى ، مضمور بالأساطير الفرعونية ، واليونانية ،
وصياغة الروح القبطية بعبقرية العربية الناصعة .
رواية وعى متميز بقضايا مصرية ، اجتماعية ، وفكرية ، طبقات التراث
المكنون وطبقات الجسد الجريح المنتصر ، مصر المعاصرة والأزلية ،
المقهورة والمتحدية التى تتجاوز الزمن .

ادوار الخراط

الزمن الآخر

الشمس : ٤٠٠ قرشاً

دار شهدي للنشر والتوزيع

١٦ شارع أسماعيل محمد — الزمالك — القاهرة

ت : ٤٠٢٨٣٦

